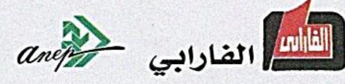
حائزة على
جائزة المتوسط

أمين معلوف

بدايات







علي مولا

بدايات

AMIN MAALOUF

ORIGINES

BERNARD GRASSET
PARIS 2004

أمين معلوف

بدايات

ترجمة: نهلة بيضون

ANEP ــ دار الفارابي

الكتاب: بدايات
المؤلف: أمين معلوف
الترجمة: نهلة بيضون
الغلاف: فارس غصوب
الناشر: * **دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان**
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: farabi@inco.com.lb
* **المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار (ANEP)**
28 طريق أحمد واكد، دالي ابراهيم، الجزائر
الهاتف: 53/ 52 38 37 21 213
الفاكس: 53/ 20 72 36 21 213
e-mail: dcpa@anep.com.dz
الطبعة الأولى 2004
ISBN: 9953-438-94-3 ـ لبنان
ISBN: 9947-21-108-8 ـ الجزائر
Dépôt - légal: 1462-2004

دار الفارابي
شركة المطبوعات اللبنانية ـ لبنان

منشورات ANEP
05 شارع الخزناجي
الأبيار ـ الجزائر
الهاتف: 76 09 92 21 213
الفاكس: 77 09 92 21 213
e-mail: anep-edition@wissal.dz

ISBN 2 246 63441 5

المحتويات

لم تكن هذه الترجمة لتبصر النور بشكلها الحالي لولا التعاون المثمر مع المؤلف الذي زوَّدنا بالوثائق الأصلية (باللغة العربية) للفقرات الواردة في الكتاب بالخط المائل، حرصاً على أمانة الترجمة وأصالتها.

ترد هذه الاقتباسات بعفويتها وبساطتها حيناً، وبشاعريتها وبلاغتها حيناً آخر، لتحمل للقارىء عبق زمن غابر يمتدُّ من أواخر القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين.

على مدى جلسات ثلاث في باريس، استقينا من أمين معلوف كل تلك التفاصيل الصغيرة حول عنوان الكتاب الذي جرى التوافق عليه من بين خيارات عديدة، بالإضافة إلى الأسماء والأماكن والأشخاص، تلك التفاصيل التي أتاحت لنا الإحاطة بحميمية النص والنفاذ إلى أعماقه، وعزّزت ذلك التواصل الضروري بين الأصل والترجمة ليأتي النص المترجم تعبيراً صادقاً وأميناً عن روح النص الأصلي.

(المترجمة)

إلى جدتي نظيرة

إلى كمال وشارل أبو شعر

وإلى ذكرى لوريس صادر أبو شديد



غيري قد يتحدث عن "الجذور"... تلك ليست مفرداتي، فأنا لا أحب كلمة "جذور"، وأقله صورتها. فالجذور تتوارى في التربة، تتلوى في الوحل، تنمو في الظلمات؛ تبقي الشجرة أسيرة، منذ ولادتها، وتغذيها لقاء ابتزاز: "لو تحرَّرتِ، تموتين!".

ترضخ الأشجار لأنها بحاجة إلى جذورها بعكس البشر. إننا نتنفس النور، ونطمع بالسماء، ومتى غصنا في التربة، فلنتعفَّن. لا يصعد نسغ الأرض عبر أقدامنا إلى رأسنا، وأقدامنا إنما تصلح للسير. لا تهمنا سوى الدروب. هي تسيِّرنا - من الفقر إلى الغنى، أو إلى فقر آخر، من العبودية إلى الحرية أو إلى الموت العنيف. تعدنا، تحملنا، تقذفنا، ثم تتخلى عنا. فننفقُ، كما ولدنا، على حافة طريق لم نخترها أصلاً.

خلافاً للأشجار، لا تنبثق الدروب من التربة على هوى البذار. مثلنا، لها أصل. أصل وهمي، فالطريق ليست لها بداية حقاً ؛ قبل المنعطف الأول، هناك في الخلف، ثمة منعطف آخر، ثم آخر. أصلٌ هارب لأن كل تقاطع انضمت إليه دروب أخرى

آتية من بدايات أخرى. ولو تطلب الأمر أن نحتسب كل هذه الروافد، لدرنا حول الأرض مائة مرة!

متى تعلق الأمر بأهلي، لا بد من القيام بذلك! فأنا أنتمي إلى عشيرة ترتحل منذ الأزل في صحراء بحجم الكون. مواطننا واحاتٌ نفارقها متى جفَّ الينبوع، وبيوتنا خيامٌ من حجارة، وجنسياتنا مسألة تواريخ أو سفن. كل ما يصل بيننا، وراء الأجيال، ووراء البحار، ووراء بابل اللغات، رنين اسم.

اسم بمثابة وطن؟ أجل، تلك هي الحال! وإخلاص أزلي بمثابة إيمان!

ما شعرت في حياتي قط بانتماء ديني حقيقي - أو ربما بانتماءات، لا يتصالح أحدها مع الآخر؛ ولم أحسَّ يوماً بانتساب كامل إلى أمة من الأمم - والحق يقال إنه ليس لديَّ، في هذه الحالة أيضاً، سوى أمة واحدة. وبالمقابل، أتماهى بسهولة مع مغامرة أسرتي الكبيرة، تحت كل السماوات. مع المغامرة، وكذلك الأساطير. على غرار الإغريق، هويتي تستند إلى أسطورة من أساطير الميثولوجيا -، أعلم أنها زائفة ولكني أجلُّها وكأنها تختزن الحقيقة.

عجباً لأنني لم أكرِّس قبل اليوم أكثر من فقرات قليلة للحديث عن مسار أهلي! ولكن هذا الصمت في الحقيقة جزء من إرثي أيضاً...

تلمُّسات

1

أولاً، بدأ بحثي بداية خاطئة: ذلك المشهد الذي عشته في سن الثلاثين، وكان لا يفترض بي أن أعيشه أبداً ولا أن يعيشه أيٌّ من أبطال الرواية أصلاً. كلما اعتزمت الحديث عنه، أفلحت في إقناع نفسي بأن الوقت لم يحن بعد.

وبالطبع، حان الوقت، لا بل تأخر.

كان يوم أحد، في الصيف، بإحدى قرى الجبل. توفي والدي قبيل الفجر وعهد إليَّ بأفظع المهام على الإطلاق: الذهاب إلى بيت جدتي والإمساك بيدها لحظة يعلنون لها أنها فقدت أحد أبنائها.

كان والدي ثاني أولادها، واتفق الجميع أن يتصل بها ابنها البكر هاتفياً ويعلمها بالنبأ. تبدو الأمور طبيعية إذا قيلت على هذا النحو. ولكن طبيعية الأمور في أسرتي مجرد مظاهر. فذلك العم مثلاً الذي بلغ من العمر السابعة والسبعين، رأيته مرة واحدة في حياتي قبل ذلك الصيف...

وصلت إذن في الصباح، وعانقتني جدتي طويلاً كعادتها. ثم طرحت عليَّ، بالضرورة، السؤال الذي كنت أخشاه أكثر ما أخشى:

ـ كيف أبوك اليوم؟
كان جوابي جاهزاً، وقد تمرَّنت على قوله طوال السكة:
ـ أتيت مباشرة من البيت، ولم أمر بالمستشفى. . .
كانت تلك الحقيقة بعينها، وكانت تلك أحقر الأكاذيب.

بعد بضع دقائق، رنَّ الهاتف. عادة، كنت أستعجل لرفع السماعة لئلا تضطر جدتي للنهوض. أما في ذلك اليوم فاكتفيت بسؤالها إن كانت تفضل أن أجيب بالنيابة عنها.
ـ لو تقرِّب لي الهاتف. . .
فعلت، ورفعت السماعة لأناولها إياها.
لم أسمع بالطبع ما يقوله مخاطبها، ولكنني لن أنسى أول جملة تفوهت بها جدتي:
ـ أجل، أنا جالسة.
كان عمي يخشى أن تكون واقفة، فتتهاوى تحت وقع النبأ الذي يهمُّ بإعلانه على مسمعها.
وأذكر كذلك نظرتها وهي تجيب: " أجل، أنا جالسة ". كانت نظرة محكوم بالإعدام يلمح، بعيداً، شكل المشنقة. ولدى التفكير بالأمر لاحقاً، قلت لنفسي إنها هي، بالتأكيد، التي أوصت أولادها أن يتأكدوا من جلوس الشخص قبل إعلامه بفاجعة ؛ ولما طرح عليها ابنها السؤال، أدركت هي أن الفاجعة قد حصلت.
فبكينا، أنا وهي، وقد جلس أحدنا قرب الآخر، وتعانقت أيدينا لدقائق طويلة.
ثم قالت لي:
ـ ظننتهم سيخبرونني أن أباك قد استفاق.

ـ لا ، فلحظة سقط أرضاً، انتهى كل شيء.

كان والدي قد تهاوى على الطريق العام، قرب سيارته، قبل عشرة أيام. وسمعه الشخص الذي كان برفقته يتأوه متعجباً فقط. سقط مغشياً. وبعد بضع ساعات، رن الهاتف في باريس. أعلمني أحد الأقارب الذي لم يدع لي مجالاً للتفاؤل: " حالته سيئة بل متدهورة" .

ألفيت والدي، بعد وصولي على متن أول طائرة، في غيبوبة. كان يبدو غافياً قرير العين، يتنفس ويحرك أحياناً يده، فيصعب على المرء أن يتخيل بأنه قد فارق الحياة. توسلت إلى الأطباء أن يفحصوا الدماغ مرة ثانية، وثالثة، بدون جدوى. فتخطيط الدماغ كان مسطحاً لأن النزيف كان قاتلاً. وسلَّمتُ بما جرى. . .

تمتمت جدتي التي لم يجرؤ أحدهم حتى الحين على إعلامها بالحقيقة: - كان لديَّ بعض الأمل.

وسرعان ما غرقنا في الصمت، ملاذنا. لا يتكلم أهلي كثيراً، ولو تكلموا، فببطء، وبحرص دائم على التحفظ، واللباقة، والمهابة. وهذا مزعج أحياناً للآخرين، أما هذه العادة فقد تجذَّرت لدينا منذ عهد بعيد، وسوف نظل نتوارثها.

إلا أن أيدينا ظلت متلاحمة. ولم تفلتني إلا لنزع نظاراتها، وتنظيفها بثنية ثوبها. انتفضت وهي تهمُّ بوضعها ثانية:

ـ أي يوم نحن؟

ـ 17 آب/أوت.

ـ جدك أيضاً توفي في 17 آب/أوت!

قطبت جبينها تقطيبةً كنت ألمحها على وجهها في بعض

الأحيان. ثم بدا عليها أنها عادت من حالة التمرد إلى حالة الإذعان، ولاذت بالصمت. احتضنت يدها في يدي ثانية، وشددت عليها بدون أن أنبس ببنت شفة بدوري. ولئن كان الحزن نفسه يعتمل في قلبنا، فذهننا لا يحتوي على الصور عينها.

لم أفكر كثيراً بجدي في ذلك اليوم، ولا بالتأكيد في الأيام القادمة. كان في ذهني أبي، بوجهه العريض، ويديه الشبيهتين بيدي فنان، وصوته الهادىء، ولبنانُه، وأحزانه، ثم الفراش الأخير الذي غرق فيه في سبات عميق... كان رحيله عندي، وعند أهلي، بمثابة كارثة عاطفية، وكونه " تواعد"، نوعاً ما، مع والده في تاريخ محدد، لم يشكل لدى الذين ذكرت هذا الأمر أمامهم سوى مناسبة لتأمل مقتضب وسخيف حول سخرية القدر وأحكام السماء الخفية.

هذا ما حصل، وانتهت الحكاية!

كان لا بد من تتمة لم تحصل. وكان لا بد أن أثير مع جدتي، يوماً ما، حديثاً مطولاً عن ذاك الذي كان شريك حياتها؛ ولكنها توفيت بعد خمس سنوات دون أن نعاود الحديث بالأمر. والحق يقال إننا لم نعد نعيش في البلد نفسه، فقد كنت مقيماً في فرنسا، وهي لن تغادر لبنان أبداً. إلا أنني كنت أعود لزيارتها بين الحين والآخر. وكان بوسعي أن أنتهز فرصة لسؤالها عنه. لم أفعل. وبكل صراحة، لم يخطر حتى الأمر ببالي. بكل بساطة...

كان سلوكاً غريباً لا بد أن يجد له تعليلاً في لغة النافذين إلى مكنونات النفوس، وسوف أندم عليه حتى مماتي. فأنا الذي أتميز بطبعي المنقّب، أنا الذي أقوم خمس مرات عن المائدة

للتحقق من أصل كلمة ما، أو من تهجئتها الصحيحة، أو من تاريخ مولد موسيقار تشيكي، كيف أظهرت، إزاء جدي، تلك اللامبالاة المفجعة؟

مع العلم أنني سمعت، منذ نعومة أظفاري، عن هذا الجد - واسمه بطرس - قصصاً ونوادر يفترض بها أن تثير فضولي.

لا سيما تلك الرواية: في أحد الأيام، وقع أحد أشقائه، وكان يعيش في كوبا، في محنة، فكتب لشقيقه، أي جدي، رسائل محمومة يرجوه فيها أن يهبَّ لإنقاذه. وقد وصلت رسائله الأخيرة محترقة الزوايا، دليلاً على الخطر الماحق وشدة المحنة. فتخلى جدي عن وظيفته وأبحر ؛ وتعلم الإسبانية في أربعين يوماً أمضاها على متن الباخرة ؛ فتمكن لدى وصوله إلى كوبا من المثول أمام المحاكم وانتشال شقيقه من كبوته.

هذه الرواية سمعتها منذ أبصرت النور، ولم أسع أبداً للتحقق من كونها مجرد أسطورة متبجحة كتلك الأساطير التي يحلو للعائلات أن تردِّدها ؛ أو من المآل الذي آلت إليه مغامرة أجدادي الكوبية. والآن فقط بتُّ أعلم...

قيل لي أيضاً: " كان جدك شاعراً عظيماً، ومفكراً جريئاً، وخطيباً مفوَّهاً، يأتي الناس من كل حدب وصوب للاستماع إليه. وللأسف، فقد ضاعت كل كتاباته! ". ومع ذلك، كان يكفي أن أرغب بالبحث عن تلك الكتابات! فجدي جمع كل أوراقه وقام بتأريخها، ونسخها بخط أنيق؛ وحتى آخر يوم في حياته، اهتم بنصوصه ـ، ولطالما أراد أن يطلع عليها الآخرين. ولكنه توفي ولم ينشر منها شيئاً، كما يموت بعضهم بدون أن يتركوا وصية، وظل مغموراً.

وثمة شائعة تتردد كذلك ومفادها أن بطرس لم يشأ أبداً أن يعمِّد أولاده؛ وكان لا يؤمن بالله ولا بالشيطان، ولا يجد حرجاً في قول ذلك جهاراً ؛ ويثير في القرية فضيحة دائمة... وفي هذا المجال أيضاً، لم أسع يوماً لتحري الأمر. ففي أسرتي، يحرص الجميع على التكتم حول هذه المسألة.

هل أجرؤ وأعترف أيضاً أنني أمضيت كل شبابي في لبنان، ولم أذهب مرة واحدة لزيارة ضريح جدي، وأصلاً، لم أعرف أين يوجد ضريحه، بل لم يعترني الفضول للبحث عنه.

لديَّ أسباب كثيرة للاعتراف بالذنب، وسوف أمتنع عن ذكرها - فما الفائدة؟ وأكتفي بالقول إنني كنت بقيت على الأرجح إلى الأبد سادراً في جهلي لو لم يتقاطع مسار أجدادي مع مساري، في باريس نفسها، بواسطة منعطف.

2

بعد هذه البداية الزائفة - إنما إثر انقضاء سنوات عديدة! - ثمة بداية أخرى، حقيقية. ولا يرجع الفضل فيها إليَّ، أو بالكاد. لا شك أنني أعربت، منذ رحيل والدي، عن رغبتي بمعرفة المزيد عن تلك الفصول من ماضي أسرتي ؛ ولا شك أنني طرحت على بعض الأقارب سبعة أو ثمانية أسئلة إضافية حول جدي أو أسلافي

الآخرين، إنما لم أفعل من قبيل ذلك الهوس الدؤوب الذي يجتاحني بانتظام لدى انصرافي إلى أبحاثي الحقيقية. كما لو أنني أستعيد، بمجرد أن يتعلق الأمر بأصولي، شيئاً من تلك السكينة الوراثية ومهابة الصمت العقيمة.

يعود الفضل، كل الفضل، إلى ذلك الصديق الديبلوماسي الذي سألني يوماً، في معرض حديثنا، إن كنت أمت بصلة قربى مع مسؤول كوبي يحمل شهرتي.

طلبت منه أن يكرر الاسم على مسمعي - أرنالدو؟ - لا، لا يعني لي هذا الاسم شيئاً. إلا أنني أخبرته، عرضاً، أن بعض أقاربي عاشوا فيما مضى في هافانا. كما لو أنني أخبر نفسي بذلك، في تلك اللحظة، ومن فمي.

تعرفت إلى لويس دومينغو في بيروت أوائل السبعينات؛ وكنت آنذاك صحافياً شاباً، وهو ديبلوماسي شاب في سفارة إسبانيا. ومنذ ذلك الحين، لم نقم في المدينة نفسها أبداً، ولكن صداقتنا استمرت.

كلما كان يزور باريس، نلتقي ونمضي في نزهات طويلة ثرثارة عبر الشوارع، تستمر عادة حتى مطلع الفجر، نتذكر، ونتكهن، ونعيد بناء العالم - بناء مصير لبنان تحديداً، وكذلك مصير كوبا التي عمل فيها لويس دومينغو طويلاً في السلك الديبلوماسي، وكان مستقبلها يقض مضجعه؛ ومع ذلك، لم يخطر ببالي ولو مرة واحدة أن أذكر له المغامرة الكوبية التي خاضتها أسرتي.

وكنت لن أذكر عنها شيئاً لو لم يدفعني صديقي، في تلك الأمسية، بإصرار. وأمام سيل أسئلته، بذلت جهداً لتجميع نتف

الحكايات التي تناهت إلى مسمعي خلال السنين الماضية، فاكتشفت، لدهشتي، أن ذاكرتي تعج بمسارات كاملة، إنما بصورة متعرجة.

ذكرت أولاً، بفخر واعتزاز، رحلة جدي إلى هافانا، لا سيما إنجازه اللغوي، ومرافعته الظافرة أمام محاكمها.

ـ هل كان محامياً؟

ـ كان مدرِّساً، على حد علمي، ومدير مدرسة، إنما يبدو أنه قد درس الحقوق أيضاً!

ـ وأخوه؟

ـ كان يدعى جبرايل، وهو مرادف " غبريال " عندنا. كان تاجراً جنى ثروة طائلة في كوبا، وكانت لديه فيها، على ما يبدو، طموحات سياسية عظيمة. ولكنه جلب لنفسه الخصوم والأعداء، ومات مقتولاً في ظروف غامضة.

ـ أي سنة؟

ـ حوالى عام 1900، أو في العشرينات، لست متأكداً...

ـ لا بد أن لديه أولاداً في كوبا، أو أحفاداً...

فاضطررت للإقرار، بهذا الصدد كذلك، أنني لا أعلم شيئاً على الإطلاق.

لاحقاً، خلال السهرة، تذكرت أسطورة من الأساطير التي تتناقلها أسرتي، كدت أرويها للويس دومينغو قبل أن أحجم. خشيت ألا يصدِّقها صديقي، أو يظهر بعض الازدراء لو شكَّ بأنني أصدِّقها. كنا نسخر عادةً من اللاعقلانية وأتباعها، وتلك الحكاية لا مكان لها صراحةً وسط يقيننا المشترك.

وبطل تلك الأسطورة شقيق آخر لجدي، كان كاهناً ملكياً يحمل اسماً كهنوتياً هو تيودوروس. ظل طوال حياته يكتب يومياته وينصرف لها بانتظام حريص: فيخط هذه الصفحات اليومية كما يتلو صلواته، في ساعات محددة. كانت التواريخ وبدايات الفصول في يومياته مخطوطة بالحبر الأحمر، والنص بالحبر الأسود.

في إحدى الأمسيات، فيما كان جالساً يكتب يومياته، انكسرت الدواة فجأة، وسال خيط أحمر رفيع، كما قيل، على الطاولة، ثم على الورقة. تبعه القس بنظرته، مرعوباً، وقد غصّ حلقه، وشلّت أطرافه. وبعد برهة، استعاد رباطة جأشه، وأمسك بريشته ليروي الحادثة ؛ فذكر تاريخ ذلك اليوم، وسحب ساعة جيبه من سلسلتها ليدوّن الساعة. فألفى عقاربها قد توقفت.

كان العم تيودوروس يعيش وقتئذٍ في أحد أديرة الجبل ؛ فخرج من صومعته، ونادى القساوسة الآخرين، وطلب منهم أن يشاركوه صلاته.

هل ثمة حاجة لأضيف أن ما حصل بعد ذلك يحصل دائماً في الحكايات التي تستهل على هذا النحو؟ أي، وبعد مرور أشهر عديدة على هذه الواقعة، وصلت رسالة من كوبا تعلن وفاة جبرايل في اللحظة عينها التي انكسرت فيها دواة شقيقه الحمراء. . .

لا يسألنَّ أحدهم عن إيماني بهذه الأعجوبة! لا أعلم. . . على الأرجح لا . . . فملاك العقل يقف دائماً خلفي ويمسك بكتفيَّ. وبالمقابل، من المؤكد أن تيودوروس لطالما روى هذه الحكاية، حتى مماته، فآمن بها كل الذين سمعوها.

قبل أن نفترق تلك الليلة، سألني لويس دومينغو إن كنت

أرغب بالاتصال بهذا "القريب" الهافاني المدعو أرنالدو، وتوجيه رسالة إليه، وسوف يسعى صديقي لإيصالها. فذهبت إلى مكتبتي باحثاً عن كتاب بالإسبانية يتحدث عن الوطن، ويذكر بإيجاز أسرتنا، وأضفت بعض العبارات اللائقة، وسلَّمتُ الكتاب إلى صديقي، يخالجني الشعور أنني لا أرمي بزجاجة في البحر، بل بحجر في بئر الأشباح.

3

في الليلة التالية، وأثناء سهادي اليومي، طفقت أجترُّ هذا الحديث؛ وفي الصباح، رغبت بمعرفة المزيد عن ذلك العم الذي رحل ليَتوهَ ويقضي نحبه في تلك الجزيرة النائية...

لا حاجة بي لتحقيقٍ بكل ما للكلمة من معنى، بل قررت فقط أن أتصل، في بيروت، بقريبة لنا تبلغ من العمر تسعة وثمانين عاماً، حافظت على صفاء ذاكرتها، لأطرح عليها بعض الأسئلة البسيطة التي لم تخطر ببالي حتى ذلك الحين، أو تتردد على شفتي.

وأولاً: هل تعلم أي سنة توفي جبرايل؟

اعترفت لي ليونور: "ليس بالضبط". ولكنها تذكر أنها علمت، في نهاية الحرب العالمية الأولى، حين صارت الأسرة

تتلقى الرسائل البريدية مجدداً، بوفاة عدد من أقاربنا المغتربين في الأميركيتين. وكان جبرايل أحدهم: "أجل، مات مقتولاً، إنما ليس بسبب الحرب. كان حادثاً...".

وبالعكس، كرَّرت أمي التي اتصلت بها بعد اتصالي بليونور تلك المقولة الأخرى التي ظلت الأكثر شيوعاً في أسرتنا: " كان اغتيالاً! لطالما أكَّد لي أبوك ذلك، عملاً تخريبياً، أو شيئاً من هذا القبيل...".

جرت تلك الأحاديث المقتضبة في شهر حزيران/جوان. وبعيد ذلك، رحلت أمي لقضاء إجازة الصيف. منذ حوالى عشرين عاماً، اعتادت أن تمضي الشتاء في فرنسا، والصيف في لبنان، كما كنا في الماضي نقضي الشتاء في بيروت والصيف في الضيعة.

ولدى عودتها إلى باريس في أيلول/سپتمبر، أعلنت أنها أحضرت معها شيئاً لا بد أن يثير اهتمامي: رسائل، رسائل من "تلك الفترة".

ـ سلَّمتني إياها جدتك مع أشياء أخرى. وقالت لي: " أعرف أنك ستحافظين عليها!". وبما أنك طرحت عليَّ بعض الأسئلة، فقد قلَّبت في هذه الأوراق قليلاً. لم يكن الأمر سهلاً، لأنها تملأ صندوقاً كاملاً!

ـ صندوقاً مليئاً بالوثائق؟ عندنا؟

ـ أجل، في الخزانة الكبيرة بغرفتي، رسائل، وصور، ودفاتر، وقصاصات جرائد، وإيصالات، وصكوك رسمية... كنت أنوي ترتيبها، ثم عدلت عن القيام بذلك، بسبب صعوبة المهمة، فتركتها كما هي. واكتفيت بإحضار هذه الرسائل لك لأنها من جبرايل.

من جبرايل!

ندَّت عني صرخة، صرخة صامتة لم يسمع منها، على ما أظن، سوى ارتعاش خفيف في الشفتين.

سحبت أمي الرسائل من حقيبة يدها، وناولتني إياها، بدون اكتراث، وكأن الأمر يتعلق ببريد الأمس.

كانت ثلاث رسائل. مرسلة ثلاثتها من هافانا، عام 1912. وبلمح البصر، لم يعد جبرايل طيفاً اختفى في ماضٍ غير محدد. كنت أمسك بين يديَّ أوراقاً تحمل خطه، ولهجته، وأنفاسه، وعرقه. رسائل موجهة إلى جدي الذي احتفظ بها، ثم تركها لأرملته التي سلَّمتها إلى كنتها التي ناولتني إياها بتلك الحركة.

أمسكت بالرسائل أفقياً على راحتيَّ المبسوطتين، وقلبتها الواحدة تلو الأخرى، ثم رحت أقدِّر وزنها مطولاً، مبتهجاً لأنها كانت ثقيلة وسميكة، ولم أجرؤ على إخراج الأوراق من مغلفاتها.

وفي صباح اليوم التالي فقط، وسط سكينة مكتبتي المغلقة، على طاولة خشبية عارية قد تخفَّفت بعناية من كل ما يثقلها، ثم نزع عنها الغبار بعناية أيضاً، شعرت بأنني أستطيع استنطاق هذه الأوراق الشاهدة الهشة.

بسطتها أمامي على مهل. وقبل قراءتها عن كثب، رحت أتصفحها بنظرات متكاسلة، وأحصد، هنا وهناك، بعض الجمل:

هافانا، 25 نيسان/ أفْريل 1912

أخي الحبيب بطرس، حفظه المولى وأراني إياه بخير راجياً من

العزة الإلهية أن تلهمنا ما به خير علًّ به يلمُّ شملنا ويطفىء ما بالقلوب من لوعة البعاد.
بسبب انحراف صحتي قليلاً في الشهر الماضي، اضطررت لنقل محل سكني إلى أشرح مركز على شط البحر قبالة قلعة المورو، والحمد لله، الآن زال كل انحراف صحة، وعدت مع العائلة إلى الصحة التامة...
أفكاري أصبحت مضنوكة بأشغالي أكثر مما يمكن احتماله فكر إنسان اعتيادي أم أقل من اعتيادي...
أنا يحق إلي الاعتذار لطولة الشرح الممل لأني نسيت اللغة العربية التي تقريباً لم أتعلمها...

لم يكن بوسعي سوى التأثر بتواضع العم الكوبي الذي يتجاوز لياقات العصر والصيغ المعهودة في تحرير الرسائل. إلا أن حقيقة أخرى، حقيقة ملموسة وطاغية، تراءت لي، ألا وهي رغبته الشديدة بالظهور، والجلية منذ الوهلة الأولى التي يطلع فيها المرء على المغلفات. فاسمه بالكامل يتوسطها، بحروف كبيرة كحلية اللون، مظللة الرؤوس، وفي ستة مواضع أخرى، ضمن مساحة أضيق، وأحياناً بصورة غير مقروءة بدون عدسة مكبرة، يرد الاسم نفسه، أو الحروف الأولى فقط، اسم "غبريال" مكتوباً في كل مكان، إلى جانب حرفي غ. و م. ؛ وفي الزاوية العليا لجهة اليسار، ترتسم هذه الحروف الأولى كنباتٍ متسلق يلف الكرة الأرضية.

لم أتمالك نفسي، فابتسمت بحنان. أجدادنا هم أطفالنا، نلمحهم عبر ثقب في الجدار يلهون في حجرتهم، ولا يلمحوننا هم.

كيف يلام جبرايل على رغبته بإعلام الكون أجمع، وأهله في

المقام الأول، عن مدى ازدهار أحواله؟ كان يخاطب أخاه بطرس الأكبر منه سناً والأوفر علماً بوضوح، وهو يسعى لتصغير نفسه، وإظهار التواضع، والاعتذار عن جهله، ولكنه سرعان ما يعاود التبجح والتفاخر، بدون تقدير الوقع الذي قد تحدثه كلماته على أولئك الذين فارقهم في الضيعة، والذين يكافحون من أجل البقاء، ويرزحون تحت عبء الديون والضرائب. كان يشكو من وفرة أعماله والمشقة التي يعانيها في إدارتها! بل يجيز لنفسه أن يكتب باستخفاف:

أما عن الجمارك، فقلْ للمموّنين ألا يحملوا هماً على الإطلاق! وليرسلوا لي كل البضاعة التي يرغبون بإرسالها بدون أن يطرحوا الكثير من الأسئلة، أو يبادروا إلى تعديل الفواتير ؛ فأنا لا أسدِّد هنا إلا ما أوافق على تسديده، ولو شئت ألا أسدِّد شيئاً، فلن أسدِّد شيئاً.

وثمة أفضل من ذلك، أو أسوأ:

سبقت الإشارة بعزمي على مشترى بناية الجنرال مكسيمو غوميز، القصر الشهير الذي بنته له الحكومة منذ 8 سنوات على ملتقى شارعي "برادو" و"مونتي"، أحسن نقطة في هافانا، إذ قبالته بدأ تشييد سراي الحكومة، وبالشارع الذي وراءه، أصبحت محطة كل ترانات الجزيرة...

نظراً لجهلي بهوية ذلك الجنرال، تحققت في المراجع، واكتشفتُ أن مكسيمو غوميز كان آنذاك - وما زال - شخصية مرموقة في كوبا. ولد في جزيرة سان دومينغو المجاورة، ودعم الكوبيين في نضالهم من أجل نيل الاستقلال، بل أصبح قائد قواتهم الثورية؛ ولما انهزم الإسبان عام 1898، وولدت

الجمهورية الكوبية الفتية، كان بإمكان غوميز أن يضطلع فيها بدور بارز، ولكنه اعتبر، ربما بسبب أصوله الأجنبية، أن عليه التحول مجدداً إلى مواطن عادي؛ ومنذ ذلك الحين، عاش في عزلة، لا يتبوأ منصباً رسمياً، فقيراً، بالرغم من جلال قدره. وفي عام 1904، قررت الحكومة الكوبية أن تشيد له، اعترافاً منها بالجميل، داراً فخمةً وسط العاصمة، ولكنه توفي بعد سنة قبل الانتقال إليها.

يبدو أن أطماع عمي جبرايل بتلك الدار قد بررت الاسترسال في أكثر الأساطير العائلية جموحاً، لا سيما أن الأمر لم يتعلق بنزوة عابرة، كما تشهد هذه البرقية بالإنكليزية المرسلة من هافانا إلى بيروت بتاريخ 25 تشرين الأول/أوكتوبر 1912، إلى صديق صاحب مكتبة، وكان نصها الأصلي مرفقاً في أحد المغلفات الثلاثة:

> إعلام بطرس شراء بيت غوميز سبعون ألفاً ترتيب المجيء التفاصيل في الرسالة جبرايل

وفي الواقع، الرسالة محفوظة، وتؤكد ذلك:

> عملت لكم تلغراف نهار البارحة على عنوان أخونا بدُّور أخبركم أنه تم شراء البناية المحكى عنها بتحاريري السابقة، وقد تم التسجيل بهذا الأسبوع، ونهار الغد، إن شاء الرب، أباشر بالتصليح، وأيضاً قلت ولْفوا على الحضور كي لا نخسر وقت، وانتظروا الشروط في البريد. . .

قمت بهذا التحليل، ثم طلبت الرقم، كأنما الجزء في داخلي الذي يحاجج أنهى خدمته، وتسلم جزء آخر المناوبة.

بعد ثلاث رنّات، رفعت ليونور السماعة، لم تتلفظ بكلمة "آلو" بل قالت:

ـ أولاً، أقسم لي أنه لم يحصل مكروه!

لم يكن صوتها مثقلاً بالنعاس، على الأقل! ولكنها كانت متوترة على ما يبدو، وقلقة. فاستجبت لطلبها، وأقسمت لها أنه لم يحصل أي مكروه بدون أن أتلفظ بكلمة إضافية.

فتنهدت تنهيدة ثقيلة:

ـ الحمد لله! والآن تكلم، أنا أسمعك. من تكون؟

لم تعرف صوتي. فقلت لها من أكون، وإنني أتصل بها من باريس، وأرجو ألا تكون قد تضايقت مني لأنني سببت لها الهلع. فتنهدت قائلةً:

ـ لطالما كنت متبرماً مثل أبيك.

لم يكن لوماً بل مغايظة. فأبي كان قريبها المفضل، وبفضله، أتمتع، مهما فعلت، بمكانة خاصة في قلبها. وأعقبت ذلك كل عبارات الود التي عهدناها.

ثم قالت لي:

ـ لا تثرثر، فالاتصالات مكلفة. لا بد أنك تتصل لأمر طارىء.

لزمت الصمت لبرهة تفادياً للتعليق على هذه الملاحظة. ثم سألتها إن كانت تذكر، بمحض الصدفة، السنة التي سافر فيها جدي لزيارة جبرايل في كوبا.

خيم الصمت على الطرف الآخر من الخط، أعقبه تنفس بطيء، ثم:

ـ هذا بالفعل أمر طارىء.

فتلعثمتُ وارتبكت.

ـ لا تتكلم، دعني أفكر لا، لا أعرف. ويخيل لي أنني لم أعلم بذلك إطلاقاً. قيل لي بالفعل إن بطرس سافر إلى كوبا لزيارة شقيقه، وتعلم الإسبانية على متن الباخرة.

الإسبانية، أجل، أعلم ذلك، وماذا بعد؟

ـ لا شيء آخر! عبثاً أنبش في رأسي الهرم المسكين، ولكن لا، لا أعرف التاريخ، أنا آسفة!

فسألتها عمن يستطيع في الأسرة مساعدتي.

أمعنت ليونور التفكير، ثم أعلنت:

ـ لا! لا أحد بين الأحياء يعرف!

فسمعت، على الطرف الآخر من الخط، ضحكة مريرة تجاوبتُ معها بلباقة قبل إغلاق السماعة. ثم أمضيت بقية النهار ألوم نفسي لأنني تركت كل المسنين في أسرتي يرحلون الواحد تلو الآخر، ولم أجشم نفسي عناء استجوابهم، وأقسمت ألا ألتقي أحدهم بعد اليوم إلا وأحمله على الاستفاضة في الكلام.

بعد اجترار الندم وتأنيب الضمير، توصلت إلى أن ليونور ربما أرشدتني من حيث لا تدري إلى السبيل الوحيد المتاح أمامي: فسوف أستنطق الأموات طالما لم يعد استنطاق الأحياء يجدي نفعاً. على الأقل الأحياء الذين تركوا شهادات. أفلا تحتوي خزانة جدتي على صندوق كامل يضج بأصواتهم؟

5

كان يجدر بي منطقياً أن أسافر على متن أول طائرة لإحضار الوثائق التي تنتظرني. ووعدت نفسي بذلك بل أعلنت لأسرتي عن نيتي، ولم أقدم على الخطوة. فالقرار لم يكن سهلاً لأنني قلما أعود إلى موطن أجدادي، وحين أعود، فلظروف قاهرة فقط.

هل يعني ذلك أنني لا أشتاق إلى جبلي؟ بلى، أشتاق إليه بالتأكيد، يشهد الله! ولكن ثمة علاقات حب تقوم على الاشتياق والبعاد. فطالما نحن في الغربة، بوسعنا أن نلعن الفراق، ونعيش يحدونا الأمل بأن التلاقي يكفينا، وفور عودتنا، تتجلى الحقيقة: فالمسافة كانت تصون الحب، ولو ألغيناها، جازفنا بإلغاء الحب.

ولهذا السبب، أعذّب البعاد منذ سنوات طويلة كما يسقي المرء على نافذته أزهاراً ذابلة.

أعود أحياناً إلى جبلي، وتكاد تكون المناسبة على الدوام رحيل شخص عزيز، توفي في الوطن أو في الاغتراب، ولم يكن ليفهم أن يتغرَّب مجدداً في مثوى غريب. فأعود إلى هناك، أغمس قدمي مرة أخرى في دروب أصولي، وأبكي صراحةً كما لو أنني لا أبكي الأموات وحدهم.

وقد حصل ذلك هذه المرة أيضاً. فقد وافت المنية قريبة لي في باريس. كانت شديدة الحرص على راحة الآخرين لتطلب دفنها في مسقط رأسها، على الرغم من أن تلك كانت أمنيتها بالتأكيد. فأرسل جثمانها في رحلته الأخيرة ليرقد قرب أهلها، وأختها التي توفيت في صباها، وإخوتها، على مقربة من مثوى زوجها.

بعد انقضاء فترة الحداد، شعرت بالحاجة لزيارة ضريح جدي أخيراً بعد كل تلك السنين من اللامبالاة.

في ضيعتي، لا توجد مقبرة. فالقبور مبعثرة، وسط البيوت، وأحياناً على التلال، أو في حقل من الزيتون - كما هو الحال بالنسبة إلى قبر جدي -، أو في مدرجات كرمة، أو تحت شجرة قديمة. وثمة قبور قديمة جداً محفورة في الصخور أثارت اهتمام علماء الآثار...

أكدوا لي أن جدي دفن قرب بيته، في حقل من أشجار التوت، بدون المزيد من التحديد؛ فذهبت بحثاً عنه برفقة كهلين من القرية كانا يعرفانه في طفولتهما، وحضرا جنازته، وحددا لي صفاً من القبور القديمة، قائلين: "القبر موجود بينها على الأرجح". كانا يقدران رغبتي بتحديد قبر جدي، إنما يعتبران هذه الرغبة غريبة، لا بل نزوة مغترب.

كان حضور هذين الكهلين، بدلاً من استحضار ذكرى الجد، يلف هذه المحجة بغمامة سوريالية. كان المشهد غريباً، وقد يبدو مسلياً في ظروف أخرى. ولكن "المغترب" الذي كنت لم يشأ في ذلك اليوم الالتهاء عن الانفعالات المتأخرة التي جاء يستقيها، إذ يصدف أن تفتقر الحياة إلى اللباقة، وأن تظهر غرابتها في أسوأ اللحظات، حين لا يرغب المرء بالمرح إطلاقاً.

كان مرافقاي شقيقين أعزبين، أعرف تمييز أحدهما عن الآخر أثناء إقامتي في البلد، ولكنهما أصبحا متشابهين مع تقدمهما في السن. في ذاكرتي، كان أحدهما لا يشبه الآخر في شيء. وفضلاً عن ذلك، اختلف مسار كل منهما. فالبكر الذي كان يبلغ من العمر، يوم لقائنا، أربعة وتسعين عاماً، متعلم، لم يعمل يوماً في

حياته عملاً يدوياً، ومغترب سابق، أقام في بلدان عديدة، في إيطاليا، وفرنسا، والأرجنتين أيضاً، على ما أظن، ثم عاش فترة طويلة في مصر التي احتفظ بلهجتها.

أما الأصغر فلم يفارق القرية، وكان من أمهر البنائين فيها طوال حياته، لا يقبل الحديث عن مهنته بصيغة الماضي، لأنه تبجَّح أمامي أنه ما زال يدير ورش بناء، وهو في الحادية والتسعين، ويحمل الحجارة! وقد أطلق على نفسه لقب "الشيطان" ومعناه حرفياً "إبليس" مع العلم أن هذا اللقب يكتسب لدينا دلالة تخفيفية للإشارة إلى كونه "عفريتاً"، ويزعم أنه يثرثر كل يوم مع "الآخر"، سَمِّيه، ولا أحد في القرية ينظر إلى هذه المسألة نظرة مأساوية باستثناء أرملتين أو ثلاث أرامل تقيات لا تروق لهن الدعابة في هذه الشؤون. كان يحلو "لشيطاننا" أن يعتبر نفسه خالداً، مستشهداً على ذلك بصحته وعافيته، وهو يشارف على المائة، في حين كان مريضاً على الدوام في سن العشرين.

لا يحمل البكر لقباً. ولطالما ناداه الناس باحترام "أستاذ إيليا"، وهو اللقب الاعتيادي المخصص للأساتذة والمحامين والمتعلمين عموماً. كان مهيباً، رصيناً، مبجلاً بعض الشيء، أنيق الهندام على الدوام، يضع وشاحاً على كتفيه، ويتكلم ببطء وأناة لغة عربية راقية وفصيحة أقرب إلى المكتوبة منها إلى المحكية، أما شقيقه الأصغر فيزعق بلا كلل أو ملل كلاماً استفزازياً بل سوقياً أحياناً، بلهجة قروية "غميقة" لا تمت بصلة إلى اللغة العربية.

كنت أريد أن يرافقني البكر فقط في محجتي بعد أن علمت

أنه كان تلميذ جدي. ولكن الشقيقين أصبحا مع الوقت متلازمين، فاضطررت للتكيف مع حضور العفريت التسعيني الذي بادرني بنبرة ماكرة على مشارف قبر جدي المفترض:

ـ أنت تعيش في الغربة منذ وقت طويل، ونسيت أن الناس هنا لا يزورون الأموات. وأصلاً، لو توفيت يوماً، فسوف أحمل معي بعض الحصى لأرشقها على الذين يجرؤون الاقتراب من قبري!

حدجه شقيقه بنظرة عتاب، فصمت الصبي مفسحاً لشقيقه المجال للكلام.

ـ أخي على حق، فأنت تعيش في فرنسا منذ زمن طويل، وهناك لكل ضيعة مقبرتها، والنصب تحصي واحداً واحداً الأموات في شتى الحروب. أما هنا، فلكل أسرة ابن مدفون في بيروت، أو في مصر، أو في الأرجنتين، أو البرازيل، أو المكسيك، وبعضهم في أستراليا أو الولايات المتحدة. فمصيرنا أن نتشتت في الموت مثل تشتتنا في الحياة.

واستأنف الأصغر: ـ لو دفنت، سأخرج على شكل أفعى لإخافة النساء!

ولكن شقيقه تأبط ذراعه، وابتعد الاثنان قليلاً، واحتميا من المطر والريح، وتركاني وحيداً للحظات أمام جدي.

في الواقع، كان المطر يهطل بغزارة، وقد أوحلت التربة تحت قدمي، إلا أن ذلك لم يدفعني للاحتماء بدوري، بل على العكس كان شبه عزاء لي أن أتعرض لرداءة الطقس - فأنا أدين "له" بهذا التكفير البسيط عن كل تلك السنوات من النسيان

والإهمال! فوقفت منتصباً، وقد انهمرت على وجهي قطرات مطر كان بوسعها أن تكون دموعاً.

بعد دقائق مديدة، ابتعدت بخطى بطيئة. وخلال هذه المحجة القصيرة، لم أرفع أي صلاة، بل قطعت لجدي وعداً سرياً...

شعرت بالحاجة، إذ غادرت المكان مبللاً، أن أعود إلى الضيعة للبقاء في بيت الطفولة، وحدي. فطلبت الترجل أمام الباب، ورحت أبحث، في علاقة المفاتيح، عن المفتاح الذي قد يفتح القفل الجديد الموضوع منذ المعارك المحلية الأخيرة وأعمال النهب. جرَّبتُ ثلاثة أو أربعة مفاتيح قبل عثوري على المفتاح المناسب. كان الطقس بارداً في نهاية هذا النهار، والمطر يهطل، والرياح تعصف وتشتد. لم تكن الضيعة على هذا النحو في طفولتي، والحق يقال إنني لم أكن أزورها كثيراً في فصل الشتاء. غير أنني أحبها كما هي، وما كنت لأطيق أن يشبه فيها كل شيء بيئة سعادتي، وأن تكون سعادتي وحدها غير موجودة فيها.

6

اجتاحني، رغماً عني، إحساس دافىء بالراحة بعد إقفال باب بيت أسرتي. لم يكن الليل قد هبط، وتسلَّلَ ضياء وردي شاحب عبر الواجهة الزجاجية الكبيرة في غرفة الجلوس. عثرت على

أريكتين قديمتين جداً من طراز "موريس"، توأمين بوسائد حمراء كنت أعشقهما فيما مضى، ثم نسيتهما منذ ذلك الحين. دفعت إحداهما وجلست قبالة البحر، البعيد والمنخفض، الذي كنت لمحته عند خط الأفق لو لم يكن الأفق ملبداً بالغيوم.

بقيت جالساً لا أحرِّك ساكناً، غير مكترث للبرد والرطوبة، عيناي جامدتان، وأحياناً مغلقتان. ثمة زمن كان الغد فيه عندي لا ينفصل عن هذا المكان. كنت أظن أنني لن أطيق العيش يوماً بعيداً عن هذا البلد، بعيداً عن هذه الضيعة، بعيداً عن هذا البيت! لم أستبعد كلياً الذهاب لقضاء بضعة أشهر في فرنسا أو أميركا لو ساورتني الرغبة يوماً بالرحيل؛ أما أن يصل بي الأمر إلى الاستقرار في بلد آخر، فلا قدَّر الله!

لا شك أن ثمة نزعة في أسرتي للرحيل؛ ولكن هذه الظاهرة اقتصرت على عمومي وأقاربي وأشقاء أجدادي. فأجدادي المباشرون - أبي، وجدي، وذريتهم - ظلوا قابعين في حجارتهم. وأصلاً، هكذا استرجعنا البيت الكبير: فقد حصلنا عليه لأننا لم نرحل. والآن، أصبح هذا البيت ملكي، أصبح لي، ولعل أهالي القرية يطلقون عليه اسمي.

غير أنني لا أزوره أبداً. فخلال السنوات العشرين الأخيرة، لم أمض فيه ليلة واحدة، وقلما زرته. والمرة الأخيرة كانت منذ سبع أو ثماني سنوات. وقد رافقني الكثير من الأشخاص، جالوا في أرجائه، وسرعان ما خرجوا برفقتي. شعرت أنني بحثت عن نفسي من حجرة إلى أخرى، ولم أعثر عليها.

كنت بمفردي في هذه الزيارة الثانية، مصمماً على التمهل،

وعدم الانصراف بسبب البرد، أو الجوع، أو أي حزن من الأحزان.

تبدد ضياء السماء، فتذكرت فجأة موضع اللوحة الكهربائية تحت السلم الداخلي الذي يقود إلى الطابق العلوي. حركت محوِّلاً، وكدت أستغرب أن التيار الكهربائي لم يكن مقطوعاً. ثم توجهت إلى غرفة أهلي، وفتحت الخزانة التي أشارت إليها أمي، لأكتشف خلف الثياب المعلَّقة، وخلف صف الأحذية النسائية، صندوقاً منتصباً على طول الحائط بمنكبين جلديين يقابلان منكبي. كان ينتظرني!

سحبته من مخبئه وجررته حتى سرير أهلي ورفعته بمشقة عن الأرض، ووضعته على السرير، ثم فتحته كالكتاب قبل نزع حذائي والتربع أمامه، وقد أسندت ظهري إلى وسادة كبيرة ملتصقة بالحائط، وقررت ألا أبرح مكاني قبل طلوع الفجر.

شرعت بإخراج الرسائل القديمة الواحدة تلو الأخرى، وتناولها بخشية من زواياها بين أصابعي المقوسة كالكماشة. قرأت الرسائل العشرين أو الثلاثين الأولى من الألف إلى الياء، مدوناً بحرص على مفكرتي، كلما تسنى لي الأمر، التاريخ، والمرسل، والمرسل إليه، ونبرة الحديث، وملخّصاً عن المحتوى؛ ولكن بعد مرور ساعتين، أمام الكومة المتبقية التي لم تفض بعد، استسلمت وقررت قراءة الوثائق قراءة سريعة، وبدون تدوين أي ملاحظة، مكتفياً بتوزيعها سريعاً: لجهة اليسار، الرسائل التي تحمل خط جدي، ولجهة اليمين، تلك التي تتعلق بجدتي؛ وفي كومة مجاورة، تلك التي تذكر جبرايل أو زوجته؛ وخلفي، على المنضدة المحاذية للسرير، تلك التي تخص أفراداً آخرين من

الأسرة - أبي، وأعمامي، وعماتي، أو الكاهن تيودوروس. ولكن الأكوام كانت تعلو وتعلو إلى أن أوشكت على الانهيار. وراحت تطفو على السطح أشياء غريبة، فشعرت بنفسي مضطراً لفصلها عن البقية. وبرزت أكوام من الصور تكاد تكون كلها غير مرفقة بتعليق، وتظهر أشخاصاً كثيرين وغالباً مجهولين، وتتطلب تصنيفاً. كل ذلك، وثلاثة أرباع الصندوق ما زالت ممتلئة.

استسلمت. وطفقت أبكي إما بسبب الإجهاد، أو بسبب الجوع، أو بسبب أيام الحداد. شعرت فجأة برغبة في التواري عن الأنظار في الحال بدون أن أخلف أثراً. شعرت أنني أحمل وزراً ثقيلاً، تخفف الأسلاف منه الواحد تلو الآخر، في هذا الصندوق، وليس بوسعي وحدي أن أتحلى بالشجاعة الكافية للتخلص منه.

أنا الذي جئت باحثاً في هذا المكان عن مفتاح لبابي، رأيت ألف باب بدون مفاتيح ينتصب أمامي. ماذا عساي فاعلاً بهذه الكومة من الأوراق القديمة؟ لن أتمكن من كتابة أي شيء انطلاقاً منها! والأسوأ أن هذه الذخائر، طالما اعترضت سبيلي، فلن أكتب شيئاً آخر!

بعد ثلاثة أيام، عدت إلى باريس، وانتظرت في المطار، أمام بساط الأمتعة، ريثما يظهر صندوق أجدادي. قررت على مضض أن أسجله مع حقائبي، مع بعض الوجل - فقد سبق أن فقدت حقيبة بين كوبنهاغن وبروكسيل قبل بضعة أشهر، وأخرى بين أديس أبابا والقاهرة، ووصلت حقيبة أخرى لي مبقورة من ميلانو، ولكنني كنت مقتنعاً أن هذا هو الحل الأكثر أماناً. وفي

كل الأحوال، اعتبرت أنه لو كان ثمة منطق يبرر ما جرى مؤخراً في حياتي، فلا يمكن أن يتوقف السيناريو عند هذا الحد بسبب مهزلة مبتذلة!

لما خرج الصندوق من النفق سليماً، واضطررت لسحبه ثم رفعه لوضعه على عربة الأمتعة، لاح لي ثقيلاً أكثر من أي وقت مضى؛ ولوهلةٍ، تلاشى القلق الطفيف بسبب السفر، وطغى مكانه قلق أكثر عناداً يتعلق بالوثائق نفسها وكيفية استعمالي لها.

لم أفتح الصندوق فور وصولي إلى البيت. هرعت أولاً إلى مكتبة الحي، مشوش الذهن، مضطرباً، وبالتالي متعطشاً للترتيب، من أجل التزود سريعاً بمصنفات كبيرة وصغيرة الحجم، وملفات، وألبومات صور، وملصقات صغيرة؛ واشتريت تحديداً دزينتين من تلك المصنفات المزودة بجيوب بلاستيكية صغيرة يتسنى وضع أوراق فيها بحيث تظهر من الجانبين. وقررت، فور عودتي إلى البيت محمَّلاً بهذه الأغراض، الخروج ثانية لأشتري بمبلغ باهظ ناسخة حقيقية لأنني سأمسك هذه الأوراق الشاهدة الهشة المفاصل كثيراً، ومن الأفضل الإساءة إلى نسخاتها مع الإبقاء على الوثائق الأصلية في الحفظ والصون.

في صباح اليوم التالي فقط، أحسست بما يكفي من الارتياح للقبض من جديد على صندوق أجدادي. أمهلت نفسي أسبوعين لإفراغه، ثم أسبوعين آخرين، فأسبوعين إضافيين. كنت أقرأ، وأصنِّف، وأعاود القراءة والتصنيف، وتدوين بعض الأجوبة عن تساؤلات سابقة، ثم تدوين تساؤلات جديدة. أبتسم أحياناً، أستهجن، أو أكفكف دموعي. أراجع دائماً حقائقي السابقة، وأشعر دائماً بالاضطراب والتشوش والحيرة.

كان يخالجني على الدوام الإحساس بالضياع وسط كل هذه

الرسائل غير المحددة الهدف، غير المقروءة، غير المؤرخة والموقعة في أغلب الأحيان؛ وسط كل هؤلاء الأشخاص الذين نسيهم أحفادهم؛ وسط كل هذه الحيوات المتشظية في غبار الكلمات. ولحسن الحظ أن بعض الأسماء يتكرر دائماً! أولاً، اسم بطرس، جدي - فتلك الوثائق كانت بكل وضوح وثائقه، ومعظم الرسائل موجهة إليه حين لا تحمل خط يده، وكل تلك الدفاتر المدرسية تخصه، وكذلك تلك الآلاف من الأوراق المنفصلة. كان هذا الصندوق يحتوي على حياته، حياته بأكملها التي سكبت ها هنا كيفما اتفق، فاختلطت السنون إلى أن جاء أحد أحفاده في يوم من الأيام ليستوضحها ويستعيدها ويفسرها، ـ وهي مهمة لم يعد بوسعي التهرب من تأديتها. فانتفت الحاجة إلى "إعادة" هذا الصندوق للجيل التالي. كنت المحطة الأخيرة قبل النسيان؛ ومن بعدي، سوف تنفرط سلسلة النفوس، ولن يفلح مخلوق في تفكيك الرموز.

في غياب كل الشهود تقريباً، كنت مجبراً على التلمس والتكهن والخلط أحياناً، خلال عرض الأحداث، بين الخيال والأسطورة والسلالة - كان خلطاً فضَّلت تفاديه، ولكن كيف كان بوسعي التعريف بأسلوب آخر عن صمت هذه المستندات؟ وفي الحقيقة، أتاح لي هذا الالتباس، علاوة على ذلك، أن يبقى لحيائي البنوي حيز خاص، لحفظ هذا الحياء واحتجازه أيضاً. فبدون التمتع بحرية خلط الأمور والوجوه، كنت أشعر بنفسي عاجزاً عن التلفظ بكلمة "أنا". ذلك هو إرث أسلافي الذين لما استطاعوا اجتياز كل هذه القرون المعادية لو لم يتعلموا إخفاء روحهم وراء قناع.



مسارات



7

كان لا بد أن أمسك بطرف خيط لكشف سر هذه الوثائق. فارتأيت البدء، على مهل، بأقدم رسالة على الإطلاق - وهي ورقة كبيرة تتخللها خطوط عمودية، مطوية، مجعَّدة، مثقوبة، يصعب عليَّ الاعتقاد لشدة اسمرارها بأنها كانت بيضاء فيما مضى. وهي مؤرخة في 11 تشرين الأول/أوكتوبر 1889، وتحمل توقيع جدي بطرس الذي كان آنذاك في الحادية والعشرين.

وبعد تأمل الرسالة، وإعادة قراءتها، وتفحصها تحت نور مصباح، ثم مراجعتها، بل قبل التفكير بكيفية استعمالها، شرعت بترجمتها في عجالة على زاوية من زوايا مكتبي، على أمل أن يزعزع الانتقال من لغة إلى أخرى جمود صيغ التهذيب القديمة.

سيدي الوالد،

غبّ تقبيل يديكم وطلب رضاكم، أعرض إني الآن موجود في عبيه، وشغلي التعليم في مدرسة المرسلين الأماركان، وأتعلم بعض متايل، والحمد لله صحتي جيدة. وحين تاريخه، حضر أخي سمعان وطمّني على صحتكم، وأخبرني أن خاطركم قد صفيَ عليَّ، ولكم إرادة ترسلونني إلى المدرسة. فإن أردتم

تتكرموا عليّ بإرسال فرشة والدراهم إلى مدرسة سوق الغرب
حتى أحضر إلى المدرسة وفي الفرشة.
أتشرف بتقبيل أيديكم، وإن لم تريدوا، أنا أتكل على الله،
وهو يدبر لي وسايط، وعليه الإتكال في كل الأمور.
أقبل أيدي سيدتي الوالدة وأطلب رضاها مع سؤال خاطر
إخواتي وأقاربي جميعاً...
لا تقسوا بي ولا تبرحوني من دعاكم سيدي

ودمتم
ولدكم بطرس

كانت الرسالة لا تخلو من التبجيل والخنوع، في الظاهر فقط، فبين السطور، يستطيع المرء أن يستشف بوضوح ما يلي: "إذا لم تساعدني، فسوف أتدبر أموري بدونك". وفي كل الأحوال، لباقة الابن الشاب هي لباقة المنتصر، لأن والده قد رضخ لمشيئته على ما يبدو، وسمح له بمتابعة دراسته في المدرسة التي اختارها.

كادت لهجة الرسالة أن تشطَّ في موضع آخر. فبعد عبارة "فرشة والدراهم"، كتب جدي "وإلا"، قبل أن يشطب هذه الكلمة والفاصلة التي تليها، ويتابع بأسلوب أقل فظاظة، "حتى أحضر إلى المدرسة".

علمت بهذا التفصيل لأن الرسالة التي بحوزتي ليست تلك التي أرسلها بطرس في ذلك اليوم إلى والده، ولعلها ضاعت على أغلب الظن، بل نسخة عنها، أو تحديداً مسوَّدة، وخربشة بقلم الرصاص. اعتاد جدي أن يحتفظ على هذا النحو بأثر لرسائله - وهو حرص مفيد، وهدية ثمينة، على وجه الخصوص، لقارئها اللاحق الذي هو أنا!

هذا، والتصحيح المشار إليه في الرسالة شكلي بحت، لا يغير شيئاً مما تطلعني عليه هذه الرسالة القديمة: كان جدي ووالده متخاصمين، ثم تصالح الاثنان لمصلحة الابن.

كانت تلك الصراعات شائعة في الجبل في ذلك الحين. فالفتى الذي يهمل أعمال الحراثة، ويرحل لمتابعة تعليمه بعيداً عن قريته ضد مشيئة أهله، شخصية مألوفة، ويكاد يكون بمثابة الرمز شأنه في ذلك شأن المهاجر الذي يرحل فقيراً ثم يجني ثروة. أما الأمر غير الاعتيادي فكون جدي العتيد درس في المدرسة الإنجيلية.

لا يفاجئني قراره حقاً. فالرسالة المذكورة، وعلى الرغم من كونها الأقدم عهداً بين الرسائل التي عثرت عليها، تظل الفصل الأخير من مأساة. ولا ريب أن " فصولاً سابقة" حصلت، أعرف بعضها أصلاً. أعلم، على سبيل المثال، أن هذا الهروب بهدف الدراسة قد تقرر وتمهد بسبب نزاع آخر اندلع قبل ربع قرن، بين أب آخر وابنه.

لئن رجعت على هذا النحو إلى الوراء، فليس من أجل إدراج موقف بطرس في سياق يجعل هذا الموقف مفهوماً؛ بل لأن هاتين الشخصيتين تنتميان إلى أسرتي القريبة، ولأن صراعهما أرخى بظلاله - وما زال حتى الساعة - على حياة أهلي.

اندلعت تلك الأزمة السالفة عام 1862، وفي البيت الوحيد في الضيعة الذي كان يسود الاعتقاد بأنه بمنأى عنها: بيت الخوري.

كان هذا الخوري يدعى جرجس، وهو مرادف محلي لجورج -، وينتمي إلى الكنيسة الملكية المدعوة كذلك

بالكاثوليكية. كان كهنة هذه الطائفة يخضعون لسلطة البابا، ولكنهم غير ملزمين بحياة العزوبية، ولئن كان لا يسمح لهم بالزواج بعد انخراطهم في الكهنوت، فلا شيء يحول دون ترسيمهم بعد زواجهم.

أنجب الخوري جرجس عدداً من الأولاد، كتب لواحد منهم فقط البقاء حياً يرزق بعد وفاة أبيه، وهو المدعو خليل. كان خليل شاباً مثابراً، ورضياً، محباً للعلم، راح يشكك، متأثراً ببعض القراءات، بالعقيدة الكاثوليكية. للوهلة الأولى، حاول أبوه أن يقنعه ولكن مستواه الفكري كان أقل من مستوى ابنه، فاحتدمت النقاشات بينهما، ولم تنحصر باللاهوت، ومما زاد الطين بلةً أن الابن كان لا يتورع عن المجاهرة بآرائه خارج البيت، مسبباً للخوري المسكين الإحراج الشديد.

وفي أحد الأيام، وقعت القطيعة، حكماً، ولا أدري هل طرد الأب ابنه من البيت أم رحل الشاب بملء إرادته. وفي مطلق الأحوال، حصل ذلك، لا ريب، وسط المرارة والضغينة.

يوجد في المكتبة التي ورثتها عن أبي مؤلف ثمين يستعيد تاريخ أسرتي منذ القرون الأولى حتى أوائل القرن العشرين. ويحمل، على غرار معظم الكتب العربية القديمة، عنواناً طويلاً يتألف من شطور مسجَّعة، بوسع المرء أن ينقلها بتصرف على النحو التالي: "الشجرة الباسقة والوارفة الأغصان التي لا يتسنى قطاف كل ثمارها"، في تلميح إلى التحدي الجسيم الذي يواجه الباحث في سعيه لاستعادة مسار مثل تلك الأسرة؛ وكلما ذكرت هذا المرجع لاحقاً، سوف أشير إليه فقط بكتاب "الشجرة".

يكرس هذا الكتاب للخوري جرجس نبذة شخصية مقتضبة

تشير إلى وفاته ضريراً عام 1878، ويخصص لابنه خليل صفحتين متراصتين. ولا يذكر هذا المرجع إطلاقاً، بصورة صريحة الخلاف بين الأب والابن، بل يوضح أن الابن رحل عن القرية عام 1862، "إلى عبيه التي كان قد أنشأ فيها مدرسةً المرسل الأميركي كورنيليوس فان دايك"، ولم يعد إليها إلا بعد وفاة أبيه.

وطوال عشرين عاماً أمضاها ابن الخوري بعيداً عن القرية، راح يكدِّس الشهادات، من علم النبات إلى علم الفلك، مروراً باللغة الإنكليزية، إلى جانب اللاهوت بالتأكيد؛ ثم، وبعد اعتناق البروتستانتية رسمياً - بشكلها الإنجيلي -، أصبح واعظاً، ومبشراً، ومعلماً، بل مدير شبكة من المدارس البروتستانتية في كل بلدان المشرق في أوج حياته المهنية.

غير أن طموحه كان إنشاء مدرسة في ضيعته تنافس يوماً كل المدارس التي عرفها، لأن اقتران اسمه واسم مسقط رأسه بمدرسة مشهورة كان، بنظره، أجمل تتويج لحياته.

استأجر مبنى، وسجل أول دفعة من الطلاب، ومن بينهم بطرس، فور عودته إلى الضيعة. وكان ذلك عام 1882، وجدي العتيد في الرابعة عشرة من العمر، يقظاً، طموحاً، قادراً على التحليل، وموهوباً لتحصيل العلم، ولكنه لم يتعلم شيئاً حتى ذلك الحين. في تلك الفترة، كان أطفال الضيعة يمضون سحابة نهارهم في الحقول، ويكتفون بالذهاب إلى الخوري بين الحين والآخر لتعلم مبادىء الكتابة، وينخرط منهم من تلقى نصيباً أوفر من العلم في سلك الكهنوت.

أخذ خليل الفتى بطرس تحت جناحه، وعلَّمه بصبر كل ما استطاع تعليمه. ولما أنهى التلميذ بنجاح مرحلة التعليم التي

تؤمنها مدرسة الضيعة الجديدة، نصحه أستاذه بشدة ألا يتوقف عن تحصيل العلم بل أن يسلك بالأحرى الطريق التي سلكها هو في شبابه، بذهابه إلى عبيه، والتحاقه بمدرسة المرسلين الأميركيين. ودعم طلبه بتوصية عطرة، فوافق هؤلاء على انتسابه في الحال. كان الفتى قد رحل بدون موافقة أبيه، ولم يكن يملك المال لتسديد قسط المدرسة والإقامة فيها، فاقترح حاميه السماح له بالتعليم في صفوف الصغار، فيما يتابع الدراسة في صفوف الكبار.

سوف يشعر جدي، طوال حياته، بعميق الامتنان لذاك الذي أشرع أمامه دروب المعرفة، وسوف يدعوه دائماً في رسائله، بإجلال، "أستاذي". وسوف تنشأ بين الاثنين صداقة مدى العمر حالت دون انتباه أحدهما إلى مدى اختلاف الآخر.

8

عندما أنشأ خليل مدرسته الجديدة، لم يمانع والد بطرس - واسمه طنوس - إلحاق ابنه فيها؛ وكان يحترم الواعظ، قريبه وجاره، على الرغم من عدم انجذابه إطلاقاً إلى البروتستانتية. ولكن طنوس عارض رغبة ابنه في الرحيل عن الضيعة؛ واعتبر أن ابنه، هناك، في عبيه، سوف ينحرف بالتأكيد، لدى اختلاطه بالإنكليز والأميركان، عن عقيدة أجداده، ويعود "إلينا" وقد تغير

عقله، فيتسبب بالحزن لأمه وأهله هذا إذا عاد أصلاً. كان طنوس يردِّد ما يقوله المنطق السليم آنذاك: لو تعلم الصبي قليلاً، سوف يساعد أهله، أما إذا تعلم كثيراً، فلن يطيق التحدث إليهم. كانت تلك اللازمة التي يسمعها بطرس من أبيه كلما أعرب عن رغبته بالرحيل. "لن تقضي حياتك في الدرس، يجب أن تتوقف يوماً ما، وتعود للعمل في الحقل إلا إذا أردت أن تصبح خوري".

لا، فبطرس لا يريد العمل في الحقل، ولا أن يصبح كاهناً. أتعبه الجدال وفي صباح أحد الأيام، رحل. لم يودع أهله، ومضى سيراً على الأقدام، حتى وصل إلى بيروت، ثم تابع طريقه سيراً على الأقدام أيضاً حتى عبيه في الشوف، في المقلب الآخر من الجبل.

وخلافاً للشجار الذي وقع قبل ربع قرن في بيت الخوري جرجس، ولم يخمد سعيره سوى وفاة الخوري، لم يدم الشجار بين بطرس وطنوس طويلاً. والرسالة الموجهة عام 1889 بهذا الشأن لخير تعبير عن ذلك. فحين يكتب الفتى: "فإن أردتم تتكرموا عليَّ بإرسال فرشة والدراهم"، يفهم من كلامه أنه لم يفارق أهله منذ فترة طويلة، وإلا لكان وجد فرشة ينام عليها! كانت رسالته مؤرخة في 11 تشرين الأول/أوكتوبر، وبالتالي، قد يكون الابن الضال غادر البيت قبيل بدء العام المدرسي، ثم سعى أبوه فوراً للصلح، فأوفد وسيطاً - أحد أبنائه الآخرين - للعثور على بطرس، وإخباره أنه قد صفح عنه، ونزل عند رغبته، ويريد التأكد أن لا شيء ينقصه.

إنها مجرد فرضية ولكنها تتلاءم مع طبع ذلك الرجل،

طنوس، جدي الأكبر الذي لا يبدو أنه كان مستبداً أو عنيفاً، على الأقل كما يستشف من القصص النادرة التي ما زال يستحضرها الناس بشأنه.

والقصة التالية روتها لي ليونور. لن أقسم أنها الحقيقة المطلقة والكاملة؛ وأظن أن قريبتي أضافت إليها أحداثاً من قصص أخرى، أو توهمتها. لن أصعِّب الأمور، لأنني لا أعرف عن شباب طنوس سوى قصة وحيدة، وبرواية وحيدة، فلا خيار أمامي سوى تدوينها كما هي.

تدور القصة في أحلك الأزمنة التي عاشها الجبل، فترة المذابح الطائفية عام 1860 التي راح ضحيتها آلاف الأشخاص في ظروف مروِّعة. لم يتجاوز الناس الصدمة التي تسببت بها تلك المأساة أبداً، فالجراح التي لم تلتئم، تُنكأ في كل نزاع جديد.

في ذلك الوقت، كانت ضيعتنا وسفح الجبل المحيط بها، قد أصبحت ملاذاً، بالمعنى الشامل للكلمة، لكل أقاربنا الذين يعيشون في مناطق أقل أماناً، كذلك الوجيه العجوز، المولود في قريتنا والمقيم منذ نصف قرن في زحلة، أكبر المدن في سهل البقاع، والذي حاول، للنجاة من المذابح، أن يعود إلى مسقط رأسه مع أولاده وإخوته وأخواته وكل أهله، بواسطة دروب متعرجة. غير أن القتلة نصبوا لهم كميناً. وسعى الشبان لمقاومة المعتدين بدون جدوى، فقتل فتى وجرح ثلاثة آخرون ووقعوا في الأسر، ولم يرهم أحد ثانية. واستفادت بقية القافلة من المعركة للمضي قدماً والفرار.

ولما بلغ "أقاربنا" الزحلاويون ضيعتنا أخيراً، تحلق حولهم الأهالي للتعرف عليهم، وتلمسهم، وتعزيتهم، وسؤالهم عن

محنتهم. ومن بين الناجين فتاة تدعى سوسان لمحها طنوس على الفور. ولاحظت هي أنه لمحها، فاحمر وجهها خجلاً وسط الدموع.

ومنذ ذلك الحين، وفي كل مناسبة قروية، سوأ أكانت فرحاً أم حزناً، كان هذان الاثنان يقضيان الوقت وكل منهما يبحث عن الآخر بعينيه؛ ويشعران بالسعادة فور رؤية أحدهما للآخر على الرغم من الأحداث المروعة التي تحاصرهما.

ولعل طنوس وسوسان من القلائل الذين لم يبتهجوا بملء جوارحهم لدى حلول السلام بعد بضعة أشهر بفضل الجيش الذي أوفده نابوليون الثالث، وتمكن اللاجئون أخيراً من العودة إلى ديارهم.

بعد بضعة أيام على الفراق المحتوم، أدرك طنوس أن لا نكهة لحياته في غياب الفتاة. فما فائدة التنزه على الطريق العام إن كان لن يلتقي بسوسان؟ وما جدوى الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد إن كان لا يستطيع البحث عنها بنظراته طوال القداس، وتوجيه ابتسامة لها عند باب الكنيسة؟ أو حضور الولائم والمشاركة في السهرات؟

وفي صباح أحد الأيام، بعد ليلة من الأرق والسهاد، صمم طنوس، إذ عيل صبره، على الذهاب لرؤية الفتاة. فمضى ليقطف بعض التين والعنب لئلا يزورها خالي الوفاض، وانطلق.

يستغرق السير على الأقدام من ضيعتنا إلى زحلة ست ساعات عبر دروب الجبل. في ذلك الوقت، كان أشجع المشاة يجتازون هذه المسافة خلال النهار، والآخرون على مرحلتين.

وصل طنوس عند أهل سوسان ظهراً. وزعم، إذ لم يجرؤ على البوح بأنه قطع كل هذه المسافة ليرى الفتاة، أن لديه مصلحة في زحلة لبضعة أيام. فعلق والد الفتاة قائلاً: "في هذه الحالة، تعال لزيارتنا غداً". قبل الشاب هذه الدعوة بحماس. ثم غادر بيت حبيبته، وسلك الطريق نفسها في الاتجاه المعاكس، واستغرقت العودة المزيد من الوقت لأنه اضطر للصعود هذه المرة من السهل إلى الجرد، لا ينير دربه سوى ضوء القمر، وفي طريق تهيم فيها الذئاب والضباع والدببة، بغض النظر عن قطاع الطرق.

بلغ قريته بعيد منتصف الليل، ورقد في فراشه كالقتيل. ولكنه نهض فجراً، وقطف بعض الفاكهة، قبل هبوطه من الجبل إلى السهل.

استمر طنوس على هذا المنوال، حسب رواية ليونور، ثلاثة أو أربعة أيام، وأصبح على أثرها مشهوراً بالعاشق المتيم. كان الجميع في القرية يخشون عليه، ويسخرون بلطف منه، ولكنهم يحسدونه على مثل هذا العشق.

انتهت القصة حين سأله أهل سوسان الذين لاحظوا أن الشاب يشحب وينحل يوماً بعد يوم عن مكان إقامته في زحلة. فتهرب من الجواب المرة الأولى ثم الثانية. ولما ألحّوا عليه بالسؤال، وخشي طنوس أن يظنوا أنه مصاب بمرض خبيث، أو أنه يعيش حياة ماجنة، اعترف لهم بالحقيقة. أجل، كان يعود كل مساء إلى قريته ليهبط منها في اليوم التالي، إنما عبر الدروب الأكثر أماناً! لا، لم يكن منهكاً، وهو مستعد ليقسم لهم بذلك، وما زالت ساقاه تسعفانه! وكان يتلو القصائد ليتسلى في طريق العودة

أصغى إليه والد الفتاة حتى النهاية، مقطب الجبين. وغطت أمها وجهها لئلا يرى الآخرون أنها تضحك. ولما أنهى الماشي قصته، بادره مضيفه قائلاً:

ـ هذه الليلة، سوف ترقد هنا، قرب أبنائي، وعندما ترتاح، تعود إلى القرية، في وضح النهار، وليس في الليل! ولن تعود إلى زحلة إلا لعقد الخطبة!

كاد طنوس أن يغمى عليه حين سمع هذه الكلمة، "الخطبة"! فقد أثمر عشقه أخيراً!

وسوف يتزوج طنوس وسوسان بعد بضعة أشهر، ويعيشان، كما تقول الحكاية، في تبات ونبات تقريباً، ولو بتواضع، وينجبان الصبيان والبنات، وتحديداً عشرة منهم، بلغ ثمانية منهم سن الرشد، بنتين وستة صبيان. وسوف يموتون أجمعين للأسف! - لا سيما بطرس، جدي - قبل أن تسنح لي فرصة التعرف إليهم. ماتوا كلهم، باستثناء الكاهن تيودوروس الذي لا أذكره لأنه توفي وأنا في عامي الأول، وقيل لي إنه حملني بين ذراعيه، عند ولادتي، وهمس مطولاً في أذني، مترقباً ردة فعلي، وكأنما كنت قادراً على سماعه والموافقة على كلامه.

بعد كتابة هذه الفقرات الأخيرة، وضعت على مكتبي أقدم الصور في محفوظات الأسرة، من أجل تحديد الأسماء على الوجوه. كنت أبحث بدون أمل عن صورة لطنوس. وبالطبع، كانت صورته غير موجودة. وبالمقابل، عثرت على صورتين لسوسان، الأولى تظهر فيها وهي تحفِّض أحد أحفادها، والأخرى خلال نزهة برية، مع أفراد من العائلة، في منطقة تدعى "الخانوق"، لا شك لأنها بمنأى عن الريح، ولأن المرء يختنق

فيها في بعض أيام القيظ، ولكن يحلو الجلوس فيها ساعة الطراوة، أوائل فصل الربيع، ثم في أيلول/سپتمبر.

تنتزع هيئة جدتي الكبرى مني ابتسامة: فقد كان رأسها صغيراً للغاية، مسطحاً، يكاد يكون بيضاوياً، تحت قبعة عريضة من الأقمشة والأشرطة. كانت تقهقه عالياً، ربما بسبب القبعة تحديداً، لأنها لا تتلاءم مع أزياء الضيعة؛ ولعل أحدهم أعارها إياها للاحتماء من أشعة الشمس.

أعتزم أن أسحب من هذه الصورة الأكثر اصفراراً نسخةً لتأطيرها وتعليقها على حائط غرفتي. إنها توحي برغد العيش الذي قلما ينسب إلى الأسلاف الراحلين. كان هؤلاء يتلقون من الحياة أقل مما نتلقاه منها، ولكنهم يتوقعون منها أقل بكثير كذلك، ويسعون أقل منا للسيطرة على الغد. نحن الأجيال المتعجرفة التي تؤمن بأنها موعودة بدوام السعادة منذ لحظة الولادة - موعودة؟ من وعدها يا ترى؟

9

قبل المضي في السرد، أفتح قوساً، ساعياً لأشرح سبب تعبيري، منذ البداية، عن نزعتي الغريبة لقول "ضيعتي" بدون ذكر اسمها، و"أسرتي" بدون الإفصاح عنها، وغالباً "البلد"، "الوطن" و"الجبل" بدون المزيد من التوضيح لا يجب أن يعتبر

ذلك من قبيل الغموض الشاعري بل بالأحرى الدليل على غموض الهوية، نوعاً ما، وأسلوب - أعترف أنه غير مشرِّف - لتخطي صعوبة. ففي ما يتعلق بأسرتي وبلدي، يجب أن أتحدث عنهما لاحقاً على حدة؛ وفي ما يتعلق بضيعتي، آن الأوان لأتحدث عنها قليلاً.

كلما سألني أحدهم في طفولتي عن مسقط رأسي، اجتاحتني لحظة ضياع. فضيعتي متعددة. وعادة، أنتهي بالقول "عين القبو"، أو تحديداً، حسب اللهجة المحلية، "عين الأبو"، مع العلم أن هذا الاسم لا يرد إطلاقاً في أوراقي الثبوتية التي تذكر قرية "المَشرَع" المجاورة، ولكن هذا الاسم ليس متداولاً على الإطلاق، ربما لأن الدرب الوحيدة السالكة حادت عنها لتخترق "عين القبو" بالضبط.

وفي الحقيقة، لهذا الاسم الأخير امتياز الإشارة إلى واقع ملموس: فعين كلمة عربية تعني "نبع"، و"قبو" تشير إلى حجرة مقببة؛ وحين يزور المرء هذه الضيعة، يصادف فيها بالفعل نبعاً يتفجر من مغارة شيدتها يد بشرية، وتعلوها قنطرة؛ وعلى نصف الدائرة الحجري نقش قديم بالإغريقية تمكن عالم آثار نروجي يوماً من تفكيك حروفه، فتبين أنه قول من التوراة يبدأ كما يلي: "اِجرِ يا نهر الأردن". فمنابع نهر الأردن تقع على عشرات الكيلومترات من هذا المكان، ولكن تلك النقوش تعود للعصر البيزنطي، وترمز إلى أسلوب معهود في مباركة الماء.

بفضل هذا المعلم الأثري، اكتسب اسم "عين القبو" نوعاً من البداهة الجغرافية لا يملكه اسم "المَشرَع"، وهي كلمة آرامية غير واضحة الدلالة، تشير إلى السفح المشرف والمنزلق لجبلٍ، أو

ربما ببساطة إلى مكان مفتوح. وفي الواقع، المَشرَع هي سفح جبل، وضيعة عمودية، وعرة المسالك، لا يعيش فيها بيت في ظل الآخر.

وثمة تعقيد آخر في ما يخصني: فالبيت الذي اعتدت أن أدعوه بيتي غير كائن في "عين القبو"، أو في "المَشرَع"، إنما في قرية ثالثة لا يرد اسمها على أي لافتة، أو وثيقة من وثائق القيد المدني، وأهاليها وحدهم يعرفونها باسمها الحقيقي، وكذلك بعض العارفين القلائل: "كفريقدا"، وقد تحرف هذا الاسم باللهجة المحلية وأصبح يلفظ "كفريأدا"، تلطيفاً لحرف القاف الحلقي السامي، والذي قمت بتحويله أحياناً إلى باء في "كفريبدا"، ظناً مني أنني أجعله أسهل على اللفظ.

لربما توجب عليَّ التوضيح بأن كل هذه الأسماء التي يكن لها أهلي الإجلال لا تغطي سوى مساحة جغرافية مجهرية: فالقرى الثلاث مجتمعةً تضم، على أبعد تقدير، مائة نفس؛ ففي كفريقدا، مجرد كنيسة صغيرة وأربعة بيوت مع احتساب بيتي ومع ذلك، فهذه البلدة مذكورة في أقدم كتب التاريخ لأنها كانت في الماضي عاصمة - أجل، عاصمة!- لإمارة مسيحية مروِّعة.

كان ذلك في القرن السابع، وتلك الزاوية من الجبل تشكل ملاذاً لمن يطلقون على أنفسهم لقب "الأمراء الأشقياء"، وهم من الرجال البواسل الذين تمترسوا في معاقلهم المنيعة وقاوموا أعظم الإمبراطوريات في ذلك الحين. فالخلافة الأموية التي كانت تعيش أوج ازدهارها وأعظم فتوحاتها، وتبسط سلطتها على امبراطورية شاسعة تمتد من جزر الهند إلى الأندلس، وافقت،

لشدة خشيتها من هؤلاء الجبليين الماكرين، أن تدفع لهم جزية سنوية تحاشياً لمضايقاتهم وتسهيلاً لمرور قوافلها بسلام.

نصارى يرغمون الخليفة في دمشق على دفع جزية، وهو الذي يفرض الجزية في كل مكان على "أهل الكتاب"؟ كان إنجازاً عظيماً، ولكن هؤلاء المحاربين الشجعان، وأشهرهم المدعو يوحنا، شعروا بالأمان في معقلهم. وكما يشير الاسم اللطيف نوعاً ما الذي تطلقه عليهم المراجع التاريخية، لم يكن هؤلاء الرجال مجرد أشقياء بل كذلك أمراء لشعب غيور على استقلاله، شعب أصوله غير معروفة، ولعله قدم من ضفاف بحر قزوين، أو من جبال طوروس، وسعى جاهداً للحفاظ على حريته الأبية وسط الصخور. وأشدد في معرض الحديث على أن هؤلاء الرجال كانوا يقاتلون من أجل الحرية، لا من أجل أرضهم؛ فالجبل لم يكن ملكاً لهم أكثر من غيرهم، إذ استقروا فيه لاحقاً، بل مجرد ملاذ، وإطار لكرامتهم الغالية؛ وبسبب ذلك، كان باستطاعتهم أن يرووه بدمائهم يوماً، وفي الغد، يفارقونه بدون تأثر.

أجل، يوحنا وشعبه، في معركتهم غير المتكافئة مع الأمويين، بدعم من بيزنطية في بادىء الأمر، وكانت عدوة الخليفة اللدودة، إلى أن خطر ببال الخليفة الأموي اقتراح تسوية على الإمبراطور المسيحي: فبدلاً من دفع الجزية إلى "الأمير الشقي"، سوف يدفعها مباشرة إلى الحاكم؛ ولقاء ذلك، يساعده هذا على التخلص من هؤلاء الخارجين عن القانون. فوافق الإمبراطور البيزنطي من جهة لأنه اقتنع بحجة المال، إنما لأسباب أخرى أيضاً، ومنها ريبته من أهل الجبل المتعجرفين، والعصاة،

والمعتنقين عقائد إيمانية غير قويمة بالرغم من مسيحيتهم. فوافق على اجتذاب المتمردين بالحيلة والغدر إلى سهل البقاع حيث ذبحوا عن بكرة أبيهم. وفي الوقت عينه، أرسل جيشاً دمَّر قراهم وأحرقها، لا سيما أشهرها، تلك التي تضم قصر يوحنا، أي ضيعتي، ضيعتي المتناهية الصغر، والعاصمة غير المتوقعة التي أطلق عليها الأمراء الأشقياء بتبجح اسم "إسبرطة"، والتي سوف تحمل بعد سقوطها اسماً مفجعاً هو "كفريقدا" أي "القرية المحروقة".

وحتى اليوم، يكتشف المرء في الحقول، بجوار بيتي، رؤوس تيجان تخص البيوت النبيلة المهدَّمة.

إنَّ هؤلاء الأمراء الغريبين ليسوا أسلافي، وإن شكلوا جزءاً من أصولي، فبسبب إرث الحجارة. فقد وصلت "عشيرتي" لاحقاً؛ وفي عصر يوحنا، كانت ترتحل في البادية بين سوريا والجزيرة العربية.

وأصلاً، طوال ألف عام، لم يشأ أحد أفرادها الاستقرار في هذه الناحية من الجبل، وكأنها أرض ملعونة. ثم تجاسر أحد أسلافي في القرن الثامن عشر واشترى أرضاً فيها، وشيد بيتاً لأهله. ويشير العقد المؤرخ في عام 1734 إلى أن العقار المذكور يقع "في الضيعة المحروقة، حي الأنقاض".

في هذا المكان، ولد طنوس، في القرن التالي، وهنا استقر مع سوسان حوالى العام 1861، وأبصر في هذا المكان النور أولادهما العشرة.

10

مارس جدي الأكبر، بعد أن أصبح رباً لأسرة كبيرة العدد، وبصورة طبيعية، السلطة التي يمنحه إياها وضعه وعصره. وبالتالي، كان، وبصورة طبيعية كذلك، حجر العثرة الذي اصطدم به أبناؤه ليشتد عودهم. غير أن الأسلوب السريع والملائم الذي وضع به حداً لتمرد بطرس يحمل على الاعتقاد أنه لم يمارس أبداً صلاحياته، وعرف أن يتجنب وقوع ما لا يحمد عقباه في خلافات أسرته، كما حصل في بيوت أخرى، وكما سيحصل، بعد عشرات السنين، في ذريته، لأن أحد أحفاده سوف يموت بسبب رغبته في القيام بما فعله بطرس بالضبط في صباه، أي متابعة التعليم أبعد مما اعتبره أهله ضرورياً.

في الفترة التي كان طنوس رب الأسرة، لم تفض الصراعات إلى المآسي بل إلى إحراز تقدم، كما تشهد على ذلك هذه السطور من رسالة بعثها طنوس إلى بطرس في أواخر عام 1895:

> من حيث حضور يمنى للمدرسة، هذا في بالنا وخبّرناكم قبلاً فكرنا وأن تدبروا المدرسة التي توافق حتى نرسلها.

وعلى هذا النحو، صار هذا الرجل الذي رفض قبل سنوات السماح لابنه بمتابعة الدراسة خارج الضيعة، يقبل أن تسلك ابنته هذا المسلك، بل يكلف ابنه المتمرد أن يختار لها المدرسة الملائمة. لكم تطوَّر بسرعة!

بعد ترجمة هذه السطور، وضعت رسالة سلفي على مكتبي،

ورحت أداعبها بظاهر يدي، وأقوم بتمسيدها، فأفرد زاوية مجعَّدة، ثم أنفخ عليها لأزيل بعض خيوط الغبار.

لا أملُّ تأملها وقراءتها. إنها الوحيدة في محفوظاتي التي تحمل توقيع طنوس، ولا أظن أنه كتب الكثير غيرها. وبقاؤها، لعمري، أعجوبة؛ فقد كان أعمامي وعماتي يعتقدون أن جدهم لا يجيد القراءة والكتابة. وتطلب الأمر أن أطلعهم على رسالته! وأن أشير، على وجه الخصوص، في ختامها، إلى تلك السطور القليلة التي كتب فيها لابنه يقول:

> جريدة "الأحوال" ليس عمَّال تصل غير كل شهر. فهِّمْ المدير: قطع الاشتراك أم وصولها بالوقت.

تسرُّني هذه الجملة العادية! فهكذا إذاً، بعد قرون من الجهل والخنوع والإذعان والاستبداد، ها هو ذاك الفلاح العثماني، جدي الأكبر، يتصرف فجأة كمواطن! سدَّد اشتراكه، ويطالب باستلام جريدته بدون تأخير!

لدى قراءة رسالته ثانية، أجد نفسي مضطراً للتخفيف من حماسي. فحتى لو كان سلفي يجيد الكتابة، يشعر المرء أن خطه يلوح كخط طفل، وأن أسلوبه أقرب إلى العامية منه إلى الفصحى، وهذا ما يؤكده ضمناً مرجعنا العائلي "الشجرة" إذ يصفه "بالقوال المعروف بذكائه" - وكان القوال في الجبل هو الشاعر باللغة العامية، وشخصية نبيهة عموماً، ولكنها تعجز في أغلب الأحيان عن تدوين قصائدها على الورق. (وأصلاً، كان تعبير "المعروف بذكائه" أسلوباً غير مباشر للتلميح بأنه "أمِّي"،

فأهلي غالباً ما يتكلمون على هذا النحو؛ وحين يأبون الحديث عن عيب في أحد أقاربهم، يخفونه وراء مديح يشير إليه ضمناً).

لا يذكر كتاب "الشجرة" المزيد عن طنوس. فهذا المؤلَّف الذي يقع في 750 صفحة على الأقل، لا يخصص له سوى نصف سطر، ولا يذكر شيئاً من مآثره. وفي وثائقنا كذلك، لم يحفظ بيت من أبيات قصائده الزجلية. بحثتُ ونقَّبتُ بدون جدوى، ولم أعثر على شيء...

هكذا، كل ما نظمه سلفي؛ وكل ما أراد التعبير عنه - الشوق، والقلق، والفخر، والرهبة، والألم، والأمل، والجراح- كل شيء ضاع، واندثر إلى الأبد بدون أن يخلف أي أثر!

لا أظن أن أعماله كانت عظيمة، فلم يكن عمر الخيام أو فرجيل، ولعل شعره يخلو مما يستحق الحفظ، ولعل في هذا الزجل بيتاً واحداً، بيتاً يتيماً، أجل، أو صورة، أو استعارة، كانت لتستحق أن تبقى كي لا يغيِّب النسيان قائلها.

كم من الأشعار والقصص، من صميم الواقع أو من بنات الخيال، طواها النسيان لأنها لم تدوَّن! ماذا بقي لنا أصلاً من الماضي - ماضي أهلنا، وماضي البشرية جمعاء؟ ماذا وصل لنا من كل ما قيل، من كل ما هُمس، من كل ما حيك منذ أجيال وأجيال؟ لا شيء أو بالكاد، مجرد حكايات مصحوبة بتلك العظة الثانوية التي تسمى عن غير حق "حكمة شعبية"، وهي مدرسة من العجز والإذعان.

غالباً ما نسمع البعض يمجد التقليد الشفهي! أما أنا فأدع ذلك الإعجاب الخاشع للمستعمرين التائبين. لا أكن الإجلال سوى للمكتوب. وأبارك السماء لأن أسلافي، منذ أكثر من قرن،

بادروا إلى تدوين وتجميع وحفظ آلاف الصفحات التي أحرقتها عائلات أخرى، أو تركتها تتعفن في سقيفة، أو أغفلت كتابتها ببساطة.

11

بعد هذا الاستطراد المشوب ببعض الرواسب القديمة والضغائن العتيقة، أتابع حبل السرد حيث انصرم، أي في الفترة التي رحل خلالها بطرس عن بيت أهله إلى مدرسة المرسلين. وهناك، طوال خمس سنوات، درس وعلَّم، أولاً في عبيه، ثم في مدرسة أخرى قام بتأسيسها القساوسة الأميركيون أنفسهم في سوق الغرب، وهي بلدة كبيرة نجحوا في إقناع قسم لا بأس به من أهاليها باعتناق البروتستانتية.

لدى الإطلاع على الوثائق العائلية التي تعود إلى تلك السنوات، اكتشفت أن هذا الشاب الذي سيصبح جدي لم يطمح فقط إلى نيل الشهادات وتحصيل العلم، بل كان يمني النفس كذلك بالرحيل يوماً إلى بلاد بعيدة.

وثمة نص واضح بهذا الصدد في وثائقنا. كلمة ألقاها في حفل مدرسي، بالإنكليزية - ولا بد أن هذا الأمر كان غير مألوفٍ على الإطلاق، لأن بطرس شعر بالحاجة للتفكير به، بحماس شبه طفولي، ومزعج بعض الشيء.

> أيها السادة الأجلاء،
> سوف أخاطبكم بالإنكليزية، مع العلم أن معظم الحاضرين لن يفهموا كلامي. لا تظنوا أنني أرمي إلى استعراض معارفي، بل غايتي أن أبرهن لكم مدى سهولة تعلم هذه اللغة، وأن أثبت لكم أنها أكثر اللغات التي نحتاج لتعلمها في هذا العصر

وتلي هذه المقدمة حجج مختلفة للإشادة بفائدة الإنكليزية للتاجر والمسافر والطبيب والصيدلي والمهندس والمعلم، ولكل رجل متعطش للعلم والمعرفة، لأن الكتب الإنكليزية تحتوي بلا شك على معارف كثيرة، في كل الميادين، بعكس اللغات الأخرى.

ثم يضيف الخطيب أن الانكليزية بالنسبة لأبناء بلده:

> لغة ضرورية لأن الفقراء منا والأغنياء قد يسافرون إلى أميركا أو أستراليا، إن لم يكن في الحال، فعلى الأقل في القريب العاجل، لأسباب لا يجهلها أحدهم. أليس من البؤس أن يجد أحدهم نفسه عاجزاً عن النطق بلسان القوم الذين سوف يعيش ويعمل معهم؟

وبعد أن أعلن على هذا النحو، بسذاجة، دون أدنى تشكيك أو أيما تحفظ في الأسلوب، ما كان يبدو له – ولقسم كبير من السامعين – بداهةً لا تحتاج إلى برهان، سعى جدي العتيد لتعليل سهولة تعلم الإنكليزية، قبل دعوة الحضور لمشاركته في هتافه:

> تعيش البلدان الناطقة بالإنكليزية!
> تعيش اللغة الإنكليزية!

أحاول ألا أبتسم لدى سماع هذه الهتافات المؤثرة والغريبة. وأسعى بالأحرى لتخيل نفسي مكان فلاح شاب عثماني في أواخر القرن التاسع عشر، فتحت أمامه فجأة نافذة على العالم، وكان همه الوحيد أن يفر من سجنه عبر هذه النافذة بأي ثمن.

أما ما يتجلى في هذا الخطاب، فتصور بطرس لنفسه مهاجراً عتيداً، واعتباره اللغة الإنكليزية أولاً "عدةً" لا غنى عنها للقيام بهذه الرحلة العظيمة.

مع مرور الوقت، وهو امتياز الأجيال اللاحقة، تتوضح بعض الأمور التي كانت تخفى على المعاصرين، ويتبدد بعض الالتباس. فالواقع أن جدي، كما تبدو لي الأمور اليوم، كان ضحية سوء تفاهم تحديداً: فلو شاء الهجرة، كما يفصح كلامه، كان لا بد أن يهاجر على الفور، بدون المرور بمدرسة المرسلين المشيخيين، لأن هؤلاء لم يكونوا يعتزمون إعداد الشباب للهجرة على الإطلاق على الرغم من بعض المظاهر. ولئن حرصوا على تعليم الإنكليزية لتلامذتهم، فللسماح لهم بتحصيل العلم بصورة فضلى، وإفادة وطنهم مما تعلموه، لا للرحيل من أجل إنشاء البقاليات في ديترويت أو بالتمور! كان طموح المرسلين إنشاء أميركا مصغرة في المشرق، فاضلة ومتعلمة ومجتهدة وبروتستانتية. وقد فرضوا على تلامذتهم أولاً إتقان العربية، وثابروا هم بدورهم على دراسة هذه اللغة لينطقوا بها ويكتبوها مثل أهلها. وقلائل هم الغربيون الذي سوف يجشمون أنفسهم هذا العناء بعد هذا الجيل من الرواد

في مدرسة هؤلاء الأجانب الأجلاء، سوف "يستعد" بطرس إذن لا للهجرة، كما كان يطمح، بل على العكس، لمقاومة إغراء الرحيل؛ وإذا كان هذا النداء القوي للأميركيتين لن يختفي تماماً

من أفقه، فسوف ترافقه من الآن فصاعداً تحفظات أخلاقية راسخة تقوم بتقييده.

في سن السادسة والعشرين، سوف يغادر جدي مدرسة المرسلين مزوداً بإفادة طويلة مزخرفة عثرت عليها كما هي في وثائق الأسرة، ممهورةً باسم "المدرسة اللبنانية للصبيان في سوق الغرب"، وتفيد - بالإنكليزية، ثم بالترجمة العربية - أن بطرس م. "أكمل بامتياز مرحلة التعليم التي قررتها في سوريا بعثة مجلس الإرساليات الأجنبية للكنيسة المشيخية في الولايات المتحدة، وبناء عليه، أعطيت له هذه الشهادة بتاريخ 1 تموز/جويليه في سنة الرب ألف وثمانمائة وأربعة وتسعين". الإمضاء: "أوسكار هاردن، المدير".

لا ريب أن بطرس تأثر، بل، وبقدر كبير، تقولب مجدداً بفضل اختلاطه بالمرسلين؛ ولكنه أبى أن يتبعهم في المجال الذي كان الأهم بنظرهم، لأنه لن يقبل اعتناق البروتستانتية أبداً.

ولدى الإطلاع على مفكراته في تلك الفترة، يخالجني الشعور كذلك أنه لم يتأثر بكل ما هو ديني في تعليمهم. كان بطرس يعيش في بيئة الإنجيل فيها حاضر أبداً ودائماً، يتلى بلا كلل أو ملل، مراراً وتكراراً، أو يخضع للتعليق، ويستشهد بآياته في كل المناسبات، فيكفي أن يقول أحدهم "سفر الرؤيا 12، 7"، أو "أهل غلاطية، 3، 26 إلى 29" ليفهم السامعون الإشارة أو التلميح، إلا أنه لن يلجأ إطلاقاً إلى اقتباسات إنجيلية، لا خلال السنوات الخمس التي أمضاها لدى المشيخيين، ولا بقية حياته. لم يكن هذا العالم عالمه، أو هذا النمط من التفكير نمطه. كان يعتبر أن جملة واحدة مقتبسة من كتاب، أكان مقدساً

أم دنيوياً، لا يستبدل حجة عقلانية، ولا يغني المرء عن التفكير بعقله.

غير أن لابتعاده عن أساتذته أسباباً أخرى. ففي مفكراته خلال تلك السنوات - ثمة مفكرتان متطابقتان في صغر حجمهما، ومربعاتهما الصغيرة، وغلافهما الأسود، ولونهما المائل إلى الحمرة - أقرأ على سبيل المثال ما يلي:

ونـــهـــودٌ رمـــانُ مـــن عـــاج   مـــن نـــورٍ دافـــقٍ كـــالأمـــواجِ
وحكى الصدرُ الشفق الوهاجْ   محجوباً من تحت السترِ

وتشير هذه الأبيات إلى أن تأملاته الحميمة لم تسلك تماماً الدروب التي يتمناها المرسلون المبجَّلون.

ولكن بطرس لا ينتقد أساتذته في أي موضع آخر - فالرجل الأصيل لا يرمي حجراً في البئر التي ارتوى منها! إلا أن كل الدلائل تشير إلى أن تزمت هؤلاء المرسلين، بعد اختلاطه اليومي بهم طوال خمس سنوات في الصفوف والمدرسة الداخلية، قد سبب له الضيق في نهاية المطاف، وكذلك تراتيلهم، وإيماءاتهم، وعظاتهم، وصلواتهم، بل حتى نبرة أصواتهم المخنخنة. فكظم غيظه لحين نال الشهادة. شكرهم بتهذيب، ثم دار على أعقابه، وابتعد عنهم متعهداً ألا يعود أدراجه أبداً. وفي الواقع، لن يلتقي بهم لسنوات طويلة. وسوف يسلك طريقاً آخر، إن لم نقل معاكساً.

سوف يتطلب الأمر ثورة مفضوحة، وحرباً صغيرة، وأخرى أكبر، قبل أن يقرر قرع بابهم مجدداً.

12

لو سلك عمي الأكبر جبرايل طريق جدي - الأكبر منه سناً بتسع سنوات - لما هاجر وكتب الصفحة الكوبية في سيرة عائلتنا. فالأمور لم تجر على هذا النحو. لا شك أن الحلم نفسه راود الشقيقين في صباهما - الرحيل يوماً إلى بلد بعيد جديد؛ ولكن طباعهما كانت مختلفة. فالأخ الأصغر لم ير فائدة في الاستعداد للرحلة العظيمة، ولم يتوقف في عبيه أو سوق الغرب، ولم يسع أبداً لتعميق معرفته باللغات. واكتفى بالسفر، في سن الثامنة عشرة، على متن باخرة مبحرة إلى أميركا.

كان قد أكمل دراسته في الضيعة، ولو شاء، لانتسب بدوره إلى مدرسة المرسلين، فطنوس لن يعارض أبداً هذه المرة. إلا أن جبرايل لم يشأ ذلك، بل لم يشجعه الواعظ خليل نفسه البتة. كان تلميذاً نبيهاً بل متوقد الذهن، بشوشاً، اجتماعياً، كريماً، يتحلى بخصال حميدة كثيرة؛ ولكنه كان عاجزاً عن الانكباب ساعتين بحالهما على كتاب في النحو، أو البلاغة، أو اللاهوت. وكان كذلك غير قادر على حمل المعول والحراثة.

وفضلاً عن ذلك، كان لا يؤمن إطلاقاً بمستقبل بلده الذي أبصر فيه النور، ولا بمستقبله الشخصي على سفح هذا الجبل. وهكذا مضى الفتى بدون أسف أو ندم سيراً على الأقدام، في ليلة مقمرة، نحو مرفأ بيروت. لم يخطر والده أو والدته، ولعله أخطر هذا الأخ أو ذاك.

في الوثائق العائلية، يصادف المرء - بعد مرور قرنين! - آثار القلق التي خلّفها رحيله. فكتب بطرس لأهله مرتين يقول:

"إذا وصلكم كتاب من جبرايل، أرسلوه لي على الفور وسوف أكون لكم ممتناً".

ويشكو تيودورروس في ديره: يبدو أننا تلقينا كتاباً من جبرايل، لماذا لم أعرف بالأمر؟

وأقدم إشارة للحدث توجد في الرسالة، المذكورة أصلاً، والموجهة من بطرس إلى أبيه:

أما جبرايل، فأرسلُ لك كتاباً كتبته له لتقرأه وترسله له لأنني لا أعرف عنوانه.

حين عرضت، في صفحات سابقة، تلك الرسالة الفريدة التي تحمل خط طنوس، حددتُ تاريخها "بأواخر العام 1895". والحقيقة أنها لا تتضمن أي تاريخ، وقد توصلت إلى هذه الفرضية بواسطة التحري والمقارنة، وكان عنصر التأريخ الأساسي رحيل جبرايل تحديداً.

فالوثائق العائلية تتضمن معلومة ثمينة وإن كانت لا تحدد الشهر أو السنة لتلك الرحلة: فالشاب لم يقصد هافانا مباشرة بل استقر أولاً في نيويورك، مما أحالني إلى سجلات "إليس أيلاند" التي ظلت لعقود عديدة بوابة الدخول الإلزامية للمهاجرين الوافدين من أوروبا والمشرق. وفي يوم من الأيام، حالفني الحظ - والتأثر! - فلمحت في سجل قديم هيئة عمي الأكبر التائه.

كان اسمه مدوَّناً كما يلي: "Gebrail"، وشهرته لا تختلف عن الشهرة التي اعتمدها عادة. وبالتالي، ليس ثمة شك حول هوية الشاب الذي وصل إلى جزيرة الأوهام بتاريخ 2 كانون الأول/ديسمبر 1895.

السن: 18 عاماً.
المهنة: مزارع.
الجنسية: سوري.
مرفأ الإنطلاق: الهافر، السين الأدنى، فرنسا.
اسم الباخرة: مارسالا (2422 طناً).
الوجهة: نيويورك (إقامة طويلة).

لا شيء مباغتاً في هذه الاستمارة التي وقعها ج. لينز، القبطان الألماني لباخرة "مارسالا"، ولا حتى المرور بمدينة الهافر الفرنسية؛ فالرحلة إلى أميركا كانت تجري عموماً على مرحلتين، الأولى حتى أوروبا - غالباً فرنسا -، ثم يبحر المسافرون على متن باخرة عبر الأطلسي. والمفاجأة الوحيدة لي أن جبرايل لم يغادر القرية بمفرده. كان اسمه، التاسع في الاستمارة، يسبق اسم فرد آخر من أفراد الأسرة: جورج، أحد أبناء خليل. وكل الخانات في الاستمارة التي تخصه مطابقة تماماً لتلك التي تخص جبرايل، بدءاً من السن: 18 عاماً كذلك.

لن يرد ذكر جورج - واسمه جرجي في وثائق العائلة باللغة العربية - في هذه الصفحات. فلا أعلم عنه الكثير بل ما يكفي لأكترث لرحيله مع جبرايل. فابن الواعظ هذا رحل إثر خلاف مع أبيه؛ وكان خلافاً عميقاً لأن خليل سوف يموت بعد سبعة وعشرين عاماً، ولم يتصالح مع ابنه.

ليس بوسعي سوى المقارنة بين هذه القطيعة وتلك التي حصلت بين خليل وأبيه، الخوري جرجس، ولم يضع حداً لها سوى موت الأب، الأمر الذي يجعلني أستحضر حديثاً نبوياً شريفاً

مفاده أن كل الذنوب يؤخِّر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة، إلا عقوق الوالدين، فإن الله يعجِّله لصاحبه في الحياة قبل الممات.

ليست غايتي إلقاء التهمة على خليل، فبطرس كان يشعر نحوه بالامتنان، وأنا بدوري أدين له بالكثير، كما ستتاح لي الفرصة للتوضيح في الصفحات التالية. ولكن، لا ريب أن "الخلاف الأولي" بينه وبين أبيه قد أرسى، بواسطة لعبة الطعنات والمحاكاة، شكلاً من "التقليد" العائلي الراسخ والمتكرر: تقليد الخصومات بسبب الخلافات الدينية المتسمة بديمومتها مدى الحياة.

لن أعرف أبداً بدقة أسباب الخلاف بين خليل وابنه. ويبدو لي أنه كان خلافاً حول نمط الحياة أقل منه حول المعتقدات. وهذا مجرد افتراض - فبعد كل هذه السنوات، لا يخلو التأكيد من المخاطرة، وربما يجدر بي أن أذكر، على الرغم من كل شيء، أن بيت المبشر المشيخي كان يسوده جو من الصرامة والتزمت، كما تشير تلك الذكرى التي ترويها إحدى حفيداته، والجدة والأم المذكورتان في ما يلي هما زوجة خليل وابنته على التوالي:

"في الضيعة، كنت أرى الأهل يحضنون أولادهم عشر مرات في اليوم، لملاطفتهم وغمرهم بالقبلات. أما في أسرتنا، فالأمور كانت لا تجري إطلاقاً على هذا النحو. وفي أحد الأيام، سألت أمي، ببراءة الأطفال: "لماذا لا تقبلينني أبداً؟". وفجأة، بدت لي مترددة ومتزعزعة، وهي التي لطالما كانت واثقة من نفسها، وأجابت بفظاظة: "أقبلك عندما تكونين نائمة". أرغب بتصديق كلامها. وبالمقابل، أنا على يقين أن جدتي لم تقبلني يوماً ولا حتى أثناء نومي".

تظهر تلك الجدة، واسمها صوفيا، في صور كثيرة من صور العائلة، ودائماً بثوب طويل داكن، لا تعلو وجهها ابتسامة. كانت من سوق الغرب، وتنتمي إلى إحدى العائلات الأولى في جبل لبنان التي اعتنقت البروتستانتية على يد المرسلين الأميركيين.

وتروي حفيدتها أيضاً:

"كان الكثيرون، في بيئتها، مثلها، على قدر كبير من التزمت. وفي أحد الأيام، فيما كنت مع إخوتي وأختي في ضيعة جدتنا، ذهبنا لزيارة إحدى قريباتنا. في تلك الفترة، كنا نعشق الزيارات لأنهم يقدمون لنا الشراب البارد، والفاكهة المجففة، والسكاكر أما هذه المرة، فقد خاب أملنا. كانت تلك القريبة تقرأ الإنجيل، لدى وصولنا، وبدلاً من التوقف لاستقبالنا، اكتفت بالإشارة إلينا للجلوس، وتابعت قراءتها الورعة بصوت مرتفع. جلسنا مستغربين، أنا وإخوتي وأختي، نصغي إليها بصمت، لا نحرك ساكناً، لا نجرؤ على التنفس عالياً، لفترة بدت لنا أنها لن تنتهي. وفي لحظة من اللحظات، ضقنا ذرعاً، فتبادلنا النظرات، ثم نهضنا بشجاعة. واستأنفت السيدة قراءتها بصمت. وبالطبع، لم تقدم لنا شراباً وحلوى بل لم تسألنا عن صحتنا أو توجه لنا ابتسامة. ولئن رويت قصة هذه القريبة، فلأن جدتي صوفيا كانت مثلها تماماً".

لا تبرِّر لي هذه الشهادات سبب تلك القطيعة النهائية بين جرجي وأبيه، ولكنها تساعدني قليلاً على تفهم شعور هذا الشاب البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً بالحاجة للفرار من البيت، والسبب الذي دفع سبعة من أبناء الواعظ الثمانية على الاستقرار في بلدان المهجر.

في بيت طنوس، كانت الأمور لا تجري أبداً بهذه الصرامة.

فأبناؤه كان يسمح لهم بسلوك مسارات متعارضة فيتحولون إلى قساوسة، وواعظين، أو ماسونيين. فالأولوية للأواصر العائلية بين الأب والابن، الأخ والأخت ـ، الأخ والأخ -أواصر وثيقة إلى الأبد. ولما رحل بطرس غاضباً، سعى طنوس على الفور لمصالحته، ولو على حساب المخاطرة بسلطته الأبوية. وحين رحل جبرايل بعد ست سنوات، سارع طنوس لمراسلته. ولا أظن أن خليل تصرف على هذا النحو لدى رحيل جرجي.

ولئن قارنت بين العائلتين، فلأن أصولي تعود إلى الواحدة والأخرى على حدٍّ سواء، كجدولين مختلفين سوف يترافدان. . .

فالمبشر، مثل طنوس، جد أكبر لي. وسيرة أهلي هي أولاً سيرة امتزاج تلك المياه.

من بين هذين السلفين، سوف يموت طنوس أولاً - في الأسابيع الأولى من عام 1896، عن عمر يناهز الخامسة والستين، بعيد كتابة رسالته اليتيمة التي بحوزتي، ولعل بطرس حافظ عليها لأجل ذلك.

لدى قراءة السطور التي تذكر جبرايل مجدداً، أتساءل إن كان الأب القلق قد تلقى، قبل وفاته، من ابنه بعض كلمات المصالحة. وبعد التفكير بالأمر ملياً، لا أظن أن ذلك قد حصل. فأولئك الذين يرحلون في سن المراهقة قلما يستعجلون الكتابة لذويهم. وفي كل الأحوال، فات الأوان، ولن أعلم شيئاً حول هذه المسألة.

يبدو لي أنني لن أعاود الحديث عن طنوس في الصفحات التالية، فقد استنفذت كل ما جمعته حوله، ورضخت لبقاء ما تبقى

في الظل، والحقيقة أن الحصاد كان بإمكانه أن يكون أكثر شحةً. فالأسلاف أشخاص سحيقون، وليس بوسع شخص من أصل ألف أن يحدد أسماء أسلافه. ومع ذلك، فمساراتهم قادت إلى مساراتنا، وفي ما يتعلق بي، لا أستطيع أن أتعامى عن كون طنوس أول سلف لي يترك "لي" أثراً مكتوباً عن عبوره هذه الدنيا - مكتوباً بخط أخرق، أقرُّ بذلك؛ إلا أن مبادرته لا تقل تأثيراً.

13

لا بد أن جبرايل أجرى قبل الإبحار حديثاً مطولاً مع بطرس. فبعض الجمل في رسائلهما اللاحقة تحمل على الاعتقاد أن الأخ الأصغر سعى لإقناع أخيه بمرافقته في هذه المغامرة، وأن بطرس تردد قبل أن يرفض.

كان جدي موجوداً أصلاً في بيروت آنذاك، وليس من المستبعد أن يكون قد رافق أخاه ورفيقه إلى المرفأ، ولوَّح لهما بيده مودعاً لدى ابتعاد الباخرة.

استقر في العاصمة اللبنانية العتيدة قبل سنة، في أيلول/ سپتمبر 1894. كان يتابع دروساً في الحقوق أساساً، وفي اللغة التركية، والفرنسية، والمحاسبة، ويدرِّس كعادته أيضاً. لم يفعل ذلك لتسديد أقساطه المدرسية وتأمين مصروفه كما في عبيه وسوق الغرب. فقد استهل حياة مهنية جدية في سلك التعليم. في مدرسة

بروتستانتية؟ لا بل في أكثر المدارس كاثوليكيةً، المدرسة البطريركية التي قام بتأسيسها، كما يشير اسمها، البطريرك الكاثوليكي لنشر التعليم في رعيته. وهكذا، بعد شهرين على نيل شهادة من يد قس أميركي، عاد بطرس إلى كنف طائفته! لا شك أنه سئم - قبل غيره- التزمت الذي يسود لدى المرسلين؛ غير أن هذا التخطي المستهتر للخط الفاصل بين الطوائف المتنافسة كان يدل، من جهته، على لامبالاة عميقة بالعقائد الدينية. كان يدرس حيثما يستطيع الدراسة، ويعلم حيثما تعرض عليه وظيفة، ويعتبر أن هذا من حقه وواجبه؛ وليسع القساوسة والخوارنة بعد ذلك ما طاب لهم لتحقيق أهدافهم الرعوية الإرسالية.

أقام جدي العتيد ثلاث سنوات في بيروت التي سيعشقها ويعود إليها مراراً للإقامة فيها أثناء حياته. كانت المدينة في ذلك الوقت تعيش ازدهاراً منقطع النظير؛ فقد شجعت مذابح 1860 على نهوضها. والكثيرون ممن كانوا، حتى الحين، يغفون بكسل وخمول في قرى الجبل، ويظنون أنفسهم محميين من شراسة العالم، صحوا مع هذه الأحداث من غفلتهم. فارتأى أكثرهم جرأةً السفر ما وراء البحار - وبدأت حركة هجرة كثيفة لن تتوقف، نحو مصر والقسطنطينية أولاً، ثم أبعد فأبعد، إلى الولايات المتحدة، والبرازيل، وسائر القارة الأميركية، وكذلك أستراليا. أما أقلهم مغامرةً - وهم غالباً ممن يعيلون أسرةً، فاكتفوا "بالنزول" من ضيعتهم إلى المدينة الساحلية التي راحت شيئاً فشيئاً تتخذ شكل الحاضرة.

في عام 1897، اضطر بطرس لمغادرة بيروت إلى زحلة، وهي مدينة أقل انفتاحاً على العالم، ولكنه يملك فيها صلات

متينة: فأمه، سوسان، ولدت فيها، وكانت أسرتها كبيرة العدد وواسعة النفوذ. وفضلاً عن ذلك، يبدو أنه تلقى عرضاً مغرياً، "أستاذ البيان والرياضيات" في أفضل مدرسة آنذاك، المدرسة الشرقية الباسيلية الكاثوليكية التي قام بتأسيسها الرهبان الملكيون من أخوية القديس باسيل التي كان ينتمي إليها أصلاً أخوه تيودوروس.

لا أعرف المكانة التي كان يحتلها جدي في المدرسة البطريركية، ولكن الإطلاع على مفكراته في تلك الفترة يوحي أن منصبه الجديد كان بمثابة الانطلاقة الحقيقية في حياته المهنية. حياة مهنية توقع منها الكثير - لا بل أكثر مما ينبغي، بدون شك؛ فكانت الخيبة محتومة! كان على استعداد للإقرار، بترفع، أنها وظيفة مجزية الأجر بشكل معقول، وضرورية كمورد رزق، لا سيما أنه اضطر منذ رحيل والده إلى تأمين حاجيات أمه وإخوته وأخواته الأصغر سناً؛ ولكنه يشدد تشديداً واضحاً على أنها، أولاً وأخيراً، التزام معنوي وسياسي نبيل، وبداية معركة طويلة لإصلاح عقول أبناء بلده إصلاحاً جذرياً، وهي معركة متواضعة ولا تخلو من الغلو في الطموح في آن، لأن غايته كانت - كما كتب بوضوح- "السعي للحاق الشرق بالغرب بل تجاوزه"، لا أقل.

أما الداء الذي تعاني منه أرض الأجداد، فلم يكن تشخيص بطرس أقل قساوةً من التشخيص الذي حمل جبرايل على اختيار درب الهجرة؛ ولعله هو الذي نقل إلى أخيه الأصغر سناً رؤيته المتشائمة. ففي كتاباته التي تعود إلى تلك الفترة، تتكرر على الدوام عبارات مثل "الوضع المزري للبلاد"، و"انهيار بلدان المشرق"، "والفساد والإهمال"، و"تجهم الأفق" كان بدوره يحلم بالحرية والرخاء، بأميركا وأستراليا، كما يظهر جلياً في

مديحه الساذج للغة الإنكليزية. إلا أن دراسته في مدرسة المرسلين عززت لديه حساً مرهفاً بالمسؤولية: وبدلاً من الرحيل والإقامة في بلد آخر، حيث الحياة أفضل، لم لا يسعى ليصبح بلده أفضل؟

كان لا بد من محاربة الجهل لتحسين أوضاع البلاد! ألا يتساوى هذا الطموح مع طموح أخيه جبرايل؟ أليست تلك المعركة مغامرة أكثر تشويقاً من السفر إلى أميركا؟ أليس الأجدى بناء أميركا أخرى عندنا، في المشرق، في أرض الأصول، عوضاً عن الانضمام بغباء إلى تلك الموجودة أصلاً؟

في شوارع زحلة القديمة، كما في مقاهيها على ضفاف البردوني، كان بطرس يلفت الأنظار، ويصفه أولئك الذين عرفوه في تلك الفترة بالشاب الأنيق، المتميز بهندامه الذي لا يخلو من الاستفزاز.

كان يمضي دائماً حاسر الرأس، الأمر الذي يجعل المارة يتلفتون لدى مروره في الشارع. ففي تلك الفترة، كان معظم الرجال يعتمرون غطاءً للرأس شرقياً، إما الطربوش الطويل، أو الطربوش القصير المعروف بالمغربي، أو الكوفية العربية، أو القلنسوة المطرزة، أما الذين يتبعون الزي الإفرنجي، فيعتمرون البرنيطة، والكثيرون منهم أصلاً ينتقلون من الطربوش إلى البرنيطة على هوى المناسبات غير أن لا رجل محترم كان يخرج حاسر الرأس سوى جدي. كان بعض المارة لا يتمالكون أنفسهم عن التمتمة أو التذمر، بل أحياناً يوبخونه، ولكن كل ذلك لم يمنعه من السير مكشوف الرأس حتى آخر يوم من حياته.

وكما لو شاء التأكيد على فرادته، كان يضع دائماً على كتفيه مشلحاً أسود، معقوداً من الجهة الأمامية بمحبس ذهبي، يتطاير

خلفه كجناحين. ويرتدي تحت هذا المشلح بزة سوداء كذلك، وقميصاً أبيض عريض الياقة فضفاضاً. وكان لا أحد في المدينة يشبهه في هيئته حتى صار الناس يميزونه من بعيد.

في تلك المدينة العثمانية الهادئة، والناعسة بعض الشيء، الواقعة على منتصف الطريق بين بيروت ودمشق، سرعان ما تحول بطرس إلى شخصية محلية مشهورة، وليس فقط بسبب زيه؛ فبوصفه أستاذاً، وشاعراً وخطيباً، كان حاضراً في كل المناسبات والاحتفالات، وقد نظم قصائد كثيرة للمناسبات، كاحتفال بترسيم بطريرك أو بزيارة حاكم أو مطران، أو كذلك في الأعراس والمآتم واليوبيلات - كان يهدر جهداً عظيماً، على حد رأيي المتواضع، ولكن تلك كانت روح العصر.

ولحسن الحظ أنه كتب كذلك في تلك الفترة بعض النصوص الطويلة، لا سيما مسرحية نثرية وشعرية قام بتمثيلها تلامذته. ومخطوطها محفوظ في وثائق الأسرة، على دفتر أسود كبير، يتضمن بطاقة دعوة - "العروض في 19 تموز/جويليه 1900، الساعة الثانية والنصف بعد الظهر للنساء، وفي 20 تموز/جويليه في الساعة نفسها للرجال".

وعنوان المسرحية: عواقب الغرور، مرفق بالعنوان الثانوي التفسيري التالي: "تمثيل ما في الحالة الشرقية الحاضرة من سيرة حميدة وسيرة ذميمة مع الحض على الأولى والتحذير من الثانية" وتروي المسرحية قصة مهاجر يعود إلى وطنه بعد أن سئم سنوات الغربة الطويلة ولكن كل شيء يتواطأ لإحباطه.

منذ المشاهد الأولى، يحتدم النقاش حول المعضلة الحتمية: هل يجب الرحيل أم البقاء؟ وتتبادل الشخصيات حججاً معاصرة واستشهادات قديمة:

شخصية أولى:

وإذا رأيتَ الرزق ضاق ببلدةٍ   وخشيتَ فيها أن يضيق المكسبُ
فاذهبْ فأرض الله واسعة الفضا   طولاً وعرضاً شرقها والمغربُ

شخصية ثانية:

خليلي عذ عما أنت فيه   وقانا الله شرَّ الخطاء
رأيتك قد أصبتَ الداء لكن   لقد أخطأتَ في وصف الدواء

لا شك يا خليل أن ما قلته في حالة البلاد هو فيه الحق ونفس الصدق ولكن ليس الرأي في الإصلاح ما عوَّلتَ عليه من الجلاء لأن المهاجرة هي التي ساقت إلى الوطن كل هذا البلاء... ذلك لأن الإنسان لا تسرُّه السعادة إلا إذا كان بحيث تراه أعين الأصدقاء فتبرد دموعها وترمقه أعين الأعداء فيشرد هجوعها ولا يقوى على حمل ما ينوبه من أحداث الزمان إلا بتأسية الإخوان ومعاضدة الخلان...

الشخصية الأولى:

حبُّك الأوطانَ عجزٌ ظاهرٌ   فاغتربْ تجد عن الأهل بدلْ
فبمكثِ الماء يبقى آسناً   وسُرَى البدرِ به البدرُ اكتملْ

14

ويستمر الحوار طويلاً مع بعض الاستطرادات الموفقة، ولا بد أن الحضور كان متأثراً بهذا التشخيص المسرحي والراقي للسجالات التي كانت تحتدم يومياً في معظم العائلات، ومنها عائلة المؤلف طبعاً.

وفي ختام المسرحية، سوف يمنح بطرس حصة الأسد للذين ما زالوا يؤمنون بمستقبل البلاد - وكيف لا يفعل ذلك؟ - فالأستاذ المبجل لم يكن قادراً منطقياً، أمام تلامذته وأهلهم، في حفل نهاية العام المدرسي، تحريضهم على الرحيل عن أرضهم.

ومع ذلك، فرسائله في تلك الفترة تكشف مشاعر مختلفة كلياً، كتلك الرسالة التي بعثها إلى أخيه المهاجر في نيسان/أڤريل 1899:

> عزيزي جبرايل،
> وافاني كتابكم الأول من نيويورك بعد انتظار طويل يعلن لي بعد بشائر الإطمئنان عزمكم على السفر والإبحار فسرَّني تملصكم من الاستخدام وإقدامكم على عملٍ يؤمل منه نجاحكم وساءني تأخر حضوركم وما كنت أعلمه من حالة كوبا بعد الحرب من قلة الانتظام...

بعد ثلاثة أعوام في الولايات المتحدة، استقر جبرايل إذن في هافانا. ونظراً لضياع رسالته، يصعب التكهن بالأسباب التي دعته لاتخاذ مثل هذا القرار. كانت نيويورك آنذاك الوجهة الطبيعية للمهاجرين في عائلتنا، والكثير من أقاربنا يعيشون فيها، ولا يبخلون على الوافدين الجدد بالمساعدة. غير أن الحاضرة الكبرى كانت تضم كذلك، في تلك السنوات، الكثيرين من المهاجرين الكوبيين الذين لجأوا إليها إبان حرب الاستقلال، وكانوا يتأهبون للعودة إلى وطنهم فور التحرير؛ ولعل جبرايل اختلط بهم، وسمع قصصهم عن جزيرتهم التي يعشقونها، واقتنع بمرافقتهم إليها.

وتتطابق التواريخ في كل الأحوال. فالانتفاضة الأخيرة اندلعت، تحديداً، عام 1895، قبل أشهر قليلة من وصول عمي

الأكبر إلى القارة الجديدة؛ وجرى في باريس توقيع معاهدة استقلال الجزيرة عن إسبانيا في كانون الأول/ديسمبر 1898؛ واستولت قوات الجنرال مكسيمو غوميز رمزياً على هافانا في شباط/فبراير 1899، فبدأ معظم المنفيين حينها يعودون إلى كوبا- مع العلم أن الرسالة التي ذكرتُ بدايتها كتبت في نيسان/أبريل، مما يحملني على الاعتقاد أن جبرايل رحل إلى كوبا مع موجة الهجرة الأولى. ويتابع بطرس:

> ... خوفاً من متاعب تصادفونها. وحدثت النفس بأن أطلب إليكم بأن تعدلوا عن عزمكم تلغرافياً. وفي اليوم الثاني، وصلتني رقعتكم عن ظهر البابور تنبىء بسفركم بالسلامة، فما كان لي عندئذٍ إلا أن أسلِّم أمركم لله وأدعو لكم بالتوفيق والنجاح. وبقيت قلق البال من قبلكم لا يصفو لي عيش وأنتظر الإعلام عنكم بفروغ صبر حتى ورد كتابكم الثاني من هافانا حاملاً من أخبار السلامة والتوفيق ما برد الغليل وسكَّن البال، فشكرت الله على ذلك شكراً جزيلاً. وبعد أيام قليلة، وصلني كتابكم الثالث تستعلمون به عن أفكاري بخصوص السفر بعد أن طلبتم ذلك مني بلجاجة في سابقه وتطلبون بعض كتب. فأخبرك يا عزيزي أنني كما لا يخفى على فطنتك لا أستطيع أن أسافر في الوقت الحاضر وفي الظروف الحاضرة...

وبالطبع، فالرسالة التي أنقل نصها مجرد مسودة من المسودات التي كان جدي يحتفظ بها عادةً. ولا شيء يؤكد أنه لم يغير فيها بعض التفاصيل لحظة تبييضها؛ ولا ريب أنها تعكس حقيقة أفكاره حتى لو كانت النسخة غير المطابقة لتلك التي أرسلها لأخيه في نهاية المطاف.

... ولا يوافق سفري لأسباب عديدة هذا مع حبي الزائد للسفر وكراهيتي للتعليم. أما الأسباب فهي أولاً لا توافق مروءةً أن أترك أشغال المدرسة قبل نهاية السنة لأنها تعتمد عليَّ كل الاعتماد، ثانياً أنه حسب العادة المألوفة قد وزعت قسماً من البذار في الصيف وهذا لا يستوفي ثمنه ويسدد حسابه إلا في الصيف، وإذا قلتَ إنه كان يوجد مثل هذا المانع عندك وما منعك من السفر، فأجيب عندما سافرت أنت بالسلامة وجدت أن أقوم مقامك، أما أنا فمن يقوم مقامي؟، ثالثاً أنه لي ديون مؤجلة إلى شهر تموز/جويليه، وهذه لا أقدر أن أستوفيها الآن.

وهبْ أنني انتصرت على كل هذه الموانع، فكيف يمكن أن أنتصر على المانع الرابع، وهو أعظم من هذه كلها بأضعاف، أعني حالة البيت الحاضرة والرزقات. فكيف يمكن أيها العزيز أن نترك رزقنا يخرب، ونسلمه إلى الأجانب، ولا يوجد من يستعمله، ولا من يدافع عنه، والوالدة المسكينة تتحمل هماً فوق هم، وسليمان ويمنى وحنة حائرون لا يعلمون ماذا يعملون، وكل من الإخوان لا يعتقد أن الملك ملكه فيستعمله، ولا أنه ملك غيره فيهمله (ونسافر). نعم، إنني لا أعتقد أن ما يخرب أو ما يسلب من هذا الرزق، أو جملة رزقنا كله، مما يعلق عليه أهميةً أو يستند عليه مستقبل أو معيشة شخص واحد، ولكن لا يوافق شرفنا أن نترك هذه الأملاك والبيوت مشاعاً للناس وسبباً لحزن والدتنا وإخواننا وأخواتنا، ووسيلة للخلاف فيما بعد، وهل يرتاح بالنا في الغربة والحالة هذه، ما رأيك؟

15

قرأت هذه الفقرات مراراً وتكراراً ولدي الانطباع أنني أسمع فيها صوت ذلك الجد الذي لم أعرفه أبداً، صوته حين كان شاباً، يتساءل عما بوسعه أن يفعل كي لا يهدر حياته، وهل من الحكمة البقاء في البلاد، أو من المشرِّف الرحيل؛ وهي أسئلة سوف أطرحها على نفسي بعد ثلاثة أرباع قرن، في ظروف مختلفة للغاية ولكن هل كانت بالفعل مختلفة إلى هذا الحد؟ فالهجرة في هذه الأرض تحصل دائماً للأسباب نفسها؛ مصحوبة بأشكال الندم نفسها التي يجترها المرء لبعض الوقت قبل الاستعداد لدفنها.

يحاول بطرس في هذه الرسالة الإفصاح - كما في مسرحيته! - عن المعضلات التي يكتفي أبناء بلده بالإحساس بها إحساساً مبهماً، وبالخضوع لها. غير أن تحليله لن يبلغ خاتمته المنطقية، كما تشهد الفقرة الأخيرة التي أراها مضللة بالفعل، لأن جدي يخلص في ختام هذا التحليل المتسلسل والمتناسق والمتكامل إلى ما يلي:

نعم عزيزي إذا كنت ترى أن السفر موافق ومأمول النجاح لمدة طويلة، لا لشهر أو لشهرين، فدبِّر طريقة لتقيم وكيلاً عنك، وتحضر إلى البلد حتى نرتب أحوالنا بمدة وجيزة، ونسافر بعد ذلك، أو على الأقل أرسل ورقة وكالة لأحد إخوتك مصادقاً عليها من حكومة تلك البلاد، مصرحة كل التصريح، حتى ندبر الحال بما هو أوفق، وبعدئذٍ، أوافيك بلا تأخر، وأظن إذا عزمت على إرسال ورقة وكالة، وهي الطريقة الفضلى بل الأمر الواجب، يمكنني بعد ثلاثة أشهر أن أكون عندك، إن شاء

الله، فإرسال ورقة الوكالة لازم حالاً حالاً، فأسرع به، ودبِّر الطرق الموافقة لشغلي وشغلك عندك، واستنظر حضوري، وعلى الله الاتكال.

أخوك المحب

بطرس

عجيب! عجيب أن تختتم هذه الرسالة على هذا النحو، بهذا الإيقاع الحثيث! فبعد استهلالها على المرتفعات الأخلاقية لما يفترض أن يكون سلوك الإنسان الشريف، إذ بها تنزلق، على حين غرة، في السطور الأخيرة، نحو استسلام مقنَّع بالكاد. لم يعد بطرس ذلك الأخ الأكبر الواعظ الذي يعلل لأخيه الأصغر عدم استجابته لدعوته الملحة على الفور، بل تحول فجأة إلى شخص محموم يكاد يزعق ويتوسل: "أسرع وأرسل هذه الوكالة، وخلال بضعة أشهر، أكون في كوبا!".

كيف يمكن لوكالةٍ أن تغير ما عرضه للتو حول واجباته نحو الأم والإخوة والأخوات والأرزاق والبيوت - والمدرسة التي يعلم فيها؟ لا نعرف. ويستشف من هذه الفقرة الأخيرة أن شاباً حائراً يتوارى خلف قناع الراشد العاقل. شاباً كان يرغب بالرحيل، ويحسد جبرايل على قراره، ولكنه لا يجرؤ على الإقدام، ويقيد نفسه بشتى الحجج الأخلاقية لتبرير حيرته.

كانت عاطفة جياشة تجمع بين الشقيقين، واختلاف عميق واضح يفصل بينهما، أقل في الآراء منه في الطباع، وكذلك في مسار كل منهما، بدون أن يتسنى لي الجزم بثقة إن كانت دروبهما قد حددت طباعهما أم العكس - أو القليل من الاثنين بالضرورة. كان كلاهما لا يتوهم حول المستقبل الذي تخفيه له أرض الأصول في الحالة التي كانت عليها. إلا أن جبرايل كان يتحلى

بعقلية الفاتح، ويريد أن يخترق العالم، وينتزع مكاناً تحت الشمس، في حين لم يصب بطرس بعد باليأس من رؤية أبناء بلده يتبدلون بفضل أعجوبة المعرفة؛ ومهما قال، كان يتمتع بروح المربي التي لن يفلح في التخلص منها على الإطلاق

ومع ذلك، ففي اللحظة التي كان جدي يخط هذه الرسالة، بدا عليه الانبهار أمام الدرب الذي سلكه أخوه. ومن المرجح أن الأستاذ المبجل كان يحرص على عدم المجاهرة "بمدى كراهيته للتعليم"، ولكن من الواضح أنه كان على وشك الانتقال من حياة إلى أخرى، من ضفةٍ إلى أخرى. . .

وهذا ما تؤكده رسالة بعثها في تشرين الأول/أوكتوبر 1900 إلى أحد أعيان زحلة لم يذكر اسمه. فقد كتب له هذا الرجل يسأله عن صحة ما سمعه بأنه لن يعلِّم في الكلية الشرقية خلال العام المدرسي الجديد، ويرجوه بإلحاح أن يعود عن قراره، فيجيبه بطرس:

> وافتني رقعتكم العزيزة تعرب بعباراتها الدرِّية ومعانيها السحرية عن لطف أنتم أهله، ووداد فؤادكم كله، وكرم أخلاق لا يستغرب من مثلكم مثله. وقد تكرمتم بالإفادة عن أحوال المدرسة هذه السنة مع ذكر من فيها من الأساتذة والتلامذة. . . وطلبتم أن أطلعكم على أفكاري من جهة الرجوع إلى المدرسة وعدمه، فتلبية لأمركم، أخبركم بأنه لن يسعدني الحظ هذه السنة بأن أفوز بعزِّ جواركم. . . لأنني بعد الاستئذان من حضرة الرئيس وسيادة الأب العام، قد عزمت على الإقلاع عن ربوع التعليم والقيام بعمل آخر، إما في القطر المصري وإما في الديار الأميركية، وسأسافر عن قريب إن وفَّق الرب، وهذا التصرف ربما لا ترونه حسناً، ولكن لو تسنى لنا الاجتماع، وبسطت لكم الأسباب الموجبة لذلك، لما وجدتموني إلا

مصيباً فيما عزمت عليه، ولاعتذرتم عني عند أرباب المدرسة الذين ما زالوا للآن يستعملون ما بوسعهم من الوسائط لإقناعي بالرجوع إلى المدرسة، ويظهرون من الملاطفة والمؤانسة ما لا يستكثر معه أن أذهب وأخدم مصلحتهم مجاناً لو أمكن، فأرجو أن يصادف عذري لديكم قبولاً، وأن أبقى فائزاً برضاكم...

أخيكم الشاكر

بطرس

لا يستطرد بطرس في الكلام على تلك "الأسباب" القاهرة التي جعلته يتخلى عن دعوة التعليم من أجل الاستجابة لإغواء الهجرة القديم. ومن الواضح أنه لم يكن يتهيأ للرحيل لإغاثة جبرايل كما ظن أهلي. وفي هذه الرسالة الأخيرة التي يتوجه فيها إلى شخص يكن له الاحترام والإجلال، كان بوسعه، لو صح الأمر، التذرع بطارىء عائلي - أخ في محنة!- لتبرير استقالته من المدرسة. ولكنه لم يفعل، بل تحجج بخياراته المهنية الشخصية، وذكر أولاً أنه ينوي السفر إلى مصر، ثم إلى "الديار الأميركية"، وهو تعبير شديد الغموض والإبهام. ولا تفصح أقواله عن حاجة ملحة للرحيل إلى هافانا تحديداً؛ كان متشوقاً للرحيل وحسب.

ومع ذلك، لم تقتنع أسرتي بذلك. فأخذتُ على عاتقي استنطاق عمي، ابن بطرس البكر الذي يبلغ من العمر اليوم تسعين عاماً ويعيش في نيو إنغلاند. وكان جوابه بهذا الشأن صريحاً:

في الفترة التي سبقت رحيل والدي، كانت تصله من كوبا رسائل محترقة الزوايا، تشير إلى خطر داهم وخطب جلل. فلم يتردد، وأبحر على متن الباخرة. وقد سمعت ذلك منه شخصياً.

فأخذت شهادته بعين الاعتبار، وحرصت ألا أكشف لعمي

البعيد عن اكتشافي في أحد الدفاتر الكثيرة التي خلّفها أبوه، لهذه الأبيات التي نظمها في الفترة نفسها:

وردتْ إليَّ من الحبيب هديةٌ تروي حديث الجود عن كفيِّهِ
فلثمتُها ألفاً لعلمي أنها لُمِست قبيل ورودها بيديهِ
ولئن يكن أهدى الثمينَ فإنني من قبلُ أهديت الفؤاد إليهِ

يدوِّن جدي، على هامش هذه الأبيات، أنه نظمها "بمناسبة تلقيه هدية أرسلها صديق يقيم في الديار الأميركية". صديق؟ فالكلمة الواردة في القصيدة "الحبيب" تتوخى الغموض، وهو غموض مألوف في الأدب العربي الذي يرى من الابتذال اللجوء إلى صفات أو ضمائر تأنيث لوصف المرأة المعشوقة. أما في هذه الحالة، فالغموض لا يخفي أن هذا "الصديق" هو امرأة بصورة لا يرقى إليها الشك. ولسببين على الأقل. الأول أن السلوك الذي يصفه الشاعر هو سلوك عاشق بكل وضوح. والثاني أن اسم هذا " الصديق" غير مذكور، وهذا أمر غير مبرر من جانب بطرس لو تعلق الأمر فقط بقريب، أو ابن أخ، أو زميل قديم؛ كان جدي دقيقاً يحرص على تدوين الظروف الدقيقة لكل حكاية ينقلها، ولكل بيت شعر ينظمه. فلماذا يغفل اسم شخص تلقى منه مثل هذه الهدية، ويتحدث عنه بهذه المحبة؟ وبالعكس، يتفهم المرء بسهولة، لا سيما في سياق العصر، إحجامه عن ذكر اسم المرأة التي يحب.

لا أريد أن أخلص من خلال هذه الأبيات إلى استنتاجات متسرعة. وجل ما في الأمر أنها تحملني على الاعتقاد بتعدد الأسباب التي دفعت جدي للسفر إلى الأميركيتين، فقد كان لديه في القارة الجديدة أقارب وأصدقاء؛ وعلى الأرجح كذلك صديقة

غالية أكثر من الآخرين يتحرق شوقاً للقياها؛ وبالطبع ذلك الشقيق الذي يستحلفه، منذ سنوات، أن يوافيه إلى كوبا.

لا شك أن بطرس كان استمر في التردد، لفترة طويلة، لولا إصرار جبرايل، وأنا على استعداد لتقبل هذا الرأي. ولكن من الواضح أن الأسطورة العائلية لا تقول كل الحقيقة: لا، لم يعبر جدي الأطلسي لإنقاذ شقيق في محنة بل أبحر لأنه كان هو في محنة، ولأن بلد الأصول لم يحمل له سوى الخيبات، ولأنه كان يرغب رغبة شديدة بمتنفس بعيد.

ولو تطلب الأمر شهادة لتأكيد هذا الانطباع، فسوف أذكر هذه الأبيات التي أرسلها، في عام 1900 كذلك، إلى نسيب عزيز على قلبه يدعى سليم استقر للتو في نيويورك:

القلبُ عندك حيث كنت مقيما ... والجسم غادره الفراقُ سقيما
والعينُ لا تنفك شاخصةً إلى ... أرضٍ حوت خلقاً لديك كريما
أما اللسانُ فلا يزال مسلِّماً ... أبداً على تلك الربى تسليما
قد كنت أحسب أرض زحلة قبلما ... أوحشتموها جنةً ونعيما
واليوم قد ضاقت عليَّ رحابها ... وكرهت فيها العيش والتعليما
وأكاد من شوقي أسير إليكم ... سيرَ النعام مجفلاً مهزوما

16

الغريب في الأمر أنني لم أعثر في مئات الصفحات التي

سوَّدها جدي على أية إشارة إلى إقامته في هافانا، أو أي تلميح، أو نادرة، أو قافيتين. وعبثاً قرأت رسائله ودفاتره بل والأوراق المنفصلة الكثيرة في وثائقه، فلم أقع على جملة واحدة تؤكد يقيناً أن بطرس وطأ بقدميه أرض كوبا.

ولكنت اضطررت للاكتفاء بالأساطير المتواترة لولا وجود شاهد آخر على هذه الحادثة: جبرايل نفسه! وهو لا يستفيض بدوره بهذا الشأن، ولنقل إن صمته أكثر نفاذاً من صمت أخيه. ففي الرسائل التي بعثها عمي الكوبي الأكبر إلى جدي بعد سنوات عديدة، وفي تلك التي أحضرتها لي أمي من لبنان، واطلعت عليها قبل الاطلاع على كافة الوثائق العائلية، يشير مرتين أو ثلاث مرات إلى هذه الرحلة. وتلقي هذه الإشارات بعض الضوء على الرغم من طابعها المبطن. فيكتبُ، على سبيل المثال، قبل اختتام إحدى رسائله:

> وأشعر معكم نفس الشعور بمعانقتكم على درج البابور وعسى هذا يتم قريباً، وأؤكد لكم أن هذه المرة لن تذهبوا إلى الكرنتينا، ولن ترى "السكوريتاد" (الأمن)، ولولا انهماكي بالمحل الجديد، لكنت ألاقيكم مع العائلة نصف الطريق...

يبدو أن بطرس تلقى مفاجآت غير سارة لدى وصوله إلى هافانا! فقد سيق مع جموع المهاجرين - في عربة للماشية بدون شك كما كان يحصل آنذاك - إلى حي "كازابلانكا" البعيد ليحتجز في الحجر الصحي، ويظهر أنه عانى هناك، إن لم نقل في الأيام الأربعين المحددة لهذا الحجر، فعلى الأقل لأسبوع أو أسبوعين؛ وقبيل ذلك، لعله خضع، على يد رجال الأمن، لتفتيش جسدي مهين؛ ومما لا شك فيه أنه لعن اللحظة التي وافق فيها على مفارقة المدرسة الشرقية في زحلة.

ولم تكن تلك الخيبة الوحيدة. ففي رسالة جبرايل نفسها، وفيما يلح هذا الأخير ويلحف على أخيه لموافاته - أو بالأحرى للعودة إلى كوبا - يشير بين قوسين:

(من خير الرب أصبح عندنا بيت نعيش به سوية مثل باقي الأوادم الذين يزورونا، وليس بالتتخيتة كالسابق).

لدى قراءة هذه السطور، يخيل لي أنني أفهم، بصورة أفضل، كيف سارت الأمور من وجهة نظر جدي: فقد اضطر للنوم، فور وصوله إلى كوبا، في مستوصف حقير، ثم في سقيفة وضيعة طوال فترة إقامته في هافانا! هو، المتأنق المتعالي الذي يحرص أشد الحرص على ارتداء زي مختلف عن زي الآخرين، بمشالحه الطويلة السوداء التي تتطاير خلفه كالأجنحة، هو الأستاذ، والشاعر، والمسرحي المشهور، والأديب المبجل والشامخ، يعامل كالماشية البشرية!

في تلك الظروف، لا ريب أنه لم يمكث طويلاً في هافانا، ولم يرقد ليالي طويلة في تلك السقيفة التي تشرف على متجر أخيه. لا شك أنه لا يصلح للهجرة في نهاية المطاف. فالمهاجر يجب أن يستعد لتجرع حصته اليومية من المنغِّصات، ويقبل أن ترفع معه الحياة الكلفة، وتربت على كتفه وعلى بطنه بحميمية مفرطة. كان جبرايل الذي هاجر في الثامنة عشرة من العمر قادراً على الانصياع وتحمل الذل لفترة هي بمثابة المناورة الحربية أو الطقس الشعائري. ولم يكن هذا حال بطرس، الراشد، بروحه المنشَّأة أصلاً.

لا بد أن جدي سرعان ما استخلص من مغامرته العاثرة في هافانا النتائج التي تفرض نفسها: مغادرة المدينة، تناسي هذا

الفصل بأسرع ما يمكن، واسترجاع مهابة مصونة بفضل أسطورة نبيلة: استغاث به أخوه، فرحل إلى كوبا، وانتشله من عثرته، ثم عاد بعد إنجاز مهمته، وفي غضون ذلك، تعلم الإسبانية ولن تسمع العائلة رواية أخرى غير هذه الرواية.

هل لام أخاه على إقحامه في هذه المغامرة التعسة؟ لا يعلم الأحياء شيئاً بهذا الشأن، ولدى التفكير ملياً بالرواية التي لطالما سمعتها، يبدو لي أنها تشكل، نوعاً ما، تصفية حسابات، لا من أشرس الأنواع، أقر بذلك، وإنما تصفية حسابات على الرغم من ذلك!

ففي نهاية المطاف، ما هي الصورة التي تقدمها هذه الأسطورة العائلية عن جبرايل؟ صورة شاب متهور ألفى نفسه، بسبب طيشه، في السجن أو على قاب قوسين منه، وما كان ليخرج من ورطته لولا حكمة جدي واهتمامه وحنكته! ويتضح أن الحقيقة مغايرة: فجبرايل رأى أن تجارته في ازدهار، وخشي ألا يستطيع الاهتمام بها كما يجب، فسعى لاستقدام الشخص الذي كان موضع ثقته: بطرس. وقد سافر هذا الأخير، والأرجح أنه عاون أخاه، ولكنه لم يطق ظروف العيش التي فرضها عليه - وعلى نفسه أصلاً -، والتي أغفل الحديث عنها صراحة في رسائله السابقة؛ ولعل العلاقة توترت بين شاب في الخامسة والعشرين، مقدام، شرس، جريء، وأخيه البكر الأكثر حذراً والأسرع تأثراً بالتأكيد، الذي لم يتحمل أن يعمل تحت إمرة أخيه الأصغر، مما يبرر الأسطورة التعويضية التي لفَّقها جدي لدى عودته... وكذلك التعتيم التام على هذه الحادثة في وثائقه.

ليس بوسعي بالطبع أن أستبعد احتفاظ بطرس بدفاتر أو

رسائل ذات صلة بالمغامرة الكوبية، وضياعها قبل وصولها إلي. غير أن هذا الاحتمال لا يبدو لي مرجحاً. لا ريب أن مستندات كثيرة ضاعت خلال القرن الماضي، ولست متوهماً بهذا الشأن، فماضي أجدادي لم يصل إلي بالكامل في هذه الأوراق. ولكني مقتنع اقتناعاً تاماً، إثر انغماسي طوال أشهر عديدة في هذه الأكوام من الأوراق المبعثرة، أن المغامرة الكوبية لم تختف بسبب سوء الحظ فقط. فثمة دفاتر كثيرة، لا سيما دفاتر السنوات الأخيرة التي عاشها جدي، تذكر أحداثاً ونوادر ذات صلة بأماكن متنوعة ومراحل مختلفة من حياته، ومما يدعو للعجب أن ما من دفتر من هذه الدفاتر مؤرخ في هافانا.

وأنا مضطر للاستنتاج بأن رحلة بطرس إلى كوبا التي ظلت محفورة في ذاكرة أحفاده على أنها مأثرة من المآثر البطولية كانت بالنسبة إليه مجرد مغامرة عاثرة ومؤسفة.

17

لحسن حظ جدي، كانت هافانا مجرد محطة في جولته على "الديار الأميركية" التي تبقى منها هذه المرة آثار ملموسة. على سبيل المثال، تلك البطاقة المكتوبة بلغتين "بطرس م." بالعربية، و"Peter M." بالإنكليزية، مع ذكر مهنته "أستاذ البيان والرياضيات في الكلية الشرقية"، وعنوان المراسلة فقط "زحلة (لبنان)". وفي

مقدمة البطاقة، كتبت بخط اليد الجملة التالية بالإنكليزية: "مسافر حالياً إلى الولايات المتحدة". منذ بداية "تنقيبي" في وثائق العائلة، لاحظت هذه البطاقة الخجولة التي اصفر لونها بالكاد، ووضعتها في مصنف شفاف خوفاً من ضياعها. وبالمقابل، لم أنتبه لمفكرة متطاولة ورفيعة، محفوظة جيداً بحيث يتوهم الناظر إليها انها مفكرة هاتفية مهملة بين الذخائر.

لما عثرت على هذه المفكرة، بعد بضعة أسابيع، لمحت على غلافها الجلدي البني الفاتح هذه الكلمات المخطوطة بحروف قوطية بيد رسمية:

United States Mortgage and Trust Company

in account with Peter M.M...

ويتعلق الأمر بدفتر توفير مفتوح بتاريخ 21 نيسان/أڤريل 1904 في مصرف نيويوركي، كائن في 40، شارع ناساو، على مقربة من وال ستريت. والمبلغ المودع في الحساب 1000 دولار، والفوائد المتراكمة 14 دولاراً و29 سنتاً.

استناداً إلى هذا الدفتر، وضعت الأموال على حساب Peter M. بعد سبعة أشهر، وبالتالي، كانت مجمل العمليات مدوَّنة على صفحة واحدة. وإذ تصفحت، إرضاء لضميري الصفحات البيضاء المتبقية، صادفت نصاً عربياً يبدأ بهذه السطور:

مسوَّدات
لبعض ما كتبته في نيويورك عام 1904
نقلاً عن أوراق كانت في جيوبي
نسختها في البابور المسمى "نيويورك"

في 24 تشرين الثاني/نوفمبر 1904
في أواسط الأوقيانوي الأتلنتكي.

وتلي ذلك أربع وثلاثون صفحة من الكتابة المرصوفة، وبخط رديء، دُوِّنت فيها قصائد ونوادر وخواطر حول هذه الإقامة في نيويورك. أصبحت أعلم أين ومتى انتهت الرحلة الأميركية التي قام بها جدي، بوسعي السعي لتخمين حالته النفسية في هذه المرحلة من حياته.

توحي قراءة دفتر التوفير الذي تحول إلى مدوَّنة لأوراق مبعثرة في الجيوب، أو مفرِّغة ذاكرة، أن بطرس سرعان ما نسي وحاول أن يحمل غيره على تناسي ما كتبه بوضوح في رسائله - إلى أخيه، وأقاربه، وأصدقائه - خلال الفترة التي سبقت رحيله، أي أنه يمقت التعليم، ويجد أرض الوطن "ضيقة"، وأنه اعتزم الهجرة إلى "مصر أو الديار الأميركية". وموقفه في خواطره النيويوركية ليس موقف وافد جديد يبحث عن عمل، بل موقف ضيف مرموق وشخصية رفيعة قدمت من الوطن، "لتفحص" عجائب أميركا وبؤس المغتربين بابتسامة لا مبالية.

وهكذا، اصطحبه أصدقاؤه لزيارة مصنع لسجائر "بارسونز"، وقدمت إليه هدية عبارة عن صندوق كامل منها لتشجيعه على تأليف شعارات ترويجية. ويبدو أنه استمتع بهذا التمرين لأنه يخوض فيه بحماس، فيخط على مفكرته عشرة شعارات، شعراً ونثراً، من بينها:

السؤال: من أكثر الناس رغبةً في السفر إلى أميركا؟
الجواب: المدخنون ليستمتعوا بلذة السجائر البرصونية.

أو:

ـ على علمي عزمت على عدم التدخين؟

ـ كان عزمي قبل ما طلعت سجائر برصون.

أو:

كان المرحوم فان دايك يسمح لمن يؤذيه الدخان بثلاث سكائر يومياً، وأظن أنه لو كانت سكائر برصون النقية على عهده لما منع عنه 33 سيكارة منها.

لا بد أن المرسل الأميركي كورنيليوس فان دايك، مؤسس مدرسة عبيه، كان مشهوراً حينها على الأقل في أوساط المغتربين المشرقيين لأن بطرس لا يرى داعياً للتعريف عنه. وكنت أسمع في طفولتي عن ذلك الرجل، فجدتي تستشهد بأقواله، وكذلك جدي أحياناً الذي لم يتمكن من التعرف إليه لأن القس توفي عام 1902. وقد اكتشفت مؤخراً أن فان دايك كان شبه مغمور خارج البيئة التي ترعرعتُ فيها، وما زلت حتى اليوم أشعر باعتزاز سخيف كلما صادفت اسمه في كتاب من كتب المستشرقين

يبدو أن جدي أمضى في نيويورك أجمل الأوقات. ففي كل صفحة من صفحات مفكرته، يذكر الهدايا التي تلقاها، وأصدقاء الطفولة الذين التقى بهم، والولائم التي أقيمت على شرفه، والتي ارتجل خلالها أبياتاً سرعان ما نشرت في الصحف العربية الكثيرة التي كانت تصدر في الولايات المتحدة. وكان الناس يستشيرونه في الأحداث الكبرى الراهنة، كالنزاع بين روسيا واليابان الذي ألهمه قصيدة طويلة بعنوان "كلمة في الحرب" فقط لا غير يقول فيها:

أو لسنا في الجيل العشرين   نلوم أجيالاً بادوا
ونشيد معاهد تهذيب   ونقول أولئك ما شادوا

ما يجدي علمٌ تهذيبٌ وهما للحرب استعدادُ
نشفي بجراحتنا عضواً إن تم لأي إسعادُ
أما القتلى بمدافعنا فيقصر عنها التعدادُ

وبعد أبيات أخرى، يتابع قائلاً:

الحرب تعدِ شخصي سبب تدمير إفساد
ذنب لملوك مغتفرٌ وتفرم فيه الأولاد

18

في الحقيقة، لا يكتفي جدي في هذه القصيدة المؤرخة في عام 1904، والتي تحتل ثلاث صفحات كاملة من مفكرته، بصب اللعنات على كل الحروب والآلام التي تتسبب بها، وعلى نفاقنا. وفي ما يتعلق بالنزاع الجاري، لا يدين كل المتحاربين بل يختار بوضوح معسكره الموالي للروس ضد اليابانيين. فاليابانيون كانوا برأيه المعتدين بدون أدنى شك. ويدعم مقولته بالتحليل، وينادي بحق الشعوب، ويذكر أحداثاً محددة مرتبطة بأماكن لا بد أن أبناء عصره كانوا على علم بها.

لا أعتقد صدقاً أن هذا هو السبب الحقيقي لموقفه، لأنه لا يفصح عن السبب الحقيقي الذي أعرفه. أجل، أعرفه مثل كل أبناء جيلي؛ بدون أي دليل ملموس، ومع ذلك، بكل يقين. ويتراءى لي أن تبريراتي المشرقية لن تكون مفهومة تلقائياً لأولئك

الذين ترعرعوا في كنف حضارة أخرى غير حضارتي؛ ولكنني سوف أعرضها، لعلني أساعد بصورة أفضل على تفكيك رموز العالم المعقد الذي أتحدر منه.

وها هي: ففي الماضي، كانت أسرتنا بكاملها تنتمي إلى الطائفة الأورثوذكسية كأغلبية اليونان، والأرمن، والصرب... وكذلك الروس الأوفر عدداً. ثم تعرضنا للانشقاق، منذ وقت غير بعيد، على الأرجح في عصر والد طنوس، أو عصر جده على أبعد تقدير، أي في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر أو أولى سنوات القرن التاسع عشر. ثم قرر قسم من أبناء طائفتنا، ولأسباب مجهولة، الانضمام إلى الكنيسة الكاثوليكية في أحد الأيام، والاعتراف بسلطة البابا. ولم يحصل هذا الأمر بدون صدامات. ففي كل بيت، دارت نقاشات، ووقعت خصومات ومشاجرات.

ثم وقع اغتيال شهير. فقد اغتيل بطريرك على مدخل الضيعة، على يد رجل من أسرتنا كان يلقب بأبي كشك، وفرَّ هذا الأخير إلى قبرص قبل استدراجه بالحيلة وإعدامه شنقاً. وأحد مبررات جريمته عاطفي وهو المبرِّر الذي يسوقه الرواة. إلا أن المؤرخين الموثوقين يعرفون رواية أخرى، دينية: فالبطريرك كان كاثوليكياً، وقد جاء لتشجيع المؤمنين على الانفصال عن الكنيسة الأورثوذكسية التي ينتمي إليها القاتل. ولعل هذا الأخير أراد، بفعلته، الحد من هذا التبشير.

وأياً يكن الأمر، فالشرخ أضحى عميقاً، وفي أيامنا الراهنة كذلك، تنقسم أسرتنا إلى طائفتين، بل ثلاث طوائف، لو أضفنا الطائفة البروتستانتية الصغيرة.

واليوم، التأم الجرح عموماً. ولكنه كان أليماً في أوائل القرن العشرين. فبطرس، الكاثوليكي بالولادة، إنما الحذر بشدة من الخلافات الدينية، كان يجهد، كلما سنحت له الفرصة، للتعبير عن حرصه على تجاوز هذه الخلافات.

وبالعودة إلى الحرب الروسية-اليابانية عام 1904-1905، فقد تجاوز وقعها إلى حد كبير الرهان على الأرض أو سعة المعارك. كان انقلاباً في الأذهان التي لا بد أنها راجعت فجأة نظرتها إلى العالم. فاكتشف الجميع بذهول أن أمة شرقية، مزودة بأسلحة حديثة، تستطيع الانتصار على قوة أوروبية عظمى. وكانت النتائج على مستوى الكوكب، وبمقياس التاريخ، مباشرة تقريباً. ففي أقل من عشر سنوات، شهدت الإمبراطوريات الروسية، والفارسية، والعثمانية، والصينية، انقلابات لن تتمكن من تخطيها، هذا قبل تبديد الحرب العالمية الأولى لما تبقى من العالم القديم.

غير أن هذه الأحداث لم تخضع في ضيعتي للتأويل الذي خضعت له في سائر العالم. فالناس لم يفلحوا في عدم الاستجابة غريزياً لولاءاتهم الدينية. وهكذا، كان الفرع الأورثوذكسي في عائلتنا موالياً للروس بشراسة؛ وبالعكس، وبصورة "آلية "، كان الفرع الكاثوليكي يتمنى هزيمة القيصر، وبالتالي انتصار الإمبراطور الياباني.

ولما أعلن بطرس المنتمي إلى أسرة كاثوليكية تأييده للأمة الأورثوذكسية، وأكد أن الروس على حق، "تجاوز" نوعاً ما الحدود الطائفية - وهو موقف مسكوني توافقي وسط أهله. كانت رسالته إلى أقاربه أن الحكم على الأحداث يجب أن يتم على ضوء المبادىء الكونية لا وفقاً لانتماءاتهم الخاصة.

لئن كان بطرس يتابع تطورات الحرب الروسية - اليابانية بشغف وحماس مثل الكثيرين من أبناء عصره، فهو لم يمتنع عن التطرق إلى موضوعات أكثر مرحاً، كما في هذه القصيدة التي يهزأ فيها من الإنجازات الوهمية لصياد متبجح:

أكرم بيوسف صائداً ... صادت محاسنه القلوبْ
يمسي ويصبح هائماً ... في كل منفرج جديبْ
يتهدد الأطيار بالتنكيل ... والسحق العجيبْ
أما الطيور فإنها ... لم تلقَ منه ما يريبْ
تلقاهُ وهي قوائل ... يا حبذا ضرب الحبيبْ
أحجاره رمانة ... وكذاك خردُقُه زبيبْ
ما مسها منه أذى ... يوماً ولا استدعت طبيبْ
فكأنه متمرنٌ ... منذ الصبا أن لا يصيبْ
وكأن كل طريدة ... في عنقها عود الصليبْ

أحجم بطرس، من باب اللياقة في هذه القصيدة، عن تحديد هوية يوسف ذاك الذي يسخر منه بهذا الأسلوب. وصدف أن القريب الذي كان يقيم في ضيافته بنيويورك يدعى يوسف تحديداً. كان في مثل سنه، يمارس طب الأسنان، ويملك أسهماً في صحيفة قام بتأسيسها مع بعض الأقارب. ويبدو أن هؤلاء الأقارب أصروا جميعاً على ضيفهم أن يمدد إقامته، بل ويصبح شريكهم، ولكنه رفض. فقد انتهى القداس، إذا جاز التعبير، بالنسبة إلى بطرس. ولن تكون رحلته إلى الأميركيتين في حياته سوى قوس، آن الأوان لإغلاقه بكرامة، والعودة إلى بلاده مرفوع الرأس.

عشية سفره، دعا إلى بيت قريبه ناشري الصحف النيويوركية الناطقة باللغة العربية الذين كانوا يتشاجرون، على حد قوله،

فسعى لمصالحتهم. وكان بين الحاضرين كذلك مغتربون متعلمون قدموا من بلدان مشرقية عديدة. فألقى أمامهم خطبة حماسية تنبأ فيها بازدهار حرية الصحافة في المشرق وتنامي عدد قرائها.

فقد كنا من سنوات قليلة، لا نجد في المائة خمسة يشتركون في الجرائد والمجلات، واليوم نجد في المائة عشرين يشتركون فيها، وخمسين يقرأونها، وحالة الارتقاء الحاضرة تدل على أنه لا يمضي اليسير من الزمن حتى يصير المشتركون سبعين في المائة وثمانين، وتصير قراءة الجرائد من الفروض اليومية كما هي الحالة في الشعوب الراقية.

الله وحده أعلم من أين جاء جدي العتيد بهذه الأرقام، ولكنها كانت متفائلة بوضوح، وتوقعاته أكثر تفاؤلاً، ونيته محمودة بالتأكيد

وقد صاغ توصية، في ختام كلمته، بمثابة وصية للمغتربين قبل ركوب الباخرة للعودة إلى الوطن:

فعلى مريد الإصلاح إذن أن يبتدي بإصلاح أفراد الشعب من رفيع ووضيع، من حاكم ومحكوم، من قائد ومقود، عليه أن يصلح من الطفل الرضيع إلى الشيخ الهرم قبل أن يخص الرؤساء بكلمة لوم، فإذا اصطلحت العامة، اصطلحت الرؤساء طبعاً، وإذا لم تصطلح العامة، فاصطلاح الرؤساء مستحيل لأن العامة كل، والرؤساء جزء، وإذا كان الكل فاسداً، فمحال أن يكون الجزء صالحاً... وأما وسائط الإصلاح الحقيقية فأتمنى لو اتخذها أولئك الخطباء والكتاب الفطاحل، من على المنابر من أفواه الخطباء وعلى صفحات الجرائد من أقلام الكتاب، وهذا هو العمل الجليل الذي أرجو أن تعيروه اهتمامكم، وهذه هي الوصية التي أتركها لكم، وهذا هو المبدأ الذي أود أن

أتفرغ له ما حييت، وعسانا فاعلون، والله ولي التوفيق!

لا شك أن خطاب بطرس لا يخلو من البلاغة، والرغبة المفهومة تماماً للخروج ظافراً من مغامرة استهلها وسط المهانة. ولكن كلامه لم يكن هباءً. فسوف يكرس نفسه بالفعل حتى مماته لمعاركه الدونكيشوتية - إصلاح البشر، قهر الجهل، صحوة شعوب المشرق -، وسوف تجلب له هذه المعارك نصيبها من الخيبات والمذلات، حتى لسوف يندم على عدم رحيله متى كان يستطيع لذلك سبيلاً. وإني على ثقة أنه سوف يذكر لاحقاً، في حياته، وفي أحلك الأوقات، وبحنين عارم، إقامته في "الديار الأميركية".

مع تخوفه تكرار التجربة لأنه قيد جناحيه بقيود "الرواية الرسمية" التي أشاعها فور عودته: فهو لم يعتزم الهجرة إطلاقاً! ولم يكن ينوي البتة التخلي عن أسرته، وتلاميذه، وبلده، لبناء حياته في بلد آخر! لا، هو لا يفعل ذلك! لم يعبر الأطلسي إلا لانتشال أخيه من كبوته؛ ونظراً لوجوده في الجوار، اغتنم الفرصة للقيام بجولة في الولايات المتحدة، ثم قفل عائداً من أجل التصدي للمهام الجسام الملقاة على عاتقه! وقد تبنى أهله جميعاً هذه الرواية، ولما كان حافظ على ماء الوجه لو عاود الحديث عن الاغتراب.

وتطلب الأمر عثوري على أوراقه الحميمة لأكتشف أن إغراءات أخرى كانت تداعب مخيلته في شبابه.

استنارات

19

بفضل دفتر توفير جدي، تكونت لدي فكرة واضحة عن تواريخ إقامته في الولايات المتحدة. فإذا فتح حساباً في 21 نيسان/أفريل 1904، فهذا يعني أنه اضطر للوصول قبيل هذا التاريخ، الأمر الذي يؤكده بحث لاحق قمت به في محفوظات "إليس أيلاند": فقد وصل بالفعل المدعو "Peter M." إلى نيويورك في 18 نيسان/أفريل، قادماً من هافانا، على متن باخرة تدعى "بيخيلانثيا".

ادعى أنه "تاجر" وليس أستاذاً في أجوبته على استمارة دائرة الهجرة إلى الولايات المتحدة لأنه قد عمل للتو، بدون شك، في شركة أخيه الكوبية.

السن: "36 عاماً".
بلد المنشأ: "تركيا".
العرق أو الشعب: "سوري".
إجادة الكتابة: "نعم".
إجادة القراءة: "نعم".
الوجهة النهائية: " نيويورك".

هل يملك بطاقة سفر للذهاب إلى هذه الوجهة؟: (لا شك أنه سؤال يتوجه إلى الذين يعتزمون متابعة طريقهم إلى مدن أميركية أخرى، ولكن الوافد أجاب راضخاً): "نعم".
من سدد ثمن بطاقة السفر؟: "هو شخصياً".

لدى مقارنة استمارة 1904 بالاستمارة التي ملأها جبرايل عام 1895، يلاحظ المرء أنها تضمنت معلومات إضافية على نحو يثير الدهشة:

هل يملك 50 دولاراً، وإذا كان لا يملكها، فكم من المال بالضبط في حوزته؟: جواب متكبر من بطرس: "500 دولار".
هل سبق أن زار الولايات المتحدة؟ وفي هذه الحال، تحديد المكان والتاريخ: "أجل، في أيلول/ سبتمبر 1902".
هل يزورها للحاق بفرد من أفراد عائلته أو بصديق؟ وفي هذه الحال، تحديد اسم الشخص وعنوانه: اكتفى بطرس بكتابة ما يلي: "فندق أميركا، نيويورك".
هل سبق أن دخل السجن أو أقام في مصح أو في مشفى للأمراض العقلية ؟: "كلا، كلا، كلا".
هل يؤيد تعدد الزوجات؟: "كلا".
هل هو فوضوي؟: "كلا".
هل يعاني من تشوه أو إعاقة؟: "كلا، كلا".

إذا كان هذا الفيض من التفاصيل لا يطلعني على الشيء الكثير، ولا يثير لديَّ سوى اللامبالاة التي أثارها حكماً لدى جدي، فلست مستاءً لأنني استطعت أخيراً تحديد مراحل رحلته إلى "البلاد الأميركية" زمنياً - في كوبا، من أيلول/ سبتمبر 1902، أو بعيد ذلك، حتى نيسان/ أفريل 1904؛ وفي الولايات

المتحدة حتى شهر تشرين الثاني/نوفمبر. أما بقية الرحلة، أي الفترة السابقة والفترة اللاحقة، فالتأريخ سيكون فارغاً بالضرورة: فلعدم وجود أي وثيقة في الوثائق العائلية، باستثناء دفتر التوفير النيويوركي، تعود إلى الأعوام الممتدة من 1901 إلى 1905، يفترض المنطق أن بطرس بقي خارج البلاد طوال خمس سنوات، وأنه زار مصر على الأرجح في الذهاب، كما اعتزم، وأقام قليلاً عند الإياب في فرنسا أو انكلترة. ولكنها مجرد افتراضات لأنه لم يذكر ذلك صراحةً. وبالمقابل، يتضح من رسائله أنه عاد من جولته الطويلة بأحلام تحفل بها نظراته، ومثل عليا يضج بها رأسه. وصار يطمح بتغيير العالم أكثر من أي وقت مضى، وتغيير الشرق، والأمر سيان. تشهد على ذلك تلك الرسالة المؤرخة في 18 آب/أوت 1906. ويشير توقيع المرسل وضيعته إلى أنه ينتمي إلى أسرة درزية عريقة في الجبل، آل حمادة؛ ويبدو أنه خاض مع جدي حديثاً مطولاً قبيل ذلك في أحد الأماكن العامة القليلة في بيروت آنذاك:

> أذكر تلك الجلسة على بالكون "كوكب الشرق" في ذاك الليل المدلهم، وأعلم أن القصد منها التعاضد لمحو ذلك الظلام، وقيام النور مقامه، ولا يتأتى ذلك إلا بتكاتف من كانوا نظيرك وتعاضد خناجرهم، فلا تجعل ما كان بخبرٍ كان، ولا تحلَّ التسويف محل البت، لأنك حرٌ، والحرُّ لا يصبر على الضيم، فاسلك الطريق لأنها الوحيدة والواجبة على من كان مثلك. هذا ضميري أبديه لك لأني معجب باستعدادك، ومعجب أكثر ببقائك...

يتجلى في هذه الرسالة مناخ "الأمسيات العظيمة". مشرقيان عاشقان للحرية، عاشقان للتنوير، يتشاوران حول الطريقة المثلى

لقلب النظام القائم. شابان يحدوهما طموح نبيل، وعاشقان للحياة. أتخيل وجهيهما يضيئهما قنديل مرتعش، وحولهما المدينة العثمانية الغافية. لا بد أنهما شعرا بأن همساتهما سوف تقوِّض أسس العالم القديم.

كانا بذلك من أبناء عصرهما، مشبعين بوعود القرن الناشيء، وعود سوف يحترم بعضها، ويغفل بعضها الآخر، أو يتشوه بصورة مريعة. في تلك السنة، وربما في تلك الأمسية، وفي كل أنحاء المشرق، كان آلاف المثقفين الشبان أو الأقل شباباً "يتآمرون" على هذا النحو، يحدوهم الرجاء عينه "بمحو ذلك الظلام". بعضهم، مثل صن يات صن أو كمال أتاتورك لاحقاً، سوف يصبحون الآباء الذين أعادوا تأسيس أمة، وبعضهم الآخر سيظلون مقاتلين أو حالمين في الظل. ولكن أية بقعة ضوء ليست تافهة، لا سيما للمستفيدين البعيدين منها، وأنا في عدادهم.

يتضح أن بطرس عاد من رحلته الطويلة أكثر التزاماً وقتالاً من أي وقت مضى. لا شك أن صديقه كان يلومه بلطف على التردد الذي استشفه لديه، ولكنه لم يرجع إلى الوطن ذليلاً، ولا جريحاً، بالتالي، ولا مريراً أو متخاذلاً، بالرغم من الخيبة الكوبية.

وتتراءى هذه الروح القتالية أصلاً في مفكرته النيويوركية. فهل كان منتشياً برحلته، باكتشافه أميركا، باستقبال أقاربه و"أصدقائه"، رجالاً ونساءً؟ يبدو لي أن جولته في الولايات المتحدة قد عزَّزت مبادئه الراسخة، المكتسبة منذ سن المراهقة في مدرسة خليل ثم في مدرسة المرسلين، أي أنه كان من الضروري والممكن بناء ولاياتنا المتحدة في المشرق، على شكل اتحاد من الأقاليم العثمانية التي تتعايش فيها الطوائف، وتتعمم فيها الصحف، ولا يسود فيها بعد اليوم الفساد والاستبداد.

وثمة بدون شك عامل آخر لا به أنه عزز لديه الثقة بالنفس: فللمرة الأولى في حياته، لم يشعر جدي بنفسه مفلساً. فمبلغ الألف الدولار المودع في حساب التوفير الخاص به نفخ صدره على الأرجح. ولو شئنا أن نكون فكرة، بعد مرور قرن، عن قيمة هذا المبلغ، فلا بد من مضاعفته عشرين أو ثلاثين مرة. ولا ريب أن الزائر الذي يتجول في نيويورك اليوم، وبتصرفه عشرات ألوف الدولارات، لن يشعر بالضائقة المادية. وفضلاً عن ذلك، لم يحتج بطرس لإنفاق هذا المبلغ أثناء إقامته، ولم يسحبه إلا عشية سفره، مما يعني أنه كان يملك موارد أخرى.

من أين له المال؟ من أخيه، طبعاً. فجبرايل الذي لم يفلح في استبقاء أخيه البكر إلى جانبه، لم يدعه بالتأكيد يرحل غاضباً وصفر اليدين، فمنحه مكافأة مجزية على الوقت الذي أمضاه في شركته.

وهكذا، تمكن بطرس من استئناف رحلته في ظروف مريحة كالأمراء. ولدى عودته إلى بلده، لا بد أنه كان يملك من هذا المبلغ بقية لا يستهان بها سمحت له بتناول العشاء مع أصدقائه على شرفة "كوكب الشرق"، وإعادة بناء العالم وهو يدخن السجائر الأميركية.

20

غير أن هذه الحالة من النشوة لن تدوم إلى الأبد. فالثروة

الهافانية لم تجعل من جدي رجلاً ثرياً، ولم يستطع - كما فعل غيره في ذلك العصر وفي عصور أخرى - العيش من مدخراته، مكرساً وقته للثورة المنشودة. فكان لا بد من تأمين مورد رزق مجدداً.

ولحسن الحظ، سارعت الكلية الشرقية التي لم تتقبل أبداً خسارة أحد أفضل مدرِّسيها الاتصال به فور عودته.

إن حضرة الرئيس قد تكرم وكتب إلي أكثر من مرة يفاتحني بأمر الرجوع إلى الكلية الشرقية... ولكن لما كانت نيتي أن لا أعود إلى الخدمة المدرسية إلا في صفة أهم من التي كانت لي... وكانت الواجبات التي عينها لي سيادته، أو في بعض فروعها، من واجباتي في الماضي، والبدل الذي خصصه لي عنها يعتبر بالنسبة إلى الزمان أقل من راتبي من ذي قبل، ولما كان لي مساعٍ في بيروت صارت قريبة النتيجة يشق عليَّ الانقطاع عنها إلى ما هو دون مبتغى النفس، طلبت من سيادته مهلة عشرة أيام لأفتكر أثناءها في الموضوع... راجياً أن تقابلوا سيادته وتطلعوه على جوابي هذا، وتتكرموا بالإفادة عما يكون - هذا ما كتبه بطرس لخاله، شقيق سوسان، وهو من وجهاء زحلة - أما الآن وقد رجعت القضية إلى مقامكم الوالدي، فقد صارت الإرادة لكم لا لي، وقد بسطتُ لكم أفكاري، وعليه فالأمر الذي تتفقون عليه مع سيادة الرئيس، إن كان من تعيين خدمة لي في المدرسة أن أتممه بطيبة خاطر، ويأبى الله أن أخالف لكما أمراً، بل إني أتيمن بالخطة التي ترسمونها لي، وأتوسم الخير والنجاح في العمل الذي تفرضونه عليَّ...

لا ريب أن وساطة الخال قد أثمرت لأن بطرس أصبح

"مدير الدروس العربية"، وهو منصب سوف يذكره باعتزاز في تلك السنوات، وبخط أنيق، في كل دفاتره.

قد لا يخلو هذا الاعتزاز من الغلوّ بالنسبة إلى أبناء عصرنا في بلدان تنتصب فيها المدارس عند كل زاوية شارع، ويفترض بالأطفال الالتحاق بها، ويكثر فيها المدرسون ومدراء الدروس. وبسبب هذا التعميم، وكذلك ذلك التشويه في سلم القيم الذي يحملنا على ازدراء الأنشطة المفيدة اجتماعياً لصالح أنشطة مربحة مادياً، فقد التعليم الكثير من بريقه.

أما في عصر جدي، فكان يسود مناخ آخر، وفي أكثر الأوساط اختلافاً. فلدى أنصار التقاليد، كان الشخص الذي يمنح المعرفة، أكان قساً، واعظاً، حاخاماً، شيخاً، أو إماماً، يتمتع بالنفوذ والشهرة في طائفته؛ أما دعاة الحداثة والحرية، فيرون في الشخص العلماني - وهو " من اختراع " الأزمنة الحديثة - رمزاً وعاملاً لا بديل عنه لعصر التنوير.

كان بطرس يدرك دوره الريادي الذي يمارسه عن اقتناع، بل وغالباً بمهابة. وبفضل منصبه الجديد، سرعان ما أصبح في زحلة شخصية حاضرة في كل مكان، تدعى دائماً لإلقاء كلمة، وتدشين مبنى، والاحتفال بذكرى، أو مديح زائر مرموق.

كانت مداخلاته تتبع أسلوباً لا يتغير. أولاً، يستهل الكلام بمقدمة يشوبها التواضع. فيقول على سبيل المثال:

> لقد سبقني إلى هذا الموقف من هو أقدر مني على الكلام، فأجاد في كل ما يقتضيه المقام، حتى لم تبق حاجة إلى مزيد أو طمع بجديد، فمنزلتي الآن منزلة التلميذ يتلقى شرح الدرس من أستاذه، ثم يعيد عليه خلاصة ما تلقاه.

ومن ثم، يتوسع في الكلام توسعاً مسهباً، ملتزماً عن طيب خاطر، واعظاً عن طيب خاطر، لشجب التعصب والفساد والجهل.

لا شيء ينقص شعبنا الشرقي، ولا عيب يعيبه، والحمد لله، سوى عيب الجهل. فأغلب الناس مصابون للأسف بهذا الداء وعوارضه المتنوعة من خلافات ونزاعاتٍ مستمرة، إلى الرياء والمخاتلة في الكلام، والخداع والغدر، والعنف والقتل. ولهذا الداء دواء، ودواؤه معروف: إنه المعرفة الحقة.

وأخيراً، يختتم ببعض الأبيات الإرشادية التي تستعيد الأفكار نفسها، أحياناً بصورة حرفية لتثبيتها في الأذهان:

إفحصْ عن الشرقيِّ ما هو عيبه ... وعلام يرشقه العذولُ بنبله
فتراه براً من جميع صفاته ... لكنه دنِفٌ بعلة جهله
والداء مرجو الشفاء وإنما ... بالعلم يحسنه وليس بنقله
والعلم شرقي الديار مغرَّبٌ ... فإذا دعاه الشرق عاد لأهله

كان جدي يكرِّر، في كل خطاباته، بلا كلل أو ملل، هذا الموضوع الأخير، بشغف وحدة وغضب، كما حصل خلال الحفل الذي نظمته المدرسة الشرقية في تموز/جويليه 1907 في زحلة بمناسبة اختتام العام المدرسي.

بني وطني حان النهوض لنائم ... وللبالغ العشرين نزع التمائمِ
وحان لمن ضلت سوائم فضله ... زماناً طويلاً نشدة للسوائمِ
وحان لنا أن ندرك الغرب في العلى ... ولو سامنا الإدراك فوت الجماجم...
بني وطني أنتم بنو المجد والعلى ... وأنتم أبناء الرجال الأعاظمِ
وأنتم من أهدى إلى الغرب علمه ... وسنَّ له طرق السدى والمكارمِ

وأنتم من أعلى من الحكمة اللوا: وقال اتبعها يا مريد العظائمِ...
فمنكم موسى والمسيح وأحمدٌ وأتباعهم من كل مولى قَماقمِ
ومن خلفكم خلق ابن سينا وصحبه ومن خلفكم أخلاق معنٍ وحاتمِ
فقوموا مع العصر البسوا من لبوسه وقولوا مضت أيام لبس العمائمِ

كان بطرس يندِّد بالعمائم، منسجماً مع الثوار الحداثيين في عصره. فبعد بضع سنوات، سوف يحظر أتاتورك بالفعل غطاء الرأس التقليدي الذي يرمز، بنظره، إلى الجهل والانحطاط، ليستعرض بفخر القبعة الغربية، ضمان الحداثة.

لست بمعرض السعي لمقارنة شخصية تاريخية مشهورة بجدي المغمور، إنما يجدر بي الإشارة إلى اختلاف بين الرجلين: فبطرس، كما سبق وذكرت، كان يفضل الخروج حاسر الرأس - بدون عمامة شرقية، أو قبعة أوروبية! لا من قبيل النزوة في الزي، أو التبجح. ففي مسرحية "عواقب الغرور" التي قام بتأليفها قبيل رحلته إلى الأميركيتين، جعل أحد أبناء بلده يقول:

لدينا وجهان على الدوام، وجه نقلد به أسلافنا، ووجه نقتبس به الغرب.

كان ذلك جوهر فكره. وقد عبر عنه أحياناً بسخرية مرة، كما على لسان شخصية أخرى من شخصيات المسرحية:

فاعلم يا صديقي أن أبناء الشرق قد نظروا إلى الغرب بعد أن بلغ من المدنية والعمران شأواً مفيداً، وظنوا أن علة ذلك التقدم هو ما توصلوا إلى معرفته من عوائد بعض الغربيين كالتأنق في إعداد الطعام، وتزيين المقام، وترتيب الزهور على الصدور، وتصفيف الطرر فوق الغرر، وإكثار النزهات،

والمطالبة بالزيارات، وركوب العجلات، وكتابة الأسماء على الرقع بالحرف الإفرنجي... ظانين أنه باتباع كل عادة غربية كيف كانت يصعدون درجة من مدارج الكمال ويدركون سراً من أسرار النجاح، وهم لا يعتقدون أنه يوجد بين الغربيين حكماء وسفهاء، ومصلحون ومفسدون، وأفاضل وأسافل، ليختبروا كلاً منهم، ويعلمون من هم الذين يحسن الأخذ عنهم والتعلم منهم...

مما لا شك فيه أن هذا الكلام كان صدى لتعليم المرسلين المشيخيين الذين كانت لديهم انتقاداتهم الخاصة للغرب. ومن جهتي، أرى أنه يعبر عن التمرد المتزن لإنسانٍ حر كان يرغب بشدة أن تقلب الموائد بدون رحمة، إنما ليس كيفما اتفق، ولا بدون غاية محددة.

21

كان تغيير الشرق رأساً على عقب الذي يتمناه جدي بكل جوارحه أقرب لناظره مما تخيل.

ففي الأيام الأولى من تموز/جويليه 1908، تمترس ضابطان عثمانيان شابان هما نيازي وأنور في جبال مقدونيا، وأعلنا أنهما يرفعان راية العصيان إلى حين إقرار دستوري عصري للبلاد. كان كلاهما ينتمي إلى جمعية سرية مقرها في مدينة سالونيكا، تدعى

جمعية "الاتحاد والترقي"، وتنتمي إلى حركة معارضة أكثر شمولاً سوف يذكرها التاريخ تحت اسم "تركيا الفتاة".

ولما أعلن العصيان، اقتنع الجميع أن الضابطين سوف يساقان إلى القسطنطينية، مقيَّدين بالأغلال لنيل عقاب يكون عبرة لمن اعتبر. ولكن السلطان عبد الحميد، حين أرسل كتيبة لإخضاع هذين الضابطين، تآخى جنودها مع المتمردين. وحين أمر فرقة خاصة بشن هجوم عليهم، قررت هذه الفرقة بدورها العصيان. وفي غضون بضعة أيام، سادت الجيش العثماني حالة من التمرد إن لم نقل عصياناً مفتوحاً.

واستخلص السلطان العبر من هذه الحركة التي عجز عن القضاء عليها. وبدلاً من الانتظار ريثما يجتاح العصاة عاصمته وقصره، باغتهم، فحلَّ حكومته، وعيَّن في السلطة شخصيات إصلاحية، وأعلن كذلك أنه قرر إقرار دستور ليبرالي كان قد وضع نصه في بداية عهده، قبل ثلاثين عاماً، ثم علَّق منذ ذلك الحين؛ ووعد بصون الحريات الأساسية، وإلغاء الرقابة، وتنظيم انتخابات حرة.

شهدت معظم الأقاليم موجة من الفرح العارم. وفي سالونيكا، أولى المدن التي سقطت بأيدي الثوار، استقبل نيازي وأنور استقبال الأبطال، وأعلن أنور ـ وهو شاب في السابعة والعشرين! ـ من على منبر، أمام حشد مبتهج، أن الإمبراطورية لن تضم بعد اليوم مسلمين أو يهوداً، يونانيين أو بلغاراً، رومانيين أو صرباً، "لأننا جميعاً أشقاء، وتحت الأفق الأزرق نفسه، نفخر بكوننا عثمانيين أجمعين".

لئن ابتهج بطرس بهذه الانقلابات، فقد أعرب على الفور عن

قلقه. واستهل كلمته، خلال اجتماع عام كبير في زحلة، بتهنئة "جنودنا البواسل الذين بذلوا دماءهم في سبيل الحرية"، وسرعان ما توجه إلى أبناء بلده، محذراً إياهم:

من المعلوم يا أبناء وطني الكرام أنه قد مرت علينا أيام طوال وشعوب الأرض تنظر إلينا نظر الاستخفاف والازدراء، وترمينا بضعف العزائم وسفالة الأخلاق. كانت تنظر إلى تقدمها وتأخرنا، إلى عزها وذلنا، إلى ارتقائها وانحطاطنا، وتلومنا على القصور لوماً لا يطاق. ولكن قد كان لنا يومئذ من نوع الحكومة السابقة ما نعتذر به بعض الاعتذار، وندفع به عن أنفسنا بعض التهم. كان لنا من الحكم الاستقلالي إصبع نختبىء وراءه، ومن اسم الاستبداد غربال نستر به خمولنا. أما الآن وقد زال ما كان وكان ما لا يزول، قد انجلى ليل الاستبداد المدلهم، وأشرقت شمس الحرية الساطعة الأنوار، فكأني بأولئك الشعوب قد وقفوا لنا في المرصاد، وحدقوا إلينا بالأبصار، وقالوا قد فُكَّ الشعب العثماني من أسره، وزال ماضي عذره، فلنرَ ماذا يكون من أمره، حتى إذا مضى علينا شط من الزمان، ولم نبلغ مبلغهم من العمران، أنزلونا عن مرتبة الإنسان، وثبت عندهم أننا لم نخلق لغير الهوان، وأغاروا على أموالنا ومصالحنا يبتلعونها كالحيتان.

ما أعجب أن يظهر بطرس ذلك القلق والثورة في بداياتها. لا شك أن هذا الموقف كان مرتبطاً برؤيته لمجتمعه، وهي رؤية سبق لي الإشارة إليها، ومفادها أن "فساد الحكام من فساد الشعب". ولكن ثمة سبب آخر مباشر: فقد كانت أحداث بالغة الخطورة تجري أصلاً لا تبشر بالخير على الإطلاق.

في الواقع، لئن أذعن السلطان، بفضل حنكته السياسية،

لمطالب خصومه المنتصرين، فقد راح في الخفاء يجند كل الذين كانت الانقلابات تقض مضاجعهم. ففي الأوساط التقليدية، لم يواجه جواسيس السلطان أي عناء في بث الشائعات حول الثوار الملحدين والمارقين الذين يسعون لتقويض أسس الإيمان واستبدالها بتحديثات شيطانية مستوردة من الغرب. وكانوا يقولون إنه يكفي النظر إلى النساء للاقتناع بذلك! كانت النساء يرتدين أزياء محتشمة حتى ذلك الحين، وها هن يجبن الشوارع سافرات، ويتظاهرن زاعقات كالرجال فاضطر السلطان لإصدار فرمان خاص من أجل إعادتهن إلى الصراط المستقيم.

وأصلاً، ردَّد جواسيس السلطان: أنظروا من هتف لهذه الحركة منذ اليوم الأول: إنهم الأرمن، ونصارى الشام، واليونانيون، ثم، بالطبع، أهالي سالونيكا! وكانوا يلفظون هذه العبارة الأخيرة ويتغامزون، فيفهم الجميع أن الأمر يتعلق باليهود. وفي أوساط السلطان، طالت الاتهامات أيضاً الإنكليز والطليان، والماسونيين على وجه الخصوص.

ولم يكن ذلك الكلام مجرد تلفيق. فحركة العصيان انطلقت بالفعل من سالونيكا، وهو أمر لم يفاجىء أحدهم، فتلك المدينة كانت عاصمة التنوير في الإمبراطورية، وتضم أفضل المدارس بل كذلك تحتدم فيها المنافسة بين الطوائف التي تدعي كل منها أنها توفر تعليماً أفضل من غيرها. وكانت جائزة الامتياز تعود بدون منازع إلى أصغر هذه الطوائف، وأكثرها غرابةً، تلك التي كان معظم الناس - في الإمبراطورية العثمانية كما في سائر العالم - يجهلون حتى وجودها: الساباتيون، وهم الأتباع القدامى لساباتاي تزيفي الذي أعلن نفسه مسيحاً في إزمير أواخر العام 1665.

وأثار حينها ترقباً عارماً لدى الطوائف اليهودية، من تونس إلى فرصوفيا، مروراً بأمستردام، وأقلق كذلك السلطات العثمانية التي أرغمته على الخيار: فإما أن يعتنق الإسلام أو يعدم. فآثر النجاة بحياته، "ولبس العمامة وأطلق على نفسه اسم محمد أفندي" كما تذكر سجلات ذلك العصر. وعلى الفور، انفض من حوله أتباعه. ويرى بعض المؤرخين أن الكثير من اليهود، وبسبب هذه الصدمة والخيبة، عزفوا عن ترقبهم للمسيح، وانخرطوا في شؤون الدنيا.

ولدى وفاة ساباتاي، عام 1676، كانت حوالى أربعمائة عائلة فقط في سالونيكا تدين بتعاليمه. ولطالما عرف أتباعه بالتركية باسم (Dönme) المرتدين بمعنى "المعتنقين"، وهو لقب تحقيري نوعاً ما استبدل مؤخراً بلقب "السالونيكيين" بكل بساطة. ولا يحتفظ هؤلاء سوى بإشارات مبهمة إلى ماضيهم الصاخب، فعقيدتهم الإيمانية الحقيقة هي علمانية اليوم، ولقد كانت كذلك، بالتأكيد، في أواخر القرن التاسع عشر.

لئن حرصت على الحديث عن هؤلاء الناس فلأنهم اضطلعوا، بغير علم منهم، وإنما ليس بمحض الصدفة فعلاً، بدور لا بديل عنه في نشر الأفكار الجديدة في الإمبراطورية. ففي إحدى مؤسساتهم التي قام بتأسيسها وإدارتها شخص يدعى شمسي أفندي، تابع فتى يدعى مصطفى كمال أتاتورك مرحلته الدراسية الأولى. وكان والده، علي رضا، لا يريد أن يقتصر تعليم ابنه على المدرسة القرآنية التقليدية، ويرغب له الالتحاق بمؤسسة تعليمية قادرة على تزويده بتعليم "على الطراز الأوروبي".

سوف تكون هذه الشرارة بداية نار مستعرة.

كيف أمكن لحركة مسيحانية من القرن السابع عشر أن

تتحول، بعد مرور قرنين من الزمن، إلى لواء العلمانية والحداثة؟ إنها مسألة تبهرني منذ سنوات، ولطالما تطرقت إليها كما يتنزه المرء ساهماً على أحد الشواطىء؛ ولكني لم أتعمق فيها أبداً، ولن أتعمق فيها اليوم، فأصولي ليست في هذه الناحية. هذا، وبوسعي تخمين - أو على الأقل أظن أن بوسعي ذلك بواسطة قرون استشعاري كغريب أزلي ينتمي إلى أقلية- حياة تلك العائلات الأربعمائة الساباتية التي لم تكن مسلمة حقاً عند المسلمين، أو يهودية تماماً عند اليهود، واعتبرت كافرة بنظر المسيحيين! لقد رأت هذه العائلات أن تجاوز الانتماءات الضيقة هو النهج الأسمى والأسخى للخروج من الطريق المسدود. ولكن الأمر تطلب أن تنتهج هذه الطائفة هذا النهج في يوم من الأيام بدلاً من سلوك نهج آخر لأنه كان بوسعها الانكفاء والتحجر إلى أقصى الحدود للاحتماء من الشرذمة.

إن ما أنقذ روح الساباتيين، بنظري على الأقل، هو بالدرجة الأولى الذهنية التي ورثوها عن مؤسسهم. فقد تعرض ساباتاي للسخرية والتهكم لأنه قدَّم حياته على إيمانه؛ وبعد التفكير بالأمر ملياً وبهدوء، ليس بوسعنا أن ندين موقفه إدانة تامة: فهدف العقائد خدمة الإنسان، وليس العكس؛ وبالطبع، ليس بوسعنا سوى احترام الذين يضحون بحياتهم لبلوغ مثال أعلى، إلا أنه لا بد من الاعتراف كذلك بأن الكثيرين ضحوا بحياتهم على مر التاريخ لأسباب خاطئة. فطوبى للذي اختار الحياة! وطوبى لغريزة ساباتاي البشرية!

والعامل الآخر الذي يبدو لي أنه كان حاسماً في تطور الساباتيين هو سالونيكا تحديداً، وهي مدينة كانت تضم حشداً من

الطوائف الدينية والجماعات اللغوية، وكلها من الأقليات، وكلها مقبولة بهذا القدر أو ذاك، وكلها هامشية عملياً، ولأن معظمها لم يرغب بالهيمنة على غيرها، فقد تزاحمت بواسطة المعرفة، وكذلك الثروة، بالطبع، ولكن هذا الأمر أكثر شيوعاً. وحالت هذه البيئة دون تحجر الساباتيين، ودفعتهم إلى الانغماس بكل جوارحهم في مؤسساتهم التعليمية.

ما أراد أن يقوم به الساباتيون في سالونيكا هو ما أراد تقريباً أن يقوم به، في الفترة نفسها، ولأسباب مشابهة، رجال على غرار خليل أو بطرس: أن ينشروا حولهم أنوار المعرفة ليلحق الشرق بركب الغرب، وتتحول الإمبراطورية العثمانية إلى دولة كبرى عصرية، وقوية، ومزدهرة، وفاضلة، وتعددية، دولة يتمتع فيها كل المواطنين بالحقوق الأساسية نفسها، أياً كانت انتماءاتهم الدينية أو العرقية، على شكل حلم أميركي يتحقق في أرض المشرق لأقليات كريمة وضالة السبيل.

22

في سالونيكا، كان هذا المثال الأعلى قاسماً مشتركاً لدى عدد كبير من السكان الذين استقبلوا ثورة 1908 استقبالاً حماسياً. فجمعية "الاتحاد والترقي" التي انتمى إليها العصاة كانت أكثر تجذراً في هذه المدينة منها في سائر مدن

الإمبراطورية؛ وتضم من بين أعضائها بالفعل ساباتيين، ويهوداً "طبيعيين" وإيطاليين، وبلغاراً، بالإضافة إلى ألبان مسلمين مثل نيازي، وشراكسة، والكثير من الأتراك مثل أنور، الضابط قائد التمرد.

وكان من السهل على السلطان وأعوانه أن يوجهوا أصابع الاتهام إلى العناصر الغريبة متسائلين أمام الشعب الطيب بأي حق يجيز هؤلاء القوم لأنفسهم، ولطالما خضعوا للسلطان الخليفة، أن يتدخلوا الحين في شؤون الإمبراطورية. أما الأعضاء المسلمون في هذه الجمعية، فقد لمَّح المحافظون إلى أنهم ماسونيون، وبالتالي ملحدون وزنادقة!

ومن هذه الناحية كذلك، امتزج الكذب بالحقيقة لأن المحافل الماسونية في سالونيكا ـ لا سيما الإيطالية منها ـ أسهمت بالفعل في صوغ الأفكار الثورية ونشرها. غير أن هذا الإسهام لا يجب أن يتضخم، فالتوق إلى التغيير والحرية والانتفاضة و"صحوة الشرق" كان يبرعم أيضاً، ومنذ عشرات السنين، في أقاليم عديدة من السلطنة، وصولاً إلى ضيعتي؛ ولم يكن بحاجة على الإطلاق إلى "الاختراع" خلال اجتماع للماسونيين الإيطاليين في إحدى الإمسيات بمدينة سالونيكا.

غير أن العمل التقويضي الذي قام به جواسيس السلطان أحدث وقعاً بين الناس، ولشدة تدهور المناخ العام، ارتأى السلطان عبد الحميد في نيسان/أفريل 1909، بعد تسعة أشهر على رضوخه للعصاة، أن الوقت قد حان لاستعادة زمام الأمور بقبضة حديدية. فانتشرت، في كل أنحاء البلاد، حوادث مريبة

نُسبت آنذاك إلى أعوان السلطان، وهو احتمال وارد إنما غير مؤكد. وحصل أخطرها في جنوب شرق الأناضول، لا سيما في مدينة أضنة التي اندلعت فيها القلاقل واتخذت منحى عنيفاً ضد الأرمن، وانتهت بمذبحة رهيبة، الأولى من نوعها إنما ليست الأخيرة.

بعد بضعة أيام، قامت تظاهرات شارك فيها جنود ورجال دين محافظون في القسطنطينية نفسها، على أبواب القصر الملكي، للمطالبة "بالعودة إلى القيم الأصيلة". وتعرض بعض الإصلاحيين للتنكيل في الشوارع، وأرغم الآخرون ـ ومعظمهم من الوزراء ـ على الدخول في السرية. وأعلن السلطان، إذ لاحظ أن حكومة تركيا الفتاة لم تعد موجودة، أنه ينزل عند رغبة الشعب الطيب ويعلق الدستور. ويحق لنا الافتراض أنه لم يفعل ذلك رغماً عنه.

فحصل عندئذٍ، كما في تموز/جويليه 1908، ما لم يكن في الحسبان، إذ انطلقت وحدات من الجيش، بقيادة أنور ونيازي، من سالونيكا إلى القسطنطينية، وسحقت الثورة المضادة بدون قتال تقريباً، واستولت على قصر السلطان. وسرعان ما أصدرت أعلى مرجعية دينية في البلاد، شيخ الإسلام، وهو رجل مؤيد للأفكار الإصلاحية، فتوى يعتبر فيها أن عبد الحميد يجب أن يخلع عن العرش "بسبب طغيانه، وإجرامه، وتمرده المسلح، وانتهاكه الشريعة"، موجهاً ضد السلطان الحجج نفسها التي لجأ إليها عملياً. وتلا البرلمان الذي اجتمع خلال النهار نص الفتوى وأقرها بالإجماع وأوفد البرلمان إلى السلطان لإعلامه بقرار خلعه عن العرش أربعة نواب: مسلمان، ومسيحي أرمني، ويهودي. كان توازناً طائفياً معبِّراً لا سيما أن ذلك النائب اليهودي، واسمه

عمانوئيل كاراسو، كان كذلك من الأعيان الماسونيين في سالونيكا. وأصلاً، احتجز السلطان المخلوع في تلك المدينة تحت الحراسة المشددة، في دار فخمة ظلت سجناً على الرغم من فخامتها.

اعتلى العرش بعده أحد إخوته، ويدعى رشاد، باسم محمد الخامس، وقيل إنه يؤيد حركة الشبان الأتراك، أو على الأقل لا يرغب بالتصدي لها.

واحتفل بطرس بهذا الحدث في قصيدة أحدثت في تلك السنة وقعاً مدوياً:

سلامٌ على العيد السعيد الذي به	استجاب الدعا للأرض من يسكن السما
سلامٌ على عهد الرشاد فإنه	يرمِّم من بنياننا ما تهدما
سلامٌ على سيفي نيازي وأنورٍ	سلامٌ على جمعيةٍ جرَّدتهما:
سلامٌ على الأحرار من كل ملَّةٍ	سلامٌ على من طهَّروا الأرض بالدما
سلامٌ عليكم أيها القوم إنني	سأبقى عليكم ما حييت مسلِّما
فلا زلتم للعيد عيداً وللحمى	حماةً وللآمال مغنىً ومغنما

ويبدو أن أنصار الثورة كانوا يتلون هذه الأبيات، وهم ينفخون صدورهم زهواً، لا في زحلة وحسب بل كذلك في بيروت، ودمشق، وحلب، وصولاً إلى القسطنطينية، بدون أن يعلموا هوية ناظمها.

لو كان الأموات لا يموتون فعلاً، ولو كان جدي موجوداً في هذه اللحظة قربي في هذه الغرفة، يراقبني أنقِّب في وثائقه، لربما طلب مني أن أكف عن اقتباس أشعاره، وأنتقل إلى فصل آخر، لأنني أقترب من موضوع كان لن يرغب أن أتطرق إليه.

وبدوري، كنت فضلت ألا أتناوله أصلاً. ولكن، إذا كان عليَّ أن أسلط على سلفي المغمور حزمة من الضوء، فسيكون هذا هو الثمن، لأن الحقيقة لا تساق بطرف حبل. وبالتالي، ليس بوسعي التغاضي عن الإشارة إلى أن جدي، قبل توجيه تحية إلى الذين خلعوا عبد الحميد عن العرش، قد أشاد بمزايا هذا السلطان في أكثر من مناسبة.

وتوخياً للدقة، سوف أحصيها... فأجد ثماني إشارات فيها مديح، أو على الأقل إكبار. ولكنت عثرت على غيرها لو تابعت البحث. لن أذكرها كلها، إنما لا بد لي من ذكر تلك الواردة في كلمة ألقاها في زحلة:

> بالطبع، لا بد من توجيه المديح أولاً وآخراً إلى ذاك الذي كان السبب في كل الأعمال الخيرة، صاحب الجلالة عبد الحميد خان، ملكنا المعظم، سليل السلاطين، أطال الله عهده المزدهر...

وبعد قليل، ترد هذه الأبيات:

> إذا كنت تطلب للفضائل معدناً فاطلبه حيث ترى بني عثماني
> وإذا انثنى الدهر الخؤون إلى الوفا فمليكنا عبد الحميد الثاني

وعلى الصفحة المقابلة، يخربش بطرس بقلم الرصاص ما يلي:

> يجب تغيير هذا البيت.

وفي دفتر آخر، يروي جدي أنه كان يشاهد مسرحية بعنوان "صلاح الدين" يوم علم بنبأ خلع عبد الحميد واعتلاء محمد رشاد العرش، فاعتلى خشبة المسرح، وارتجل كلمة حول السلطان المخلوع "باسم الشعب العثماني" قال فيها:

أيها السادة
إجابة للطلب أو تلبية لداعي الطرب، ألقي على مسامعكم ثلاث كلمات الأولى باسم الشعب العثماني للسلطان المخلوع الذي استؤمن على أرواح العباد وأعراضهم وأموالهم، فباعها بأرخص الأثمان، باعها بثمن ما هو إلا العار والهوان، مما لا يمحوه عن اسمه طول الزمان، السلطان الذي عوضاً عن أن يسعى لاستئصال الخائنين والمفسدين في المملكة، ربى منهم جماعة، وأرسلهم يعبثون ويفسدون ويستبيحون المحرمات، لذلك المغرور بلسان الشعب أقول...

وتلي ذلك أبيات شديدة اللهجة للغاية، ولكني أكتفي بهذا القدر. فلا أريد أن أدين جدي لمجرد أن الفرصة لم تسنح له لترتيب أوراقه قبل وفاته، أو لأن خطابه يتبدل على هوى الانقلابات السياسية - ومن لم يبدل مواقفه فليرمه بحجر!

لا سيما أن ذلك السلطان، عبد الحميد، كان رجلاً معقداً، وغامضاً، لا يجمع المؤرخون حول تحليل شخصيته حتى الساعة. فكل الدلائل تحمل على الاعتقاد أنه اعتزم حقاً، لدى اعتلاء العرش، إصلاح الإمبراطورية، وتحويلها إلى دولة عصرية تضاهي القوى الأوروبية العظمى التي كانت تبسط هيمنتها على العالم آنذاك. ومع ممارسة السلطة، أصبح أكثر حذراً ولؤماً، بل شذوذاً وأصيب بعقده الاضطهاد على حد زعم بعضهم. فقد خشي أن يفلت منه زمام الأمور، كما يحدث غالباً حين يبدأ نظام حاكم لطالما اشتهر باستبداده بالتخفيف من هيمنته؛ وعلاوة على ذلك، فالسلالة العثمانية كانت في مرحلة أفول متسارع ومحتوم، ولم يعد

بالإمكان لسلطانٍ، مهما بلغت حنكته، أن يعكس هذه النزعة. لعل عبد الحميد كان سلطاناً عظيماً في أزمنة أخرى؛ وبالرغم من وصوله المتأخر إلى سدة الحكم، فقد كان، بنظر معظم المؤرخين، آخر سلطان جدير بهذا المنصب.

إلا أن جدي يهمني أكثر من السلطان. تهمني مواقفه المتساهلة والقاطعة، وكذلك مواقفه التنازلية والشاجبة والمترددة. ويبدو لي، بدون أن أسعى للدفاع عنه بأي ثمن، أن نوعاً من الانسجام يستشف من مواقفه المتناقضة: فجدي لم يكن، من الناحية المبدئية، مناوئاً للإمبراطورية العثمانية. كان يرغب أن تتحول إلى ملكية دستورية بدلاً من تفتتها. ويتفاخر بكونه "مواطناً عثمانياً"، ويحلم بدولة كبيرة، متعددة الأمم، يكون فيها كل البشر سواسية، بغض النظر عن دينهم أو لغتهم، يمارسون فيها حقوقهم لقيادة ملك شريف ومتسامح؛ وكان بإمكان هذا السلطان الدستوري أن يظل، لو اقتضى الأمر، القائد الاسمي "لكنيسة" الأغلبية، على غرار ملك إنكلترة. ولكن التاريخ ارتأى خلاف ذلك. وتفتتت "إمبراطوريتنا"، وكذلك امبراطورية الهابسبورغ، وتحولت إلى سرب من الدول العرقية البائسة التي تسبب تكاثرها القاتل بحربين عالميتين، وعشرات الحروب المحلية، وأفسد روح الألفية التي بدأت لتوها.

غالباً ما يخطىء التاريخ؛ ولكن جبننا البشري يقودنا إلى تعليل أسباب صحة أحكامه، وحتمية أحداثه، وضرورة فناء أحلامنا السامية، بأسلوب لا يخلو من التبجح والإدعاء.

23

في عام 1909 ذاك، وفيما الثورة تهدر في كل الأقاليم العثمانية، وصلت إلى ضيعتنا رسالة سوف تبدِّل مسار حياة عدد من الأشخاص. كانت مرسلة من عمي الأكبر جبرايل إلى خليل.

انقضى وقت طويل منذ التقى الرجلان لآخر مرة! وأصبح المغترب الهافاني الذي رحل في الثامنة عشرة يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً. كان أستاذه السابق في الثانية والسبعين، وشخصاً جليلاً لا ريب، إنما مثار لغط بل كراهية لدى كاثوليك الضيعة الذين لم يفهموا، على الرغم من مرور السنين، السبب الذي حمل ابن الخوري الطيب جرجس على اعتناق معتقدات المهرطقين - بل والأنكى من ذلك! - تحويله بيت الخوري إلى كنيسة بروتستانتية. وفي صباح الأحد، حين يقرع الناقوس الذي علقه المبشر على الجدار الخارجي لدعوة "رعيته" إلى القداس، فيخرج في الحال قسم كبير من الأهالي من بيوتهم بثياب قشيبة، كان بعضهم يرى في ذلك رجساً من عمل الشيطان، وإشارة إلى تخلي السماء نهائياً عن بلد الكفار ذاك!

ومع ذلك، كان خليل لا يبشر تبشيراً شرساً، ولا يتصادم مع الطوائف الأخرى، مكتفياً بالمضي في طريقه بتصميم وعناد. وفي وثائق العائلة، كانت معظم المستندات المكتوبة بخط يده عبارة عن قوائم بأسماء المحتاجين. فقد اعتاد زيارة القرى المجاورة للسؤال عن أوضاع الفقراء، وإرسال طلبات المساعدة لهم، إما إلى المرسلين الأميركيين، أو إلى بعض الأثرياء من معارفه. كان لا يعبأ كثيراً بديانة المستفيدين من هذه المعونات، ولا يطالبهم

بشي بالمقابل. ولكن هؤلاء الناس الذين لم يكترث غيره بأحوالهم، راحوا يلمسون شهراً تلو الآخر اهتمام هذا الرجل، ويعيرون أذناً صاغية لناقوسه الجديد، فتنامت أعداد أبناء الطائفة البروتستانتية.

لطالما كان النشاط الاخر لخليل هو التعليم - كما قلت. ولكن مدرسته الرائدة، وبعد سنوات من الإشعاع الذي استفاد منه بطرس وجبرايل وعشرات غيرهم من أبناء قريتنا ونواحيها - ومنهم، بالصدفة، مؤرخ العائلة، عيسى، مؤلف كتاب "الشجرة" -، اضطرت لإغلاق أبوابها مما كان عند خليل موت حلم، أسوأ من الفشل.

كما سبق أن ذكرت، تابع خليل في بادىء الأمر دراسات معمقة ـ في عبيه، وسوق الغرب، وبيروت، وغيرها ـ، ثم تبوأ مواقع مسؤولية عديدة في المؤسسات البروتستانتية، قبل العودة إلى ضيعته لإنشاء مدرسته الخاصة على طراز مدارس الأميركان وبمساعدتهم ـ إلى جانب مساعدة مرسلين مشيخيين آخرين من اسكتلندة. كان طموحه عظيماً، فهؤلاء الأشخاص الذين هبطوا من كوكب آخر اعتمدوا قاعدة ذهبية تبناها تلامذتهم المحليون من أمثال خليل، لحسابهم: لن نقدم تعليماً مختزلاً بل سنعلم التلاميذ ما كنا لنعلمهم إياه في بوسطن أو إدنبرة، ونكون معهم متطلبين مثلما نعامل أقرانهم في الولايات المتحدة أو بريطانيا.

وبالتالي، كانت المدرسة الجديدة لا تشبه أية مدرسة عرفتها الضيعة في السابق، تتردد فيها إلى ما لا نهاية جمل فارغة من المعنى، قد رددتها بالنبرة نفسها أجيال من الأسلاف الأميين، تحت العصا المهددة لخوري انطفأت نظرته؛ فقد آل خليل على

نفسه أن يعتمد أفضل الكتب، ويستقدم خيرة المعلمين، ويفرض أكثر المعايير صرامةً على تلاميذه.

وللأسف، لم تعمِّر التجربة على الرغم من شعبيتها لدى الأهالي. فما سبب هذا الفشل؟ لن أخوض كثيراً في الأسباب التي لم أكتشفها أصلاً إلا بصورة تقريبية. فقد تعرضت التجربة لعداء الإكليروس الكاثوليكي الذي شن حملة مضادة فاعلة بعد أن بوغت ـ وسوف أعود للحديث عن هذا الأمر؛ ثم لضآلة الدعم الذي قدمه المرسلون الذين لاحظوا انتشار هذا النوع من المدارس في الجبل، فاقتصروا على رعاية أهمها - أي تلك الواقعة في أكبر البلدات. ولكن الأخطر بالنسبة إلى خليل كان "تخلي" أبنائه، فلم يظهر أن أياً من أبنائه الخمسة كان مستعداً لتولي إدارة المدرسة خلفاً لمؤسسها الذي تقدم في السن. ولا واحد منهم كان أصلاً مهتماً بالتعليم. والأدهى أن لا واحداً منهم كان يرغب بالبقاء في القرية أو في البلاد. كانوا يحلمون جميعاً بالرحيل للعيش في المهجر. وقد رحل بعضهم أصلاً، وكان بعضهم الآخر يستعد للرحيل. . .

فقرر المبشر، بمرارة، التخلي عن المدرسة، وإنهاء مسيرته المهنية الطويلة في التعليم والتحول. . . إلى إنتاج الحرير: أجل، تربية دود القز! فغرس حول بيته أشجار التوت الأبيض التي تصلح أوراقها لتغذية هذه الحشرات، وبنى في ركن منعزل - بسبب الروائح - قزازة. ويذكر كتاب "الشجرة" أن هذه القزازة اعتمدت "الطريقة التي اقترحها باستور"، فأنتجت "أفضل الشرنقات في المنطقة".

وأصدق ذلك لأن خليلاً كان يعتمد الدقة في كل شيء -

وهي صفة أثني عليها، وإن كنت لا أستطيع سوى الابتسام أمام هذا التحول الغريب للواعظ. فمن جهة، تتعارض الدقة مع التقاعس، والتكاسل الفكري، والتسيب، والإهمال - أي باختصار مع كل هذه الآفات التي تخبل بلداننا في الشرق منذ عهد بعيد. ومن جهة أخرى، فالدقة جمود، جمود معنوي ـ وهي بذلك تتناقض مع عذوبة بلداننا المشرقية وفن العيش في ربوعها.

ويتضح، بشكل خاص، أن تشدد المبشر - وزوجته - كان من أسباب "هروب" أبنائهما، وبعض الأزمات الخطرة الأخرى في أسرتنا... غير أنني سأكون جاحداً لو أغفلت القول إن نور المعرفة دخل إلى أسرتنا بفضل ذلك الرجل ومدرسته الزائلة. لا أجهل أنه من المجازفة اقتراح بداية للأمور دائماً -، فلا شيء يخلق من لا شيء، وأقله المعرفة، والحداثة، أو الفكر المستنير؛ والتقدم يتحقق بدفعات طفيفة، وبانتقالات متتالية، كسباق تعاقبي لا ينتهي. ولكن ثمة حلقات لا شيء ينتقل بدونها، ولأجل ذلك، تستحق اعتراف كل الذين أفادوا منها. وفي ما يتعلق بي، أشعر بالامتنان للواعظ بغض النظر عن اختياره أن يكون واعظاً. وبوسع المرء أن يظل لامبالياً بالبروتستانتية المشيخية، وأن يطرح مائة سؤال عن دوافع المرسلين الأميركيين، مع الإقرار أن تعليماً عالي الجودة من شأنه وحده إعداد مواطنين بكل ما للكلمة من معنى...

في الحقيقة، لا أعلم إن كان خليل سعى لإعداد مواطنين أم مجرد مسيحيين بروتستانت أخيار. لا شك أن الفرق لم يكن كبيراً في ذهنه بين المؤمن والواعظ... ولكنه حرص، إزاء تلاميذه والفقراء، على عدم ممارسة الإحسان بوضاعة، وعلى منح المعرفة

راجياً من الله أن يحسن الأولاد استعمالها. وقد أدرك بعض الأهالي الكاثوليك ذلك فعهدوا إليه بأبنائهم دونما خشية من سعيه لإقناعهم بالتخلي عن دين آبائهم، كما فعل طنوس، والد جدي الذي سجل أبناءه، الواحد تلو الآخر، في مدرسة الواعظ من غير أن يعتنق أحدهم البروتستانتية.

أو لنقل ليس كلهم... فلئن لم يحصل، على حد علمي، أي اعتناق مباشر، فسوف يصبح قسم كبير من سلالة طنوس بروتستانتياً بدءاً من ابنته الصغرى يمنى التي ذكرتها سابقاً حين كتب والدها إلى بطرس موافقاً على متابعتها لدراسة حقيقية. وكانت بالتأكيد من أوائل الفتيات في القرية اللواتي حصلن على هذه الفرصة. فأخذها خليل وزوجته المتزمتة صوفيا - وكلاهما من أنصار تعليم الإناث، تحت حمايتهما، وشجعاها على سلوك هذا الدرب. فهل أقنعاها كذلك باعتناق البروتستانتية؟ لا يهم، في الحقيقة، لأنها سوف تصبح حكماً بروتستانتية لدى اقترانها بالابن البكر للواعظ، وهو الدكتور شكري.

أتوقف قليلاً عن السرد. فللمرة الأولى منذ شروعي بنزول مجرى نهر أصولي، أصادف شخصاً أعرفه. وكدت أكتب " ألحق به"، وهو تعبير يعكس بصورة فضلى ذلك الإحساس الذي يخالجني بالهرولة وراء أسلافي الذين يلوذون بالفرار، ويموتون باكراً، أو يهاجرون ولا يعودون. فشكري، "الدكتور شكري "، كما هو معروف في أسرتي، التقيت به مرة في طفولتي. لم ألتق يمنى التي وافتها المنية قبله - ولا أذكر سوى صورتها يوم وفاتها، ملصقة على المخمل الأسود، في أطار معلق في البهو، ذلك البهو نفسه الذي كان فيما مضى مكاناً للاجتماع والصلاة

لبروتستانت القرية؛ وأصلاً، ما زال ناقوس صدىء معلقاً على الجدار الخارجي، لم أفهم آنذاك وظيفته.

ذلك البيت أصبح بيتي...

24

ذهبت في ذلك اليوم لزيارة الدكتور شكري. واليوم، أظن أنه طلب على الأرجح رؤيتي للمرة الأخيرة قبل وفاته لأنه كان عجوزاً، ولا يبارح غرفته.

أحتفظ عن ذلك اللقاء بصور واضحة؛ ومع ذلك، كنت في الخامسة على أبعد تقدير، بل ربما في الرابعة من العمر. وما زلت أذكر ذلك الرجل العجوز المريض الذي كان وجهه يلوح مثلثاً ونظاراته ضخمة وثقيلة لشدة هزاله. ولكن نظرته ويديه كانت متوقدة. كان يرقد في سرير مؤطر بالأعمدة، ويستند إلى وسادة كبيرة مطرزة، وقد علا رأسه الأجلح إكليل من الشعر الأبيض الناعم والمشعث. طلب مني الجلوس على كرسي من القش قرب السرير، وعلمني حيلة ما زلت أتقنها. فبعد أن وضع أمامي طبقاً مقعراً ملأ نصفه بالماء، تناول من على المنضدة قطعة من النقود غمسها في السائل. كان يجب تناول القطعة بدون تبليل الأصابع. "الأمر سهل للغاية، سوف ترى!". طلب مني إحضار كوب فارغ رصحيفة قديمة مزق أحد أطرافها، ثم جعَّده، وأدخله في الكوب

قبل إحراقه. وبعد ذلك، وضع الكوب على الطبق، وطرفه إلى الأسفل. وعلى الفور، تدفق الماء باتجاه الورق المشتعل، وجف قعر الطبق. انبهرت بهذه الحيلة، ولم أنس أبداً زيارتي للدكتور شكري.

توفي بعيد ذلك، ولم أتمكن من رؤيته ثانية - أو على الأقل ـ لا أذكر أننا التقينا مرة أخرى. غالباً ما سمعت من حولي يتحدثون عنه في طفولتي كرجل واسع العلم والمعرفة، يتميز بطبعه المغامر، دون توضيح المزيد؛ وسرعان ما كفوا عن ذكره كما يبدو لي. ولحسن الحظ، يخصص كتاب "الشجرة" حيزاً لسيرته بالتفصيل، على الرغم من انقطاع هذه السيرة وهو في السابعة والثلاثين - في ختام الكتاب. فعلمت أنه ولد عام 1871، وتعلم في مدرسة أبيه، ثم تابع دراسته، بالطبع، لدى الأميركان، وكان ضليعاً في علوم عديدة، كالفلك وعلم النبات والأرصاد الجوية، وعلم السموم، وأنه كتب عشرات المقالات في المجلات المتخصصة قبل اكتشاف شغفه بالطب في عامه الثلاثين.

> فنال شهادته أمام اللجنة العثمانية عام 1904، وراح يمارس مهنة الطب ببراعة - يتابع مؤلف "الشجرة" الذي كان صديقاً لشكري مما يبرر اهتمامه الشديد بمساره. ولكنه كان يرغب بالسفر، فأبحر في 23 شباط/فيفري 1906 إلى مصر حيث انخرط ضابطاً في الجيش، وأرسل إلى السودان الذي ما زال موجوداً فيه حتى تاريخ طباعة هذا الكتاب.

لعله تزوج يمنى في الفترة الممتدة بين هذين التاريخين، أي أواخر 1905، أو أوائل 1906، وفي كل الأحوال فور عودة بطرس من جولته الأميركية. وبعيد ذلك، سافر الزوجان بالفعل

إلى الخرطوم التي عمل فيها شكري طبيباً عسكرياً في الجيش البريطاني.

أحدث زواج ابنة طنوس بابن خليل المزيد من التقارب بين العائلتين اللتين لم تعد تربطهما الصداقة والجيرة فقط، بل كذلك التحدر من السلالة نفسها بشكل أو بآخر. فابتهج بطرس، خلافاً لأخيه تيودوروس الذي رُسِّم كاهناً قبيل زواج شقيقته، ورأى في هذه المصاهرة مع "المهرطقين" إذلالاً لا سيما أن ابن الواعظ كان ملتزماً بعقيدته البروتستانتية، وشرساً في عدائه للكاثوليك. فكان من الطبيعي أن يحزن لزواج شقيقته بهذا الرجل، وعيشها معه وسط البريطانيين. ولكنه لم يشأ - أو لم يستطع- الإعتراض.

لم يسلم عمي الأكبر تيودوروس من المنغصات لأن الرسالة التي بعثها جبرايل إلى خليل عام 1909 كانت بخصوص الزواج ولو من باب التلميح. كانت رسالة مبطنة المعاني للغاية لأن المغترب، وبعد تطرقه إلى شتى المسائل، اكتفى في السطور الأخيرة من رسالته، بالتمني على أستاذه السابق "أن ينقل تحياته واحتراماته إلى ابنته الفاضلة أليس".

كان لا يطلب يدها للزواج رسمياً؛ ولكن مجرد أن ذكرها على حدة بدلاً من أن يشملها في تحياته للجميع - مع العلم أنه لم يلتق بها منذ كانت طفلة -، كان أسلوباً لجس النبض.

إحتفظ خليل عن تلميذه جبرايل بذكرى فتى ماكر، متدبر، مرح، إنما شديد الحرص على مظهره، قليل المثابرة على دروسه، وغير ميال كثيراً للشؤون الدينية. ومنذ ذلك الحين، مرت السنوات، وسمع عن حقيقة وضعه في كوبا شتى الإشاعات. فعلم، مثل الجميع، أن بطرس سافر إلى هافانا لإنقاذ أخيه من

ورطة. فما كانت تلك الورطة بالضبط؟ وهل صحيح أن المغترب قد واجه المتاعب مع العدالة؟ وبأي خصوص؟ فحين يكون المرء أباً مسؤولاً، تلك هي الأسئلة التي من المفترض توضيحها لو شاء تزويج ابنته بأحدهم...

قبل الرد على الرسالة التي وصلت من هافانا، فاتح المبشر بالأمر بطرس الذي شعر بالإحراج الشديد لهذه الثقة. فمن جهة، تعلم من تجربته ألا يثق بوعود شقيقه، وهو أمر لا يستطيع من باب اللباقة إخفاءه عن شخص مثل خليل، فيقول له: "زوِّجه ابنتك وأنت مغمض العينين..."، فهو ما زال يذكر مغامرته الكوبية العاثرة. وماذا لو وجدت المسكينة نفسها ترقد، مثله، في سقيفة؟ ولكنه لم يستطع كذلك خيانة أخيه ونصح الواعظ برفض طلب جبرايل الزواج بابنته أليس...

لا أحد بين الأحياء يعلم الحديث الذي دار بين الرجلين بالضبط، فقد توفي كلاهما منذ عهد سحيق، ولا بد أنهما كانا سيلزمان الصمت حول هذه المسألة في مطلق الأحوال. والمهم أن خليل قرر أن يتريث إثر حديثه مع بطرس. فبعث للمغترب رسالة شديدة اللباقة وراقية الأسلوب يشكره فيها على سؤاله عن صحة أفراد أسرته، مضيفاً أن بودِّه لو يسأل بدوره عن صحته وتجارته والإطمئنان على حسن سير أحواله.

أدرك جبرايل الذي كان لا يتحلى مثل بطرس بذكاء المعرفة بل بخبرة الحياة، على الفور، ما كان يتهامسه الناس في القرية، وقرر الرد بأسلوبه الخاص. ولو تعلق الأمر بشخص آخر، لاستفاض في الحديث عن نجاحه، وعدَّد أملاكه، وفصَّل مداخيله، ولكن عمي الكوبي آثر، وهو يخاطب واعظاً مشيخياً

متزمتاً، أن ينتهج أسلوباً مختلفاً. فأجاب برسالة مقتضبة يؤكد فيها ببساطة أنه رجل مجتهد وشريف، يكد ليلَ نهارَ، وسوف يكدح أكثر متى صار رب أسرة؛ ثم أشار في معرض كلامه إلى أنه لمح، على بعد خطوتين من بيته، كنيسة مشيخية جميلة...

أعجب المبشر بلهجة الرسالة، وتأثر بهذا التفصيل الأخير، وكذلك تأثرت أليس التي كانت تخشى الإقامة في جزيرة تعيش فيها أغلبية كاثوليكية. ثم جرى تبادل رسالتين أو ثلاث رسائل، ووافق بعدها خليل على طلب جبرايل. فسافرت زوجته صوفيا مع ابنتهما إلى كوبا بعد بضعة أشهر. وأسكنهما جبرايل في شقة صغيرة مجهزة خصيصاً لهما فوق متجره، وسط هافانا.

عقد القران بدون أبهة وفخامة، في احتفالين متتاليين، الأول في كنيسة الحي الكاثوليكية، والثاني في الكنيسة المشيخية. وبعيد ذلك، عادت زوجة الواعظ مطمئنةً لهذا الصهر الذي أظهر الجد والفضيلة بالرغم من كونه بابوياً. وفي الواقع، كان جبرايل يكرس كل وقته لتجارته، وأليس توزع وقتها بين الأعمال المنزلية والصلاة، ريثما تمنُّ عليها السماء - إنما بدون عجلة - بطفل.

25

رزق جبرايل وأليس بمولودهما الأول في 30 كانون الثاني/ جانفي 1911. وتضم وثائق العائلة بطاقة عمادة فخمة مرسومة

بخط اليد، تصور غصناً من الليلك، وفي الخلفية، منظر البحر وسفينتين شراعيتين؛ وتشير البطاقة إلى أن العمادة جرت في 16 تموز/جويليه بمنزل الوالدين، الكائن 5، شارع إيخيدو، وأن الكاهن كان "خوري رعية كنيسة سانتو كريستال ديل بوين بياخي"؛ مع ذكر اسم الأبوين، "غبريال" و"أليسيا"؛ والعراب، فرناندو فيغيريدو سوكارَّاس؛ والعرابة كارميلا كريماتي التي لم تتمكن من الحضور، لأن البطاقة تذكر أن "الآنسة روزا مارتينيز حضرت بالنيابة عنها"...

وأرفقت مع بطاقة العمادة صورة فوتوغرافية للطفل ممدداً بقفاه العاري على ملاءة مطرزة، والصورة مقصوصة بحيث توضع في إطار بيضاوي الشكل، ولا بد أنها التقطت يوم العمادة؛ ولا شيء مكتوب عليها سوى اسم المطبعة بحروف منمنمة، "مطبعة كاسترو، هافانا".

لم أفاجأ كثيراً لأن ابنة المبشر المشيخي وافقت على تعميد طفلها على يد خوري كاثوليكي؛ ولو استشارت والدها، لكان نصحها بذلك على الأرجح. ففي آخر حياته، تبنى خليل حول هذه المسائل موقفاً معتدلاً كان يفتقر إليه في شبابه. وفي الوثائق الأخيرة التي أملكها عنه، صار يوقع دائماً "خليل، ابن الخوري جرجس"، قبل أن يضيف، بحروف أصغر حجماً، "خادم الطائفة الإنجيلية". كان موقفاً راقياً ينم عن رغبة بالمصالحة والتعايش السلمي؛ ودليلاً على الحنكة بالدرجة الأولى: فقد عاش خليل في بيئة كانت طائفته فيها حديثة العهد وأقلوية إلى حد كبير، وقد اضطر للوعظ بواسطة القدوة، ولم يبشر بديانته إلا للذين كانوا يطالبونه بإصرار القيام بذلك.

وبما أن صهره جبرايل ليس بروتستانتياً، فلن يكون المولود كذلك؛ وإذا شاء حفيده لاحقاً اعتناق ديانة أمه، فهو حر. وإلى ذلك الحين، فليعمِّده الخوري، بل سيحمل الطفل، من بين أسمائه، اسم تيودوروس تكريماً لعمه، الكاهن الكاثوليكي.

هل هذا يعني بالتالي أن انتمائين دينيين اجتمعا حول المهد؟ سوف أكتشف انتماءً ثالثاً مع المزيد من التحري والتنقيب. فقد استرعى انتباهي على بطاقة العمادة اسم "سوكارَّاس". وكنت متأكداً أنني صادفته مؤخراً. ألم أقم ببعض القراءات حول تاريخ كوبا حين وقعت بين يدي رسائل جبرايل التي أحضرتها أمي من لبنان؟ وأخيراً عثرت، إذ بذلت جهداً لإعادة رسم المسار نفسه، ولحسن الحظ، على هذه الفقرة التي خلفت في ذاكرتي صدى:

> في 28 كانون الثاني/جانفي 1895، احتفل خوسيه مارتي في نيويورك بعيد مولده الثاني والأربعين الذي سيكون الأخير. وفي اليوم التالي، وقَّع على الأمر بالإنتفاضة العامة التي سوف تؤدي إلى استقلال الجزيرة. ونقلت الوثيقة في 2 شباط/فيفري إلى فرناندو فيغيريدو سوكارَّاس الذي لفها في سيجار كوبي، ووضعها وسط أربعة سيجارات متشابهة، وقصد "كي وست"، ثم كوبا. واندلعت حرب الإستقلال في 24 شباط/فيفري. وفي هذه الأثناء، ذهب مارتي إلى سان دومينغو للقاء مكسيمو غوميز...

عندما قرأت هذا النص للمرة الأولى، كنت مهتماً تحديداً بالاسم الأخير المذكور الذي اشترى منزله عمي الأكبر، وكنت أعرف أصلاً اسم خوسيه مارتي، على الأقل بوصفه مؤلف أغنية "غوانتانامير!" الشهيرة، بدون إدراكي لمدى احترام الكوبيين لهذا

الشاعر الذي كانوا يرون فيه، بشكل من الأشكال، الأب المؤسس للدولة الكوبية؛ وبالمقابل، كنت لا أعلم شيئاً عن فيغيريدو سوكارّاس، أو عن دور سيجاره في حرب الإستقلال. فكيف أصبح هذا الرجل عراباً لابن عمي الأكبر جبرايل؟

كان الأمر مذهلاً، وسوف أكذب لو ألمحت إلى أن مفاجأتي كانت كاملة. لا، كانت لدي فكرة... ولكنني اضطررت للغوص في بعض المراجع، إلى جانب وثائق العائلة، لتأكيد شكوكي: فالصلة بين جبرايل، المهاجر من جبل لبنان، بفرناندو فيغيريدو سوكارّاس، وصلة هذا الأخير بخوسيه مارتي، وصلة مارتي بالضابط مكسيمو غوميز من سان دومينغو، قائد قوات الثورة، أن أربعتهم كانوا ماسونيين. وهذا الإنتماء موثق توثيقاً مسهباً بالنسبة إلى ثلاثة منهم في المراجع التي تستعيد سيرة حياتهم؛ أما عمي الأكبر الذي لم تذكر كتب التاريخ اسمه، فيكفي الإطلاع على رسائله. ولا حاجة أصلاً للإطلاع عليها بل يكفي إلقاء نظرة على مغلفات رسائله، أو على الشعار المطبوع على ورق هذه الرسائل، ليكتشف المرء، إلى جهة اليسار، تحت اسم متجره، وفوق العنوان، عبارة Distintivos masonicos، أي "شارات ماسونية"، مما يعني أنه كان مخوّلاً بيع الشارات المختلفة - ميداليات، أشرطة، مرايل، فتائل، سلاسل عقدية، الخ.- التي تستخدم في الاحتفالات الماسونية.

كانت كل هذه الأمور تتماشى تماماً مع ما سمعت الأسرة تقوله همساً، أي أن عمي الأكبر جبرايل كان ماسونياً، وكذلك جدي. فهل تأثر أحدهما بالآخر؟ وفي أية مرحلة من حياتهما؟

أعترف أنني لا أملك اليقين بهذا الشأن، وإن توضحت لي الأمور قليلاً لدى اطلاعي على وثائق عائلتنا.

يتضح لي أن جبرايل انخرط في الماسونية بعد رحيله إلى القارة الجديدة، إما إلى هافانا، أو إلى نيويورك، ولا شك أنه انخرط في هذه الحركة على يد منفيين كوبيين من أنصار مارتي. وهذه مجرد فرضية، ولكنها تبدو لي منطقية أكثر من انخراط عمي الأكبر في الماسونية وهو في الثامنة عشرة من العمر في قرية من قرى الجبل.

أما بشأن جدي، فقد بقيت طويلاً في حيرة وتلمس. تعددت الافتراضات، ولكن لم يشكل واحد منها دليلاً قاطعاً. على سبيل المثال، هذه الرسالة المذكورة آنفاً التي بعثها له، بعيد عودته من أميركا، ذلك الصديق الذي خاض معه حديثاً مطولاً في بيروت، على شرفة "كوكب الشرق".

> أذكر تلك الجلسة... في ذاك الليل المدلهم، وأعلم أن القصد منها التعاضد لمحو ذلك الظلام، وقيام النور مقامه، ولا يتأتى ذلك إلا بتكاتف من كانوا نظيرك، وتعاقد خناجرهم، فلا تجعل ما كان بخبرٍ كان، ولا تحل التسويف محل البت، لأنك حر، والحر لا يصبر على الضيم...

لعل من المفيد الإشارة إلى أن عبارة "الحر"، بصيغة المفرد، وخاصة بصيغة الجمع، أي "الأحرار" غالباً ما تستعمل في اللغة العربية كاختصار متداول للإشارة إلى "الماسونيين الأحرار"... وأتابع قراءة هذه الرسالة:

> فاسلك الطريق لأنها الوحيدة والواجبة على من كان مثلك،

هذا ضميري أبديه لك لأني معجب باستعدادك ومعجب أكثر ببقائك... فإن شاء الله، أتلقى الجواب بالإيجاب لأشرب كأساً على اسمك دون سابق عادة.
سوف أرسل لك قريباً كتاب العقيدة الذي حدثتك عنه...

كان هذا الرجل الذي يتكلم بلهجة الصديق الصدوق إنما الحديث العهد يحاول بوضوح تشجيع بطرس على الإنخراط في جمعية لا يمكن أن تكون في ظروف ذلك العصر - آذار/مارس 1906، قبل سنتين من انتفاضة الضباط الأتراك -، سوى جمعية سرية، أو على الأقل "متخفية"...

وأعاود قراءة القصيدة التي نظمها جدي إثر إحباط الثورة المضادة وخلع السلطان عبد الحميد:

سلامٌ على عهد الرشاد فإنه   يرمِّم من بنياننا ما تهدما...

فرمز البناء المنهار الذي يجب ترميمه رمز ماسوني نموذجي. فهل هذا دليل؟ لا، بل افتراض إضافي، لا سيما أن القصيدة تتابع كما يلي:

سلامٌ على سيفي نيازي وأنورٍ   سلامٌ على جمعيةٍ جردتهما
سلامٌ على الأحرار من كل ملّةٍ   سلامٌ على من طهّروا الأرض بالدما

كلما أعاود قراءة هذه الأبيات، يترسخ اقتناعي. لا أمانع الإقرار بأن "الجمعية" التي يوجه لها جدي تحية إكبار هي جمعية "الاتحاد والترقي"، أو "تركيا الفتاة"، بدلاً من الماسونية... غير أن الإشارة إلى "الرجال الأحرار" تطن في أذني مثل تلميح إلى العارفين.

قمت بتقاطعات أخرى، وبتحليل لأجزاء من جمل أخرى...

وطرحت ألف سؤال على أصدقاء ماسونيين قاموا بصبر بردم ثغراتي الهائلة حول تاريخهم، ومثلهم العليا، وطقوسهم، وولاءاتهم، ولكنهم لم يفلحوا في توضيح مسار جدي. وفي نهاية المطاف، رضخت للأمر الواقع وتركت للشك نصيبه. ولتعزية نفسي بسبب غياب القرائن، اعتبرت أن بطرس، خلافاً لجبرايل، لو اختار الإبقاء على هذا الجانب من حياته في العتمة، فهو لم يفعل بدون مبرر؛ فكونه مشرقياً، كان مرغماً على التكتم حول مبادئه الحقيقية، بسبب خشيته من السلطات وريبته من الرأي السائد بما في ذلك رأي أهله. وربما لا يجدر بي التحري أكثر مما شاء هو أن يبوح به.

ثم، في أحد الأيام، وصلني الدليل. ففي رسالة بعثها لي أحد الأصدقاء، وهو من كبار الماسونيين، اهتم ببحثي، نقرأ ما يلي:

> أرجو من السماء أن تكون المعلومات التي أزوّدك بها اليوم هي تلك التي تترقبها منذ أمد بعيد! فقد عثرت في محفوظات المحفل الإسكتلندي "السلام" رقم 908 على ما يلي:
>
> "اسم العضو: بطرس م.م.
> تاريخ الإنتساب: 6 نيسان/أفريل 1907
> السن: 40 عاماً
> رقم التسجيل: 327".
>
> إذا كان السن المذكور هو سنه بالفعل، فقد عثرنا على ضالتنا المنشودة. "فالأخ بطرس" كان عضواً في محفل السلام الذي تأسس في بيروت عام 1905 تحت إشراف محفل اسكتلندة الكبير، وهو من أكثر المحافل نشاطاً في الماضي وحتى اليوم.

وبالرجوع إلى ما ذكرته لي في رسائلك السابقة عن عودة جدك من أميركا في أواخر 1905 أو أوائل 1906، وإقامته في بيروت حتى خريف 1907، تبدو لي التواريخ متطابقة.

هذه المرة، أجل، تبدَّد الشك. ولئن كنت قد حسمت رأيي منذ وقت طويل، فهذا التأكيد يمنحني الشعور بأنني دخلت في حميمية جديدة مع الرجل المنسي الوجه، عبر الأجيال، وعبر تلك الحدود المتحركة التي تفصل بين الأحياء والأموات.

26

أصبح تاريخ 24 تموز/جويليه 1909، الذكرى الأولى لصدور الدستور العثماني، "عيد الحرية"، وجرى الاحتفال بهذه الذكرى في كل أنحاء الإمبراطورية - على غرار ما حصل في فرنسا مع عيد الاتحاد، في 14 تموز/جويليه 1790، بعد سنة على اقتحام سجن الباستيل. ولا يتوقف الشبه عند هذا الحد أصلاً، كما يتضح في الكلمة التي ألقاها بطرس في هذه المناسبة أمام الناس والسلطات في مدينة إقامته.

يلجأ بطرس، بعد تحية السلطان الجديد والضباط الثوار، إلى خطته المفضلة، أي المقدمة التي تتسم بتواضعها المزيف:

أما بعد فقد كان بودِّي في موقفي هذا أن أقول كلمة في شعار دستورنا الذي لأجله نعيِّد، أي في الحرية والإخاء والمساواة،

مقابلاً بين حقيقة معناها والحقيقة التي فهمناها... فسبقني إلى هذا المجال من هو أعلم مني كثيراً بما يُفعل وبما يُقال... فنثر من الألفاظ دراً، ونفث من المعاني سحراً، فلم يبق لي بعده إلا أن أرجع عما كنت أريد، وأجعل كلمتي في الباعث على التعييد باعثاً بما تصل إليه اليد عما يفيد منه وعما لا يفيد.

وإنه ليغنيني عن بيان الباعث وصفاته حديث دار مساء البارحة أرويه لكم على علاته بين عثماني وأجنبي...

كتبت هذه الكلمة الأخيرة بالعربية في نصي لأنها تستحق التوضيح. ويمكن ترجمتها بكلمة "غريب" شرط عدم إغفال دلالتها الضمنية الخاصة. فكلمة "أجنبي" أو "أجنبية" تشير في أغلب الأحيان إلى شخص "أوروبي" بالمعني العرقي للكلمة. ففي بلدان المشرق، لا يقال أبداً عن مغربي، أو إيراني، أو يوناني، أنه أجنبي، فمن الشائع تسمية رعايا هذه البلدان القريبة ثقافياً بأسمائهم الخاصة. أما "الأجنبي" فهو شخص أبعد، من أوروبا وأميركا، أو - بصورة أقل شيوعاً - من الشرق الأقصى. وتشير هذه الكلمة، في ذهن جدي والمستمعين إلى كلمته، على الأرجح، إلى فرنسي أو بريطاني أو ألماني أو أميركي؛ وبالتالي، كان بوسعي أن أترجمها فأقول "أوروبي" أو "غربي" أو "أجنبي" على حد سواء. وبعد تردد، اعتمدت هذه الكلمة الأخيرة لئلا أغالي في الإفصاح عما هو ليس كذلك في ثقافة لبنان.

هذا، والتوضيح الذي عرضته للتو غير ضروري إلى حد كبير لأن هذا "الأجنبي" وهذا "العثماني" اللذين يتظاهران بالتحاور هما، في الحقيقة، شخص واحد هو جدي نفسه الذي لا بد أنه

ظن بأن كلامه سوف يلاقي المزيد من التجاوب لو نسبه إلى متحاورين وهميين.

اجتمع البارحة أيها السادة رجل أجنبي ورجل عثماني في مجلس، فقال الأول للثاني: إني أرى في أنديتكم العمومية آثار زينة، وأرى أمارات السرور بادية على وجوهكم، فعلام أنتم مجمعون؟ فأجابه العثماني: إننا سنعيِّد غداً عيداً وطنياً عظيماً يدعى عيد الحرية، فنحن نزين ونرمم، وسنجتمع غداً، فنخطب كما تفعل فرنسا وأميركا وغيرهما من الشعوب الحرة في هذا العيد.

فقال الأجنبي: عجباً لكم أيها القوم، فإنكم دائماً تتقلدون الأعراض من مظاهر الغربيين، وتغفلون عن الجواهر. إن الأمم التي ذكرتها تقيم الأعياد الوطنية لإعلان مفخرة من أعمالها تخلد لها مجداً باهراً، وتؤثر في نجاح الوطن نجاحاً ظاهراً، فأنتم لإعلان أي مجدٍ تعيِّدون، وبأي باهرٍ من نجاح الوطن تسرون، أم أنتم تعبثون بعضكم ببعض وتضحكون؟

فأجاب العثماني: إننا نعيِّد لإعلان الدستور الذي فيه الحرية والإخاء والمساواة، أليست هذه كلها مما يستحق التعييد؟

فقال الأجنبي: نعم من الدستور الحرية وأخواها، وهي من أفضل ما يعيَّد لأجله، ولكن قل لي يا رعاك الله، ماذا تريدون بإعلان الدستور الذي لأجله أنتم الآن تعيِّدون، أإبرازه مجلداً في المحاكم أم العمل بموجب أحكامه؟ فإن كان الأول، فالدستور مترجم ومطبوع ومبرز في المحاكم عندكم من قبل الرابع والعشرين من تموز/ جويليه بسنين طوال، فكان الأولى بكم أن تعيِّدوا له يوم ترجم وطبع، ويوم جلِّد، ويوم أبرز في المحاكم، وإن كان الثاني أي العمل بموجب أحكامه، فالعمل بموجب أحكام الدستور الذي فيه الحرية والإخاء والمساواة،

هو أن يعطى كل ذي حق حقه سواءً كانت تلك الحقوق أدبية أو مادية، وسواءً كان ذووها من الحزب أم من غير الحزب، وأنا قد فحصت كثيراً في دوائركم المدنية والدينية والأدبية، فوجدت أن هذه القاعدة، أي إعطاء كل ذي حق حقه غير موجودة عندكم، وكثيرين من كبار رجالكم لا يستطيعون أن يتصوروا لها معنى، فاصبروا إذن حتى يعتلن الدستور الإعتلان الحقيقي، ويصير لكم أمل بالنجاح، وعيِّدوا.

فهاج إذ ذاك العثماني وقال: أتطعن في رجالنا، أتطعن في الدستور، أتطعن في السلطان الدستوري، أتطعن في نيازي وأنور؟ إنك إذن من حزب المتقهقرين!

فقال الأجنبي: رويداً يا هذا، وافهم ما أقوله لك، فإني أكلمك بلغتك، أنا لست متقهقراً، ولو لم أكن من أصدق الأحرار، لما تكلمت بهذا الكلام الحر. وإني لأعرف من فضل سلطانكم وفضل بعض رجالكم ما لا تعرفه أنت. أنا أعترف بأن سلطانكم عادل فاضل، وليس في ملوكنا أفضل منه، وأن نيازي وأنور من أشجع الأبطال، والبطل المعادل لهما عندنا نعزه ونكافيه بما لا تحلمون به أنتم، ولا تدركون له منى، وأعتقد أن الدستور مفدى واجب، وأن الشعوب الراقية إنما ارتقت بالدستور، فأنا لا أنهاكم عن الحالة الدستورية، ولا أعتقد أن لكم حياة بعدها، ولكن أحرسكم من أن تلتهوا بالظل حتى تفوتكم الحقيقة، أحرسكم عن أن يشغلكم السرور باسم الدستور والحرية عن اكتساب الأخلاق الموصلة إلى الغاية المقصودة من الدستور إلى النجاح والسعادة. أعجب إذا رأيتكم تفرحون بأعياد أو بتغييرات وتجديدات قبل أن تتغير فيكم تلك الأخلاق الشرقية الشهيرة مما هو غني عن البيان. فاعلم أخيراً أيها العثماني أن الدستور الذي إذا أعلن في شعب نجح وارتقى إنما هو الدستور

المطبوع في الأخلاق مثل الاعتصام بالصدق، والمجاهرة بالحق، وأما الدستور المطبوع بحبر على ورق، فما هو إلا ظل لتلك الحقيقة، فإذا وجد عند قوم بدونها، واعتمدوا عليه للعمران، لا يكون نصيبهم إلا الخرابُ، وأنتم الآن لم يوجد عندكم من الدستور سوى الظل، وأما الأخلاق الدستورية التي تمهد للعيشة المدنية التي نحفظ بها الحقوق ليتمتع كل بحقه سعيداً، ويسعى لرزقه مطمئناً، فلا يوجد عندكم منها للآن ما فيه غناء، وكانت أخلاقكم ما هي إلا بقية من أخلاق العرب الجاهليين أسلافكم، أخلاق مروَّضة على السب والضرب، وتأليف الأحزاب تأهباً للغزو وشن الغارات، والذين يدعون المدنية فيكم، ويسمون الأعيان والوجهاء، يجبرون على سياسية حزبية يهون عليهم في سبيل إتمامها أن يسموا الأسود أبيضَ والأبيض أسودَ، وأن يجعلوا الأسد ثعلباً، والثعلب أسداً، وأنتم تجلون قدر المجيد فيها، وتدعونه المولى العزيز، فإذا لم تقلعوا عن هذه الخطط، وتسعوا سريعاً لمحاربة تلك السياسة وترويض تلك الأخلاق بالوسائط الفعالة، فسدت حالتكم الدستورية، وهي آخر الحالات التي يمكنكم الوصول إليها، ووقعتم في يد أجنبية لا تعرفكم إلا عبيداً أذلاء خلافاً لما تتوهمون، فانتبهوا يا قوم من عزة الجهل، فأنتم الخاسرون، كفاكم تزدرون بالصدق وبالحق وتستخفون، كفاكم تناصرون الشر وتفتخرون، كفاكم تعيِّدون للضحك بعضكم على بعض وتفرحون.

فعند ذلك، أطرق العثماني وتأمل، وأدرك في حاله ما كان يجهل، فغابت عن جبينه كواكب البشر، وانهل من جفونه وابل المطر، والتفت إلى قوم يستغيث ويستنجد، وهو يتأوه وينشد.

سقط قناع المتحاورين، وأصبح، خلال الحوار، أكثر فأكثر

شفافيةً. فذلك "الأجنبي" الذي سيصف نفسه حيناً "بأصدق الرجال الأحرار"، يتفوه بكلام قاله بطرس منذ عام؛ فيما يستعد "العثماني" لإلقاء قصيدة نظمها بطرس، وتستعيد الموضوعات نفسها:

لإعلان مجدٍ عيّدت أمم الأرض وأعيادنا للضحك بعض على بعض
وإلا ففيم العيد والبشر والهنا وفيم "خفَّقنا" الأرض بالطول والعرض
أفيما افتتحنا من بلاد خصيبة أفيما اكتسبنا للمعيشة من خفض...
نعم أعلن الدستور أو كان معلناً وأطلقت الأقلام للرفع والخفضِ
ونظم من نوابنا عقد مجلس وظلَّ بنعمى ربه غيرَ منفض
ونزل سلطان ونُصِّب غيره وفي الحكم ما فيه من الغمط والغض
فمن مدعٍ يلغو ومن جاهلٍ يعي ومن مفترٍ يشكو ومن مرتشٍ يقضي
ومن أمةٍ طيارةٍ بيد الهوا يجيء بها طوراً وطوراً بها يمضي...

27

لم تكن تلك الكلمات التي قيلت علناً بعد مرور عام على تمرد تركيا الفتاة، وثلاثة أشهر بالكاد على سقوط عبد الحميد، مجرد تعبير عن النزق ونفاد الصبر. وحتى لو كان "العثماني" و"الأجنبي" في ذلك الحوار يتظاهران بالدفاع عن السلطان الجديد والضباط الثوار، فمجرد الكلام على هؤلاء الحكام بهذه النبرة الجريئة له مغزى. فقد تعاظم إحباط بطرس وتمزقه، وكان يستفيد من حرية التعبير المكتسبة حديثاً للتعبير عن رأيه.

كان منزعجاً أولاً لأن ممارسات الإدارة والموظفين المحليين، أكانوا ولاةً أم موظفين أقل مرتبةً، ما زالت ممارسات النظام القديم. ولكن المرء يجب أن يكون ساذجاً ليتوقع التغيير بين عشية وضحاها بجرد إصدار مرسوم...

وكان محزوناً كذلك - وهذا أخطر وأكثر إيلاماً، وبطرس لا يستطيع المجاهرة برأيه في هذا المجال - لأنه بات يدرك أن الحل لن يأتي أبداً بشأن القضية التي تكتسب عنده أهمية قصوى.

كانت هذه القضية هي قضية "الأقليات في الإمبراطورية". وهذه الصيغة التي تحاكي كتب التاريخ المكرسة لمسألة الشرق لا تعبر عن جوهر الأمور. فجوهر الأمور ليس في تحديد حق الأقليات، فحالما تعرض الأمور على هذا النحو، يتدخل المنطق الخسيس للتسامح، أي الحماية المتعجرفة التي يمنحها المنتصرون للمهزومين. كان بطرس لا يريد أن يعامل بتسامح؛ وأنا، حفيده، لا أريد ذلك بدوري، بل أطالب بالاعتراف الكامل بحقوقي كمواطن، دون اضطراري للتنكر للانتماءات المؤتمن عليها؛ وهذا حقي غير القابل للانتهاك، والمجتمعات التي تحرمني منه أشيح بوجهي عنها بتكبر وعلياء.

ما كان يقضُّ مضجع بطرس - وفعل "يقضُّ" ضعيف، ويجدر بي القول: ما كان يحدد كل انفعالاته وخواطره وأفعاله هو التحقق من تمتعه في إمبراطورية عثمانية عصرية بمكانته الكاملة كمواطن، هو المولود في كنف طائفة أقلوية، ديانتها مسيحية ولغتها عربية، دون الاضطرار، طوال حياته، لدفع ثمن ولادته.

حملته بعض المؤشرات على الاعتقاد بأن ثورة الشباب الأتراك تسير بالضبط في هذا الإتجاه. فكل هؤلاء الأقلويين الذين

رحبوا بالحركة منذ الوهلة الأولى، وأسهموا فيها أحياناً إسهاماً فاعلاً، كل هؤلاء "الرجال الأحرار من كل الطوائف" كانوا بالضرورة يغذون الآمال نفسها التي يغذيها.

وسرعان ما حصلت ظواهر مقلقة كتلك الإنتخابات العامة، على سبيل المثال، التي كان من شأنها أن تعلن عن بدء عهد من الحرية والديموقراطية، وتتسم بالتدخّلات والتزوير- كانت كل الوسائل مقبولة لانتخاب أكبر عدد من النواب المؤيدين للضباط الثوار وجمعيتهم "الاتحاد والترقي". كان هؤلاء النواب ينتمون إلى كل أمم الامبراطورية، ولكن المراقبين لاحظوا ظاهرة مثيرة للقلق: ففي كل اقتراع، كان "الاتحاديون" ينقسمون إلى معسكرين، الأتراك من جهة، وغير الأتراك من جهة أخرى.

وقد شهدت القيادة الانشقاق نفسه. فاستبعدت الأقلّيات، "الأغراب"، وكذلك الماسونيون، شيئاً فشيئاً لصالح فئة قومية متطرفة، بقيادة أنور باشا الذي كان يحلم بإمبراطورية تركية جديدة تمتد من البحر الأدرياتيكي إلى تخوم الصين، وتضم أمة واحدة، ولغة واحدة، وقائداً واحداً. أليس هو أنور ذاك الذي أشاع في كل البلاد موجة من الحماس حين أعلن للحشود، من أعلى شرفة قصر الأولمبيا، في سالونيكا، أن الامبراطورية لن تضم بعد اليوم مسلمين أو يهوداً، يونانيين أو بلغاراً، رومانيين أو صرباً "لأننا كلنا أشقاء، وتحت الأفق الأزرق نفسه نفخر بكوننا جميعاً عثمانيين".

راح يتساءل أولئك الذين صفقوا في الماضي لدى سماعهم خطبته العصماء إن لم يسمعوا من فمه... ما يرغبون بسماعه تحديداً. وبدأوا يدركون مغزى تضمين أنور، بين الطوائف التي

يتمنى اختفاءها، "اليونانيين"، و"الصرب"، و"البلغار"، و"المسلمين"، و"اليهود"،... وليس "الأتراك"؛ ويتساءلون عما إذا كانت خطة هذا الضابط لا تهدف، بحجة المساواة والإخاء، إلى حرمان مختلف الشعوب في الامبراطورية من حقوقها الخاصة المعترفة لها حتى الحين.

من الواضح أن الأمر كان يتعلق بسوء تفاهم بالغ الخطورة سوف ينوء بثقله على مصير جدي، بل كذلك على الامبراطورية التي أبصر في كنفها النور. كان بطرس وطنيّاً، والضابط الذي وجه تحية تعظيم إلى سيفه مطلع الثورة كان قومياً. وغالباً ما ينزع بعضهم إلى التقريب بين الموقفين، واعتبار القومية شكلاً متشدّداً من الوطنية. أما في ذلك العصر- وفي عصور أخرى بدون شك- فالحقيقة كانت غير ذلك، إذ كانت القومية بالتحديد نقيض الوطنية. الوطنيون يحلمون بامبراطورية تتعايش فيها شعوب متعددة، وتنطق بشتى اللغات، وتعتنق شتى المعتقدات، ولكنّها تتحد بفضل إرادتها المشتركة ببناء وطن حديث كبير يضفي على المبادىء التي ينادي بها الغرب الحكمة الرهيفة التي تتحلى بها النفوس المشرقية. والقوميون، من جهتهم، يطمحون إلى الهيمنة المطلقة حين ينتمون إلى عرق الأغلبية، وإلى الإنفصال حين ينتمون إلى الأقليات؛ فالشرق البائس اليوم هو المسخ الذي ولد من أحلامهم المشتركة.

أنا الذي أتيت متأخراً للغاية لا أستحق أي تقدير على تأكيد كل ذلك، فالتاريخ أظهر لي الكثير من الأحداث المعبّرة! أما في عصر جدّي، فالآمال التي أشاعها الضباط المتمردون تضاءلت شهراً بعد شهر، وسرعان ما تبددت: فأنور سوف يورّط بلاده في

الحرب العالمية الأولى إلى جانب الألمان والنمساويين، وكان يحلم بسلب روسيا، في حال هزيمتها، أراضيها في القوقاز، وكذلك أقاليمها الناطقة بالتركية في آسيا الوسطى والتي كانت تعرف بتركستان؛ ولكن الامبراطورية العثمانية سوف تنهزم وتتشرذم. وراح الضابط الذي لا يقهر يعرض خدماته على لينين قبل انقلابه على الجيش الأحمر ومصرعه قرب مدينة بخارى عام 1922 وهو في الواحدة والأربعين.

لم يعد جدي يكترث أصلاً لهذه الشخصية، ولا أعرف حتى إن علم بمقتله. ففي تلك الفترة لم ينتشر الخبر في الجبل انتشاراً واسعاً. فهذا الموت في ساحة القتال الذي كان من شأنه، قبل سنوات، أن يكتسب بنظر شعوب الشرق أبعاداً ملحمية، فقد من أهميته. واضمحلّت ذكرى المتمردين العظيمين عام 1908 مع بزوغ نجم ضابط تركي آخر اضطلع حتى الحين بدور ثانوي فقط في أحداث الامبراطورية، وهو كمال أتاتورك.

وسوف يتحمس له بطرس أيضاً، بل ويلتهب حماساً، أكثر مما يتقبله العقل. ولن يكتفي بنظم قصيدة تحية لسيفه بل سيذهب، على شرفه، إلى حد ارتكاب فعل جنوني مرة أخرى ولكنه فعل لا ينتسى. وسوف أعود إليه في حينه...

خلال العام 1909، وفيما كان التوتر يتصاعد في كل الأقاليم والأحداث تتعاظم، قرر أحد الأعيان الإسلاميين في سورة غضب، الرحيل عن اسطنبول إلى الأبد.

كان قاضياً عثمانيّاً، أصله من صيدا، في جنوب لبنان الحالي، ولكن أسرته المسيحية المارونية استقرت منذ سنوات

عديدة على ضفاف البوسفور. وفي يوم أحد، أثناء فصل الصيف، وفي ختام الغداء العائلي التقليدي، أعطى بهدوء الأمر إلى زوجته وأولادهما الثلاثة عشر بحزم كل ما يملكون في حقائب، لأنه اشترى لهم جميعاً وللخدم بطاقات سفر على متن أول باخرة مبحرة إلى الاسكندرية.

كان هذا القاضي يدعى اسكندر، وابنته الصغرى فرجيني تبلغ من العمر السابعة لحظة النزوح. ولدت في اسطنبول، وكانت لا تتحدث سوى التركية. وسوف تتعلم لاحقاً في مصر العربية والفرنسية، ولكن التركية ظلت حتى النهاية بالنسبة إليها لغة القلب. وسوف تستقر عائلتها لسنوات عديدة في دلتا النيل حيث تزوجت فرجيني، في السابعة عشرة، بمهاجر يدعى أمين، قدم من جبل لبنان، وهناك، سوف تنجب طفلتها البكر، أمي.

توفيت جدتي، والدة أمي، بمرض السرطان عن أربعة وخمسين عاماً، ودفنت قرب زوجها في إحدى مقابر القاهرة. بالكاد عرفتها، ولم يبق في ذاكرتي سوى الانطباع المبهم بأنني لمحتها مرة واحدة.

لم تعلِّم أولادها اللغة التركية، وقلما روت لهم رحلة العبور والنزوح. ولكنها كانت تصف لهم أحياناً بيتها في اسطنبول إلى أن يغص حلقها بسبب دموعها. وقد ورثتُ عنها ذلك التكتم وذلك الحنين؛ ومن التركية التي كان أجدادي يفخرون بالنطق بها، لا أعرف سوى الكلمات التي ما زالت شائعة في اللهجة اللبنانية؛ غير أنني ترعرعت و"بيتنا" في اسطنبول يسكن أحلامي، وتخيلته قصراً بأعمدة بيضاء، وعلى الأرجح لم يكن كذلك، وبقيت طويلاً أتفادى زيارة عاصمة الإمبراطورية القديمة خوفاً من تناثر السراب

كقطرات الندى. ولما زرتها لاحقاً، أمضيت الأيام الأولى أبحث عن آثار أجدادي وعنوان "بيتنا"، لا سيما في أدلة الهاتف التي تعود إلى أوائل القرن، قبل العدول فجأة عن هوسي والتجول في المدينة بنظرات راشدة.

كانت جدتي لا تذكر الكثير من الأسباب التي دفعت بوالدها إلى المنفى، ويتحاشى أولادها سؤالها لشدة ما يشعرون بأن كل كلمة بهذا الخصوص بمثابة عذاب لها. وأقول لنفسي أحياناً إنها كانت لتسر لي بهذه الأسباب لو لم ترحل عن هذه الدنيا في عز شبابها... ولكنني لست على يقين من ذلك. فجدتي الأخرى عاشت حتى الواحدة والتسعين ولم تفقد شيئاً من منطقها السليم أو من ذاكرتها، وثمة ألف سؤال لم يسنح لي الوقت لطرحها عليها. فللموت أعذاره الواهية! وعندما حاولت بالفعل أن أعرف تفاصيل هذه الحادثة وأحداث أخرى، عرفت. فالحقيقة قلما تكون مدفونة، بل هي تتوارى فقط خلف ستائر الخفر والألم أو اللامبالاة؛ ولا بد أن يرغب المرء بشغف إزاحة هذه الستائر.

كان يجدر بتلك الرغبات أن تظهر لدي في مرحلة مبكرة، مبكرة للغاية، منذ كنت صبياً يلبس سروالاً قصيراً. فقد جاء قريب ينتمي إلى هذا الفرع من أسرتي إلى الضيعة، في يوم من أيام الصيف، لزيارة أهلي. لم يسبق لي أن التقيته قط، ولم ألتق به لاحقاً على الإطلاق. كان طبيباً في أحد الأحياء الشعبية في بيروت، رجلاً دمثاً، ودوداً، لبقاً، وخجولاً بعض الشيء. أتخيله بعيون الطفل الذي كنت، جالساً في بهونا، يتجاذب أطراف الحديث مع أبي. وعلى حين غرة، في منتصف جملة تلفظ بها

الزائر، اعترته رعشة مقتضبة ولكنها عنيفة للغاية، كما لو سرت في بدنه شحنة كهربائية قوية. حاول أهلي الذين ألفوا هذه العادة لديه أن يتصرفوا وكأن شيئاً لم يكن. كنت منبهراً، لا أقوى على الإشاحة بنظري عنه، وعن ذقنه، ويديه، مترقباً النوبة التالية التي كانت ستحصل حتماً كل دقيقتين أو ثلاث دقائق.

وحين انصرف قريبنا، شرحت لي أمي أن جندياً شده من شعره، لما كان طفلاً في تركيا، "أيام المذابح"، ووضع سكيناً على عنقه، متأهباً لنحره. ولحسن الحظ، مرّ ضابط عثماني بالصدفة، وتعرف إلى الطفل. فزعق: "أطلق سراحه أيها البائس! إنه ابن الطبيب!". فرمى القاتل سكينه ولاذ بالفرار. كان والد ذلك القريب بالفعل طبيباً في حي شعبي يعالج الناس بتفانٍ، وغالباً بدون أن يتقاضى أجراً. فأنقذ الطفل، ولكن الرعب الذي شعر به في ذلك اليوم خلف لديه آثاراً مستديمة. كان في السادسة من العمر حين وقعت المأساة عام 1909، وفي السادسة والخمسين خلال زيارته اليتيمة إلى أهلي، ولكن جسده لم ينس ما حصل.

كان هذا الناجي ابن أخت جدتي ولكنه في سنها تقريباً لأنه الابن البكر لشقيقتها الكبرى. ولا يخلو هذا التوضيح من الأهمية فهو الذكر الأول في الجيل الجديد، وجده القاضي يعشقه كما يحسن جد مشرقي القيام بذلك. وبسبب هذا الطفل، وبسبب هذه المأساة التي تم تفاديها في اللحظة الأخيرة، قرر جدي الأكبر الرحيل عن اسطنبول مع كل أفراد أسرته. فنصل الحقد على عنق حفيده كان بمثابة تحذير لم يشأ الجد الإستخفاف به.

قيل لي إن الكثيرين هلعوا في تلك الفترة لدى رؤيتهم وجيهاً

مثله، قاضياً يتمتع بالنفوذ، ثرياً وجليلاً، يرحل هكذا، خلسةً.
وراح الكثيرون ممن ينتمون مثله إلى الطائفة المارونية يتساءلون إن كان لا يجدر بهم الرحيل بدورهم قبل فوات الأوان. وهذا مثال من أمثلة كثيرة أخرى عن الاختلاجات التي كانت تهز الإمبراطورية المحتضرة.

إستطعت في السنوات الأخيرة أن أعرف بعض التفاصيل عن سلفي الاسطنبولي الذي سوف يحدد مساره مسار حياتي، أثارت شهيتي ولكنها لم تشبع جوعي ولعلني أعثر يوماً على بعض نتف من المحفوظات. فعلمت على سبيل المثال أنه فقد بصره، وكان يجلس في المحكمة، وإلى جانبه مساعد - غالباً أحد أبنائه الثمانية - يقرأ له الأوراق التي ترفع إليه، ويهمس له أحياناً بوصف هيئة أحد المدعين، أو علاقة إيماءة ما بالقضية.

ولا بد أنه استساغ هذا الجانب المسرحي لأنه ترعرع على خشبة المسرح بالرغم من كونه قاضياً. فقد أنشأت أسرته فرقة مسرحية شهيرة كان لها دور ريادي في بلدان عديدة من الإمبراطورية. وكان عمّاه المدعوان مارون ونقولا من الأوائل الذين شخصوا على المسرح موليير وراسين بعد أن ترجما مسرحياتهما، وشقيقتهما وردة من أشهر الممثلات المسرحيات في عصرها، وقد رافقهم القاضي في طفولته خلال جولاتهم لعرض مسرحياتهم.

وأصلاً، حين يلاحظ المرء سهولة اتخاذه قرار الرحيل مع كل أفراد أسرته، متخلياً عن محكمته، وبيته، ومكانته، لبدء حياة جديدة في مصر، لا يسعه سوى أن يرى في هذا السلوك سلوك فرقة مسرحية بدلاً من سلالة برجوازية.

ومن الواضح أن روح جدي الأكبر كانت تتضمن بعداً غجرياً استلم دفة القيادة لحظة اتخاذ القرار.

28

وبالعودة إلى بطرس، والطريقة التي تأثر بها بسبب الأزمة النهائية للامبراطورية العثمانية، يبدو لي من الضروري التوضيح أن خيبته، وإن كانت مبررة جزئياً بسبب الأحداث السياسية، تعزى كذلك إلى أسباب شخصية.

بعد كتابة ما كتبت، ومراجعته، أشعر بنفسي مرغماً على الاعتراف باستحالة الفصل في مجال الخيبة بين السياسي والشخصي. وهذا يصح على جدي، وكذلك على جبرايل، وعلى الكثيرين من أبناء عصرهم. فكل الذين هاجروا وتمردوا، بل كل الذين حلموا بعالم أقل ظلماً، فعلوا ذلك أولاً لأنهم لم يجدوا لأنفسهم موقعاً في النظام الاجتماعي والسياسي الذي يحكم بلادهم، إلى جانب عامل فردي حتماً حدد قرار كل منهم، وبرر، على سبيل المثال، أن يرحل الأخ ويبقى الأخ الآخر في البلاد.

بالنسبة إلى بطرس، كان البقاء في البلاد والسعي للإيمان بمستقبله ثمرة مبادئه ووضعه العائلي وطبعه في آنٍ - أي التمرد والغضب والنزق والتردد والشكوك الكثيرة. كان خياره لا يخلو من المجازفة، وقد أدرك ذلك على الدوام. فلطالما شكك بقيام

ذلك المشرق الجديد الذي تمناه بكل جوارحه، ولطالما شكك كذلك بالمهنة التي اختارها. وكان يتردد عادة في استخلاص كل النتائج، ولكنه قام بذلك بين الحين والآخر.

وعلى هذا النحو، في تموز/جويليه 1909، حين ألقى كلمته على شكل حوار متشائم بين "عثماني" و"أجنبي"، كان قد اتخذ قراراً حاسماً وهو الاستقالة للمرة الثانية من الكلية الشرقية، والإقلاع عن التعليم بسبب خلاف على ما يبدو مع رجال الدين الذين يديرون المدرسة بل كذلك بسبب تساؤل أشمل حول المنحى الذي يريد أن ينحاه في حياته.

وتشهد على ذلك هذه الرسالة، المكتوبة بعد عام، في حزيران/جوان 1910، إلى صديقه وصهره، الدكتور شكري الذي كان مقيماً في القاهرة، ويعمل طبيباً في الجيش البريطاني:

> بينما كنت أفتكر في سبب انقطاع كتاباتكم عني، وأشعر معكم بما تقاسون من حرٍّ مصر في هذه الأيام، وأتمنى لو كنت وإياكم على ضفاف البردوني، وفي القلب ما يعلمه الله من الشوق إلى ذاتكم الكريمة، وإلى من عندكم من سكان الفؤاد، وردتني كتابتكم العزيزة بالاطمئنان المنتظر واللطف المعهود، فسررت وشكرت.
>
> أخي، ساءني ما ساءكم من انقطاع رسائل الأهل في دار المولد عنكم، ولا أظن أن لذلك سبباً غير القز المباركة وشواغلها، واطمئناناً لقلوبكم، أخبركم عن ثقة أنهم جميعهم، والحمد لله بخير، لأنني من برهة قصيرة، كنت عندهم، وكنا نقيم للفرح حفلات لا تخلو واحدة منها من ذكركم و " شرب نخبكم "، لا ينقص بهجتها إلا أنس وجودكم فيها...

قبل التطرق إلى مسألة المدرسة، يقدم بطرس، كعادته في معظم رسائله، أخباراً عن بعض أفراد الأسرة؛ وعادةً، أغفل هذه الأخبار، ولكنني سوف أحتفظ بالفقرة التالية هذه المرة لسبب محدد:

> أما العزيز تيودوروس فقد نقل من النيابة في بعلبك إلى الرياسة في دير مار يوحنا، وأمامي مكتوب منه فيه عنه ما يسرّ، سأجيبه عنه الآن، وأتحفه من أنبائكم وعواطفكم بالطيب الشهي، المسموعات عن غيّاب البيتين سارة حميدة بنعمة الله عسى عندكم منها أكثر مما عندنا...

كان تيودوروس، نوعاً ما، زعيم الكاثوليك في الأسرة، فيما كان شكري يجاهر ببروتستانتيته "المناهضة للبابا" بوضوح، بشراسة تفوق شراسة والده الواعظ. ويتضح أن بطرس كان يسعى في هذه الرسالة - وفي رسائل أخرى - للوساطة أو على الأقل للتخفيف من حدة الخلافات الدينية التي تهدد أهله. وبعد هذه المقدمة، يصل إلى بيت القصيد:

> ما بلغكم من رجوع هذا الداعي إلى المدرسة الشرقية هو غير صحيح. نعم، إن أصحابها طلبوني بوسائط عديدة، وزادوا لي في الراتب، ولكنني اعتذرت، وقلت لهم لو كنت قادراً على الاستكمال في شغل المدارس في هذه السنة،ما كنت استعفيت من أوائل العام الماضي، وبرهنت لهم أنه قد طلب مني أن أشغل بعض مراكز مدرسية في بيروت، مما يفضل علي كثير من الأشغال، فاعتذرت دلالة على أن تركي الشرقية كان له سبب الإنقطاع لشغلي الخصوصي، وهذا إني مصدق لما كنت أقوله لهم في العام الماضي، فالحالة بيني وبين القوم الآن

> جيدة، والزيارات متبادلة، وهم يشاورونني في أمور كثيرة. . .
> وبلغني أن التلامذة والأهالي يحسنون اللهجة بحقي جداً، ولكني بالرغم من كل ذلك، لا أنوي الارتباط في الشرقية ولا في غيرها، وقد أصبح قلبي ينفر من شغل المدارس على الطريقة المعهودة، وبأسفٍ أذكر ربع قرن هو زهرة العمر أنفقته بين الدفاتر والمحابر في بلادٍ لا تصلح لغير اللهو واللعب (قد شطح القلم، وأطلتُ في هذا المعنى على غير داعٍ، فاعذر). . .

يعلن بطرس أنه ينوي الإنصراف إلى أعماله من الآن فصاعداً. أية أعمال؟ يتراءى للمرء خلال قراءة أوراقه أنه يجتر طائفة من المشاريع التي تلوح بسرعة في رسائله لتتلاشى على الفور ولا تخلف أثراً؛ فعلمت، خلال تصفح رسائله، أنه فكر بإنشاء صحيفة، ثم بشراء أسهم في مكتبة، ثم بإدارة فندق كبير في بيروت، هو فندق أميركا، ثم بتأسيس شركة استيراد وتصدير مع بعض الأصدقاء. وبموازاة كل ذلك، كان يتفاوض مع صاحب مطبعة لنشر كتاباته المتنوعة التي تضم معجماً للأمثال، وكتاباً في تاريخ اللغات القديمة، وديواناً شعرياً، ومسرحيته التي تحمل عنوان: عواقب الغرور. . .

لن يتحقق أي من هذه المشاريع، ولكن ثمة مشروع سوف يشهد بداية تحقيق. ولا يذكره جدي على الإطلاق، على الأقل في رسائله، وقد استطعت استشفاف طبيعته بفضل إفشاء مراسليه كتلك الجملة، على سبيل المثال، في رسالة تلقاها من تيودوروس:

> قد ذكرتم أنكم قد اشتريتم قدر عشرين ألف ذراع مربع من

الأرض، ولم تذكروا أين هذه الأرض، وهل يوجد بها عمار، أو أنكم تريدون أن تعمروا بها، وكيف أقدر أن أسهل الطريق إلى الإخوان الأعزاء كي يمدوكم بالنقود، وأنا أعلم مؤخراً أن ليس معهم نقدية، وأن حال الأرزاق واقف جهاتنا...

وفي موضع آخر من الرسالة، يتابع تيودوروس:

... والذي كنت تكلمته معهم هو أن يعطوكم الأرض التي تريدونها حتى ترتبوها على ذوقكم، وتكونوا كلكم مجتمعين معاً في محل واحد، لأن وجودكم معهم سهل، أما تخليصهم من هنا وقيامهم كلهم إلى زحلة أراه صعباً جداً، إذا لم أقل مستحيل، مع هذا عن قريب أنا مستعد أن أزورهم، وأرى كيف يكون الحال، ومن هناك، أخبركم ماذا يكون.

لماذا هذه الأرض؟ ولماذا يريد بطرس أن يتخلى إخوته عن كل شيء للعمل معه؟ يبدد تلميح ساخر لأحد أقاربه بعض الغموض الذي يكتنف هذه المسألة:

علمت من الصحف أن عادة التدخين تنتشر بين النساء. ويبدو أن هذه العادة التي توفر النشوة والسكينة تروق لمعظمهن، مما سوف يسهم في ازدهار أحوالك. أتمنى أن تكسب المزيد من المال بفضل سجائرهن بدلاً من سجائر الرجال!

كتبت هذه السطور في شباط/فيڤري 1912. وبعد بضعة أشهر، تلقى بطرس رسالة أخرى حول هذه المسألة، من جبرايل هذه المرة، لا تشوبها السخرية، وإنما لا يشوبها التسامح كذلك. إنها إحدى الرسائل الثلاث التي أحضرتها لي أمي من لبنان في بداية تحرياتي، حين كنت لا أعلم عن جدي سوى النزر اليسير،

ولا شيء تقريباً عن أخيه الكوبي. وكانت الفقرة التالية أمام ناظري، ولكن الخط فيها غير مقروء بسهولة، فلم أتوقف عندها. وقد راجعتها لاحقاً بعد إعادة تحديد مسار أهلي، وقراءة لا تخلو من الحيرة لتهكم القريب الذي كانت رسالته أقل اهتراءً.

أعود إلى الرسالة القادمة من هافانا والمؤرخة في 19 أيار/ ماي 1912. يكتب جبرايل في الصفحة الأولى:

سررت بنجاح زرع الدخان...

هكذا إذن! خطط بطرس لزراعة التبغ، على مقربة من زحلة، في سهل البقاع الخصب، فاشترى هكتاراً من الأرض الزراعية الخصبة للمباشرة بالمشروع. وأفطن بسهولة إلى تغلغل هذه الفكرة في ذهن جدي العتيد. فقد انبهر بازدهار هذه الزراعة في كوبا، الأمر الذي برر رغبته بزيارة مصنع للسجائر في نيويورك، واستمتاعه بكتابة شعارات ترويجية لسجائر "بارسونز"، ثم تساءل إن كان بإمكان القيام بالشيء نفسه "عندنا" - وهو تساؤل يتكرر على الدوام في كتاباته كاللازمة أو كفعل إيمان. فسواءً تعلق الأمر بالسياسة، أو التربية، أو الصناعة، كان ينطلق دائماً من مبدأ مفاده أن ما نجح في الغرب لا بد أن ينجح في الشرق، طالما أن البشر متشابهون أساساً. فلو بذلنا الجهد اللازم، وبادرنا إلى تطبيق الأساليب التي أثبتت نجاحها تطبيقاً ملائماً، لم لا ننجح حيث نجح الآخرون؟

أجل، لماذا لا نستعيد في بلادنا المعجزة الهافانية؟ أليست أرضها خصبة كذلك؟ سوف يكون رد جبرايل قاسياً بالأحرى.

29

سررت بنجاح زرع الدخان، وأسفتُ على الوقت والعناء في أرضٍ لا تفي ثمن العرق المبذول، ولا مصدر لمواردها، فلو أن الوقت الذي "ضحَّيتَه" بزرع الدخان كان في بلاد الدخان ككوبا أو مصر. نعم، لا يوجد لديهم رائحة هواء الوطن ومناخ لبنان إنما التعويض المادي وسهولة الوسايط تنسيك التعب إذ تكون أكبر بكثير مما يمكن الحصول عليه بوطننا العزيز وخصوصاً حالته الحاضرة والظروف المرافقة...

في الواقع، يبدو كلام المغترب عين العقل: فنوعية الأرض وقدرتها على إنتاج التبغ لا تكفيان، بل ثمة أيضاً آفاق التصدير، والتسهيلات التي تؤمنها السلطات للمشروع أو لا تؤمنها، ثم، وفوق كل ذلك، ثمة "الأحوال الحاضرة"، وهو تعبير من تلك التعابير التي تصبح استحواذية وعنيفة لشدة تكرارها في وثائق العائلة، ولاذعة أكثر من "انحطاط"، "استبداد"، "طغيان "، "ظلمات"، "عفونة"، أو "انهيار" - أجل، مجرد هذه المفردات الحيادية التي تتمتع بسلطة الشيء المقرر: "الحالة العامة..."، "الوضع الراهن..."، "الظروف التي يعرفها الجميع..."، تتوقف الجملة لبضع ثوان من الحداد، ثم ينتقل قائلها متنهداً إلى الفقرة التالية...

نطالع هذا الكلام المتشائم بقلم جبرايل، وقلم بطرس على حد سواء. ولكن الشقيقين بالطبع لم يشعرا به بالطريقة نفسها. كان أحدهما ما زال يعيش في هذا المشرق المسدود الأفق فيما

أدار له الآخر ظهره نهائياً. لا شك أن رسائل المغترب تضمنت بعض تلميحات الحنين إلى الوطن، والهواء العليل الذي تنشّقه في ربوعه، والمناسبات العائلية، ولكن جبرايل لا يتوقف عندها على الإطلاق، لأنه حسم أمره. فحياته ستكون في كوبا، وليس في مكان آخر.

> هذه الجزيرة التي كتب لنا فيها نصيب أخذت بالتقدم، وسوف تكون من أهم نقاط المعمورة مادياً وسياسياً وأدبياً...

ويعود هذا الكلام كذلك إلى العام 1912. ففي تلك السنة، تراسل الأخوان، على ما يبدو لي، أكثر من أي وقت مضى. كان جبرايل يقوم بمسعى أخير لإقناع بطرس بموافاته إلى هافانا. ويبدو أن جدي العتيد لم يظهر ممانعة وإلا كيف أمكن للمغترب أن يخاطبه:

> آهٍ، لو أن الرب يلهمك للسفر رأساً لهنا قبل وصول هذا التحرير!

جاء هذا النداء بعد صمتٍ طال للغاية. وتدعوني الكثير من الدلائل للاعتقاد بأن العلاقات بين جبرايل وبطرس شهدت فتوراً بعد خلافهما في كوبا. ويبدو لي أنهما انقطعا عن تبادل الرسائل، ولم يستأنفا المراسلة إلا بعد ثماني سنوات.

> أشغالي أصبحت بإرادة المولى وحسن أدعيتكم أكبر مني وتسع معي كثيرين من أمثالي...

لئن شعر المغترب بالحاجة للبوح بذلك إلى بطرس فلأنه لم يراسله كثيراً في السنوات السابقة. وأظن أنهما احتاجا إلى الوقت لتجاوز تجربتهما السيئة المشتركة. ويبدو كذلك أن المغترب شاء

أن يكتم عن أهله حقيقة وضعه. لأي سبب؟ لا أعلم علم اليقين، وإن كنت في الحقيقة أفطن له قليلاً، لأنني عرفت مغتربين آخرين في أسرتنا وسائر الجبل. فأسطورة القروي الذي يركب البحر، لا يحمل في متاعه سوى رغيفين وست زيتونات، ثم يصبح بعد عشر سنوات على رأس أكبر ثروة في المكسيك، سمعتها ألف مرة، بكل التنوعات المذهلة. ومثل هذه الروايات تمارس ضغطاً مستمراً، غالباً ما يكون ثقيلاً على كاهل المهاجرين: فسواءً عاشوا في أبعد بلد من بلدان الساحل الأفريقي أو الأمازون، لن يفلتوا أبداً من نظرة الذين ظلوا في الوطن لأن أهلهم وأقاربهم يراقبونهم ويقيسونهم بنظراتهم. وحين يتحلون ببعض الكبرياء - وهي سلعة غير نادرة لدى أبناء بلدنا - لا يجرؤون العودة إلى ربوع الوطن بدون تحقيق النجاح، أو يعودون فقط للاختباء والموت. ويفضل الكثيرون منهم الموت في أرض نائية على العودة وهم يجرون أذيال الخيبة.

أما جبرايل الذي رحل رغم إرادة ذويه، ولم يتمكن على الأرجح أبداً من مصالحة أبيه، ولم يتفق مع أخيه الذي لحق به، لم يكن من الوارد المثول أمام أهله قبل أن ينجح نجاحاً باهراً، وهو هدف استطاع بلوغه حوالى العام 1909، بعد عشر سنوات على تأسيس شركته "لا برداد" La Verdad. فقرر حينئذٍ معاودة الاتصال بضيعته وطلب يد ابنة خليل للزواج. ومنذ تلك اللحظة، لم يعد بوسعه التكتم إلى الأبد حول أوضاعه. ولكن العم الأكبر لم يستطع الإحجام عن الاستمرار في التكتم بعض الوقت كما توضح هذه الرواية التي نقلها لي ثلاثة من أفراد الأسرة:

فغداة الزواج، أسكن جبرايل أليس في شقة متواضعة تقع

فوق متجره، وكان عليها أن تتولى الأعمال المنزلية بنفسها. وبعد بضعة أشهر، جاء يسألها، والندم بادٍ على وجهه، إن كان قد خاب أملها بسبب الحياة التي فرضها عليها. فرمقته بنظرة تدل عل أنها لم تستوعب مغزى سؤاله:

"ولماذا يخيب أملي؟ إننا بصحة وعافية، ونأكل خبزنا كفاف يومنا!".

"ألا ترغبين بالحصول على المزيد؟ بيتاً أكبر؟ وخادمة؟ وسيارة؟"

فأجابت ابنة الواعظ بكل صدق:

"أرغب فقط بما تمنُّ علينا السماء!"

"لقد منَّت علينا!"

وصارحها جبرايل أنه ثري، ويستطيع أن يعيش كالملك، وأن يجعلها تعيش كالملكة. وأعلن لها كذلك أنه يشيد بيتاً فخماً في أجمل أحياء هافانا، وأنهما سوف ينتقلان إليه عما قريب!

30

لا ريب أن عمي الكوبي الأكبر كان يتحلى بحسٍّ مسرحي. وفي تلك المرحلة من حياته، سوف يتبدل أصلاً تعريفه بنفسه كلياً، وكذلك شكل مغلفات رسائله؛ ففي السابق، وتحديداً حتى نيسان/أڤريل 1912، كانت تلك المغلفات متجانسة اللون، تحمل

اسمه فقط بحروف صغيرة في إحدى زواياها السفلية، أما من الآن فصاعداً، فستكون كالأسهم النارية، اسم 'غبريال' مكتوب عليها بالحروف العريضة، وكذلك وصف مسهب لأنشطته، 'مستورد وممثل لمصانع الحرير والخردة والسكاكين والمجوهرات والنوفوتيه'، مع تعداد للعلامات التجارية الأجنبية التي كان وكيلها المعتمد - "كريمينتيز"، "أرلينغتون"، "لا ليغال"... -، وحولها مجموعة من الرسومات تصور واجهة مخازن "لا برداد" وداخلها، وأخرى تبين المحابر والمجوهرات والمقصات والشفرات من صنعه التي حفر عليها اسمه، بدون إغفال الكرة الأرضية التي نقشت عليها الحروف الأولى من اسمه، وعبارة 'شارات ماسونية' على وجه الخصوص...

لعل هذا الاستعراض المباغت يعزى كذلك إلى أمله بإقناع شقيقه بطرس بموافاته مجدداً، وسوف تتسم رسائله، بهذا الشأن ـ بالحماس والإصرار:

... والحاجة الماسة وجود رجل حكيم ماهر كحضرتكم للمساعدة بإدارة شؤونها وتقليمها، أي أنه بنظره الحاد يختار من فروعها أجودها، ويهمل منها ما يراه أقل فائدة، ويفيد ويستفيد بخبرته باستخلاص أجودها.
ولربما قائل لماذا لا آتي هذا العمل، وأنا أعرف بما هو ضمن دائرتي، فأجيب أن ما أراه كل ساعة وكل يوم، وأباشر عمله كل لحظة، وأستنتج من جميعه كله، يحلو لي ويعزُّ علي إهماله، وبعكس هذا، يكون الناظر المنتقد إذا كان حكيماً كحضرتكم...

بعد التفكير بالأمر ملياً، لا أستبعد أن يكون تيودوروس قد

لعب دور الوسيط بين شقيقيه، وكتب لجبرايل يقول له: "تخلى بطرس عن التعليم، وشرع في زراعة التبغ، وقد يبدد فيها ماله ومال الأسرة، وربما يجدر بك أن تقنعه بالسفر للعمل معك"... لا يمكن استبعاد مثل هذا الإحتمال، لا سيما أنه يتماشى مع أسلوب الكاهن - ولدي مثال آخر يحضرني سوف أتحدث عنه في حينه...

هذا، وليس من المستبعد كذلك أن يكون جبرايل قد اتخذ هذه المبادرة من تلقاء نفسه لأنه كان بحاجة حقيقة وماسة للمساعدة.

... ومع هذا، إن لم يتم النصيب، وأحظى بقدومكم لهذه الغاية، فما إلي إلا أن أتمم هذا الفكر، وأغير شيئاً من نسق أشغالي، لأنها وإن دامت الحالة على ما هي الآن، ومنذ بضع سنوات، فهي قاتلت صحتي لا محالة، فما إلي إلا التنحي نوعاً ما بتسليم الشغل الاعتيادي إلى أشخاص يقومون به بحسب مقدرتهم مساهمة أم شراكة، وأنا أتحول إلى شغل أصناف محدودة، وأمثل عدة فبارك التي أنا ممثلها بالوقت الحاضر، وبعض الأصناف التي هي مسجلة لاسمي خاصة، وأظن على هذه الصورة يكون إلي ذات المدخول، وأرتاح نوعاً ما، أما إن لم يكن ذات الربح المادي، فأربح وقتاً يخولني من القيام بالواجب نحو الله والناس ونحو العائلة والصحة، إذ أنا محروم منه الآن، وأنت عارف بأخلاقي، وأني لا أتكل على شغيل بشغله ما لم أتفحصه بذاتي. عندي أربعة أشخاص في المكتب، وأربعة في المخزن، وأربعة متجولين في الداخلية، وثلاثة في بيت السكنى، ناهيك عن الجمرك وشغيلته والسماسرة الذين يشتغلون لحسابهم، وعددهم كثير، وخلاف

مسائل مما يقتضي لشغل كهذا، فمناظرة العمال فقط وتدريبهم يقتضي لها أكثر من شخص، عدا ما يأتيني من المكاتبات، ومعدلي اليومي 25 تحريراً وعشرات من الفواتير، وعشرات من الطلبيات، الخ، الخ، فتراني الرئيس والكاتب والمستخدم والقاضي والمفتي والوسيط بذات الوقت، ولولا أن أكون اعتدت هذا تدريجياً، ومنذ سنتين، لكان تفتت دماغي تفتيتاً بأقل من نصف نهار.

هذا ما حملني على طلب السعفة من شخص يقاسمني هذه المشاق، أم يهديني بحكمته إلى ما هو أنسب منها، فإن وجدها موازية أرباحها، تمتع بمقاسمة تلك أيضاً، وإن اعتقدها أنسب من سواها، وإن كانت قابلة التحسين، كما لا أشك، فزيادة الخير خيراً للجميع، وبإدخال التحسينات المنتظرة منكم لهذا العمل، يكون منها باب مفتوح لكافة أفراد العائلة سيما وأن الأحوال الحاضرة أعلنت أن المهاجرة أصبحت من حسابات اليوم...

تكتمل عدة الحجج من التحليل المنطقي إلى الإبتزاز العاطفي، بغض النظر عن الفوائد المادية. ويحاول جبرايل بشكل خاص أن ينتزع من بطرس شكوكه المعهودة: لن تفعل ذلك لأجلك فقط، هذا ما يقوله في نهاية المطاف، بل لخير أهلنا جميعاً الذين لا مستقبل لهم في بلد الأجداد، والذين لديهم بلد هنا، في كوبا!

لم يكن جدي ليستطيع ألا يتأثر بمثل هذه الحجج. ولو صدف أن فكر تفكيراً جدياً بالخيار الهافاني، فتفضيله كان لخيارات أخرى. على سبيل المثال، كان ليفضل أن ينشىء مع شقيقه فرعاً كبيراً لمحلاته التجارية في بيروت، فيهتم هو بإدارتها

مع بعض الشركاء؛ وهكذا، يصبح للمؤسسة العائلية فرعان كبيران، الأول في المشرق، يديره بطرس، والثاني ما وراء الأطلسي، يشرف عليه جبرايل. كانت فكرة سديدة ولكنها لا تتلاءم إطلاقاً مع مشاريع هذا الأخير الذي يجيب:

أنا لست طالب شغل بل طالب مساعدة بشغلي!

وكان بطرس يريد كذلك أن يشتري أخوه أراضيه في لبنان لكي يتوفر له رأسمال ويصبح شريكه. ويجيب جبرايل بهذا الشأن:

أظن بعد أن عرفتكم على ما أقدمت عليه الآن من شراء هذه البناية ومناسبتها وضرورة مشتراها سيما وأني بصددها منذ 3 سنوات حتى تم نصيبها، تعذروني إن لم أجب طلبكم بالمشترى منكم فإن كانت إلي أم لكم الحال واحد، وسواءً اشتريتها أم بقيت ملككم طالما أنا غائب فما الفائدة؟

لم يفهم المغترب على ما يبدو أن بطرس ما عاد راغباً بالعمل لحساب أحدهم. فهو الذي أثنى على جبرايل "لهروبه من وضع الموظف" كان يود الهروب بدوره من هذا الوضع. لم يعد يريد التبعية لمدير مدرسة، أو لرئيس شركة، وبالتأكيد لأخيه الأصغر. ولم يكن يرغب أن يكون موظفاً عنده أو ممتناً له. ولو تسنى له بيع أراضيه، لشعر على الأقل بأنه أعطى مثلما تلقى؛ ثم لكان وظف ماله في شركة يكون فيها شريكاً؛ ولو افتقر إلى الرأسمال الكافي، فسوف يشارك في مشروع مع بعض أصدقائه بحيث لا يكون في وضع دوني. . .

لم يدرك جبرايل هذه المرة الأهمية التي تكتسبها هذه المسألة

بنظر أخيه، وهو الحريص دوماً على مراعاة الحساسية المفرطة لبطرس، والذي يمدحه ويثني عليه ويطمئنه. فيعرض عليه ببراءة ما يلي:

> أقدم لك مصروف أي ماهية شهرية من حين سفرك من بيروت لغاية بلوغك هافانا ثلاثون ليرة انجليزية، ومن بعد وصولك بالسلامة، أي الأشهر التي تتخلل بقاءك هنا لغاية وقت التقويم، نصف هذه القيمة، أي خمس عشرة ليرة انجليزية (من خير الرب أصبح عندنا بيت نعيش به مثل باقي الأوادم الذين يزورونا وليس بالتتخيتة كالسابق)....

كانت تلك هي الهفوة! وبالضبط ما لا يجب أن يقوله! فقد أهمل جبرايل، إذ ظن أنه يزيل آخر الحواجز المادية التي تعترض مجيء أخيه، حاجزاً أساسياً، يتمثل في رغبة أخيه بالاستقلالية وحساسيته المفرطة بهذا الشأن.

لن أذهب لحد القول إنها تلك التصرفات الخرقاء التي أثنت جدي نهائياً عن العودة إلى كوبا. ويبدو لي أنه كان أكثر تردداً مما ظن أخوه طوال الفترة التي تبادلا خلالها هذه الرسائل، بل وأكثر ريبةً، كما تشهد على ذلك هذه الفقرة الغامضة من رسالة جبرايل:

> ثقتي بكم وبإخلاصكم للعمل وللعائلة وبحسن إدارتكم كانت كما تعرفون جيداً، وأصبحت تزيد كل يوم عن الذي قبله، وليس عندي أقل ريبة البتة، وأستغرب جداً ما تلمحون إليه من ضعف ثقة بعض أفراد العائلة بكم بدون ذكر سبب، أم إعلان من هو هذا الفرد يا ترى لعلني أنا هو: فيا سيد، إن كان الأمر كذلك، وتخايل لك مما يجعلك أن تشك بإيماني، فلا

ريب أن يكون نتيجة سوء تفاهم، وإن خلاف، فلا أدري ماذا أقول، إنما أعهده بشخصك من سمو المدارك، يلزمك إلى التغاضي والتسامح.

ظلت النبرة مهذبة، بل ديبلوماسية، كما هو الحال عادة في رسائلنا العائلية. ولكن من الواضح أن أزمة ثقة عميقة تكرست من الآن فصاعداً بين الشقيقين مهما قال المغترب. فلا بد أن بطرس شعر بالتشاور الدائر بين جبرايل وتيودوروس، بغير علم منه، حول الطريقة الفضلى لإيجاد عمل ملائم له وإقناعه بالعدول عن المشاريع الغامضة التي انخرط فيها.

أتفهم أن يكون جدي العتيد، في هذه المرحلة من حياته، قد أظهر حساسية وتحفظاً لا سيما في مراسلاته مع شقيقين أصغر منه سناً "نجح" كل منهما في ميدانه لأن الكاهن أصبح رئيس دير والتاجر جنى ثروة. أما بطرس فلم يحقق شيئاً.

طيلة الفترة التي كان يخوض فيها هذه المفاوضات عن بعد، لم يكف عن التساؤل حول منحى حياته، وبقلق يبرره كونه لم يعد في العشرين أو الثلاثين بل في الرابعة والأربعين. لم يكن من السهل عليه الرحيل للتأقلم في مجتمع آخر وحياة أخرى! لم يكن من السهل عليه أن يترك عمله للانخراط في نشاط من نوع آخر، يجب أن يتدرج فيه كالمبتدىء! ولم يكن من السهل عليه أيضاً أن يعيش بدون بيت خاص وزوجة وأولاد في حين كوَّن أشقاؤه وشقيقاته الأصغر منه سناً أسرة!

لا شك أنه فكر تفكيراً جدياً بالسفر إلى كوبا عام 1912... ليست رسائله بحوزتي - ولو كان قد نسخها، فقد ضاعت، ولدي فقط رسائل أخيه التي تحمل على الاعتقاد أن هذا

الأمر كان يبدو، في لحظة من اللحظات، محققاً لا بل وشيك الحدوث. ولكني لا أعجب لأن بطرس عدل عن السفر في نهاية المطاف. فلو كان لم يطق الإغتراب في شبابه، فكيف يطيقه الآن؟ وفضلاً عن ذلك، وبنظر كل الذين لطالما وعظهم حول واجب البقاء في البلاد إسهاماً في تقدمها، كان هذا الرحيل سوف يظهر كأنه هزيمة وتنكّر وخيانة. ولم يكن ليرضى أبداً أن يفقد ماء الوجه!

وفي نهاية المطاف، لن يرحل. وسوف يعلم شقيقه بقراره في أواخر ذلك الصيف. وسوف يأسف جبرايل على ذلك ولكنه رضخ للأمر الواقع. ففي كل الأحوال، كان الأوان قد فات بالنسبة إلى الشقيقين. فمنذ وقت طويل، افترقت دروبهما إلى الأبد، ولم تحافظ سوى صلة الدم بينهما على حوار يفتقر إلى التناغم الحقيقي. ولئن كان الاثنان يتقاسمان المثل العليا نفسها، فسوف يبقى كل منهما من الآن فصاعداً على ضفته، ويمضي كل منهما في طريقه، بوتيرته الخاصة، لحين بلوغ نهايته الخاصة.

صراعات

31

في نهاية المطاف، سوف تكون سنة 1912 في حياة بطرس أكثر السنوات حسماً، ولن يكون لكوبا دور في ذلك. أدرك، إذ أكتب ذلك، أنني أقدم عن مسار جدي رؤية منحرفة بعض الشيء. ولكن يشق علي أن أتكلم بموضوعية باردة عن اللقاءات التي أتت بي إلى هذه الدنيا والتي لا مبرر بدونها لهذه الرواية. كانت تلك السنة تحديداً، من وجهة نظري، سنة لقاء مصيري.

ففيما كان بطرس يناقش مع أخيه احتمال القيام برحلة جديدة إلى هافانا، ويعيش، كما في أغلب الأحيان، فريسة الشكوك والتردد، نزل عليه الإلهام على حين غرة. فقصد خليل ليعلن بمهابة أنه يطلب يد ابنته للزواج.

كان الأمر يتعلق بالابنة الصغرى، نظيرة. فقد سنحت لجدي العتيد، خلال مناسبة عائلية، الفرصة لتبادل بضع كلمات معها؛ فأعجب بنباهتها وعزيمتها وكذلك بجمالها الهادىء. وخلال الأيام والليالي التي تلت لقاءهما، فوجىء أكثر من مرة بنفسه يستحضر بحنان تلك النظرة الثاقبة، ويسمع ذلك الصوت المريح. في بادىء الأمر، لم يشأ الاعتراف بأن الفتاة تكتسب أهمية عنده. ومع

مرور الأيام، ترسخ في ذهنه يقينٌ- على غرار يقين طنوس، والده، فيما مضى، بشأن سوسان: أنه لا يستطيع العيش بدونها، ويريدها زوجة له بل كان الأمر بالنسبة إلى بطرس بمثابة خشبة خلاص، وهو الذي كان يتساءل على الدوام عن المنحى الذي يجب أن تتخذه حياته، ويصر على البقاء في البلاد على الرغم من تشاؤمه بشأن مستقبلها، ويعاود الحديث عن الإغتراب ولا يجرؤ على السفر، هو الذي أضاع آثار خطاه، ها هي دربه تضاء أخيراً! وهذه السنة المشؤومة سوف تكون سنة السعادة! وكلما أمعن التفكير في هذا الزواج، تراءى له أعجوبة نجاة.

وعلاوة على ذلك، كانت أعجوبة عقلانية تندرج، نوعاً ما، في المسار الطبيعي للأمور. ولما قصد جدي العتيد أستاذه القديم طالباً يد ابنته للزواج، لم يكن لديه أدنى شك حول الرد. ألم تحصل زيجتان أصلاً بين أسرتي طنوس وخليل؟ جبرايل وأليس أخيراً، وقبلهما، يمنى وشكري، مع العلم أن الأخ البكر لنظيرة كان، ومنذ وقت طويل، من أعز أصدقاء بطرس. وكان شكري على ثقة أن الواعظ سوف يستقبله على الرحب والسعة، وقد كان من ألمع تلامذته، واستشاره قبل الموافقة على زواج أليس.

ولكن الرياح جرت بما لا تشتهي السفن. فقد تهرب المبشر وارتبك. كان لا يقوى على النظر إلى بطرس مباشرة والرفض، ولا يرغب إطلاقاً بالموافقة.

كانت نظيرة بالكاد في ربيعها السابع عشر، وعريسها في الرابعة والأربعين، وحياته حافلة بالتعليم، والسفر، والكتابة، وبعض الشهرة. ولكن فارق السن وحده لم يكن كافياً لتبرير رفض طلبه؛ ففي ذلك العصر، كان الزوج يعتبر أباً ثانياً، ولا مانع أن

يكون الشيب قد خط مفرقه أحياناً. أما الأقل اعتياداً فكون بطرس أعزب في سنه وليس أرملاً لأن الرجال الذين يتزوجون بعد سن الأربعين قد تزوجوا سابقاً - على غرار خليل نفسه الذي توفيت زوجته الأولى، حنة، أثناء الولادة، فتزوج ثانية بشقيقتها صوفيا.

لماذا لم "يستقر" بطرس حتى الحين؟ كان قد اعتاد التذرع لمن يتجاسرون على لومه بحجج نبيلة كثيرة: ضرورة رعايته أولاً لأشقائه وشقيقاته، ووظيفته في التعليم التي كانت لا تترك له الكثير من الوقت للاهتمام بنفسه، ورغبته بتأمين وضع مادي مريح قبل الإقتران بزوجة لمدى الحياة... كانت ذرائع، مجرد ذرائع، على حد قول ليونور.

ـ الحقيقة أن جدك كان لا يطيق النساء. آه، كان يعشقهن ولكنه لا يطيقهن، إذا فهمت قصدي.

سعت قريبتي لتوضيح كلامها، وسعيت لاستيعابه. فعلى ما يبدو، كان بطرس يرغب أن تتعلم النساء، ويعملن، ويخطبن في المنابر، ويضحكن، ويشرعن في التدخين، كان يحبهن كما يجدر بهن أن يكنَّ من وجهة نظره، كما كان بإمكانهن أن يكنَّ، ويمقتهن كما هن: حاملات للتقاليد الاجتماعية، وقاطعات للأجنحة. كان يحذر، وهو الذي يتطاير مشلحه على كتفيه كجناحين، كل ما قد يثبت قدميه. ولا يهدأ، ويتراءى له أنه سوف يختنق حالما يرتبط ببيت، أو وظيفة، أو إنسان.

ـ يجب أن تعلم أن جدك كان صعب المراس، رحمه الله! أنا على يقين أنهم لم يطلعوك على ذلك، فهذه الأسرة تتميز بلباقتها المفرطة! كان متطلباً للغاية، يستشيط غضباً حالما يلاحظ سلوكاً لا يعجبه لدى النساء كما الرجال، والأطفال، والتلاميذ.

وأضافت ليونور: "هذا لا يعني أنه كان هوائياً، أو متقلب المزاج، على الإطلاق، بل على العكس، فكل ما يفعله منطقي، وصحيح كل الصحة. ولكنه بالضبط منطقي للغاية، وعنيد للغاية، لا يسامح أقل هفوة.

ـ تصور طبعه هذا في بلد مثل بلدنا! بلد اعتاد فيه الناس على تقبل كل شيء بلا مبالاة! بلد لا يكف فيه الناس عن تكرار ما يلي: "لا تقوّم المقتاية!"، أو "لا تحمل السلم بالعرض!"، "ما صار شي ما صار متلو!"، "اليد التي لا تستطيع أن تكسرها، بوسها وادع عليها بالكسر!"، أو "العين لا تقاوم المخرز!"، أو "كل من تزوج أمي صار عمي!"... كان بطرس يملك كل يوم ثلاثين سبباً لتثور ثائرته، بل كان ساخطاً أبداً. فكيف يقضي أيامه ولياليه مع أية امرأة قروية ما كان ليطيقها أو ما كانت لتطيقه؟ كان يتوقع أن يصادف امرأة استثنائية تستطيع أن تتفهمه، وتشاركه مثله العليا ونزواته وسورات غضبه... وتلك المرأة كانت نظيرة.

لا أعلم قيمة هذا التعليل المتأخر لعزوبية بطرس المطولة. وهو تعليل لا يقنعني كلياً. لعل التزمت الأخلاقي الذي اتسمت به أسرة الواعظ اجتذبه في تلك المرحلة من حياته. ولا أمانع الاعتقاد بأنه انتظر طويلاً المرأة الفريدة التي من شأنها وحدها أن تتفهمه وتتحمل تقلبات مزاجه. ولكنه كان لا يعيش زاهداً خلال هذا الانتظار. ويدعوني الكثير من الدلائل على الظن أنه كان يستطيب العزوبية، وأنه عاش غراميات صاخبة.

أما في ما يتعلق بالأموات الأجلاء، فهذه الأمور لا تذاع في أسرتي، أو تذكر همساً؛ ولا تدوَّن بالطبع في وثائق العائلة. إلا أنني عثرت أخيراً، خلال تصفح الدفاتر التي خلَّفها جدي، على بعض الفقرات المعبرة أشد التعبير:

يا ليت لي قلبين قلباً منهما سالٍ وقـلـبـاً لا يـريـم مـتـيَّـمـاً
فأسلّم القلب الشقي لأهله وأعيش بالقلب الخليّ منعَّماً

لكم سررت لأن شبابه لم يكن كئيباً على الرغم من شكوكه وخيباته. فبفضل أناقته، وذكائه، وإعجاب الناس به، وتداوله أفكار عصره، وإتقانه اللغات، وسفره عبر العالم برزمة من الدولارات في جيبه، لا بد أنه أثار إعجاب السيدات، ولـم يستعجل "الاستقرار"...

أمضيت حياتي أتحدث عن الحب،
ولم يبق من عشقي سوى صدى كلماتي...

لا شك، يا جدي، لا شك! ولكن، أليس هذا هو قدر البشر أجمعين؟ فعزاؤنا الوحيد، قبل رقادنا الأخير تحت الثرى، أننا عَشِقنا، وعُشِقنا، وربما تركنا في أنفسنا بصمة من ذلك العشق...

أحياناً، بداعي الخفر، وكذلك بسبب شكل من أشكال التأنق، كان يدعي أن ما يقوله في أشعاره لا يمت بصلة لحياته، وأن الأجساد لا مكان لها في غرامياته، وأن كل ذلك مجرد حيلة من حيل الشعراء:

لو أصغيت إلى نداء القلب،
لكنت من بين مجانين العشق أكثرهم جنوناً،
لم أشته سوى ابتساماتهن
ولم أحصل منهن على غير الابتسامات
فلتنشق الأرض وتبتلعني لو كذبت!

لعله لم يكذب تماماً. ففي الصفحات الكثيرة التي دوَّن فيها قصائده الغرامية، لم تكن أكثر أبياته جرأةً موجهة على الأرجح لحبيبة محددة - بل مجرد رواسب أدبية أو تقاسيم قلمه، كتلك الأبيات المذكورة سلفاً:

ونـــهـــود رمـــان مـــن عـــاج   مـن نـور دافـق كـالأمـواج...

ولكنه يروي في مواضع أخرى ظروفاً محددة، ويذكر أبياتاً نظمها لسيدات كن يتمتعن بحظوة في حياته، كتلك التي يدعوها "معذبتي":

غضبت معذبتي مرةً ومنعت كلامي لعتاب عنيف كان مني، فعدت على نفسي باللوم الشديد لإغضابها، وعلمت بذلك جارة لي فأخذت تقول وتكرر: "لا بأس صرت من الآن فصاعداً أحرس"، تريد بأحرس أكثر احتراساً وهي لغة لقومها، فقلت:

مـــاذا وقـــد أغـــضـــبـــتـــهـــا: يـــفـــيـــد أنـــي صـــرت أحـــرس
يـــا لـــيـــتـــنـــي مـــن خـــلـــقـــتـــي   مـن بـطـن أمـي كـنـت أخـرس

ثم رأتني يوماً جوار حيِّهم، فسلَّمت تسليم البشاشة، فبلغ سلامها من قلبي فقلت:

رأتني جوار الحي فسلَّمتُ   وعهدي بها غضبى منيعٌ كلامها
فيا ليتها ظلت على ما عهدتها   ولا ذقت ما أذكى بقلبي سلامها

بالطبع، كانت كل هذه القصائد مغلفة بالسرية التامة، ولم يكن من الوارد في ذلك العصر البوح باسم الحبيبة. وأحمد الله أن بعض الآثار بقيت أحياناً. وعلى هذا النحو، في وثيقة من الوثائق العائلية، بقي اسم، لأن الورقة التي كتب عليها تتضمن لا

ريب أموراً هامة يجب الاحتفاظ بها بأي ثمن - والأمر يتعلق بالرسالة المذكورة آنفاً أكثر من مرة، والتي تلقاها بطرس من صديقه حمادة في آذار/مارس 1906، غداة أمسيتهما في بيروت، على شرفة "كوكب الشرق". وتذكر الرسالة، تلميحاً، بعض المسارَّات التي لا بد أن الرجلين قاما بها أثناء الحديث؛ ثم تتمنى هذه الأمنية الغامضة:

> ليت كهربائية التذكار دائمة الحركة
> (الله يخليك يا كاتي!).

32

لن أعلم أبداً، لا بواسطة آخر الأحياء، ولا الشهود الأموات، من كانت كاتي تلك، المحمية بين قوسين من النسيان. هل تكون تلك السيدة التي أرسلت من الولايات المتحدة تلك الهدية التي لم يحدد جدي طبيعتها، ولكنه طبعها بقبلاته لأنها لامستها؟ هل كانت السبب في رحيله إلى "الديار الأميركية"؟ أم أنه تعرف إليها فقط خلال جولته التي انتهت في تلك السنة؟

لا أشعر بأنه يحق لي التخمين، أو تشييد قصر من الأوهام على مثل هذه الأرض الضيقة. وفي مطلق الأحوال، ليست مغامرات العريس العاطفية التي كانت وراء تردد خليل في الموافقة على زواج ابنته من بطرس، إلا من حيث أنها كانت معبرة عن

نزعة نحو "التقلب" تتجلى لديه بأساليب متعددة، وتجعله غير أهل للثقة، على الأقل كزوج ورب أسرة عتيد. هل ثمة حاجة للتذكير كذلك بأن بطرس، حين طلب يد نظيرة للزواج، كان بدون وظيفة منذ ثلاث سنوات، وبدون مكان إقامة ثابت، يلتهي بمشاريع لزراعة التبغ لا بد أن معظم الناس كانوا يسخرون منها، وأقاربه ينظرون إليها بقلق؟

لا يسعني الامتناع عن المقارنة مرة أخرى بين مساره ومسار أخيه جبرايل. فهذا الأخير رحل إلى نيويورك في الثامنة عشرة، والتقى هناك بمنفيين كوبيين ارتبط بهم وتبنى لغتهم ونضالهم كلياً، ثم لحق بهم إلى هافانا ليبني حياته وسطهم؛ وفي تلك المدينة، أنشأ عام 1899 شركته "لابرداد" La Verdad التي سوف تصبح، بفضل جهوده، من أكثر الشركات ازدهاراً في الجزيرة، وسوف يكرس لها كل دقيقة من وقته. المثابرة، المثابرة، والتصميم. وفي الوقت عينه، ماذا كان يفعل جدي العتيد؟ أولاً، تردد طويلاً في تحديد رغبته بالبقاء أو الرحيل. وأخيراً، قرر الرحيل ليعود بعد أربعة أو خمسة أعوام لاعناً الهجرة وزاعماً أنه لن يفكر أبداً بالاستقرار ما وراء البحار. وعاد إلى التعليم الذي ادعى أنه يمقته، وفي زحلة التي يلعن بيئتها الضيقة... وكما كان متوقعاً، ما عاد يطيق هذا الوضع بعد ثلاث سنوات في الكلية الشرقية. ومجدداً، راح يلعن مهنته، ويأسف أشد الأسف على كل تلك السنوات "المهدورة بين الدفاتر والمحابر".

من وجهة نظر خليل، كان العريسان، على الرغم من كونهما شقيقين، لا يتساويان، بغض النظر عن النجاح الاجتماعي الذي حققه جبرايل. فالمغترب، بوصفه صهراً عتيداً، كان يملك

ضمانات نوعاً ما، أما بطرس فلا يملك أياً منها، ويفتقر إلى الاستقرار، وينزع للغضب، ولا يعمل، وقد تقدم في السن أو كاد.

حسم والد نظيرة أمره، ولم يتساءل إن كان عليه الموافقة أو الرفض، بل تساءل فقط حول أقل الأساليب إهانة للإعراب عن رفضه.

ولما فاتح زوجته بالأمر، لم يعجب لأنها تحفظت أكثر منه بل لم تخف عداءها. فعدم موثوقية العريس وطبعه السيء كانا بنظر صوفيا مجرد تفاهات بالمقارنة مع عدم إيمانه. ونظراً لانتمائها إلى أسرة تعتنق مذهباً بروتستانتياً متشدداً وخالياً من المرح، لم يرق لها على الإطلاق الموقف المستهتر الذي يبديه بطرس حول المسائل الإيمانية. . . كما كانت تجهل ما "يحيكه" في هذا المجال.

غير أن الواعظ طلب من زوجته عدم الإفصاح عن مشاعرها، وتفويضه لتسوية هذه المسألة العويصة على أكمل وجه. فقصد بيروت حيث كانت ابنته تلميذة داخلية في المدرسة الأميركية للإناث، وتحدث إليها مطولاً. فعرض عليها بالتفصيل رؤيته للأمور، ورؤية والدتها، واطمأن لأنها كانت تشاطرهما الرأي. وفي طريق العودة إلى القرية، حضر في ذهنه الرد المناسب، ذلك الذي سوف يتيح له صد العريس بدون إهانته.

حالما التقى تلميذه السابق، أعلن بتلك النبرة المتكلفة التي يتخذها لإلقاء عظاته:

ـ ابنتي موهوبة في الدراسة، وتعتزم متابعتها إلى أبعد حدود. . . وإني على ثقة أن مربياً مرموقاً مثلك لا يمكن إلا أن يشجع مثل هذه المثابرة.

لم يفهم بطرس في الحال أن طلبه مرفوض. وحين بدأ يفكك رموز الكلام، بعد ثوان معدودة، كاد أن ينفجر، ولكنه تمالك أعصابه، وهز رأسه بتهذيب، ثم قال:

ـ أود أن أتحدث إليها. . .

ـ لن تقول لك خلاف ذلك، فقد التقيتها للتو!

ولكن العريس أصر على الحديث إليها ولم يستطع خليل أن يرفض طلبه بسبب صداقتهما القديمة وصلات القربى بينهما. وفي كل الأحوال، كان الأب مطمئن البال فنظيرة اتخذت قرارها بعد تفكير ملي، ولم تكن فتاة تبدل رأيها بين عشية وضحاها.

سنحت لبطرس فرصة الحديث إليها على انفراد بعد بضعة أسابيع حين عادت إلى القرية لقضاء الإجازة الصيفية. وفي ختام الحديث، أعلنت لأهلها أنها توافق، وبعد التفكير الملي، على هذا الزواج. وقع الأهل في مأزق، لا سيما أن ابنتهما أوضحت لهما هذه المرة أنها حسمت أمرها. واعتبر خليل أنه لا يستطيع أن يرفض موافقتها، أياً كانت تحفظاته، وبالمقابل، لن تتقبل زوجته صوفيا ذلك أبداً.

لن أعلم علم اليقين أبداً ما قاله بطرس لإقناع نظيرة. فمثل ذلك الكلام الحميم والنائي قلما تتناقله العائلات، وأقله عائلتي. غير أنني أفطن، لدى مراجعة الوثائق القديمة، أن العريس لم يكتف بوضع قصيدة عصماء محزونة تحت قدمي حبيبته. وما كانت المعنية بالأمر إلا أن تتأثر بها.

لا شك أنني سأبالغ لو شئت التقدير عن بعد لمشاعر فتاة في السابعة عشرة استناداً لما عرفته عن الجدة التي أصبحت لاحقاً. ولكن الإنسان العاقل يحافظ دائماً على بوصلته، ولا ينتقل من

حالة إلى أخرى، كما يغير محار "عسكري البحر" صدفته، وبوسع المرء أن يضع فاصلاً بين صباها وشيخوختها، ويتعرف إليها دائماً كما هي في قرارة نفسها، بجوار هذا الخط الفاصل، للأفضل أو الأسوأ. أما نظيرة، فأمامي صور متعاقبة لها، - المراهقة المجتهدة في المدرسة الأميركية وسط التلاميذ والأساتذة، العروس الشابة التي تفترش العشب في غداء احتفالي، الزوجة المحاطة بزوجها وأولادها والحاملة مولودها الأخير في حجرها، الأم الأنضج سناً وسط أولادها الشبان والشابات، بعد وفاة زوجها، وأمها صوفيا منتصبة إلى جانبها، الجدة التي لم تهرم بعد بجانبي، وأنا بسروالي القصير، متكئاً بفخر على ركبتها، وانتهاءً بالعجوز التي تحمل حفيدتها الصغرى - وفي كل تلك الصور، لا تتغير، ولا تغيب عن الأنظار، يتعرف إليها المرء، ويتيقّن أنها لم تتغير... وإلى تلك الصور، تمتزج في ذهني كل تلك الصور الأخرى التي لم تلتقط، وأولها تلك الصورة في يوم الأحد ذاك خلال شهر آب/أوت حين ذهبت لأمسك يدها، وأبكي معها موت ابنها، والدي. بدون نواح، أو تفجع ثرثار، بدون تلك الانفعالات المبتذلة التي يجيزها الحداد.

من كل ما أعرفه عنها، يفرض يقين واحد نفسه عليَّ: لم تبدل نظيرة رأيها بالتأكيد بدافع نزوة أو خفقان قلب، فقد التزمت بمشروع مصيري يكتسب عندها مغزى. فقد اقترح عليها بطرس أن تؤسس وتدير معه مدرسة. مدرسة عصرية كما لم تشهد البلاد مثلها من ذي قبل. مدرسة تكون نموذجاً لكل المدارس الأخرى، ويشع منها نور قوي يضيء المشرق قاطبةً.

مدرسة؟ قد يقول قائل: وما هو الاستثنائي في هذا المشروع؟ ألم يبادر خليل قبل ثلاثين عاماً إلى إنشاء مدرسة حديثة الطراز كما لم يشهد المشرق من ذي قبل؟

أجل، بالتأكيد. ولكن هذا المشروع لم يكتب له الاستمرار في ذلك الحين. وكما سبق لي أن ذكرت، شاخ الواعظ ومن أصل أولاده الثمانية، وهم خمسة صبيان وثلاث بنات، لم يشأ أحدهم أن يستلم الشعلة، باستثناء نظيرة، فقد رحلوا جميعاً، وانتشروا في أرجاء المعمورة. كان البكر طبيباً في مصر آنذاك حيث لحق به أحد إخوته، المدعو ألفرد، وأخ ثالث كان صيدلياً في بورتوريكو، وأخوان آخران استقرا في نيويورك. أما البنات، فالكبرى تعيش مع زوجها في تكساس، وأليس أصبحت تقيم في كوبا... وظلت في البلاد الصغرى فقط. وكونها هي التي سوف تستلم الشعلة وتؤمن ديمومة المشروع الذي قام به والدها، وتعزيه عن هزيمتهم جميعاً، لهو مشروع لا تستطيع ألا تبالي به، ولا يستطيع الواعظ بدوره أن يرفضه.

لا شك أن ثمة تساؤلات ظلت مطروحة حول وضع بطرس وميله للاستفزاز أو نزعته لعدم الاستقرار؛ ولكن ما من أحد شكك يوماً بفضائله التربوية. ولو كان شخص قادراً على إحياء الحلم الحضاري القديم في ضيعتنا، فهذا الشخص هو بطرس ولا أحد سواه...

33

لم أعثر على التاريخ المحدد لزواج جدي وجدتي ولكنهما عقدا قرانهما على الأرجح في الأسبوع الثاني من تشرين الأول/

أوكتوبر عام 1912، وفي احتفالين متعاقبين، الأول بروتستانتي في بيروت، والثاني في كنيسة القرية الكاثوليكية.

لا بد أن الزواج تم سريعاً لأن جبرايل لم يعلم به. وفي ذلك الشهر، بعث إلى شقيقه رسالتين وبرقية محفوظة اليوم في المغلف نفسه. لا يلمح فيها أبداً إلى علمه بهذا الزواج. فلا تمنيات بالرفاه والبنين، ولا أي تلميح آخر، بل على العكس، يلحّ المغترب أكثر من أي وقت مضى على شقيقه لموافاته على جناح السرعة.

تبدأ رسالته الأولى على النحو التالي:

هذه الساعة وصلني تحريركم رقم 18 آب/أوت ١٩١٢، ولا أعلم سبب تأخيره. هذه الحاشية لأجل اطمئنانك بوصول تحريرك العزيز وإيقافك مختصراً عما جدَّ عندي مؤخراً، إذ منه يكون فحوى الجواب على تحريركم مطولاً بأقرب وقت. سبقت الإشارة بعزمي على مشترى بناية مكسيمو غوميز، فقد تم النصيب منذ شهر تقريباً، ولم أرد أن أخبركم قبل أن يتأكد الأمر ويحدث التسجيل الذي يتم هذا الأسبوع إن أراد الرب، وبذات النهار، مستعد أن أعرفكم تلغرافياً، فإذا وصلكم التلغراف مسبقاً، فهذا يكون ترجمة له.
الثمن الذي صار الاتفاق عليه ستون ألف ريال...

وللتوضيح، فهذا "الريال" المذكور هو الدولار الأميركي؛ وكان من الشائع في رسائل ذلك العصر تسمية عملة الولايات المتحدة بهذا الاسم؛ وهو تعريب نسبي في الحقيقة لأن كلمة "ريال" riyal مشتقة من réal أي "ملكيّ"، وهو أصل لاتيني، على غرار "الدينار" المشتق من عملة "الديناري" الرومانية، و"الدرهم" المشتقة من عملة "الدراخما" اليونانية...

لدى الإطلاع على الوثائق العائلية، لطالما استرعت إنتباهي سهولة ترجمة كل الأسماء فيما مضى، بدون أيما ترددٍ، حالما ينتقل المرء إلى لغة أخرى. فحين كان بطرس يتكلم الإنكليزية أصبح اسمه "بيتر"، أو يتلقّى رسالة بالفرنسية، تكون هذه الرسالة موجهة إلى "بيار". وفي كوبا، تحوّل جبرايل إلى "غبريال"، وأليس أضحت "أليسيا". وكانت ترجمة الأسماء على الأراضي الأميركية أكثر اعتباطيةً في بعض الأحيان، فأصبح طنّوس "طوم"، وفريد أصبح "فْرِد"، ونديم أمسى "نيد"...

وخضعت بعض أسماء الدول للتحريف نفسه: فعبارة Etats Unis عرّبت إلى "الولايات المتحدة"، لأن "الولاية" كانت المرادف العثماني للإقليم، وبقيت هذه التسمية في التداول...

أما العملات، فحتى الستينات، كنت أسمع بعض المغتربين الكهول الذين عادوا إلى القرية يتحدثون عن "الريالات" الأميركية، فتفتر ثغور محدثيهم عن ابتسامات ساخرة، ثم تلاشت هذه العادة شيئاً فشيئاً.

وبالعودة إلى جبرايل، وإلى رسالته التي يعلم فيها شقيقه بشراء بيت غوميز...

> وتغيير هيئة القصر من سكن لمحل تجاري كي يصير صالحاً لشغلنا يكلف نحو عشرة آلاف أم أقل، فهذا المبلغ أكثر مما يمكنني الإستغناء عنه، إنما مناسبة الظروف تضطرني. مساحة الأرض 815 متراً مربعاً، والسعر الدارج ماية ريال المتر وعلى زود، وهو في أحسن نقطة في هافانا، إذ قبالته، ابتدأوا بتشييد سراي الحكومة، وبالشارع الذي وراه، أصبحت محطة كل

ترانات الجزيرة، فكل من عرف فرح إن كان صديقاً، أم حسد إذا كان عدواً. . .
وبعد هذه العملية، يتضح لك بأني لست قادراً على مشترى أرزاقك سيما والقصد من بيعك إياها قبض مال للعمل الذي أنت بصدده. تتأمل كيف الظروف تحول دون الرغائب، فهذا هو البند الوحيد من تحريرك الذي لا أقدر على مجاراتك به، وعلى كوني لا أنكر مناسبته. . . وأقول إن سفرك ضروري ومناسب جداً، ويا ليتك هنا الآن. . . وبعد التقويم ووضع شروط عقد الشراكة، أؤكد بأنك ترى وجودك وبقاءك هنا مناسباً للمصلحة وكلا الطرفين. . .
آه، لو يلهمك الرب أن تسافر رأساً إلى هنا حتى قبل وصول هذا التحرير!

لئن لم يعد بطرس، المنخرط من الآن فصاعداً في مشروع آخر، "ملهماً من الرب" للإبحار إلى هافانا، فثمة ثلاثة أفراد من الأسرة رغبوا بالشراكة، كل على طريقته، في المغامرة الكوبية. لن أذهب لحد القول إن جبرايل قبل بهم على مضض؛ لا شك أنه كان يفضّل وجود رجل ثقة إلى جانبه مثل أخيه - ولن أشدد على هذه الناحية، لأن عمي الأكبر أوضحها، وقد استشهدت بكلامه مطوّلاً.

كان أول المسافرين الثلاثة شاب يدعى نايف تذكره رسائل الأسرة بدون مراعاة - فهو العنزة الجربانة، والأزعر، والقدوة السيئة - بغض النظر عن الاتهامات الموجهة ضده صراحة.

كان نايف بن يوسف، الأخ البكر لبطرس وجبرايل. قلّما تحدّثت عن يوسف لأنني لا أملك أية رسالة بخط يده، ويبدو لي أنه لم يحصل على قدر من التعليم كشقيقيه. وإحدى النوادر

القليلة المتناقلة بشأنه تتعلّق بظروف زواجه - كم تتعلّق الذكريات لدى الأسلاف بالأعراس، والمآثر البطولية، تلك التوهجات الخاطفة في حياتهم المغمورة!

تعود الأمور بالنسبة إلى يوسف إلى سنة 1880. كانت مختارة، شقيقته الكبرى، على وشك الزواج، وأمها سوسان حاملاً. كانت سوسان متوجّسة، واشتكت في أمسية من الأمسيات لزوجها طنّوس: كيف تتدبر أمورها لرعاية أطفالهما، وابنتها الكبرى لن تعود في البيت لمعاونتها؟ فطمأنها طنوس: "لا تحملي هماً! خطرت ببالي فكرة. سوف نزوِّج يوسف، وتساعدك زوجته بدلاً من مختارة". وراح الاثنان يستعرضان كل فتيات القرية، إلى أن توقفا عند زلفا التي كانت تروق لسوسان. "إذا كانت هي التي تناسبك، فسوف أذهب للتو للتحدث إلى أبيها...".

إستقبل الأب طنوس كما يستقبل أهالي القرية ضيوفهم، أي دعاه للجلوس، وقدم له الشراب البارد، وطرح عليه عشرين سؤالاً ثانوياً قبل التطرق إلى صلب الموضوع. وأخيراً، قال الضيف: "جئت أطلب يد ابنتك للزواج بيوسف". فأجاب المضيف في الحال: "وهي له!".

كانت الفتاة قد دخلت إلى غرفتها للنوم، وأرسلت شعرها الطويل، فناداها أبوها: "زلفا! مشِّطي شعرك، زوَّجناك!". وهي جملة ظلت في ذاكرة أهالي القرية حتى أولئك الذين يجهلون من قالها وفي أية مناسبة قيلت، وحين يتحدث الناس عن زواج متسرع، ومستعجل، وتعسفي نوعاً ما، يحصل حتى الحين أن يقولوا على سبيل التندر: "مشِّطي شعرك، زوَّجناك!".

عادت زلفا بعد أن مشَّطت شعرها، وارتدت ثيابها بسرعة،

للظهور محنية الرأس أمام أبيها الذي أعلن لها: "أعطيناك ليوسف، فهل أنت مبسوطة؟". فأجابت الفتاة: "نعم!" بحياء وإذعان، ولم يظهر عليها الإستياء كثيراً. ورجع طنوس إلى بيته ليرى أن يوسف غارق في سبات عميق. فأحجم عن إيقاظه، ولم يعلمه سوى في اليوم التالي أنه قرر تزويجه، واختار له عروساً، وأنها موافقة. وكان العريس لم يبلغ الثامنة عشرة بعد.

أنقل هذه النادرة عن الرجل الذي روى لي على الأرجح، على مرّ السنين، أوفر الحكايات عن أقاربنا الكثيرين. ولد عام 1911، وهو قريب يوسف وجبرايل، ولاسيما، يجدر بي القول، قريب بطرس وتلميذه وربيبه ومن المعجبين به. وهو محامٍ، وخطيب، وزير نساء، شغل مناصب سياسية رفيعة، ولن يجد الذين يعرفونه في الأسرة والبلد صعوبة في تحديد هويته، ولكني سأطلق عليه في هذه الصفحات اسم "الخطيب" فقط، إذ تعهدت بعدم إفشاء الأسماء الحقيقية لأقاربي الذين سيكونون على قيد الحياة لدى فروغي من تأليف هذا الكتاب.

واستناداً إلى "الخطيب"، ـ مع العلم أنني اطلعت على ذلك في كتاب "الشجرة" أيضاً ـ، أنشأ يوسف بعيد زواجه من زلفا مدبغة عند مدخل القرية؛ لم أشهدها تعمل، ولكن بناءها ما زال قائماً، على حاله، وكانت معظم نزهاتي في طفولتي مع صبيان العائلة تقودني إليها. وعندها كذلك، كانت تنتهي في الماضي الطريق المعبدة التي تأتي من المدينة، ثم يتابع الناس سيراً على الأقدام.

كان يوسف يدير هذه المصلحة بمساعدة أشقائه أحياناً، ثم ابنه البكر نايف. ولكن الشغل كان مرهقاً، ومزعجاً بسبب رائحة

الجلود المدبوغة، ولا يدر الربح على الدوام. ومما لا شك فيه أن الآفاق التي يتيحها، لشباب الأسرة على وجه الخصوص، كانت قليلة، ولا تغنيهم بالتأكيد عن الشخوص إلى بعيد، ما وراء ذلك البحر الذي يبصرونه عند خط الأفق حين يجلسون على سطح المدبغة، كما كنت أفعل أحياناً في طفولتي.

لا أدري إن كان نايف قد سافر إلى كوبا بملء إرادته أم بناءً على الدعوة الصريحة لعمّه؛ والمؤكد أن أحدهما لم يطق الآخر، وسرعان ما تحولا إلى خصمين بل عدوين صراحة، بل أنشأ ابن الأخ تجارة في هافانا على بعد خطوتين من متجر عمّه...

إشتكى جبرايل في رسالة إلى أشقائه من "التصرفات المشبوهة" لنايف، وانتقد نقداً لاذعاً عائلته التي أرسلت له هدية مسمومة ضاعفت همومه وأحزانه بدلاً من إرسال شخص يثق به كفلذة كبده، ويعينه على التخفف قليلاً من أعبائه.

وعد يوسف، إذ تأثر بهذا الكلام، أن يرسل إلى كوبا، تكفيراً عن ذنبه، أحد أبنائه الآخرين، وهو شاب حالم بعض الشيء ولكنه نزيه وودود، اسمه ناصيف.

إستقبل جبرايل هذا الأخير بدون إصدار أحكام عدائية مسبقة عليه، ولمس أنه مختلف بالفعل عن أخيه، ولكن لم يكن ذلك كافياً لرئيس شركة متطلب. وقد تذمر في إحدى رسائله إلى بطرس من هذا الوضع بنبرة أبوية ويائسة في آن:

> أما ناصيف على حاله، الصحة جيدة، وتقدمه بطيء بخلاف المنتظر منه بهذا الوقت، ولا أرى سبباً لذلك سوى مخالطته لنايف ولعشرائه، وحال كوني أمنعه عن ذلك دايماً إنما لا يصغي، أو أن أفكاره متقلبة متغيرة على نسق المكاتيب التي

ترده من البيت، فمثلاً، البوسطة الماضية، يصله تحرير: يا ولدنا أم يا أخونا، أحوال شغلنا متأخرة جداً بالنظر للكساد وغلاء البلد وقلة الشغيلة وعجزنا عن القيام بالعمل والحروب والهيجان والضربات، والحال جعل بلدنا عدم وسكناها تعاسة، فابق بشغلك بينما يكون يسَّرها المولى علينا، فترتكز أفكاره برهة حتى ترد عليه البوسطة الثانية: يا ولدنا أم يا أخونا، نفيدك أن أحوال البلد أصبحت أحسن من أميركا، وشغلنا ماشي جيداً، الأسعار حسنة، والأرباح وافرة، والطلب أكثر مما نقدر على إنجازه، فاحضروا حالاً حالاً لمساعدتنا، وهكذا، ترى أفكاره من حين وصوله حتى الآن، كريشة بمهب الريح، وكل يوم عنده فكر جديد، ودائماً، أي من نهار وصوله حتى الآن فكره بالوطن، ولم يتجول، ولا يرغب لا بالشغل ولا بالغربة، وطالما نبهته على هذا الغلط بكل لطف وأوقاتاً بدون لطف، وكله على غير جدوى، ومن حيث أني أعالجه من هذا المرض العضال ثلاثة أعوام على غير فائدة، قصدت أن أصف لكم أعراضه، وأنتم أخبر من الجميع بوصف الدواء الشافي، ولم أرد أن أخبر والده بشيء مما يزيد أفكاره تلبكاً، وقلبه الحزين على نايف وتصرفاته كآبَةً، فساعدوني بحكمتكم، والذي أراه أنا مناسباً إن بقي على هذه الحالة سفره للوطن أنسب، إذا لا رغبة عنده للتقدم إلى الأمام بهذه الديار رغماً عما يسرته له من الأشغال التي ضمن طاقته، أي أني سلمته شغل المأكولات كي يناظرها فقط، وأرباحها مناصفة، فكانت أرباحه منها في العام الماضي نحو ماية ليرة فرنساوية صافية لحسابه، وبهذا العام، العينية أحسن بكثير، ولو كان عنده رغبة، واستعمل فطنته، وصوَّب ضميره، كانت أرباح هذه الشغلة وحدها لا تقل عن أربعة أو خمسة آلاف ريال سنوياً لأن أولاد العرب يناهزون 6000 في الجزيرة، وكلهم يقصدوننا

على هذه البضاعة منتظرين إذ لا مزاحم لنا، ولا أحد سوانا يتعاطى هذا الشغل.
عدا عن هذا، أي مقابل الوقت الذي يفضل عن ملاحظته هذه الأصناف للشغل الذي يساعدنا به في المحل بالبضائع العمومية مثل تعبية صناديق، ورزم بقج، ومساواة بضائع، أحسب له أجرة شهرية أربعين ريالاً ذهباً، فما رأيك بمعاملتي هذه؟ أهي أكثر من عادلة أم لا؟ قد طلبت إليه مراراً أن يكتب بهذه الصراحة عن حالته وشغله لوالده ويستشيره في البقاء أم الذهاب، فما فعل إما لعدم إمكانه التصريح أو لغاية في النفس، أم أنه اتكل عليَّ بها، وها أنا فاعل الآن، فأرجوكم الحكم بالواجب وإيقاف والده على الحقيقة كما أعلاه، ودعه يحرر أفكاره بكل حرية، ويأمرني بما يرغب، فأنا مستعد أن أجري لما يسر خاطر والده ويريح ضميره، إنما لا أسلِّم بقتل الوقت وعدم الثبات الذي لا ينتظر منه نجاح باهر ثمرة المهاجرة...

بعد هذه المرافعة الطويلة، يضيف جبرايل سطراً في الهامش، مكتوباً من الأعلى إلى الأسفل، بقلم الرصاص:

أطلعت ناصيف الحبيب على ما كتبته للتو بشأنه. فقرأه بانتباه، واعتبره مطابقاً للحقيقة، ولم يعترض إطلاقاً.

34

غير أن ابن الأخ شعر بالحاجة للكتابة بدوره بعد أربعة

أيام-، في 1 تشرين الثاني/نوفمبر 1912- للإعراب عن رأيه حول ما يجري:

سيدي العم الفاضل بطرس، أدام الله بقاءه،
أقبل يديك، ولو عن بعد، وأهديك معظم أشواقي القلبية، وأطلب منه تعالى بأن يرينا إياكم قريباً.
أعرض بأني هممت جملة أمرار بأن أكتب إليك واصفاً حقيقة الواقع هنا، والذي كان يمنعني من ذلك قصر الوقت فقط. أما اليوم من حيث هو يوم انتخاب الحاكم، والمحلات مقفلة، فأصف لك شيئاً عن حقيقة ما صار من حين وصولي لهذا التاريخ بدون مبالغة.
وصلت على نيويورك في 28 تشرين الأول/أوكتوبر 1909. وكان ذلك الوقت العم جبرايل هناك، فلاقاني على الجزيرة _ إليس أيلاند، حتماً _ وطلّعني، وعاملني معاملة والدي بالذات، ثم حضرنا وإياه إلى هافانا، فحين وصولنا، لاقتنا البشاير على البابور عن أعمال الأخ نايف وتصرفاته في غياب العم جبرايل. ثم ابتدينا بالشغل هنا، وكما تعهدوني بأني لست متعلم، فكان ذلك شي شاق عليّ، وتعب من كل الأوجه، فبقيت على ذلك الحال قد ستة أشهر، وتذكرت كلامكم إلى أنه عين الصواب، وندمت على صغري، وهممت بأن أسافر على نيويورك أو على البلاد، فمنعني من ذلك العم جبرايل، واستنسب إلي بأن أستلم شغلة المأكولات السورية، فاستلمتها ومشيّتها على قدر إمكاني مع شغلي بالمحل بالذي أقدر عليه، والأجرة ثلاثون ريال كانت بالأول بالشهر حين استلامي السمانة، وبعد وقت قصير، صارت أربعون، وعلى ما تعهدون مصروف هذه البلاد، وأرسلت كم غرش لوالدي، فكان الصامد معي هنا منذ 1 تشرين الأول/أوكتوبر 1911، 390 ريال إسبانيولي من الإجرة والسمانة...

أظن أنها عملة البيزو الكوبية التي يسميها الشاب ريالاً إسبانياً. . .

. . . وهذه السنة بعد ما عملنا الحساب حتى نعرف النتيجة. فعليه، أنا لا أنكر فضل العم جبرايل، وإرشاده إلي، ولا أنسى معاملته ومعروفه، لكن الذي يهمني أمر الصحة قبل كل شي، هذه البلاد ما فيها صحة، أظن أنك تعرفها أكثر مني، أنا لا أنظر الربح فقط مثل العم جبرايل، بل أنظر الشي الذي تكون به صحتنا فيه مليحة، وأقدر أن أكون أنا وإخواني بشغل واحد، فراجعت أفكاري بهذا الموضوع جملة أمرار، وشاورت والدي، فرأينا من الأنسب أن نعود لصنعتنا في البلاد، أظنها أنسب للمستقبل، وأريح علينا من شغل هنا، لأن الشغل هنا يقتضي لو أناس عالمين ومعودين على الحصر، فنحنا لسنا من هذا الصنف. فعليه، قد نويت على السفر إلى البلاد أول الصيف القادم إن راد الرب، فلما علم العم جبرايل قصدي، قدم لكم تحرير من كم يوم بكسم شكوى، وأنا لا أهرب من الحق، أحكموا عليّ، وأنا راضي بحكمكم. لكن لا أسلِّم معه من قوله بأنه قال لي جملة أمرار أن أكتب لوالدي، وأخبره حقيقة الشغل هنا، وماذا أربحه ونتيجته، أنا فعلت ذلك منذ مدة سنة، وأريته المكتوب، راجعوه عند والدي رقم ١٧ تشرين الأول/أوكتوبر ١٩١١، تروه موضح عن كل شي من حين وصولي لغاية تاريخه، وكذلك قوله عن أفكاري بأنها متقلبة مثل ريشة في مهب الريح، لا أسلِّم معه لأن أفكاري ثابتة على هذه البلاد من حين وصولي إلى الآن، ولست كل يوم بفكر جديد، ومحافظ الحمد لله على آدابي وشرف عائلتنا مثله لا أكثر، ولا تفسد أخلاقي معاشرة نايف ولا خلافه لأني لما

أكون عند نايف فبقصد إرشاده وتفويقه على غلطه، لا على قصد الإكتساب منه أشياء مضرة. . .

ثم ينقل الشاب إلى عمه بطرس، بصورة شديدة اللباقة، دعوة جبرايل، بدون التورط شخصياً:

الخلاصة، أنا مسافر على البلاد أول الصيف القادم، فإن ما كان قبل، فأرجو إذا رأيتو شغلة بضاعة بلادنا هنا موافقة ومستقبلها حسن، أرسلوا أحد أعمامي حتى يستلمها بأقرب وقت، لربما كان أقدر مني، ويقدر يطلّع أرباح سنوياً أربعة أو خمسة آلاف ريال له نصفهم على حسب قول العم جبرايل. راجعوا أفكاركم بهذا الموضوع، واجروا الذي تروه مناسباً. . .

ويسترجع مسألة تقض مضجعه:
كذلك، أرجو بأن تكتب إلى العم جبرايل، وتفوّقه أن نايف ابن أخوه مهما كانت صفاته ليست محمودة، وهو ملزوم به، لأنهم عمّال يعاملو بعضهم معاملة أعداء لا معاملة أقارب، وأنا أخشى من عاقبة هذا الأمر.

ويختتم ناصيف رسالته بتوجيه تحية إلى بطرس من كل الأقارب المغتربين، ويذكر منهم جبرايل وأليس وابنهما، وكذلك "أخي نايف". ثم، وتبادلاً للياقات، يطلع عمه على رسالته، فيضيف جبرايل بخط يده ما يلي:

بعد كتابة ناصيف هذا التحرير، عرضه عليّ لأجل مطالعته، فسررتُ به جداً، إذ أن أكثره مطابق للحقيقة، وثانياً، بان إلي أن مكتوبي لكم الذي أطلعته عليه أيضاً بأنه منه نتيجة، أي تنبيه إحساساته ببعض الواجب، وعسى بهذه الحاشية التي

أكتبها بحضوره، وبعد تنبيهه إلى ما ارتكبه من الأغلاط أعلاه، يكون منه كمال الفائدة.
لا شك بأن كتابة العزيز ناصيف صادرة عن نية صافية وقلب نقي، ولا ألومه على التعبير عن أفكاره بالصورة المدوَّنة أعلاه، وبما أني أعتقد به موضوع قابل، ومحافظ على أدبه، وشرف نفسه، قد نبهته من أغلاطه بهذا التحرير في بعض الجمل، فاستعذر، وها هو مصلح الخلل أدناه، وكاتب بزيادة إيضاح عن بعض المسائل التي تركها مغمضة لأجل فضاوة بالكم، وتعميم الفائدة، كيما تتمكنوا من تقديم شوركم بالرأي المصيب الذي تروه مناسباً لمستقبله، وتتخذوا كتابته هذه كمشورة لكم نظير كتابتي أنا بهذا الموضوع، وليس من باب شكوى وسماع استنطاق، كما هو ظنّه وقدّر.

ويلي ذلك بالفعل مقطع أخير بخط ناصيف:

صدر غلط أعلاه من خصوص معاملة العم جبرايل لنايف، فهو لم يزل مطوّل باله عليه من بعد ما عمل جميع الوسايل لإرشاده وإرجاعه إلى الحقيقة، وخلّصه من جملة مشاكل مهمة، لكن نايف الذي لا يصغي لكلام أحد ويعادي كل من يحكي له على غير صالحه ولو كان والده، ولا نعلم نهاية أمره ماذا تصفّي لأنه شارد عن درب الإستقامة وعالق بدعاوى كبيرة.
كذلك قال إلي العم جبرايل سابقاً أن أكتب موضحاً عن كل شي، ففعلت ذلك، وأريته المكتوب لكنه سها عن حاله لما كتب لكم، وأنا ما أخبرته، وأرباح السمانة إلي نصفها، وكانت النتيجة في السنة الماضية من السمانة وحدها كما أخبركم العم جبرايل، وأنا أخبرتكم عن الصامد فقط لا عن أرباح السمانة، وأرجو المعذرة لأن الغلط يجوز.

35

لئن استفضت في عرض هذه الرسالة، فلأنها أفهمتني الكثير من الأمور التي لطالما ظلت مضمرة في الرسائل المتبادلة بين جبرايل وبطرس، أي الجو المحموم الذي كان يسود حول "شركاتنا" في هافانا، وصعوبة تكيف بعضهم مع هذا الوضع. لا شك أن بطرس لم يُعامل كابن أخيه، ولكن الاحتراف المهني الشرس لجبرايل، والذي يبرّر نجاحه السريع، يبرّر كذلك عدم قدرته على استبقاء أقاربه إلى جانبه، وهذا الحماس سوف يكون أحد أسباب وفاته المبكرة...

لم يكن ناصيف لا يطيق البعاد بل الحياة التي فرضها عليه عمُّه. وفي الأشهر التي تلت هذه الرسالة، سوف يعود بالفعل إلى الوطن، ويتزوج بإحدى قريباته ليهاجر فوراً برفقتها إلى وجهة أخرى، ولاية يوتا في غرب الولايات المتحدة، ويبدو أنه استطاع الاندماج هناك في طائفة المورمونز. وأولاده، وأحفاده، وأحفاد أحفاده يعيشون هناك، ويصدف أن أهاتفهم أحياناً للاطمئنان على أحوالهم.

وبالعكس، لن يرحل نايف أبداً عن هافانا. فكما تنبأ أخوه، لن يلبث الأسوأ أن يحصل: ففي أحد الأيام، أخطرت عائلته بوفاته، وظل مصيره، حتى اليوم، مغلفاً بصمت عائلي كثيف - ففي بادئ الأمر، لزم الجميع الصمت لأن ذلك الشخص كان يزعجهم؛ واليوم، يلزمون الصمت لأن لا أحد بات يعرف شيئاً عما حصل بكل بساطة. وقد علمتُ فقط، من إحدى بنات أخيه، أنه انخرط في منظمات ثورية، واشتهر في هذه الحركة، الأمر

الذي أساء لتجارة عمّه - فأحدهما كان يقيم علاقات مع رجال السياسة وكبار موظفي الدولة، والآخر كان يجهد لمحاربتهم. ولدى معاودة قراءة ما كتبه جبرايل، يبدو هذا التعليل هو الأكثر احتمالاً...

لعل نايف قتل أثناء إحدى حملات القمع الشاملة التي كانت تجري بانتظام في الجزيرة إبّان الحرب العالمية الأولى. لا أدري إن كان قد حوكم وأعدم، أو رُمي بالرصاص. ويلمّح بيت غامض نظمه بطرس في هذه المناسبة، وبكلمات مبطّنة، إلى أن جثته لم تدفن دفناً لائقاً".

بعد الخلاف مع نايف، و"فرار" ناصيف، وتنصّل بطرس، سوف يلتفت جبرايل إلى فرد آخر من الأسرة، ويتفاهم معه إلى الأبد، هذه المرّة، ويصبح هذا الشخص موضع ثقته: إنه ألفرد، أحد أبناء خليل، وشقيق أليس بالتالي. يرد أول ذكر لهذا التعاون في رسالة بعثها الدكتور شكري من السودان في 6 آب/أوت 1913:

> ألفرد كتب لنا من حلب وقال إنه بصفة وقتية يستخدم في سكة الحديد البغدادية، وقد قدَّم استعفاءه، واستلم تلغرافاً من العزيز جبرايل ليحضر إلى كوبا لعنده. لقد مرض بعد رحيله من الخرطوم، ولكنّه طمأننا أنّه تعافى الآن. ولمّا أظهر استعجالاً للرحيل، أفترض أنه أبحر أصلاً، ولو شئت أن تكتب له، فابعث إلى جبرايل الذي سوف ينقل له رسالتك، وهذا ما أنوي أن أفعل...

لم يعلم شكري أن شقيقه الأصغر عدّل مساره، في اللحظة الأخيرة، لإتمام "إجراء" أخير: الزواج. وأخطُّ هذه الكلمات

مبتسماً بعض الشيء، إنما ليس للسبب الذي يخطر عفوياً بالبال... ففي تموز/جويليه 1913، تلقّى ألفرد دعوة صهره، وراح يتهيّأ للسفر إلى كوبا. كان قد أمضى سنتين مع شكري في مصر والسودان حيث اشتغل موظفاً مدنيّاً في الجيش البريطاني، ولما كان يعتزم الرحيل، مرةً أخرى، لفترة طويلة، عاد ليودّع أهله، خليل وصوفيا، وكذلك شقيقته الصغرى وجدتي العتيدة نظيرة التي وضعت للتوّ طفلها الأول، بكر أعمامي - ذلك العمّ نفسه الذي سوف ينقل لها، بعد سبعة وستين عاماً، عبر الهاتف، في حضوري، نبأ وفاة والدي.

أثناء زيارة الأم الشابة، صادف ألفرد عندها هَدَى صديقتها الحميمة التي كانت تساعدها على رعاية مولودها، وتقوم مقام شقيقتيها الكبريين اللتين هاجرتا إلى الأميركيتين.

كانت هَدَى أطول قامةً من سائر نساء القرية، بل أطول قامةً من معظم الرجال، وأطول قامة، في مطلق الأحوال، من ألفرد، ومنكباها أعرض من منكبيه. وكانت لتبدو مسترجلة لولا تقاسيمها العذبة، وذلك الحنان الأمومي العارم في نظرتها وحركات ذراعيها. كانت جدتي تحبها حباً جمّاً؛ ونظراً للمحبّة العميقة التي تكنّها لألفرد، ومعرفتها بهشاشته وبصلابة هدى في كل المحن والشدائد، صمَّمت أن تقرّب بينهما. وبالطبع، كان أحدهما يعرف الآخر أصلاً، فكلّ الناس في القرية يعرفون بعضهم بعضاً منذ الولادة، وكلّهم أقارب بهذا القدر أو ذاك. فانتفت الحاجة لتعارف ألفرد وهدى؛ ولكن الفرصة لم تسنح للاثنين من أجل الحديث على انفراد؛ وبالتالي، كان هذا اللقاء حاسماً، ووساطة نظيرة لعبت فيه دوراً أكيداً.

غير أن الظروف لم تكن ملائمة إطلاقاً للزواج. فألفرد كان يزور زيارة وداعية عابرة قبل الرحيل إلى أقاصي المعمورة لفترة غير محددة. ولا بد أن هذا الشعور الطارئ شجعهما على استعجال الأمور: فقرّرا الزواج بدون مماطلة؛ ومن ثم يرحل الشاب إلى كوبا؛ وإذا لم ترق له الحال فيها، يعود على الفور، وإلا توافيه هدى. فعقد قرانهما في 6 أيلول/سپتمبر 1913، وفقاً للطقس المشيخي؛ وفي اليوم التالي، أبحر ألفرد، واعداً زوجته الشابة بأنهما سيستقرّان معاً، بعد عام على أبعد تقدير، في بيتهما، سواء أكان في بلدان المشرق أم في الديار الأميركية. فلوّحت له العروس بمنديلها على رصيف المرفأ إلى أن توارت الباخرة عند خط الأفق، ثم عادت إلى القرية للانتظار.

أمامي فاكس الاستمارة التي ملأها ألفرد وهو يصل إلى "إليس أيلاند"، وهي على ما يبدو الممر المحتوم لذكور أسرتي، وقرأت فيه أن ألفرد اجتاز مرفأ أثينا حيث ركب على متن باخرة تدعى "تيمستوكليس"، ووصل نيويورك في 11 تشرين الثاني/نوڤمبر 1913؛ وأنه كان في الثامنة والعشرين، غير متعدّد الزوجات أو معوّقاً أو فوضوياً؛ وأنه ذكر تركيا كبلد المنشأ. ومقابل اسمه، عبارة ختمها موظف الهجرة تقول: NON IMMIGRANT ALIEN أي "أجنبي غير مهاجر"؛ وفي الواقع، صرَّح ألفرد أنه كان في حالة مرور مؤقت، لأن الوجهة الأخيرة لرحلته كانت كوبا، حيث لديه عنوان "لدى أخيه غبريال م.، شارع مونتي، هافانا...".

بعد وصول ألفرد إلى الجزيرة أواخر تشرين الثاني/نوڤمبر، بعث لهدى رسالة أولى يعرب فيها عن اشتياقه لها، وعذابه في

كل لحظة، وعدم استطاعته العيش طويلاً بعيداً عنها، ورغبته بالتخلي عن كل شيء والعودة. وفي رسالة ثانية بتاريخ شباط/ فيڤري 1914، يشكو من مرضه الدائم، ويؤكد لها أنه لن يمضي كل حياته في هذه الجزيرة! فلا تتعجّب زوجته إن عاد إليها يوماً! ولكنه يعلمها، في رسالة ثالثة، مكتوبة خلال شهر أيار/ماي، أن العمل يروق له، في نهاية المطاف، وأنه يتفاهم مع جبرايل، وأن هذا الأخير يعتزم تكليفه ببعض المسؤوليات ومضاعفة راتبه الأساسي. وفي الرسالة الرابعة، يعلن لها بنبرة مبتهجة أنه أصبح الساعد الأيمن لصهره الذي لم يعد يستطيع الاستغناء عنه؛ وقد حسم أمره، وسوف يعيش في كوبا إلى الأبد، وأنه يهمّ باستئجار شقة كبيرة وسط العاصمة، على مقربة من متاجر La Verdad التي انتقلت إلى البيت القديم للجنرال غوميز.

كانت تلك الرسالة هي الأخيرة التي تلقّتها الزوجة. أرسلها من هافانا في 12 حزيران/جوان 1914، ووصلت إلى مرفأ بيروت في 24 تموز/جويليه. وبعد أربعة أيام، اندلعت الحرب العالمية الأولى، ولم يعد ثمة بواخر، أو بريد، أو سفر. واستحال على الزوجين اللقاء.

36

في هذه الأثناء، كان بطرس يرسي أسس حياته الجديدة. ألن

يندم يوماً على عدوله عن مشاريعه المختلفة - لاسيما مزرعة التبغ -، واستبعاده من أفقه لشتى المسارات المحتملة، من أجل سلوك الطريق المشترك الذي لطالما أراد الهروب منه: الاستقرار في الضيعة، والارتباط بأسرة، وقضاء بقية حياته "بين الدفاتر والمحابر"؟ أمّا في الوقت الراهن، بمطلق الأحوال، فلا ندم، بل أفراح، ورضى، وإنجازات.

بعد الزفاف، عاش بطرس ونظيرة فترة طويلة من الاحتفالات العائلية، والولائم، والمبارزات الشعرية، وتلقى الزوجان الكثير من رسائل التهنئة، بعضها نثراً وبعضها الآخر شعراً، حفظت كلها بعناية - وهي بحوزتي. ثمّ، عندما ولد ابنهما البكر، بعد الشهر العاشر من زواجهما، توالت المبارزات الشعرية، والمدائح، وتجدَّدت الولائم.

أمامي صورة تعود لتلك الفترة. لا بدّ أنها التقطت في خريف 1913، لأنّ أوراق الأشجار تساقطت، ونظيرة تحمل بين ذراعيها مولوداً جديداً. وعلى العشب، أمام الأمّ الشابة، زجاجتان تحتويان على شراب داكن اللون، لا أدري إن كان شراباً أم نبيذاً اشتروه من الدير القريب. وفي الخلف، فتاة صغيرة تلهو بمظلة مقلوبة... إنّه غداء خلوي في منطقة "الخانوق" التي سبق لي أن ذكرتها. وأحصي، بالإضافة إلى الرضيع غير واضح المعالم ثلاثة عشر شخصاً، إحدى عشرة امرأة من كل الأعمار ورجلين فقط: أبوها وزوجها. كان خليل يفترش الأرض أمامها، في مقدمة الصورة، إلى جهة اليمين، بنظاراته الرفيعة، وشاربه الفاتح، وقبعته الأميركية - وكأنّه رجل مسن من وسط غرب الولايات المتحدة؛ وبطرس، خلفها، ساهم النظرة.

كان يرتدي بزة ثلاثية، ولكن قميصه مفتوح. حاسر الرأس، بالطبع، شعره قصير ولكنه كثيف. شاربه فاحم وكث. يوحي لي مظهره بواحد من أولئك المدرسين المغالين في علمانيتهم والملقبين فيما مضى بلقب "خيالة الجمهورية السود"....

وإذا كان ساهماً، فلأنه لم يكن يفلح، بدون شك، في عدم التفكير بمدرسته التي أبصرت النور قبل بضعة أيام، أو كانت على وشك إبصار النور. فقد كانت الاتصالات الأولى مشجّعة. ووعد الكثير من أهالي القرى المجاورة بتسجيل أولادهم فور افتتاح المدرسة، بل بدأ بطرس ونظيرة يخشيان إقبالاً لا يستطيعان تلبيته، بسبب الافتقار إلى الصفوف الكافية. فبإمكانياتهما المحدودة، لم يتمكنا من تجهيز أكثر من صفّ واحد في الطابق السفلي من بيتهما، وكانا يسكنان مع طفلهما في الطابق العلوي الذي يتألف من حجرة واحدة فقط.

وعلى الرغم من التواضع الشديد للمكان، سمّيت المدرسة "المدرسة العمومية"، بكل بساطة. ولدى تدشينها خلال احتفال مقتضب، في تشرين الأوّل/أوكتوبر 1913، كان الحدث بمثابة ثورة صغيرة انبهر بها بعضهم، واستمتع بها بعضهم الآخر، واستهجنها معظمهم. في بادىء الأمر، لم يفهم الناس معنى هذا الاسم، وظنوا أنها ستكون مدرسة مختلطة للذكور والإناث، لا مدرسة للذكور، وأخرى للإناث، لا صفوف للذكور، وأخرى للإناث، كما فعل خليل في البداية، بخجل، في مدرسته... لا، لا شيء ممّا اعتمد حتى الحين: ففي الصف نفسه، سيجلس الفتيان والفتيات جنباً إلى جنب، وكفى. جال جدي وجدتي على بيوت الضيعة يشرحان للأهالي المذهولين ـ "سوف ترون! ثقوا بنا!" ـ إنّ كل شيء سوف يسير على ما يرام.

وفي الواقع، سار كلّ شيء على خير ما يرام، سواءً بهذا الشأن الحسّاس أو بشأن التعليم نفسه. كان التلاميذ مسرورين، يصلون إلى المدرسة مهرولين عبر الدروب، ولا يغادرونها، مساءً، إلاّ على مضض؛ ويتقدمون تقدّماً حثيثاً، وخاصة بفضل طريقة تربوية سوف تصبح اختصاص المدرسة العمومية، يعهد فيها إلى الطلاب المتفوقين في كلّ صفّ بمسؤولية نقل ما تلقنوه لزملائهم؛ ونشأت سلسلة من المعرفة طوّرت حسّ المسؤولية وذهنية التضامن بينهم جميعاً؛ ويبدو أنّ التأثير كان بمثابة المعجزة؛ وقدامى التلاميذ الذين ما زالوا أحياءً يتحدّثون عنه حتى الحين بانبهار وامتنان.

تعاظم نجاح هذه الصيغة التعليمية، فاستمرّ انتساب التلاميذ خلال العام الدراسي الأوّل، كما يشهد ذلك التعميم المؤرخ في 28 شباط/فيفري 1914، والمحفوظة منه نسخة في وثائق العائلة:

سادتي أبناء الوطن الكرام،

طلب منا البعض في الماضي أن نقبل أولادهم في المدرسة،فاعتذرنا لهم لعدم وجود أماكن فارغة في القاعة المعدّة للدرس وقتئذٍ. أما الآن فبمناسبة دخول النصف الثاني من السنة المدرسية، لم يسعنا إلا أن نقبل تلامذة جدد. وإذ ذاك، اضطرتنا الحال إلى إعداد قاعة ثانية.

وعليه، أتينا نعلن العموم أن كل من أراد أن يشرفنا بخدمته في هذا الفصل، يجدنا مستعدين لكل ما يرضيه إن شاء الله.

تنبيه:

فهم البعض من قولنا في الإعلان السابق " أن مدرستنا لا تتعرض للطقوس المذهبية" إننا لا نعلم شيئاً من الدين -

والصحيح أن مدرستنا هذه أهم دروسها هو التعليم المسيحي، وهي إنما أقيمت لتعزيز الفضائل المسيحية.

في مذكرة سابقة، قلنا إنَّ مدرستنا لن تهتمّ بالطقوس الطائفية. وفهم بعضهم أننا نرفض تعليم كل ما يتعلّق بالدين، فيما تعنى هذه المدرسة أساساً بتلقين تعاليم المسيحية بل لقد تأسست بالضبط لتعزيز الفضائل المسيحية.

مدير المدرسة
بطرس مختارة معلوف

يشير هذا "التنبيه" إلى بداية معركة طويلة ومضنية. وفي الحقيقة، اندلعت هذه المعركة من قبل، ولكنّ هذا الفصل منها سوف يكون الأكثر مشقة.

عندما أنشأ خليل مدرسته، قبل ثلاثين عاماً، حاول الإكليروس الكاثوليكي التصدي لها. فضجّت العظات بإدانة المهرطقين، وتوعّدت بنار جهنم مريديهم، لا سيما أولئك الذين يرسلون أولادهم إلى مدرسة هؤلاء الأبالسة الذين لا يؤمنون لا بمريم، ولا بالقربان، ولا بالقديسين. ولكن الأهالي، حتّى الأتقياء منهم، لم يمتثلوا امتثالاً أعمى لكنيستهم. فطالما مدرسة البروتستانت هي الوحيدة المتوفّرة، سوف يرسلون إليها أبناءهم، لأن خطر الهرطقة أفضل من يقين الأمّية.

فقرّرت الأبرشية عندئذ، إذ استخلصت العبر من هذا الوضع، أن تنشىء مدرستها الخاصة، بإدارة كاهن دمشقيّ يدعى مالاتيوس، وهو رجل محنّك ومثقّف، تقوم مهمته الصريحة على إعادة النفوس الضالة إلى الطريق القويم. وكان ردّاً فعّالاً: فلئن تراءى الواعظ حتّى الحين كحامل لشعلة النور أمام ظلمات

الجهل، فقد تطوّر الوضع الحين لتصبح المدرسة الكاثوليكية في مواجهة مع المدرسة "المهرطقة"؛ ولمّا بدأ خليل يهرم، ولم يشأ أحد أبنائه استلام الشعلة، واضطر للتخلي عن مدرسته، قامت عائلات بروتستانتية بتسجيل أولادها في مدرسة الأب مالاتيوس.

إنتهت حرب المدارس بانتصار الكاثوليك. وأعني بها الحرب الأولى لأنّ حرباً ثانية سوف تبدأ مع تأسيس جدي وجدتي "لمدرستهما العمومية".

مهما كان بطرس كاثوليكياً، وشقيقاً لرجل دين كاثوليكي، وأستاذاً سابقاً في المدرسة البطريركية كما في المدرسة الشرقية الباسيلية الكاثوليكية، فالقداسة لم تكن من صفاته، لأنّه تابع دراسته، من بين أسباب أخرى، لدى المرسلين الأميركيين، وكذلك فعلت زوجته، إنّما ليس ذلك هو السبب حصراً. كان ثمة سبب آخر، أكثر خطورة يتمثّل في معتقداته الخاصة. لا شكّ أنّه لم يكن بروتستانتياً، ولكن ماذا كان إذاً؟ لا أحد يصادفه في قداس الأحد- ولا أصلاً في "خدمة" الواعظ. ويتهامس الأهالي في القرية أنّه ملحد؛ مع العلم أنّه أنكر ذلك دائماً، بشراسة،- ولاشيء أصلاً في كتاباته الحميمة يشير إلى هذا الاتجاه؛ غير أنّ معظم الناس اقتنعوا بذلك، حتّى أهله.

وبالتالي، حين أرسل جدي، بصورة شديدة المهابة، إلى عائلات المَشرَع والقرى السبع المجاورة إعلانه الأول الذي يعلن إنشاء "مدرسته العمومية"، ويذكر من مميزاتها طابعها المختلط، و"عدم اهتمامها بالطقوس الطائفية"، استشاط خصومه غضباً: فهذا الرجل لا يريد فقط إفساد أخلاق أولادنا، بل يريد كذلك إلغاء مسيحيتهم. وجاء ردّ بطرس، حازماً إنما دفاعياً: إذا رفضت

هذه المدرسة الدخول في نزاعات مع الطوائف الأخرى، فهذا لا يعني أنّها تقل عنها في مسيحيتها. وبعبارة أخرى: أيّها الأهل، لا تعتقدوا أنكم سوف تضطرون للاختيار بين مدرسة للكفّار ومدرسة للمسيحيين الأخيار؛ فالخيار هو بالأحرى بين مؤسسة مفتوحة لكلّ الطوائف، وأخرى مخصصة للكاثوليك وحدهم، بل لأكثرهم تزمتاً. كان الأهالي، في القرى الثماني المعنية، وفي كلّ هذا الجزء من الجبل، مسيحية حصراً في ذلك العصر، ولكنهم أصبحوا يضمون أورثوذكساً وكاثوليكاً ملكيين، وموارنة، بالإضافة إلى بروتستانت في الآونة الأخيرة. وكان بطرس يرجو أن يجتذب إلى مدرسته تلاميذ ينتمون إلى الطوائف المسيحية الأربع. وصفة "العمومية" في الشرق تعني أصلاً تجاوز الخلافات بين الطوائف.

وقد ذهب جدي بعيداً في اهتمامه بتجميع أبناء الطوائف كلّها. وعلى هذا النحو، كان على التلاميذ أجمعين، أيّاً كانت انتماءاتهم الدينية، أن يتلوا معاً كلّ صباح الصلاة نفسها التي لم تكن سوى "أبانا الذي في السماوات". وكان كلّ تلميذ ملزماً بتعلّم هذه الصلاة باللغات الأربع: العربية، التركية، الإنكليزية، والفرنسية. ويوجد أصلاً في وثائق العائلة لوح من الفضة نقشت عليه صلاة بالعربية. وضعته على مكتبي كما كان موضوعاً على مكتب جدّي، وتمهلت لتلاوة الصلاة ببطء وبصوت مسموع:

> أبانا الذي في السماوات، ليتقدّس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض.

في الواقع، لا توجد كلمة في هذه الصلاة قد تهين

بروتستانياً، أو كاثوليكياً، أو أورثوذكسياً، أو ماسونياً لأن جدّي كان ماسونياً، أو مسلماً، أو يهودياً.

أعطنا خبزنا كفاف يومنا، واغفر لنا ذنوبنا كما نحن نغفر لمن أخطأ وأساء إلينا، ولا تدخلنا في التجارب، لكن نجنا من الشرير. آمين.

لا، حتى في هذا الجزء الثاني من الصلاة، لاشيء يصدم المؤمن، أياً كانت طائفته. لاشكّ أن هؤلاء أو أولئك سوف يفضلون صياغة مختلفة، ولكن هذه الصلاة لا تتضمن أية عقيدة مثيرة للجدل، أو ثالوثاً، أو بابا، أو كنيسة، أو مريم العذراء، أو حتى يسوع... إنّها مجرد صلاة توحيدية، صلاة "عمومية"، كمدرسة جدّي وجدّتي.

بالرغم من هذه الإرادة المسكونية، لن يفلح بطرس في تهدئة مناوئيه لاسيما أن هذا الرجل، داعية الانفتاح والائتلاف، كان أيضاً رجل مبادىء، بل رجل عناد وتصميم؛ وسوف يقدّم في تلك السنوات عن تلك الصفات دليلاً ساطعاً أفرح خصومه وأحرج أهله، ولن تستطيع ذريته تجاوز صدمته: سوف يرفض رفضاً باتاً أن يعمِّد أولاده!

37

وفي حين لم يتردّد أخوه جبرايل، الماسوني مثله، والمتزوّج

مثله بامرأة مشيخية، في اللجوء إلى خدمات الخوري الكاثوليكي في كنيسته الهافانية، على أن يعهد بدور العرَّاب إلى أحد كبار محفل كوبا الماسوني، تعنَّت بطرس. وصرّح أنّ أولاده سوف يختارون الديانة التي يشاؤون، متى بلغوا سن الرشد، أو لا يختارون أي ديانة؛ وحتى ذلك الحين، هم في حلّ من أي التزام ديني. كانت فكرة جميلة، فكرة نبيلة تعبّر عن مدى جدّيته في تناول المسائل؛ فجماعة المؤمنين لا يجب أن تكون عشيرة ينتمي إليها المرء منذ الولادة! بل لا بدّ من البحث، والتأمّل، والقراءة، والمقارنة، ثمّ الانتماء بحرّية إلى عقيدة إيمانية يختارها المرء انسجاماً مع مبادئه. أجل، كانت فكرة جميلة، وخاصة في هذا البلد الذي ما زالت ذكرى المذابح الطائفية فيه حيّة في الأذهان. ولكنّها أثارت الفضيحة والاستهجان في الضيعة. فلا بأس من الدفاع عن هذه الفكرة في جلسة سمر؛ أمّا التوصل إلى استخلاص تلك النتائج المتطرفة، فهذا غير معقول، وغريب، بل يكاد يكون فظيعاً. وظنّ الجميع أنّها نزوة عابرة من نزوات "المعلّم بطرس" الذي لم يشأ أبداً التشبّه بأحدهم، وكان يمضي حاسر الرأس في حين يغطّي كلّ الرجال المحترمين رؤوسهم، ويرتدي بزّة ثلاثية ومشلحاً طويلاً فيما إخوته ما زالوا يرتدون الزي القروي. كان الجميع يعرفون أنّه غريب الأطوار، وبما أنّهم يجمعون على ذكائه الفريد، يعتبرون أنّ هذا الذكاء يعوّض عن غرابة الأطوار، ويتندرون قليلاً حول المسألة، ثمّ يعلنون باستسلام: هذا هو بطرس، وهذه طباعه.

أمّا هذه المرّة، فلم تكن مجرد نزوة عادية، وسعى عدد من أفراد أسرته لردعه عن قراره، بدءاً بأخيه تيودوروس الذي رأى في

هذا القرار إهانة شخصية. ولكن عبثاً، فجدّي لن يعمِّد أولاده. وحتّى مماته، لن يعدل عن رأيه، مهما كلّف الأمر. وأصلاً، لن يعطي أولاده، ضماناً لحرية خيارهم لاحقاً، أسماء ملائكة أو قديسين، كما حصل مع إخوته، ومعه شخصياً، ومع معظم القرويين في ذلك العصر؛ فأولاده سوف يحملون أسماءً توحي بصفات إنسانية، أو بتطلعات سامية - "فخر"، "ضمير"، "رجاء"، "انتصار"، أو "كمال". ولن تلصق بهم أية هوية دينية، أكانت مسيحية، مسلمة، أم يهودية، إطلاقاً منذ لحظة ولادتهم.

كان في موقفه خبز مبارك، إذا جاز لي القول، لخصومه، وأولهم الأب مالاتيوس، فما الحاجة للمحاججة، والإدانة، وتحذير المؤمنين، والكافر فضح نفسه بنفسه؟ فكان جدّي يردّ على هذا الكلام: "إنّني مؤمن كذلك بحرية الاختيار، وأرفض الفتن الطائفية". فيجيب مالاتيوس: "هذا كذب وبهتان، فهذا الرجل لا يؤمن لا بالله ولا بمخلّصنا، وإنّما يقول ذلك لتضليلكم!" فينبري بطرس قائلاً: "أوتظنون فعلاً أنّني رجل مخاتل، يؤمن بشيء ويقول العكس؟ لو شئت التمويه، ألا تعتقدون أنّه كان بإمكاني بسهولة تفادي كلّ هذه المتاعب التي يسببونها لي؟ إفهموها مرّة وإلى الأبد: إنّني أقول ما أفكّر به، وأفعل ما أفكّر به! ولو تصرّف الجميع على هذا النّحو، لما بلغنا هذا الدرك من الانحطاط!".

على الرغم من الاتهامات التي استهدفت بطرس، نجح بفضل إخلاصه لعمله، وفعّالية أساليبه التعليمية، في كسب احترام الكثير من القرويين الذين عهدوا إليه بالرغم من كلّ شيء بأولادهم،

فتياناً وفتيات، ليعدّهم من أجل مواجهة الأزمنة الحديثة بصورة فضلى، بدون أن يحذوا حذوه أبداً في مسألة العمادة. ولكنّ اللغط لن يهدأ أبداً.

كانت مدرسة مالاتيوس ومدرسة جدّي تبعدان أقل من مائتي متر الواحدة عن الأخرى، على خطّ مستقيم. الأولى، الكائنة في أعلى القرية، رقّمت حديثاً؛ وهي اليوم بناء جميل ضخم من الحجر الترابي، يعلو سطحه هرم من القرميد الأحمر؛ وتملكها الأبرشية الكاثوليكية حتى الساعة. أمّا الثانية، "مدرستنا"، فهي أصغر حجماً، وقد صارت خربةً، إنّما منذ فترة حديثة العهد. ففي أوائل الستينات، كنت أقصدها أحياناً في الصيف برفقة جدّتي؛ فتفتح باب الطابق العلوي بمفتاح كبير تخرجه من جزدانها الواسع؛ فتلملم غرضين أو ثلاثة أغراض مهملة؛ قبل الانصراف وهي تتنهّد مطولاً، والله أعلم إن كانت هذه التنهيدة تنهيدة حنين أم ارتياح.

أما الطابق السّفلي الذي ما زال يدعى في الأسرة "المدرسة"، فقد تخلّعت أبوابه منذ عهد بعيد واكتظت أرضية صالتي العقد بطاولات متصدّعة، ومقاعد مقطّعة الأوصال، والأسرّة الحقيرة، وبراز الماعز، فقد استخدم المكان ملاذاً للرعيان في فصول شتاء متعاقبة.

لم ينس عجائز القرية أبداً حرب المدرستين، فقد انقسمت حولها العائلات، بل يوجد بين إخوة بطرس أخ بادر إلى تأييد "الخصم"، مالاتيوس.

أسرّ لي أحد أعمامي، بصوت منخفض، وكأنّ السنوات الثمانين المنصرمة لم تخفف من خطورة المسألة: ـ كان عمي سمعان ضدّنا.

ـ والأب تيودوروس، هل كان "معنا"؟.

ـ لا مع، ولا ضدّ. كان أكثرنا انزعاجاً، لا يغمض له جفن بسبب هذه المسألة. كنّا صليبه...

في الواقع، لابدّ أنه تعذّب عذاباً مريراً بسبب كلّ ما يجري. كان تمرداً حقيقياً ضد الكنيسة، وأخوه على رأس المتمردين! فكيف يمكن لرجل الدين أن يرى في هذه الأحداث غير مصيبة أرسلتها السماء لتجربته؟ فمن جهة، بطرس، المدعوم - باستثناء مسألة العمادة - من الأغلبية الساحقة لإخوته وأخواته، وأقارب كثيرين، ومن جهة أخرى، الإكليروس، الذي كان تيودوروس من وجوهه الصاعدة. كان الناس يتهامسون أنه سوف يُرسَّم مطراناً عمّا قريب، فهو يتمتّع بكلّ الصفات - سعة العلم، والوقار، والبلاغة، والورع الواضح، وحسّ السلطة، ولكن كيف يُرسّم كاهن ينتمي إلى مثل هذه الأسرة، وفي مثل هذا المناخ؟ فأولاً، حرب المدرستين تلك؛ ثم، والأسوأ من ذلك، اللغط حول تعميد الأولاد؛ هذا بغض النظر عن زيجات ثلاثة من إخوته وأخواته بأبناء وبنات الواعظ البروتستانتي. لقد طفح الكيل! وبلغ السيل الزبى!

كانت ردة فعل تيودوروس الأولى عنيفة. فلمّا أعلم بقرار أخيه عدم تعميد ابنه البكر، غادر ديره في الحال وعاد إلى الضيعة، وفي ذهنه هاجس واحد، وإذ استغلّ غياب بطرس ونظيرة في صباح أحد الأيام، تاركين الرضيع في رعاية سوسان، جدته، قصد الكاهن بيتهما مع مرافقين "متواطئين"؛ وهناك، ارتدى البطرشيل، وأخرج من جيوبه مسبحته الكبيرة وقارورة الزيت؛ ثم أعلن أن ابن أخيه يبدو له هزيلاً ولا بدّ من تعميده فوراً خوفاً من وفاته زنديقاً واحتجازه في المطهر إلى أبد الآبدين!

نزع عن الطفل قماطه، واستعدّ لتغطيسه في الماء الفاتر، وإذ ببطرس الذي أخطره بعض الجيران البروتستانت، يقتحم البيت ويستشيط غضباً كما هو معروف عنه. فلم يرد عليه تيودوروس، وهزّ كتفيه، ثم خرج بكرامة من البيت، وانزوى في ديره على المقلب الآخر من الجبل!

يبدو أن الأخوين سرعان ما تصالحا، ووعد الكاهن بعدم التصرف بعد اليوم على هذا النحو، ولو خاطر بالحياة الخالدة لأبناء أخيه وبناته؛ وغفر له بطرس - هذه المرة فقط! - متذمّراً.

38

لئن تخلى تيودوروس عن تلك الأساليب العنيفة، فهو لم يتقبل استمرار وضع بنظره لا يطاق، وسوف يحاول مراراً وتكراراً إقناع بطرس بوضع حدّ لتمرده، بدون إحداث قطيعة مع أخيه الكافر أبداً، أو التنكر له علناً. ألم يكن بطرس يردد في أغلب الأحيان أنه يمقت التعليم؟ ألا يريد أن ترحل أسرته عن هذه الضيعة المسدودة الأفق؟ ولماذا يصمّم على المضي في هذا المشروع المضني، وبوسعه أن يحصل على منصب أفضل في مكان آخر، وعلى راتب أفضل؟ كلما تعثرت أحوال المدرسة العمومية، سوف يسعى تيودوروس لإقناع أخيه بوضع حدّ لهذه التجربة والانخراط في مشروع آخر.

تشهد على ذلك هذه الرسالة التي كتبها رجل الدين في 14 تشرين الثاني/نوفمبر 1915، بعيد بدء العام الدراسي الثالث؛ ويتحدث فيها عن "الصدفة" ولكن الرسالة لا تخلو من مناورة بارعة.

إلى أخي العزيز بطرس لا عدمته،
بعد السلام الأخوي والدعاء، جمعنا نادي سعادة الأمير مالك شهاب مع صاحب العزة يوسف بك بردويل صدفة كأنها بميعاد، ودار الحديث على به الكفاية لأن يكون مستنطقاً في محكمة قضاء زحلة البهية لأن القائمقام ثبت، والرئيس رجع لمركزه، فأول من ذكر سعادة الأمير هو اسمكم، وهنا انفتح لأن أعرّف سعادته من أنت وما هي استعداداتك لخدمة الحكومة، ومن هم زملاؤك في درس الحقوق مثل رئيس محكمة المتن الحالي إلى آخره...

* * *

أفتح قوساً: للمرة الأولى، يتأكد لي أن بطرس قد تابع بالفعل دراسة الحقوق برصانة، الأمر الذي يخفف من سخافة الأسطورة العائلية ومفادها أنه سافر للدفاع عن جبرايل أمام المحاكم الكوبية. ولئن ساعدني هذا العنصر الجديد على فهم نشأة الأسطورة المذكورة، فهو لا يؤكد الوقائع بالضرورة؛ ولحين إثبات العكس، سوف أظل أعتقد أن جدي سافر إلى كوبا للعمل مع أخيه في التجارة، لا ليحامي عنه أمام القضاء...
أغلق القوس وأستعيد رسالة تيودوروس.

فعرفك الأمير حق معرفة، وأكدت له بأن الإختبار يحقق كلامي، وكنت أستشهد يوسف بك بردويل على ما أقدمه، فيشهد بالحق، فاعترف سعادة الأمير بأهليتك لأكثر من مستنطق

وبأن قانون الحقوق لايسوغ بأن يرقى لوظيفة رئيس من لا يكون استخدم أولاً عضواً أو مستنطقاً، والمستنطق هو مستقل، وله حق الحكم وصدّه، وقد وعد سعادة الأمير بأن هذه الوظيفة، إذا قبلتها، تخدم فيها وقتاً، ويصير النظر في ترقيتك لما أعلى....

* * *

أفتح قوساً آخر لتبديد سوء تفاهم: فالأمير المذكور ليس أميراً حاكماً - ففي تلك الفترة، لم يعد لهؤلاء الأمراء وجود - بل موظفاً عثمانياً رفيعاً متحدراً من أسرة أمراء في لبنان، ومازال يحمل هذا اللقب التفخيمي. أما الشخص الآخر، فهو كذلك موظف عثماني، وينتمي إلى أسرة مسيحية يعود أصلها على الأرجح إلى الحروب الصليبية، لأن بردويل هي الترجمة العربية المحرّفة لبالدوينوس Balduinus أو بودوان Baudouin.

فإذا كان لكم إرادة بأحد المركزين فيلزم حضوركم بأول فرصة لنادي سعادة الأمير لأنه لم يؤخره عن تعيينكم إلا خوفه من عدم قبولكم...

اهدوا سلامي للجميع، والرب يحفظكم...

من الواضح أن الكاهن كان يخشى رفض بطرس الجموح. فراح يراعي حساسيته المفرطة؛ ويروي المشهد وكأن أخاه ليس مرشحاً لهذا المنصب؛ وفي حال لم ترق له الوظيفة المقترحة، يسارع ويغريه بترقية سريعة.

كانت اللحظة ملائمة بالفعل. فسنة 1915 كانت أسوأ السنوات في تاريخ جبل لبنان. فقد شهدت أولاً الحرب العالمية الأولى التي شارك فيها الباب العالي، منذ تشرين الثاني/نوفمبر 1914، إلى جانب الامبراطوريتين الألمانية والنمساوية الهنغارية-

وهي مغامرة كان أنور وجمعيته "تركيا الفتاة" يتوقعان منها نهضة عجائبية للإمبراطورية العثمانية، ولكنها سوف تؤدي أخيراً، كما نعلم، إلى انهيارها.

في بداية الحرب، كانت ساحة المعارك بعيدة، لم يتأثر بها جبل لبنان مباشرة. ولئن راحت بعض السلع المستوردة من فرنسا أو إنكلترة تشحّ، وعجز المغتربون عن إرسال الأموال إلى عائلاتهم، فقد ظل الجميع يتدبرون أمورهم: فاستبدلوا مادة بمادة أخرى، وحرموا أنفسهم من كل ما هو غير ضروري، وتكافل الأخوة والأقارب والجيران وسلّموا أمرهم لمشيئة الله داعين ألا تدوم المحنة طويلاً. كان القلائل فقط يدركون أن عالماً يحتضر، وأن كل إنسان، كبيراً أو صغيراً، سوف يحظى بنصيب في المعاناة المشتركة.

تجلّى حكم العناية الإلَهية للأهالي، إذا جاز لي التعبير، على شكل مصيبة توراتية: الجراد! ففي نيسان/أفريل 1915، ادلهمت السماء فجأة بأسراب من الجراد المهاجر، قبل انقضاضها على الحقول، لتلتهم "الأخضر واليابس"، حسب التعبير الشعبي.

في الأوقات العادية، كان ليحصل قحطٌ؛ أما في أوقات الحرب، ومع كل أشكال الحرمان التي يعاني منها الناس أصلاً، انتشرت المجاعة الكبرى، الأسوأ في ذاكرة اللبنانيين. ويقدر عدد الموتى بمائة ألف، حوالى واحد من أصل ستة مواطنين؛ وأقفرت بعض القرى تقريباً من سكانها. لا ريب أن ثمة مجاعات أخرى حصلت في الماضي. ولكن لا مجاعة طبعت في الأذهان إلى الأبد مثل تلك المجاعة. وحتى اليوم، نسمع أحياناً بأن المجاعة الكبرى في عام 1915 تسببت بموجة الهجرة. وبالطبع، ليس هذا

الكلام صحيحاً، فالهجرة قد بدأت أصلاً ـ نحو مصر، و"الديار الأميركية" البعيدة، كما نحو أستراليا - ومنذ عشرات السنين. ولكنها سوف تتعاظم، وتجد في أهوال المجاعة تبريراً لمن هاجروا، للتخلص من الشعور بالذنب والندم.

وفي هذه المحنة، استطاع بطرس أن يتميز عن الآخرين. فقد جرت العادة، في أوائل الخريف، أن يبذر الأهالي الحقول للحصاد المقبل؛ والذين يملكون من البذار ما يفيض عن حاجتهم يعطونه للذين لا يملكون - وتعجّ الرسائل العائلية بحسابات من هذا القبيل، كذا كمية من علب البذار أعطيت لفلان، وكذا كمية أخرى لعلان... ولكن، مع حلول خريف 1914، وإذ علم جدي العتيد باندلاع الحرب، قرّر أنه لن يبذر أرضه هذا العام.

"إنه مجنون!".

لم تكن المرة الأولى التي يتهم فيها بطرس بالجنون. فقد كان يملك نزعة لا تملّ - ولكنها بدون شك ترهق أهله!- لعدم الانصياع أبداً للمنطق السليم، والحكمة الشائعة. وهذه المرة أيضاً، تقدّم بحجج مفحمة: فلو شحّ الطعام، سوف تسمح حصة الحبوب المدخرة بتأمين القوت لبضعة أشهر إضافية.

وماذا يفعل السنة القادمة؟ فإذا لم يبذر، لن يحصد شيئاً، ومع الجدب الذي تسببت به الحرب، لن يملك أحدهم فائضاً يبيعه إياه... أو سوف يبيعه إياه بثمن باهظ.

المجنون! يا لعناده الذي يجعله: خالف تعرف!

كان القمح ينمو في الحقول، والسنابل تسمن وتتثاقل، والجميع يشفقون على بطرس أو يسخرون منه، لأن حقوله ظلّت مستريحة...

وعلى حين غرّة، هجم الجراد!

اكفهرت السماء ظهراً كما يفعل كسوف الشمس، ثم انتشرت تلك الحشرات الصغيرة القارضة بالآلاف في الحقول، وراحت تلتهم الزرع، وتحصد على هواها، وتقضي على كل شيء، وتعرّي كل ما يعترض سبيلها...

في هذه الأثناء، كان الأهالي قد استهلكوا مخزونهم؛ وأكثر ما يستطيعون القيام به إدامته حتى شهر تشرين الثاني/نوڤمبر، لو اقتصدوا في استهلاكه. وكان بطرس وحده يملك ما يطعم به أسرته حتى نهاية فصل الشتاء! لا ريب أنه وضع يحسد عليه، ودليل على ضرورة الإصغاء إلى كلامه أكثر مما سبق؛ إنما أليست لعنة أن يصبح "محسوداً" في مثل تلك الأوقات؟ فمن الصعب على المرء العيش في ضيعة يموت فيها الناس جوعاً، حين يملك كفاف يومه! ولو كان بطرس يملك أهراءات من الحبوب، لاعتبر أن شرفه يحتم عليه إطعام كل الذين يقصدونه لسد جوعهم. ولكنه احتفظ فقط بحصة الحصاد التي كان لا بدّ أن تخصص للبذار، ممّا سمح له بتأمين القوت لزوجته، وابنه البكر، وابنه الثاني - والدي الذي ولد في تشرين الأول/أوكتوبر 1914 - وأمه العجوز سوسان، وأخيراً أخيه الأصغر وزوجته وأولادهما الثلاثة - ومن بينهم ذلك الذي أدعوه الخطيب في هذا الكتاب... كان مسؤولاً عن تأمين القوت لعدد كبير من الأفراد، ولا يستطيع إطعام المزيد! فماذا عساه يفعل لو جاء قريب، أو قريبة، أو تلميذ، أو أب تلميذ يطالبه بالخبز الذي سوف ينقذهم من الموت جوعاً؟ هل يصدُّهم؟

في المدرسة العمومية، بدأ العام الدراسي في تشرين الأول/

أوكتوبر 1915 وسط أجواء تنذر بنهاية العالم. فكيف يركز التلاميذ على دروسهم وهم يتضورون جوعاً، ويتوقعون قضاء الشتاء بأكمله بدون طعام؟ وليس من الوارد، بالطبع، مطالبة الأهل بتسديد الأقساط المدرسية! في ظل هذه الظروف، يتفهم المرء أن يكون تيودوروس قد رأى الوقت مناسباً للسعي من أجل إخراج بطرس وعائلته من الضيعة، وإقناعه بإغلاق المدرسة - بسبب الظروف القاهرة! - وتأمين وظيفة مرموقة ومربحة لأخيه.

ما كان من شأنه أن يجعل العرض مقبولاً توقف المدرسة المنافسة، مدرسة الخوري مالاتيوس عن العمل قبيل ذلك، بانتظار تحسن الأوضاع، فهكذا، لن يدعي أحدهم أن بطرس انسحب مهزوماً من هذه المنافسة...

لم يحتفظ جدي، في ملفاته، بنسخة عن رسالته إلى تيودوروس - أو لعل هذه الرسالة قد ضاعت. لا بدّ أنه رفض عرض أخيه لأنه لم يغلق أبداً أبواب مدرسته، ولم يصبح مستنطقاً. ولا أعرف الحجج التي تذرع بها. أظن أنه أعرب عن تحفظه حول التخلي عن مشروعه بين عشية وضحاها، والعام الدراسي قد بدأ للتو. فمثل هذا السلوك كان ليتراءى له خسيساً. فهل يعقل أن "يحمل" زوجته وولديه، مع أكياس المؤونة، ليبقى بمأمن من العوز، ويترك أبناء ضيعته يموتون جوعاً؟ أيتخلى عن تلاميذه وأهلهم؟ لو كان رجلاً مستعداً للهروب على هذا النحو، لرحل عن البلاد منذ عهد بعيد. ألم يبرّر تردده في الهجرة على الدوام بتقديره المشكك والمدقق لما يبدو له سلوكاً مسؤولاً ومشرِّفاً؟

39

إذا كان الردُّ المباشر لبطرس إلى أخيه غير موجود في وثائق العائلة، فثمّة ردّ آخر، غير مباشر، ظلّ أثر له فيها، وهو مكتوب بعد ثلاثة أيام على تلقيه عرض تيودوروس. وهذه الرسالة ليست موجهة إلى هذا الأخير بل إلى السلطات العثمانية لطلب إدراج المدرسة العمومية في قائمة المؤسسات التي تستفيد من المساعدة الحكومية.

وهذه العريضة المكتوبة بالأسلوب التفخيمي الذي كان شائعاً في ذلك العصر، تقدّم أولاً موقعها، "العثماني اللبناني من سكان قرية المَشرَع في قضاء المتن قد أمضى نحو عشرين عاماً في خدمة معاهدنا العلمية السورية"، ومن بين هذه المؤسسات التربوية، يحرص على ذكر " الكلية العثمانية" في المقام الأوّل- ولم أعثر في وثائق العائلة على أيّ إشارة إلى هذه المدرسة، ولكن أظن أن جدِّي علَّم فيها، ورأى أنه من المفيد ذكرها في مثل هذا الطلب. ثمّ يعدد المواد التي قام بتدريسها، ومن ضمنها الرياضيات، والمنطق، والفلك، والأدب العربي، ومختلف العلوم الطبيعية، بالإضافة إلى "طرف من اللغات الأجنبية" _ بصورة أكثر إبهاماً _ ففي أوقات الحرب والسرية والعداء للأجانب، كان من الأفضل عدم التشديد كثيراً على هذا الجانب من الأمور.

ثم بعد ذلك، انتدبت من كثير من وجوه القرى المجاورة لدار مولدي إلى إنشاء مدرسة وطنية تكفل تربية الناشئة على ما يقتضي عصر الرشاد الزاهر من العلم الصحيح، وإحياء روح

الإخاء والمساواة بين العناصر والطوائف المختلفة، ونبذ كل ما يغاير مصلحة الوطن المفدى ونحو ذلك.
فتلبية للطلب بل لرغائب القلب، اتكلت على الحق عز وجل وأنشأت منذ ثلاث سنين مدرسة بالصفة المذكورة في قرية المَشرَع التي هي مسقط رأسي، والتي وجدتها أكثر مناسبة للعمل لكونها واقعة وسط سبع قرى لا تبعد الواحدة عنها أكثر من ميل ونصف،... وهذي القرى فيها من السكان نحو ستة آلاف نسمة، وكل طالب من أي قرية كانت منها يقدر أن يأتي المدرسة صباحاً ويعود في المساء بكل راحة وكل ملائمة صحية صيفاً وشتاءً، ثم إن الذين فحصوا أعمال مدرستنا في السنتين الماضيتين تأكدوا كما شهد العموم نجاح المسعى وتمام الإخلاص للوطنية العثمانية وكمال التمسك بالمبادىء العمرانية، ويؤيد ذلك الإقبال الذي صادفته المدرسة هذه السنة، ولكن كثرة عدد الفقراء من الأهالي وابتلاؤهم بضربة الجراد المشهورة جعلهم عاجزين عن تأدية النفقات المدرسية، ولذلك كنت أعاني المضض لأواظب على العمل مع تأخر الأهالي عن القيام بما يطلب منهم من الراتب، ولما وصلت إلى درجة خشيت منها أن أتوقف عن العمل للسبب المرقوم...

كان الشخص الذي تتوجه إليه هذه الرسالة موظفاً رفيعاً قد عينته للتو السلطات العثمانية الحكومية في جبل لبنان، ووعد، بعد تسلّم مهامه، بالحصول على أموال من اسطنبول لتطوير التعليم، الأمر الذي يبرر محاولة بطرس الذي لم ير فائدة حتى الحين في إخطار السلطات بإنشاء مدرسته، القيام بمسعى في هذا الاتجاه. وقد ضمّن مسعاه الأساليب المرعية:

... وردت البشائر الطيبة بمساعي دولتكم الجليلة في استمطار

المراحم السلطانية وتأسيس المعاهد العلمية في وطننا لبنان، وإذ كنت على ثقة أن عدل ومكارم أخلاقكم الشريفة لا ترضى أن تبقى قرانا الثماني المذكورة محرومة وحدها من النعم السلطانية، ومن أسباب الرقي الشاملة كل بقعة من الممالك المحروسة الواسعة، أتيت بعريضتي هذه أسترحم صدور الأمر الكريم بأن تعتبر مدرستنا هذه في جملة المدارس التي تنوون تأسيسها، وتجعلوا لها نصيباً من التخصيصات الملوكاتية أسوة لهذي القرى بسائر قرى لبنان، ووقاية لمشروعنا الذي ظهرت باكورة أثماره من السقوط...

كان الطلب ملائماً: فبما أن الحاكم الجديد وعد بإنشاء مدارس، فسوف يتمكن من التباهي بإنشاء مدرسة، وفي أبعد منطقة من الجرد العالي - والنفوس الدنيئة وحدها قد تلفت انتباهه إلى وجود هذه المدرسة أصلاً. وفي الواقع، سوف يتلقى جدي فرماناً كبيراً مزخرفاً يعلن رسمياً أن المدعو بطرس م.م.، من الرعايا العثمانيين، المقيم في قرية المَشرَع في جبل لبنان، حصل على إذن إنشاء مؤسسة تعليمية للذكور والإناث تحت اسم المدرسة العالمية. ويحمل الفرمان تاريخ شباط/فيڤري 1917، أي خمسة عشر شهراً بعد إرسال الرسالة إلى الحاكم، وأربعين شهراً بعد إنشاء المدرسة، ويعد الفرمان بمساعدة مالية لن تصل بالطبع أبداً.

كان جدي يعرف الإدارة العثمانية حق المعرفة ليجازف بمصير مدرسته في مثل هذا المسعى. فكتب رسالة على سبيل الجرأة، وكذلك من باب الأصول - فبوصفه مواطناً، كان يعتبر أن من واجبه التوجه إلى سلطات بلاده، أياً كانت. وبموازاة ذلك، طرق باباً آخر، أكثر مدعاة للتفاؤل هو باب الإرسالية المشيخية الأميركية. وهو باب أراد حتى الحين تفاديه لأنه تمنى المحافظة

على استقلاليته إزاء الطوائف الدينية المختلفة، وأيضاً لأنه احتفظ بذكريات سيئة عن دراسته لدى المرسلين الأميركيين. ولكن ظروف المحنة كانت تحتم البقاء على قيد الحياة، بأي ثمن، وكان بطرس على استعداد للتعلق بامتنان بكل الأيادي الخيرة التي سوف تمتد لإنقاذه.

وتشير وثيقة في المحفوظات العائلية بصورة بليغة إلى تلك المساعدة، وإلى تأثير ظروف الحرب على أسرتي. والوثيقة عبارة عن مذكرة مؤرّخة في 29 آب/أوت 1917، ومنسوخة آليّاً بحبر بنفسجي؛ واسم "جناب الفاضل المعلم بطرس م.م. المحترم" وحده مكتوب بخط اليد:

جناب الأفاضل الإخوة القساوسة والمبشرين والمعلمين المحترمين

غب السلام الأخوي، نبدي بأننا لم نزل نفتكر في حالتكم وصعوبة المعيشة في الأزمة الحاضرة، فبعد المخابرة، تقرر ما يأتي: إننا لا نزال ندفع المعاشات الأصلية ربعها حجراً وثلاثة أرباع ورقاً، وابتداءً من 1 تشرين الأول/أوكتوبر، بدلاً من زيادة المعاشات وإعانة أخرى خصوصية، نقدم لكل مستخدم غير متزوج ولأفراد عائلة كل مستخدم متزوج مونة قمح، أي ستة أرطال لكل فرد كل شهر إلا الأولاد من عمر ست سنوات فما دون، فلهم ثلاثة أرطال. ولكن إذا كان أحد يريد لأسباب خصوصية أن يأخذ المعاش الأصلي والمعاش الثاني الزائد مثلما هو في الوقت الحاضر بدلاً من المعاش الأصلي والقمح، فله الإختيار، ونرجو إفادة كل منكم بهذا الخصوص حالاً.

إن غاية تدبير هذه المونة هي حفظ المستخدمين من الجوع

الشديد والموت، فعليه، نحفظ حتى الحكم في من لا يحتاج لهذه الدرجة إلى القمح، فنبقي له المعاش الأصلي والثاني مثلما هو الآن.
نفيد بأن هذه المساعدة ترفع عنكم الإهتمام الزائد في مجرد تحصيل الخبز اليومي لكي تقدروا أن تهتموا اهتماماً جديداً في خدمتكم التبشيرية والتعليمية، وتستغنموا الفرص الروحية رغماً عن الظروف الحاضرة. وعليه، نستلفت أنظاركم المدققة إلى كلام بولس الرسول في رسالته الثانية إلى الكورنثيين، الإصحاح السادس، الآيات 1-10؛ وكذلك في رسالته الأولى إلى الكورنثيين، الإصحاح الرابع، الآيتين 1و2، لتتأملوا فيه حق التأمل، والرب العامل فينا جميعنا العاملين معه يرشدكم ويقويكم بروحه القدوس ويبارك خدمتكم.
هذا مع جزيل السلام منا لجميعكم ودمتم لإخوتكم في الرب.
جورج شيرر، وليم فرايدينكر، وبولس آرضن

وحتى لو كانت المناشدات الأخيرة في هذه المذكرة تتوجه بالضرورة إلى القساوسة والمبشرين أكثر منها إلى معلم علماني مثل بطرس، فلم يكن بإمكان هذا الأخير إلا أن يشعر بالامتنان لهؤلاء المبشرين. فلئن سمح له احترازه من عدم معاناة الجوع في شتاء 1915-1916، فما كانت أحواله لتكون أفضل من أحوال سائر الأهالي لو لم يتلقّ، عام 1917 ثمّ عام 1918، القمح والمال من المحسنين المشيخيين.

تباهت نظيرة أمامي، بعد ستين عاماً، بأنّها أفادت من هذه المعونة أكبر عدد من الأشخاص حولها: التلاميذ الذين كانوا يحصلون كل صباح على وجبة لائقة لدى وصولهم إلى المدرسة؛ والجيران، بل الأشخاص البعيدون: "في يوم من الأيّام، جاءت

امرأة عجوز تحمل مكواةً، وترجوني أن أعطيها خبزاً بالمقابل؛ فأعطيتها الخبز ولم آخذ المكواة بالطبع؛ ولكنني علمت بعد أيام أنّها ماتت جوعاً على الرغم من ذلك".

لم يعد أحد يهتم بهؤلاء المساكين سوى المبشر، جدّي الأكبر، فهو الذي كان يحصي عدد المحتاجين منذ وقت طويل أصلاً، كرّس نفسه بملء جوارحه لهذه المهمة خلال سنوات الحرب.

تحمل وثيقة تعود لعام 1917 توقيعه، "خليل، ابن الخوري جرجس"، كتب على طول عرض ورقة مزدوجة قد انتزعت حتماً من دفتر مدرسي العنوان التالي:

لائحة بعدد الفقراء المحتاجين إلى القوت الضروري في قرية المَشرَع وجوارها

ويلي العنوان ستة أعمدة متفاوتة العرض، منفصلة الواحد عن الآخر بخطوط عمودية، تذكر اسم ربّ الأسرة المحتاجة، وسنّه، ومكان إقامته، وطائفته، وعدد الأفراد الذين يعيلهم، بالإضافة إلى "ملاحظات"، على النحو التّالي:

كبير العائلة: أرملة هيكل الغندور
العمر: 65
عدد النسمات الذين تعيلهم: ٦
القرية: المَشرَع
الطائفة: إنجيلية
ملاحظة: باعت أمتعة بيتها ولم يبق في يدها شيء يباع.

أو:

أرملة جرجس منصور، 38 عاماً، تعيل خمسة أشخاص،

المَشرَع، كاثوليكية؛ "زوجها وبعض أولاده ماتوا جوعاً."
عيد الخوري، 11 عاماً، يعيل ثلاثة أشخاص؛ "لا يملك شيئاً".
أرملة حبيب أبو عقل، 44 عاماً، تعيل خمسة أشخاص؛ "عندهم أملاك لا يقدروا على بيعها درجة ثانية".

ويتهكّم خليل، بغضب: "فقط تسعة وأربعون وهم فضلة عزرايل من فقراء هذه الجهة. هذه هي اللائحة المطلوبة من جنابكم عسى أن الباري يأخذ بيدكم، وتقدرون أن تسعوا لهم بشيء من المساعدة، وإذا صار لهم نصيب بشيء من الإحسان، فأرجو أن يصير تسليمهم لصهرنا بطرس أفندي معلم المدرسة هنا ليوزعهم لأني لم أعد قادراً على ذلك. نكرر الرجاء بالالتفات العاجل، والله يكافئكم عن البائسين". لئن أصبح جدّي الأكبر عاجزاً عن الاهتمام شخصياً بتوزيع المساعدات على الفقراء، فلأنّه بلغ الثمانين من العمر. فقد ولد عام 1837- واعتلّت صحته. وأصلاً، يبدو خطّه مرتعشاً. ولكنّه ظلّ متحمّساً، مؤمناً، ومتبصراً، وحريصاً على عدم إظهار أيّ تعصب طائفي، لأنّ ذلك التّعصّب كان ليعتبر خسةً بل وإجراماً أمام هذه المعاناة. وفي القائمة التي ذكرتها للتوّ، يقوم بتوزيع عادل للمحتاجين من كلّ طائفة: ثلاث عائلات "إنجيلية"، أي بروتستانتية، ثلاث عائلات مارونية، وثلاث أورثوذكسية، وأربع كاثوليكية ملكية_ فما كان المبشر ليظهر المزيد من الإنصاف، بل حتّى "الخصوم"، أي الذين دعموا الأب مالاتيوس، استفادوا أحياناً من المعونة التي كان خليل يتمكّن من الحصول عليها من المرسلين المشيخيين، ويتولّى بطرس ونظيرة توزيعها.

يبدو أن جدي وجدتي كانا يرغبان، في تلك الفترة، وضع

حدّ نهائي لخلافهما مع المدرسة الكاثوليكية. وبفضل مساعي تيودوروس، بدأ بطرس مسعى للصلح مع الإكليروس. فزار في تلك السنة، 1917، ديراً كاثوليكياً، وحضر برزانة قدّاساً مهيباً، ثمّ، في ساعة الغداء، ألقى أمام حشد من الكهنة خطاباً حول التعايش المتناغم للأضداد.

ولدى عودته إلى الضيعة، دوّن بقلم الرّصاص على قصاصة من الورق:

متى يرجع المرء عن غيِّه متى يستفيق متى يهتدي
أتأوي إلى الجفن يا أبيض وفي العين شيء من الأسود

في جملة توطئة، يؤكّد جدّي أنّه استلهم، لنظم هذه الأبيات، ويلات الحرب الكبرى. لا شكّ في ذلك، ولعلّ هذه المشاعر قد ألهمتها أيضاً حربه الصغيرة مع المدرسة المجاورة.

ثم وضعت الحرب الأخرى ـ الحقيقية ـ أوزارها أخيراً، فارتاح بطرس لبعض الوقت. لبعض الوقت فقط لأنّه سوف يواجه، في الأشهر الأولى بعد الحرب، مخاطر أخرى، وإهانات أخرى، وأحزاناً ظالمة أخرى، بحيث سوف يشوب ذكرى سنوات المجاعة عنده حنين إلى عصر بطولي كان البشر يجابهون فيه ببسالة معاً النوائب بدلاً من الخضوع لشريعة سماء معادية، على غرار ثور يساق إلى المذبح وسط العار ويأسف على الحلبة لأنه كان يستطيع أن يكون فيها على الأقلّ مهاجماً.

40

مقتطفات من رسالة مخطوطة على صفحات كبيرة الحجم، تحمل توقيع بطرس، ومؤرّخة في 4 كانون الأوّل/ديسمبر 1918.

عزيزتي أليس وعزيزي جبرايل
كتبت في الشهر الماضي أبشركم بانقضاء أيام الحرب الهائلة وزوال ما كان يتهددنا فيها من أسباب الموت التي أودت بمئات الألوف، وروّعت أقوى القلوب، ولم يفقد من بيوتنا (بيت أبي شكري وبيت أبي يوسف وفروعهما) بحول الله نسمة.

(وتشير هذه التسمية إلى ذريّة طنّوس وذرّية خليل. والحديث يدور حول هذا الأخير في الفقرات التالية- على الرّغم من عدم ذكر اسمه صراحة).

وقلت وقتئذٍ لم يبق ما نتوق إليه إلا الإطمئنان عنكم، ثم وردت أنباؤكم الطيبة بكمال الإطمئنان، فحمدنا المولى الكريم على ما أتمّ من نعمه وأجزل من كرمه، وقرأ تلك الأنباء سيدي والدكم فرحاً متهللاً، وعلم أنكم متشوقون للوقوف على أحواله، فكتب إليكم بخط يده مطولاً، وذلك نهار السبت في 30 تشرين الثاني|نوفمبر المنصرم، ثم أرسل الكتابة، وأخذ يحدث بنعمة الله كل من رآه، ونهار الأحد التالي، كان عندنا كأكبر الأعياد، أقام حضرته الصلاة بفرح ونشاط، وذكر في عظته سمعان الشيخ حين قال: الآن أطلق عبدك بسلام الخ.، وبمناسبة ذلك، قال عن نفسه وأنا كنت أسأل الله أن يبقيني في الحياة لأرى ما يكون من نتيجة الحرب بعد أن جرت ما جرت من الفواجع والنكبات، وأسمع عن أولادي ومن يلوذ

بهم أخبار السلامة، وها قد حصلت على منى القلب والحمد لله فالآن أقول مع ذلك الشيخ: الآن أطلق عبدك أيها السيد بسلام. قال ذلك وهو دامع العين، فأبكى كل من حضر. أتم الصلاة، وأتم ذلك النهار مبتهجاً، ونهار الاثنين، زارنا في البيت والمدرسة، وكان يمازح ويضاحك الجميع، وخصوصاً حفيديه الصغيرين. ثم طلب من نظيرة أن تخرج له شعرة من عينه اليمنى كانت تزعجه، ففعلت، ثم قال: أرى أن نظري قد شحَّ كثيراً، فأنا اليوم لا أبصر شيئاً بعيني اليسرى، وقوتي منحطة، أظن أن ساعتي قد اقتربت، وبكى فأبكانا، فشجعناه ما أمكن، وهمّ بالانصراف، فطلبنا إليه أن يبقى ذلك النهار عندنا، فاعتذر بحجة أنه يريد أن يزور الحقلة ويناظر على فلاح وفعلة له يزرعون فيها، ولم يقبل أن أنوب عنه بذلك، بل قال إن نزهة مثل تلك الزيارة تفيده جداً، فشيعناه مسافة، وعدنا وهو يمشي بكل راحة. وصل البيت، وأخذ هدية للزارعين من زبيب ونحوه، وزارهم، وقضى نهاره معهم يحادثهم ويمازحهم بألطف لهجة...

والغريب في الأمر أنه توجد في وثائق العائلة والمغلّف نفسه الذي يحتوي على هذه الرسالة، صورة لخليل في الحقول، جالساً على صخرة، متكئاً على عصا، مرتدياً معطفاً أسود طويلاً، معتمراً قبعة التفّ حولها وشاح، وخلفه عاملان يضحكان. هل التقطت في ذلك اليوم؟ أم حفظت في هذه الرّسالة لأنّها تعبر عن محتواها؟

... وعاد مساءً بكل نشاط، فتناول طعام العشاء بشهوة وقبول، وسهر إلى الساعة الثامنة لا يشكو تعباً ولا ألماً، وذهب إلى سريره، فصلى ونام على عادته، ونحو الساعة

التاسعة (من مساء الاثنين 2 كانون الأول/ديسمبر 1918)، استدعانا، فأسرعنا إليه، فوجدناه يشكو العارض المعهود "العبقة"، فللحال، وضعنا رجليه في الماء الحار، وعالجناه بالمنعشات واللبخ وغير ذلك مما كنتم ترشدوننا إليه، ولكن يا للأسف ما كان يفيد كل مرة هذه المرة لم يفد. برغم كل علاج وكل واسطة، اشتد عليه العارض (مرض القلب على قول الدكتور ملحم حداد)، ولم يمض على شكواه بضع دقائق حتى حلَّ المصاب! آه، واأسفاه! فسكن اللسان، وسكن النبض، وفاضت تلك الروح الملكية، وهمد ذلك الجسد الطاهر، فصعد من قلوبنا المحدقة به، الملتهبة غيرةً عليه، صراخ يذيب قلب الجماد، وعويل يفتت الأكباد، فاجتمع إلينا كل من في الجوار، يسكنوننا تارةً ويشاركوننا أخرى، فيا لها من ساعة رائعة مؤلمة يصعب على الكاتب تصورها وإن كان لا يصعب على القارىء تصورها. ولما منَّ الله على قلوبنا ببعض التعزية، وعدنا إلى الرشد، أخذنا نفتكر في ترتيب الاحتفال ليكون لائقاً بمقام الفقيد، وخفنا أن تضغط علينا الأحوال الحرجة الحاضرة، فنبخسه حقه كما بخس كثير من وجهاء الوطن الذين توفوا في هذه السنين الأخيرة، فأول ما افتكرت فيه وعرضته على معاونيَّ، هو أن نستدعي أطباء من بيروت، ونحنط الجثة، وننعي بيروت وزحلة والقرى المجاورة وكثير من قرى البقاع، ونبقي المأتم عدة أيام، ولكن إذا خفنا أن من يأتي من بعيد لا يتمكن من الحضور لعدم وجود مراكيب أو عجلات ونحو من وسائط النقل على ما هو معلوم، وإذا كان الطقس يتهدد بأمطار وعواصف وثلوج، خشيت أن أطلب الزيادة فأقع في النقصان، وقرَّ الرأي على نعوة مديريتي بسكنتا والشوير، وتعيين وقت الدفن الساعة الواحدة بعد ظهر الثلاثاء 3 الجاري...

تطول رسالة بطرس لأنّها تسرد تفاصيل المأتم، وتقتبس فقرات من الكلمات التأبينية التي ألقيت، وكذلك قصائد الرّثاء. وقد نسخت أكثر من نسخة لإرسالها إلى كلّ أولاد خليل الذين كانوا- باستثناء الصغرى نظيرة- في المهجر،كما سبق لي أن ذكرت.

كان هذا الشّتات الكبير حاضراً في كل الأذهان خلال المأتم والتعازي، وكلّ الذين ألقوا كلمة لمّحوا إليه، وأحياناً بإصرار. كما حين أنشد تلاميذ المدرسة العمومية الذين قدموا في وفدٍ نشيداً نظم للمناسبة وكان يعكس كلام المرحوم؛ وبعض الكلام الوارد فيه يعبّر عن ورع خالص...

قد دعاني الرب يا أهلي إليه فهلّموا ودُعوا قبل الرحيل
لا أرى في الأرض ما يؤسى عليه عند ربي كل مطلوب جليل

... فيما تضمنت كلمات أخرى لوماً غير مبطن للغائبين كالابنين البكرين لخليل، والأوّل طبيب في مصر، والثاني صيدلي في بورتوريكو:

أين يا شكري دوائي المرتجى أين ما ركبّتَ منه يا نسيبْ
لم يجعل لي دواء منكم وسواكم ليس يشفيني طبيبْ

ويذكر المقطع التالي ذلك الابن الذي رحل عن القرية مع جبرايل عام 1895، وبات يقيم في نيويورك ولم يتصالح أبداً مع أبيه:

خبروا جرجي بأني راحل قبل ما يسخو علينا بالوداع
قبل ما ينجز وعداً مشتهىً قبلما يسعى بعود واجتماع

خبِّروه أن ما يرجوه من لمِّ شمل واجتماع وصفاء
هو في الدنيا محال إنما سوف نحظى باجتماع في السماء

لا بدّ أنّ الحرج الذي أثاره هذا الكلام قد أثقل جوّ المأتم وزاد من لوعة الحداد.

41

من بين الأشخاص الذين تلقوا هذه النعوة المطوّلة، وبالاضافة إلى الأشخاص المذكورين آنفاً، ثمّة ألفرد الذي كان مقيماً منذ خمس سنوات في هافانا إلى جانب جبرايل- ولكن ليس زوجته هَدَى التي لم تتمكّن من اللحاق به حتى الحين. ولا بدّ أنّها حضرت المأتم بالاضافة إلى أنيس، أصغر أبناء المرحوم، وزوجته الأميركية فيبي. لم آت على ذكرهما حتّى الحين، ولعلني أغفلت ذكرهما بلا شكّ - لأنّني لا أنوي إحصاء كلّ أفراد أسرتنا الواسعة- لو لم يشرك القدر أسماءهما، في تلك السّنة، مع اسم المبشر، وبأفجع الأساليب.

هاجر أنيس إلى أميركا وهو فتى، وفتح متجراً في بوتسفيل، بولاية بنسلفانيا- أي بالضبط ما كان المرسلون الأميركيون لا ينصحون به المشرقيين! وتزوج بأميركية، وأنجب منها أطفالاً.

تضمّ وثائقنا العائلية عدداً من الصور للزوجين الشابين، التقطت في تكساس ويوتا. وتوجد بطاقة تحمل توقيع أنيس،

أرسلت من غلاسكو، في ولاية كنتاكي، بتاريخ 3 كانون الأوّل/ ديسمبر 1914، ووصلت إلى بيروت في 13 آذار/مارس 1915؛ وهي موجهة إلى والده. ويقول نصّها ببساطة: "إنّنا جميعاً بخير، وأنتم؟". وعلى ظهر البطاقة، صورة فوتوغرافية التقطت أمام استديوهات سينمائية، تحت لافتة ضخمة كتب عليها:

Don't miss seeing

THE MOVIE PICTURES

(لا تفوتوا مشاهدة الأفلام السينمائية)

وفي الصورة زهاء اثني عشر شخصاً يبتسمون للمصوّر؛ وتحت كلّ شخص تعليق بالحبر، بالعربية، "أنا" _ شابّ نحيل خجول النظرة؛ "فيبي" - امرأة مكتنزة، لعلّها حامل، ترتدي ثوباً فاتحاً طويلاً، وتبتسم ابتسامة مشرقة؛ "لويز"، ابنة أخيها؛ وآخرون أشار إليهم ألفريد كما يلي: "بعض العمّال"...

لا أستغرب أن تكون هذه البطاقة قد بقيت نظراً للظروف، بل أستغرب أكثر أن تكون قد وصلت عام 1915. فلو راجعت الوثائق التي بحوزتي، أرى أن لا رسالة أخرى وصلت من الخارج خلال سنوات الحرب. وأصلاً، حتى في شهر كانون الأوّل/ديسمبر 1918 ذاك حين كتب بطرس النّعوة التي تعلن وفاة خليل، رأى أنه من المفيد التوضيح، في السطور الأخيرة من نص النعوة، أنّه سيبعث كل الرسائل إلى القاهرة، إلى صهره شكري، ليتولّى هذا الأخير إرسالها إلى البلدان الأخرى، "نظراً لأنّ البريد المرسل إلى مصر هو الوحيد المضمون حالياً".

لم يستأنف البريد نشاطه المنتظم سوى في الأسابيع الأولى من السنة التالية، وصار بإشراف الفرنسيين الذين انتصروا على

العثمانيين وقدموا لينتزعوا منهم هذه الحصّة من ممتلكاتهم المشرقية. وسوف تتوافد الرّسائل من كلّ حدب وصوب، حاملة التّساؤلات حول الأهل- هل كتبت لهم النجاة من الحرب؟ ومن المجاعة؟ ومن الأوبئة؟- وحاملة كذلك لأخبار، مطمئنة أم لا، عن المهاجرين.

سوف تخلّف رسالة دون غيرها آثاراً لن تمحى لفترة طويلة على أهلي. فقد وصلت إلى القرية في 1 شباط/فيڤري 1919، وقرأها الكثيرون. وعبثاً بحثت عنها في وثائق العائلة، فلم أعثر عليها. والحقيقة أنها لم تكن موجّهة تحديداً إلى بطرس، أو نظيرة - فهذه الوثائق تخصّهما...

لئن اختفت القذيفة، فشظاياها تناثرت في كلّ مكان. وأولاً، في هذه الرّسالة التي كتبتها جدّتي بالإنكليزية في 2 شباط/فيڤري.

عزيزتي فيبي،
أكتب هذه الكلمات بأسى عميق وفؤاد كسير. ففي السّنوات الأربع الأخيرة، كنّا ننتظر على الدّوام أخباركم، ولكنّ انتظارنا خاب. في الأسبوع الماضي، جمعت رسائلك ورسائل أنيس، وأعدت قراءتها الواحدة تلو الأخرى. كنت أنوي أن أكتب لك قبل ذلك لأسألك عن أحوالك، وأحوال أنيس والأولاد، الخ.. ولكنّ البارحة، يا إلهي! ما أفظع هذا النّهار! تلقينا رسالة من ألفرد تعلمنا بأفظع الأنباء، وفاة العزيزين أنيس وغبريال؛ ولكنّه لم يذكر لنا ما حصل لأنيس. لا أعرف ماذا أفعل أو أقول لتعزيتك، وتعزية أمي، وتعزية نفسي!
أرسلنا لكم نعوةً مرفقة برسالة حول وفاة أبي التي حصلت في 1 كانون الأوّل/ديسمبر...

يحدِّد بطرس الوفاة بتاريخ 2 كانون الأول/ديسمبر، ولكن هذا التفصيل غير مهم فلا بدّ أن نظيرة ذكرت هذا التاريخ سهواً. فبالنسبة إلى هذه الشابة البالغة من العمر ثلاثة وعشرين عاماً، والأم لثلاثة أطفال، التي عرفت، خلال السنوات الأخيرة، كيف تواجه بشجاعة أسوأ ويلات التاريخ، تحولت الأسابيع الأولى التي انقضت منذ بداية الحرب إلى كابوس: أولاً وفاة والدها، ثم صهرها، وخاصة أخيها الأصغر، الأقرب لها في السن والذي كانت تعشقه، المتوفى في أميركا خلال سنوات الحرب لأسباب مجهولة. فهل كان ضحية الانفلونزا الآسيوية التي كانت في ذروة تفشيها، وسوف تحصد نصف مليون نسمة في الولايات المتحدة؟ لن أعلم أبداً المزيد...

> قال لي بيتر - أي بطرس - أن أكتب لك وأسألك إن كنت تودين المجيء إلى سوريا مع أولادك للعيش معنا. ترى أمي أن ذلك سيكون لها أكبر عزاء...

لن تأتي فيبي المكتنزة. ولن ترد على هذه الرسالة. ورسالة نظيرة الموجودة في وثائق العائلة ليست مسوّدة، بل الرسالة الأصلية التي أخرجتُها من مغلّفها لذكر هذه المقاطع منها. فقد أرسلت بالبريد المضمون من بيروت، بتاريخ 1 آذار/مارس، إلى السيدة أنيس م.، بوتسفيل بنسلفانيا، ص.ب 165، الولايات المتحدة *Mrs. Anees M., Pottsville Pa., P.O.Box 165, USA.* ولكنها رجعت في حزيران/جوان، مثقلة بالأختام البريدية - أحصيت منها خمسة عشر ختماً، تعدّد المدن التي عبرتها الرسالة، إلى جانب التواريخ، وشتى الملاحظات المحبطة: *Moved- Left*

no address, RETURNED TO WRITER، (أي انتقلوا ـ لم يتركوا عنواناً ـ أعيد إلى المرسل) ـ وكان لا بدّ من إعادة الرسالة إلى مرسلها لأن المرسل إليه انتقل إلى سكن آخر ولم يترك عنواناً. . .

من بين الأقارب الباقين على قيد الحياة، لا أحد يتذكر اسم فيبي. لاشك أنها تزوجت ثانية، وربما اعتمد أولادها اسم زوج أمهم، ولم أحاول اقتفاء أثرهم. . . وانتهت المسألة.

إلا أنني أعود قليلاً إلى الوراء للإشارة إلى رسالة جدتي والدعوة التي وجهتها إلى أرملة أخيها الشابة لتأتي وتستقر "في سوريا". وحين ذكرت أعلاه البطاقة التي أرسلها أنيس إلى والده، كدتُ أكتب العنوان بالكامل، ثم أحجمت، ريثما يتسنى لي إرفاقه بتعليق. كانت البطاقة معنونة كما يلي: الأستاذ خليل م.، المَشرَع، بيروت، سوريا، تركيا.

من البديهي أن التوضيح ضروري بشأن هذا السيل من الأسماء كما بشأن الأسماء الكثيرة التي ألجأ إليها منذ بداية هذه الرواية للإشارة إلى بلد الأجداد. فجغرافية بلدنا متحركة، وغالباً ما اعتمدت استعارات - "الجبل"، "الوطن القديم"، الخ - تفادياً لاستعمال هذه التسمية التي لسوف تبدو مغالطة تاريخية بالنسبة إلى زمن أسلافي، أو تلك التي قد تثير البلبلة والإشكاليات المريرة في أيامنا الراهنة.

إذا كانت الدولة التركية، كما نعرفها اليوم، قد نشأت بعد الحرب العالمية الأولى على أنقاض الإمبراطورية العثمانية، فتلك الإمبراطورية كانت تدعى عموماً "تركيا" منذ بعض الوقت أصلاً. وعندما اضطر بطرس مثلاً لدى مروره بإليس أيلاند تحديد بلده

المنشأ، ذكر هذا الاسم؛ ثم، في خانة "العرق أو الشعب"، دوّن أنه "سوري". وبالمقابل، ففي العريضة التي رفعها إلى السلطات بشأن مدرسته، عرّف عن نفسه بوصفه "عثمانياً لبنانياً من قرية المَشرَع". وفي كوبا، كان أخوه جبرايل الرئيس المؤسس لجمعية ثقافية تدعى "الارتقاء السوري"، ولكنه في رسائله كان يدعو أبناء بلده "أبناء العرب"، ويعرب عن حنينه "لرائحة الوطن" و"هواء لبنان العليل"...

في ذهن أجدادي، كان لكل من هذه الانتماءات المتنوعة "خانة" خاصة: فدولتهم هي "تركيا"، ولغتهم هي العربية، وولايتهم سوريا، ووطنهم جبل لبنان، تضاف إليها بالطبع طوائفهم الدينية المختلفة التي يقيمون لها في حياتهم وزناً أكثر من سائر انتماءاتهم. ولم تكن هذه الانتماءات تتعايش في تناغم، كما تشهد المذابح الكثيرة التي ذكرتها آنفاً؛ ولكن تلك التسميات تميزت مرونتها كما الحدود، وقد تلاشت هذه المرونة مع صعود الحركات القومية.

منذ مائة عام بالكاد، كان مسيحيو لبنان يعتبرون أنفسهم عن طيب خاطر سوريين، والسوريون يبحثون عن ملكٍ في مكة، واليهود في الأراضي المقدسة يعدّون أنفسهم فلسطينيين... وبطرس، جدي، يعرف عن نفسه كمواطن عثماني. لم تكن أي من دول الشرق الأدنى الحالي موجودة بعد، وحتى اسم هذه المنطقة لم يكن متداولاً - فكان يقال عموماً "تركيا الآسيوية"...

ومنذ ذلك الحين، مات الكثيرون في سبيل أوطان خالدة مزعومة؛ وكثيرون غيرهم سيموتون غداً.

42

وبالعودة إلى موت عنيف آخر، أي مقتل جبرايل، يتضح من كلام جدتي أن الأسرة علمت بظروف مقتله بواسطة رسالة وصلت من كوبا في شباط/فيڤري 1919. وكل الأمور تدعوني للاعتقاد بأن ألفرد يتحدث فقط عن حادث، ولم يذكر إطلاقاً فرضية القتل.

وإرضاءً لضميري، عدت فاتصلت بليونور لأسألها إن كانت قد اطلعت على هذه الرسالة بالصدفة.

قالت لي إنها لم تطلع عليها. فقد كانت في الثامنة أو التاسعة من العمر، وليس من الوارد أن تسلّم الرسالة وتقرأها. ولكنها لمحتها في يد جدتها صوفيا، التي ما زالت تتذكرها، جالسة في غرفتها، على أريكة، وشال صوفي أسود كبير يغطي كتفيها وركبتيها، وعلى الشال رسالة كانت تمسكها بأصابعها. كانت مسمّرة النظرات، لا تنبس ببنت شفة.

بقيت أراقبها لبرهة، ثم تهورت وسألتها عما أصابها. وفي اللحظة عينها، انتزعني أحدهم بقوة من ذراعيّ وأخرجني من الغرفة. وشيئاً فشيئاً، امتلأ البيت بالناس، كما حين توفي جدي خليل قبل بضعة أسابيع.

وخلال النهار، شرحت لي نظيرة أن الرسالة التي تسببت بكل هذه البلبلة بعثها خالي ألفرد الذي أرسل لنا لإخطارنا بوفاة اثنين من أهلنا. وقد أعطى تفاصيل عن حادث وفاة جبرايل، ولكنه لم يذكر شيئاً عن أنيس.

كان بوسع جدتي وحدها أن تذكر لي ما ورد بالضبط في

رسالة شقيقها، لو فكرت فقط بسؤالها... فقد قرأتها مراراً وتكراراً، وانطبعت الكلمات بالضرورة في ذاكرة المرأة الشابة التي كانت، وحتى مماتها. كم ألوم نفسي على افتقاري للفضول! فوجود العجائز كنزٌ نبدّده بالملاطفات والثرثرة، ثم نظل إلى الأبد في جهل؛ ووراءنا دروب غير واضحة ترتسم لبرهة ثم تضيع وسط الغبار.

قد يقول بعضهم: "وماذا إذاً؟ فلندع الأموات، كما يقول تعبير مبتذل، يدفنون الأموات، ولننصرف إلى حياتنا!".

لا ريب أننا لسنا بحاجة إلى معرفة أصولنا، كما لا حاجة لأحفادنا أن يعرفوا حياتنا. فكل امرئ يجتاز السنوات المقدرة له، ثم يذهب ليرقد في قبره، فلم نفكر بأولئك الذين جاؤوا قبلنا بما أنهم لا يعنون لنا شيئاً؟ لم التفكير بأولئك الذين سوف يأتون بعدنا بما أننا لن نعني لهم شيئاً؟ ولكن إذا كان النسيان مصير كل شيء، لماذا نبني، ولماذا بنى أسلافنا؟ لماذا نكتب، ولماذا كتبوا هم؟ أجل، في هذه الحالة، ما جدوى غرس الأشجار ولَمَ الإنجاب؟ ما فائدة النضال من أجل قضية، والحديث عن التقدم، والتطور، والبشرية، والمستقبل؟ فالإفراط في التعلق باللحظة المعاشة قد يحاصرنا بمحيط من الموت. وعلى العكس، فإعادة إحياء الزمن الغابر يوسّع آفاق الحياة.

وفي كل الأحوال، أرى شخصياً أن اقتفاء الأصول هو بمثابة الانتصار على الموت والنسيان، انتصار لا بدّ أن يكون صبوراً، متفانياً، مثابراً ومخلصاً. فلمّا تحلّى جدي، في أواخر أعوام 1880، بالشجاعة للتمرد على إرادة أهله ومتابعة دراسته في مدرسة بعيدة، كان يمهّد لي دروب المعرفة. وإذا ترك، قبل رحيله

عن هذا العالم، كل هذه النصوص الشعرية والنثرية التي أعاد نسخها بعناية وأرفقها بتعليقات حول ظروف إلقائها أو كتابتها، إذا ترك كل هذه الرسائل وكل هذه الدفاتر المؤرخة - ألم يفعل ذلك ليهتم أحدهم بها يوماً ما؟ بالطبع، كان يفكر بالشخص المحدد الذي هو أنا، أنا الذي أبصرت النور بعد ربع قرن على وفاته؛ ولكنه كان يرجو أن يفعل ذلك أحدهم. ثم، وفي كل الأحوال، لا يهم ما تمنّاه؛ طالما أن الآثار الوحيدة لحياته أصبحت الآن بين يدي، ومن غير الوارد أن أدعه يموت طي النسيان.

لا هو، ولا أي من أولئك الذين أدين لهم بذرة من هويتي، وأسمائي، ولغاتي، ومعتقداتي، وثوراتي، وضياعاتي، ومدادي، ودمي، ومنفاي. فأنا ابن كل سلف من أسلافي وقدري أن أكون كذلك، بدوري، والدهم اللاحق. أنت، بطرس، ابني المختنق، وأنت، جبرايل، ابني المحطّم. لوددت أن أعانق كلّا منكما، فلا أعانق سوى ظلّيكما.

لا شكّ أنه يجدر بي العدول عن البحث عن الرسالة المشؤومة التي أرسلها ألفرد. ولكن المغلّف السميك الذي بعثه من هافانا فور انتهاء الحرب العالمية الأولى، لايضمّ سوى هذه النعوة، وكذلك بعض الصور التي لم تضع لحسن الحظ. عثرت على عدد منها وأنا أنقب في وثائق العائلة. لم أتمعن فيها كلها بالانتباه الذي تستحق لشدة انبهاري بجملة كتبت بالعربية على أسفل إحداها:

تلك هي آخر صورة للمرحوم جبرايل. التقطت في 16 حزيران/جوان 1918 في محفل "نجمة الشرق". يجلس أمام أليس التي تضع تاجاً لأنها ملكة المحفل.

آخر صورة؟ لا شكّ. ولكنها الأولى بالنسبة لي. فقبل رؤيتها، لم أكن أعرف ملامح عمي الكوبي الأكبر. وبدا لي مختلفاً عن أخيه. فبطرس، بالرغم من كل اعتنائه بهندامه، كان يلوح على الدوام كجبلي يرتدي ثياب الأحد، بشعره الشديد الجمود، وبشاربيه الكثيفي الأطراف، وتلك الطريقة في التحديق إلى العدسة كأنه لايزال منبهراً باختراع التصوير الفوتوغرافي. أما جبرايل فهيئة متحضّرة، وأنيقة، ومنشّاة، لا شعرة نافرة من شاربيه، ومتوضّعاً للصورة وكأنه يخفي نفاد صبره. وكانت زوجته تلوح كسيدة مدينة ثرية، وهي هيئة لم تظهر عليها شقيقتها، جدتي أبداً- إلا في صورها كتلميذة في المدرسة الأميركية للإناث.

وفي هذه الصورة الأخيرة "الهافانية"، الملتقطة في دار فخمة، في بهو فسيح مغطى بمربعات كبيرة بيضاء وسوداء كرقعة الشطرنج، أحصي، حول الزوجين، سبعة وثلاثين شخصاً آخر، رجالاً ونساءً، بعضهم واقفون، وبعضهم الآخر جالسون؛ وفي الخلفية، تمثال أثري ومرآة مغطاة بعلم كوبي كبير.

وبعد الاستفسار، علمت أن محفل "نجمة الشرق" Estrella de Oriente المذكور في التعليق أسفل الصورة هو جمعية نسائية ماسونية، منتشرة بشكل خاص في الولايات المتحدة التي كانت كوبا قريبة منها جداً ثقافياً عام 1918. وكانت محافلها تدعى "مجالس"، وعضواتها، ولا عجب في ذلك، "أخوات" - وعددهن اليوم يناهز الثلاثة ملايين. وإذا كانت معظمهن زوجات، وأرامل، أو بنات ماسونيين، فشعارهن يختلف عن شعار "إخوتهم"، فالماسونيون، كما يشير اسمهم، يفترض بهم أن يشيدوا معبداً مثالياً، أي عالماً أمثل، ولذا، يتحدثون عن

المبتدئين، والرفاق، والمعلمين؛ أما الأخوات فيستوحين شخصيات نسائية شهيرة، لاسيما من التوراة؛ ورتبهن تحمل أسماء راعوث ابنة يفتاح، ومارتا، أو الملكة أستير، وهي لاشك الرتبة التي ارتقت إليها أليس يوم التقطت الصورة مما يبرر تاجها وصولجانها.

بعد هذا البحث الأولي، الموسوعي المحض، أردت أن أتفحص عن كثب بعض الأشخاص في الصورة. لم أتعرف إلى أي واحد منهم للوهلة الأولى. وافترضت فقط أن جبرايل وأليس لا بدّ أن يكونا قد وجّها على الأرجح، بمناسبة هذا الاحتفال الماسوني الهام بنظرهما، دعوة عرّاب ابنهما، فرناندو فيغيريدو سوكاراس، وهو شخصية مرموقة في محفل كوبا الأكبر. وإذ علمتُ، بفضل أبحاثي السابقة، أن طابعاً يحمل صورته قد صدر عام 1951، استشرت الأدلة المختصة، وكان الرجل موجوداً، على الطابع وعلى الصورة. هو نفسه، بالوقفة نفسها يسهل التعرف إليه بربطة عنقه السوداء القصيرة وعثنونه تحت شفته السفلى، تلك اللحية الصغيرة "الامبراطورية"، والذي كان لديه طويلاً أكثر من المألوف.

تشجّعت بفضل هذا الاكتشاف غير المتوقّع، فحاولت أن أميّز على الصّورة شخصية مرموقة أخرى مذكورة في رسائل جبرايل، وهو ألفريدو ثاياس، وكان في ذلك الحين نائب الرئيس السّابق للجمهورية الكوبية، وسوف ينتخب رئيساً للبلاد عام 1920. كان عمّي الأكبر يتحدّث عنه في رسائله كصديق، وكنت متشوّقاً لمعرفة إن كان الاثنان مقرّبين بالفعل. عثرت على صورة السّياسي في كتاب حول تاريخ الجزيرة، فقارنتها بالشخصيّات في الصّورة،

وتعرّفت إليه بدون أيما صعوبة، وكان واقفاً إلى أقصى اليسار. . . وسمحت لي أبحاث إضافية بتمييز بعض الوجوه الأخرى، ثلاثة رؤساء دولة سابقين أو لاحقين؛ ولكنّ نظرتي لم تركّز على أحدهم، لأنّني كنت أرغب بتفحّص وجه جبرايل مجدّداً، ثمّ وجه أليس، فوجه جبرايل. ما أطول الدّرب التي سارا فيها منذ ضيعتهما الصغيرة في جبل لبنان! لا بدّ أنّ كليهما كان يتساءل متوضّعاً أمام الصّورة: هل هذا أنا فعلاً؟ ألا أحلم؟ هل أنا الذي يتحلّق حولي القوم، ويحتفلون بي، ويكرّمونني؟ هل أنا الذي أتربّع على العرش وسط هؤلاء السّيدات النبيلات والرّجال العظام؟

كم كانت الحرب بعيدة عنهما! كم كانتا نائيتين مجاعة الوطن ومعاناة الشرق!

غير أنّ هذه الصّورة المزهوّة وصلت في مغلّف محاط بشريط أسود. لم يتأمّله شخصٌ في القرية وفي الأسرة إلاّ وغشي شبح الموت عينيه. "تلك هي آخر صورة للمرحوم جبرايل. . . ". ولهذا السبب، كانت الصّورة تحمل دلالة مزدوجة، نوعاً ما: فعلى سطحها، النجاح المذهل؛ وتحتها، اللّعنة. وبلمحة واحدة، يمكن للمرء أن يستوعب كلّ مأساة أسرتنا الكوبية.

كانت مأساةً حفظت فصولها في رسائل الأسرة: 1899، الاستقرار في هافانا وتأسيس مخازن La Verdad؛ 1910، الزّواج؛ 1911، الطّفل الأوّل؛ 1912، شراء منزل الجنرال غوميز؛ 1914، الطّفل الثاني؛ وكان بنتاً؛ 1917، ولادة طفل ذكر؛ 1918، الموت. وكان جبرايل لم يبلغ الثّانية والأربعين. . .

تتوافر الوثائق حول كلّ هذه الأحداث، وكم مرّة استعرضتها أمامي: إخطارات العمادة مرسومة باليد؛ صور الابن البكر بثياب

الكرنفال، وصوره مع أمّه، على سلّم قصر؛ الابنة في مهدها؛ الأطفال مع أصدقائهم على شرفة فسيحة خلال حفل؛ رسائل جبرايل السميكة، وبرقيته المزهوّة - إخطار بطرس شراء بيت غوميز... أجل، كان كلّ شيء أمام ناظري، كان يجدر بي أن أعلم كلّ شيء، ولم أعلم شيئاً يذكر.

وأقصى ما بوسعي أن أفعله من الآن فصاعداً تحديد وفاة عمّي الأكبر زمنياً. فحين أجريت حديثي الليلي مع لويس دومينغو، كنت "أهيم" بين نهاية القرن التّاسع عشر والعشرينات، وتتيح لي الوثائق العائلية الآن أن أجزم بأنّه كان على قيد الحياة في 16 حزيران/جوان 1918 وأنّه توفّي قبل نهاية ذلك العام؛ ولكن ساورني الشّعور بأنّ هذه الوثائق لن تطلعني على المزيد.

آن الأوان أن أسافر إلى كوبا. للحجّ قليلاً، وللتحري قليلاً، فثمّة أماكن كثيرة أحتاج لزيارتها، ولكنّي أعلم أي مكان سأزوره أولاً. علمت بذلك في مرحلة مبكرة للغاية، منذ تلمساتي الأولى في هذا البحث، حيث سألت قريب والدي، ذاك الذي اعتدت أن أطلق عليه لقب "الخطيب"، بعض الأسئلة التمهيدية حول عمي جبرايل، وثروته، وموته المأساوي. فأكد لي ما أخبرتني إياه ليونور:

ـ أجل، كان حادثاً. كان مولعاً بالسيارات، ويقودها قيادة متهورة!

هل كان بمفرده في ذلك اليوم؟

ـ كان معه سائقه الذي مات معه. ولكن جبرايل كان يقود السيارة.

كان سائقه من عندنا؟

ـ لا، ولكنه لم يكن كوبياً كذلك. وأصلاً، لقد دفن في قبر عمي لأن ليس لديه أقارب في كوبا.

ولمّا عجبتُ لمعرفته بهذه التفاصيل، أخبرني أنه قد زار الجزيرة، في أواخر الأربعينات.

ـ كنت في وفد عربي يجول على دول أميركا اللاتينية. ولدى وصولي إلى هافانا، تذكرت كل ما كان يقال في طفولتي عن جبرايل، وطلبت من أبناء الجالية اللبنانية إن كانوا قد سمعوا به. كان الأكبر سناً يتذكرونه. وأكدوا لي جميعاً أنه كان شخصية مشهورة، ورجلاً كريماً، وأميراً! وقد اصطحبوني إلى مقبرة كبيرة، وسط العاصمة، لزيارة ضريحه. كان مزاراً حقيقيّاً، مشيّداً من المرمر الأبيض!

على أثر هذا الحديث، سارعت لاستشارة مخطط لمدينة هافانا، في دليل سياحي حديث، للتأكد مما إذا كانت هذه الاشارة المبهمة تستطيع أن تقودني إلى مكان معروف في المدينة اليوم. فعثرت على مكان منطقي واحد، وهو مقبرة واسعة وقديمة تحمل اسم كريستوف كولومبوس. ولو كانت روح جبرايل مازالت موجودة في مكان ما على سطح هذا الكوكب، فلن تكون في غير هذا المكان.



مقرّات

43

مساء الأربعاء

ها قد وصلتُ إلى كوبا للعثور على جبرايل، وفي مفكرتي آخر عنوان معروف له: هافانا، مقبرة كولومبوس. أنا على يقين أنني سأتعرف إلى ضريحه بين كل الأضرحة، وأقرأ بدون صعوبة النقوش عليه. أقرأ اسماً منقوشاً في الحجر ليس بالشيء المهم؛ ولكنه اسم أهلي، والدليل الذي يفتقر إليه حلمهم الأطلسي.

نحن، النفوس الرحل، نتعبد الأطلال والمحجات. لا نبني شيئاً يدوم بل نخلّف آثاراً. وبعض الشائعات التي تتلكأ.

بناءً على نصائح كل الأصدقاء الذين يعرفون هذه الجزيرة، ابتعدت عن الأماكن السياحية والقنوات الرسمية للعيش فيها والتجول والتنقيب كما يحلو لي. أقمتُ في حيّ "فيدادو" الفسيح شرق غرب المدينة، عند سيدة تدعى بيتي. كان بيتها أقل رفاهية من بيوت أخرى في الجوار، ولكنه أقل منها تداعياً أيضاً. فعلى شرفته ذات الأعمدة توجد مائدة مضيافة ومقاعد بلاستيكية، قوائمها مثبتة بقوائم المائدة لئلا يغريها اللحاق بأول سارق يمرّ أمام البيت. وتعبق في هواء المساء رائحة البنزين والياسمين. في

الفناء الصغير جهنميتان وشجرة غاردينيا، وتحت مرآب من الصفيح، سيارة خضراء قديمة صُنعتْ في عهد الاتحاد السوفياتي.

أكتشف، لدى استشارة مخطَّط للمدينة، أنني على بعد شوارع معدودة من المقبرة. لم أعلم أنني سأكون قريباً جدّاً من عمي الأكبر - هذا إذا كان ضريحه موجوداً بالفعل. سوف أزور المقبرة غداً، في الصباح الباكر، سيراً على الأقدام. وأكَّدت لي صاحبة النزل: "إنها لا تبعد أكثر من عشر دقائق".

كان من المفروض أن يكون الحجُّ الأول. ولكنني وصلتُ إلى هافانا نافد الصبر أكثر منه متعباً، وثمة مكان آخر يناديني. ويجدر بي الاعتراف أنني لم أستطع أبداً أن أنزع من ذاكرتي تلك الجملة العادية التي اكتشفتها في رسالة جبرايل:

> سبقت الإشارة بعزمي على مشترى بناية مكسيمو غوميز، القصر الشهير الذي بنته له الحكومة منذ 8 سنوات على ملتقى شارعي برادو ومونتي...

أيقظت فيَّ هذه الكلمات على الفور رغبة بالبحث عن الكنز تعود إلى قراءاتي الأولى. كانت رغبة أظنّ أن عدداً كبيراً من الناس يتقاسمونها، ولكن سن الرشد الذي يغار من أحلامنا الطفولية يحاول خنقها. فذلك البيت الذي يدعوه جبرايل في بعض الرسائل "قصر غوميز"، وكان بيتنا في الماضي، لن أستطيع النوم هذه الليلة قبل مشاهدته.

إستناداً إلى الأبحاث التي قمتُ بها عشية هذه الرحلة، تحمل جادة مونتي التي ذكرها عمّي الأكبر في رسالته اسم جادة مكسيمو غوميز اليوم، تحديداً؛ فيما جادة برادو تحمل اسم خوسيه مارتي

- لدى كتابتي هذه الأسماء التي أصبحت مألوفة، بل عائلية، لديّ الشعور مختلس بأنني وسط أهلي في قارة أميركية عاد أسلافي سرّاً لاكتشافها وفتحها.

لا بد أنها بهجة الرحلة، تلك البهجة نفسها التي ما زالت تشعرني اليوم بأنّ ساعاتي الأولى وأيامي الأولى ما وراء البحار تزداد سماكة كالحمم البركانية لتسيل ببطء شديد.

منتصف الليل

لدى العودة من استكشافي الليلي، صحوت من نشوتي قليلاً. فلم أتمكّن من رؤية بيت غوميز، أو رأيته ولم أتعرّف إليه. ومع ذلك، اتبعت حرفياً الأسلوب الذي عاهدت نفسي، قبل مغادرة باريس، أن أتبعه.

في بداية السهرة، خطوت بعض الخطى في الحي حتى وصلت إلى شارع لمحته على خريطة المدينة. أوقفت سيارة أجرة، وطلبت من السائق برباطة جأش أن يوصلني إلى وسط المدينة، "جادة مكسيموغوميز"، قلتها بالإسبانية. كانت مفاجأتي الأولى أنّ الرجل تردّد. فهل أسأت اللفظ؟ كرّرت الاسم ولفظته ببطء. كيف لايعرف سائق في هافانا إحدى الجادات الرئيسية في مدينته؟ فتحت الخريطة، ووضعت إصبعي على "مكسيمو". فنظر الرجل، وفكّر مليّاً، ثم مطّ شفتيه، ولكنّه ابتسم ابتسامة ارتياح: "أجل، بالطبع، جادة مونتي!". كان يجدر بي أن أفطن إلى ذلك؛ فكما يحدث غالباً، تحت كل السماوات، لا يظلّ الاسم القديم متداولاً بين أهل البلد....

بعد الانطلاق، طلب السائق أن أحدّد له بالضبط المكان

الذي أريد أن يقلّني إليه. فقلت: "زاوية برادو ومونتي". لم يعلق، ولكنّني شعرت أنّنا لم نتفاهم بعد. وحالما توقف أمام شارة سير حمراء، التفت كليّاً ليشير بأصابعه الخمسة إلى الخريطة: "أية زاوية؟ لا توجد زاوية!".

في الواقع، لا توجد زاوية بكل معنى الكلمة بين جادتي برادو ومونتي. لا لأنّ هاتين الجادتين متوازيتان؛ فالأولى تخترق المدينة من شمالها إلى جنوبها، والثانية تخترقها من الغرب إلى الشرق، فالأمر لا يتعلّق إذن بعبثية "هندسية" لدى الحديث عن زاوية. غير أنّ هاتين الجادتين الرّئيستين تتقاطعان حيناً أو تختلطان كنهرين التقيا في البحيرة نفسها. وبالتالي، فهو مكان فسيح للغاية ومتنافر الملامح بحيث أنّ الذين يقفون في وسطه لن يستطيعوا أبداً أن يشملوا بنظرتهم مختلف جوانبه.

كان لا بدّ لي أن أرضخ للأمر الواقع: فجبرايل في رسائله لم يسع لتحديد عنوان بل شاء فقط أن يشنف آذان أهله بنبأ شرائه قصراً منيفاً في وسط المدينة. أمّا موقعه بالضبط فلم يحدده "لنا"، وعليَّ اكتشافه.

إنّما ليس هذا المساء. لن أكتشف شيئاً هذا المساء. واكتفيت بالتّجول حول المكان، وتفحّصت عن كثب أكثر من بناء قديم كان بوسعه أن يكون قد شيّد، أصلاً، كقصر. حاولت إقناع نفسي أنّه لا بدّ ذلك المنزل الريفي المدهش بجدرانه البنية والحمراء الفاقعة، والذي تحوّل اليوم إلى فندق؛ أو ذاك المبنى الأبيض، هنا على الزاوية؛ أو ذاك المبنى المقابل؛ وإن لم تتطابق الحروف الأولى المنقوشة عليه، .J. E، مع اسم أهلي- ولعلّها أضيفت لاحقاً.

لا، ما جدوى التكهّن والسّعي لرشوة الوقائع؟ فحين أنظر من حولي، يبدو لي أنّ هذا المكان لم يشهد الكثير من الترميمات الهمجية؛ فما زالت أبنية قديمة كثيرة منتصبة؛ ولئن كنت لا أعلم حتّى هذا المساء أيّاً منها كان ملكاً لجبرايل، فغداً سأعرف، أو بعد غد. والأفضل ألاّ أعاند.

فركبت سيّارة الأجرة التي كانت تنتظرني لتنتهي سهرتي أمام كوب من الرّوم على شرفة بيتي المؤقّت. يعتريني الإحساس، بعد عمّي الأكبر، وبعد جدّي، أن هافانا هي بيتي، ولو للحظة واحدة في حياتي؛ وأنني أدع نسمة كاريبية تداعب وجهي. حولي، في العتمة، صراخ من كلّ الأنواع، لا سيما عواء آلاف الكلاب البعيدة والقريبة؛ إنّما كذلك، من مبنى مجاور، الصّوت الحقود لامرأة شرسة تزعق، كلّ ثلاث دقائق، اسم أحدهم يدعى "لازارو!".

44

الخميس

Janua sum pacis، عبارة لاتينية منقوشة على أعلى المدخل المهيب لمقبرة كولومبوس، وتعني: "أنا بوابة السلام".

بعد أن قست بنظري رحابة مدينة الموتى التي تنتشر فيها مدافن منتصبة أو مسطحة، وتتخلّلها السبل والممرّات والجادات،

على مدّ النظر؛ وبعد أن قست كذلك، على جبيني، وطأة الشمس الهافانية، عدلت فوراً عن القيام بأيّ جولة متسكّعة، ومضيت مباشرة إلى المباني الادارية حيث استفسرت، بأكثر الأساليب عفويةً، عما حملني على اجتياز المحيط الأطلسي:

"أحد أفراد أسرتي دفن هنا عام 1918. . ."

ناولوني مفكّرة دونت عليها بالحروف العريضة الاسم الكامل لجبرايل.

إنّه مؤشر تفاؤل: فلا يبدو إطلاقاً أن النّاس يستغربون في هذا المكان قدم الحادث، وطلبي لا يلوح لهم غريباً. فتح موظّف الاستقبال سجلّاً أمامه، ودوَّن الأسماء والتواريخ في الخانات المخصصة لذلك، وطلب مني التوقيع في خانة حدّدها لي، ثم أغلق السجل، ودعاني للجلوس.

لم يسنح لي الوقت للانتظار، فسرعان ما أقبلتْ. هي، بطلة نهاري هذا _ وأرغب بتسميتها "الملاك الأسود". ليس فقط بسبب طبيعة المكان حيث تقع العين في كل زاوية على ملائكة حجرية؛ وليس فقط بسبب أصولها الأفريقية التي تتقاسمها مع نصف الكوبيين؛ ولا بسبب الاسم الذي تلفّظت به، ماريا دي لوس أنخيليس، أي ماريا الملائكة؛ بل تحديداً بسبب ابتسامتها العريضة الماكرة والمطمئنة التي منحتني في الحال اليقين أنّ معجزة سوف تحصل.

معجزة؟ لا شكّ أنّ الكلمة لا تخلو من المبالغة. فلمّا ركبت الطائرة للسفر إلى هذه الجزيرة، ثمّ زرت هذه المقبرة، كنت على ثقة أنّ لديّ حظوظاً في العثور على بعض آثار جبرايل، وأوّلها ضريحه، إنّما ليس منذ اليوم الأوّل! ولا حتى غداة وصولي!

رحت أشرح لماريا، بإسبانيتي المتعثرة، أنّ عمّي توفّي في كوبا.

ـ جدّك؟

كدت أصحّح سؤالها وأحدّد أنّه ليس جدّي بالضبط... ولكن ما جدوى التوقف عند التفاصيل؟ فالأفضل التبسيط. أجل، إنّه جدّي... غبريال م.... أجل، توفّي عام 1918. لا، لا أعلم أي شهر توفّي. ليس قبل 16 حزيران/جوان، في كلّ الأحوال، ولا بعد كانون الأول/ديسمبر. وفي أبعد تقدير، خلال الأيام الأولى من السنة التالية. هل يجب البحث أيضاً في سجل 1919؟ لا، صدقاً، لا يبدو لي ذلك مرجحاً. يكفي عام 1918...

طلبت مني أن أتبعها، ثم أن أنتظرها عند باب مكتب المحفوظات. جلست على إفريز نافذة، تارة أتأمّل رواح الزّوار ومجيئهم في ممرّات المقبرة، وطوراً، من خلال الباب المفتوح، رواح ماريا ومجيئها وموظفين آخرين من المحفوظات- كانا رجلين مسنّين، يرتديان عفريتة الشغل الزرقاء- يتسلّقون مرقيات لبلوغ سجلات برونزية اللون.

دام هذا البحث ربع ساعة خرجت بعدها بطلتي وابتسامة الصّيادة تعلو ثغرها، وبين ذراعيها، أحد السّجلات القديمة التي لمحتها. كان مفتوحاً على صفحة وضعتها أمامي. ولمّا لم أنجح في قراءة خطّ كاتب السّجل القديم، راحت تتلو لي بصوت مرتفع فيما كنت أدوّن:

سجل الدفن رقم 96، صفحة 397، الحالة 1588.

في 21 حزيران|جوان 1918 دفن في مقبرة كريستوف

كولومبوس في المدفن رقم ثلاثة وثلاثين، ملك أليسيا، أرملة م.، جثمان غبريال م.، السوري الأصل، والبالغ من العمر اثنين وأربعين عاماً، متأهّل، توفي إثر صدمة بسبب انسحاق بناءً على تقرير الطبيب ب. بردومو. وقد تسلّمنا الجثمان من رعية خيسوس ديل مونتي، بإذن قاضي بلدية حي سان ميغيل ديل بادرون...

أصغيت بخشوع، ثمّ تناولت بيديّ المتعرّقتين السجل لأقرأه بدوري، وأطلب تفسير بعض المختصرات والأرقام غير الواضحة... شعرت بتأثّر الابن يجعل عيني تغرورقان بالدّموع، بل كذلك بفرحة الباحث التي لاتتلاءم إطلاقاً مع الحدث المدوَّن في السجل، ولا، بالطبع، مع المكان الذي كنت موجوداً فيه على الرغم من كون هذه المقبرة توحي لي بالسكينة أكثر مما توحي بالكآبة، وبالأزلية أكثر من الموت.

ما يستوقفني أولاً في هذا النص المقتضب البارد هو التاريخ. فلو دفن جبرايل في 21 حزيران/ جوان، فهذا يعني أنه توفي قبل هذا التاريخ بيوم، أو يومين؛ مع العلم أن آخر صورة له بحوزتي التقطت في الاجتماع الماسوني الكبير من أجل "تتويج" أليس، والذي انعقد في 16 حزيران/ جوان. وبالتالي، كانت أربعة أيّام على الأكثر تفصل دقيقة الانتصار ودقيقة الموت.

سألتُ ماريا إن كان بالإمكان زيارة الضريح. فأجابت أنه يوجد في الواقع ضريحان؛ الأوّل استئجر في عجالة، حيث يرقد "جدّك" مؤقتاً؛ والثاني اشتري في أيلول/ سپتمبر من هذا العام، وهو استملاك دائم، ويقع في أعلى رقعة في المقبرة، رقعة الشخصيات الوطنية والتجار الهافانيين الأثرياء.

في الواقع، كان الضريح الأول عبارة عن بلاطة مغفلة، مستطيلة، رمادية، وسط عشرات البلاطات المتشابهة والمرقَّمة- ورقمها 333؛ بينما الضريح الثاني مدفن حقيقي، لا يلوح كذلك المزار الفخم الذي حدّثني عنه "الخطيب"، إنّما يظل بناءً جميلاً من المرمر الأبيض.

نقش اسم على الضريح ليس اسم عمي الأكبر؛ ولكن حالما انحنيت، قرأت كما لو على رقٍّ:

GABRIEL M.M.

من الواضح أن مدفننا في مقبرة كريستوف كولومبوس قد استقبل، طوال القرن الماضي، جثامين أخرى، ويوجد فيه عدد من الشواهد لأشخاص عديدين، بعضهم من أصل مشرقي، وبعضهم الآخر يحمل أسماءً اسبانية أو سلافية؛ وعلى السطح المرمري، وضعت تماثيل جنائزية صغيرة، سبعة أو ثمانية تشبه لوح الوصايا العشر، أو مقارىء للترتيل، أو جناحي ملاك.

وبجوار القبر، غرست شجيرة أو نمت لوحدها، لا أعرف اسمها، تحمل أزهاراً بلون النبيذ؛ وعلى مسافة، انتصبت سروة قزمة، ثم، وعلى بعد خطوات، وفي المربع نفسه، مزار حقيقي يضمّ رماد أهل خوسيه مارتي ـ وهي جيرة كان جبرايل ليفتخر بها.

جلست على عتبة المدفن في مثلّث الظل الوحيد، وأخذت الوقت الكافي لأروي لماريا، بناءً على طلبها، من كان جبرايل، وما سمعته بشأنه في طفولتي، وما أعرفه عنه الآن.

سألت إن كان لديه أحفاد في كوبا، موضحةً لي أنها عالمة

أنساب أصلاً، وترغب بمساعدتي على اقتفاء أثرهم. فزودتها، عن طيب خاطر، ببعض المعلومات، وبعض الاشاعات العائلية التي أملكها، فدوَّنتها بحماس، ذكرتُ اسم ألفرد، وكذلك أرنالدو الذي أخبرني صديقي لويس دومينغو أنّه رجل نافذ في كوبا. ولكن محاورتي لم تظهر أية ردّة فعل...

قبل انصرافي، سألتني إن كنت أرغب بالحصول على إفادة حرفية، موقَّعة من إدارة المقبرة، لما هو وارد في السّجل. فرحبت بالفكرة بالطبع. ووعدتني الاهتمام بالأمر خلال النهار، والحصول على هذه الإفادة اعتباراً من الغد لو عدت لمقابلتها.

لم تكن ساعة الظهيرة قد حانت حين غادرت المقبرة. لا بدَّ لي من الاعتراف أنني كنت منتشياً. منتشياً لاستطاعتي الخشوع أمام ضريح جبرايل بعد أقلّ من أربع وعشرين ساعة على هبوط طائرتي في هذه الجزيرة. وماذا لو حاولت، في غمار هذه المعجزة، العثور على بيت الجنرال غوميز الذي أفلت مني بالأمس؟ فقصدت وسط المدينة، نحو ذلك التقاطع المهمّ بين "برادو" و"مونتي"؛ ولكن هذه المرّة لم يهبط ملاك من السماء لإرشاد سبيلي، ولم أكتشف شيئاً يبرر إضافة سطور إلى هذه الفقرة.

فعدت إلى حي فيدادو، إلى صاحبة النزل، للراحة من القيظ وتدوين بعض الملاحظات. وبعد انقضاء ساعتين، قررت، مدفوعاً، كما في أغلب الأحيان، بنفاد صبري فقط، المضي مجدّداً إلى وسط المدينة، وفي ذهني فكرة أخرى. فبدلاً من البحث تلمساً عن بيت بعنوان محدد، لماذا لا أذهب إلى العنوان الوحيد المذكور صراحة في رسائل العائلة؟ ألم يطبع جبرايل،

على مغلفاته عام 1912، كما على ورق رسائله، "إيخيدو 5 و7"؟ فهناك، كانت توجد محلاته La Verdad، قبل شرائه، للتوسع في أعماله، المبنى السكني الذي شيد لمكسيمو غوميز. وفي هذا المكان أيضاً، كان يملك هو وأليس شقتهما الهافانية، كما يشهد إعلان عمادة ابنهما البكر عام 1911. ومن المرجح أصلاً أن يكون جدي قد أقام في هذا العنوان، أثناء إقامته في هافانا، واضطر للنوم في السقيفة.

لماذا لم أقصد هذا المكان على الفور بالأمس؟ لسببين أكتشفهما الآن، لدى كتابتي هذه السطور. الأول أنني كنت متشوّقاً لتأمل القصر أولاً الذي يجسّد، في مخيلتي، وبصورة مثلى، إنجاز "حلمنا" الكوبي... والسبب الآخر أن لويس دومينغو حذرني أن العثور على هذا العنوان لن يكون سهلاً.

قبل الإقلاع إلى كوبا، تبادلت الأحاديث هاتفياً وبريدياً، مع صديقي الديبلوماسي الذي لطالما عمل في الجزيرة، كما سبق لي أن ذكرت، وأعطاني ألف نصيحة. ذكرتُ له، من بين أمور أخرى، شارع إيخيدو، فتلطّف وسأل أحد أصدقائه الهافانيين الحميمين، وهو مؤرخ لو يستطيع المرور بهذا الشارع يوماً ويقول لنا ماذا تشبه اليوم واجهات الرقم 5 والرقم 7 - بل ربما التقاط صورة لها.

لم أتلق منه أي صورة؛ بل مجرد رسالة إلكترونية، أوردها كما هي، وهي زادت، كما سنرى، من حيرتي:

> يقول صديقي الكوبي إن الأرقام الصغيرة غير موجودة في شارع إيخيدو لسبب بسيط وهو أن هذا الشارع، ومنذ الثلاثينات، إمتدادٌ لجادة "لاس ميسيونس" التي تبدأ عند "ماليكون"،

واجهة البحر، وكذلك عند "مونسيراتي" التي تصل إلى محطة للقطارات، مقابل بيت مارتي. وبفعل نزوة عمرانية لم يفلح صديقي في تفسيرها - ولا أنا أيضاً! -، يبدأ ترقيم شارع "إيخيدو" حيث ينتهي ترقيم شارع "مونسيراتي"، ويبدأ ترقيم شارع "مونسيراتي" حيث ينتهي ترقيم جادة "لاس ميسيونس"، بدون سبب مفهوم! ولعل الفرضية المحتملة الوحيدة أن الرقمين 5 و 7 حيث كان يعيش سلفك تحوّلا إلى الرقمين 5 و7 في جادة "لاس ميسيونس" حالياً...

لن يستغرب القارئ أنني لم أتشجّع، بسبب هذا التشويش، على الهرولة إلى هذا العنوان مساء البارحة. ولكنني قصدته اليوم، بكثير من المثابرة. ذهبت أولاً إلى شارع إيخيدو، ولاحظت أن أقل رقم فيه هو 501 بالفعل. وعلى مستوى الأرقام 400، يتحول اسم الشارع إلى جادة بلجيكا ثم، على مستوى الأرقام 200 تقريباً، يصبح الاسم مونسيراتي. وأخيراً، وعلى مستوى الأرقام الأصغر، يغدو الاسم جادة لاس ميسيونس - وفي غضون ذلك، كنت قد سرتُ ثلاثة أرباع الساعة.

على بعد خطوات من شاطئ البحر، ينتصب مبنى يحمل على واجهته رقماً مزدوجاً "5 و7"، وكأنه يضع حدّاً لأي تردد محتمل. أمام الباب، يتمشى بعض الحراس مما أثناني عن التسكع في الجوار. وفي كل الأحوال، لايوجد ما يستحق المشاهدة. فبدلاً من المبنى القديم المرسوم في الرسائل المبعوثة عام 1912، تنتصب اليوم بناية في غاية الحداثة يطغى عليها اللون الأزرق الصارخ، ولاشك أنها من أقل البنايات جمالاً في هذه العاصمة الرائعة. والبناية مقر لشبيبة الثورة أو شيء من هذا القبيل. وعلى جدارها قولٌ مطوَّل للقائد العظيم: "إننا نطالب الأجيال القادمة أن تتجانس مع مبادئها".

لربما يجدر بي الاستفادة من سكون الليل لتوضيح مسألة تركتها عالقة خلال سردي لأحداث هذا النهار... فقد اكتفيت، لدى نقلي ما نقش على شاهد القبر، بكتابة "غبريال م.م." وتستحق هذه الحروف الأولى، المتداولة كثيراً بدلاً من الأسماء الحقيقية، التفسير.

لن يستغرب أحدهم إن قلت في هذا المقام، كما أعلنت بشأن مسقط رأسي وبلدي، أن شهرتي واضحة وغامضة في آن. واضحة لأن كل الذين يحملونها يشعرون لدى التلفظ بها بنوع من التضامن العشائري يتجاوز اختلاف اللغات والقارات والأجيال؛ وبعكس معظم الشهرات، لم تتكون هذه الشهرة من مهنة أو مكان جغرافي أو ميزة معنوية أو جسدية، أو اسم؛ فهي اسم عشيرة تربطنا جميعاً، نظرياً على الأقل، بمسار مشترك، بدأ في مكان ما جنوب الجزيرة العربية وتاهت آثاره في ليل الأساطير...

إنها شهرة قابلة للتمييز إذن ولكنها غامضة كما قلت. أولاً بسبب بنية اللغات السامية نفسها، حيث الصوامت وحدها ثابتة، فيما الصوائت تظل متحركة. ولئن ورد حرف الميم الأولي، وحرف اللام المركزي، وحرف الفاء النهائي في كل أساليب كتابة الاسم، فأشكاله لا تعد ولا تحصى، وأعرف منها حوالى ثلاثين شكلاً، يتكوّن المقطع اللفظي الأول فيها من حرف "a" مزدوج؛ أو مفرد، مرفقاً أحياناً بحرف "e"، ونادراً بحرف "o"؛ ويتكون المقطع اللفظي الثاني من "ou"، "o"، "u"، "oo"؛ وكذلك في تصريفات أخرى غير متوقعة تفضي إلى صوامت سلافية، يونانية، أو مغاربية... وأضيف، تداركاً للاختصار، صعوبة أخرى: فاسم أهلي يتضمن صامتة إضافية، "العين"، وهي صامتة خفيّة في

اللغات السامية، لا تنجح اللغات الأخرى في نقلها أبداً، تلك التي تسبق في اللغة العربية الفتحة في كلمة "عربي"، والكسرة في كلمة "عبري"، والعين حرف صامتٌ حلقيّ غير قابل للإدراك، ويستصعب الذين لا ينتمون إلى الشعوب السامية لفظه بل وسماعه. وفي أقدم اسم لبلدي، يقع هذا الحرف بين الصائتين المزدوجين "aa" في كلمة ("Canaan" كنعان)، وفي شهرتي كذلك، يتوارى بين الصائتين "aa"، الأمر الذي يجعل كل أساليب تدوين شهرتي تقريبية.

هل أجرؤ وأضيف أن لا أحد في قريتي، بمطلق الأحوال، يعرفني بهذه الشهرة؟ لا أنا؛ ولا بطرس، ولا جبرايل، ولا أي فرد من أفراد أسرتي. فهذه الشهرة أحملها، نوعاً ما، للذهاب إلى المدينة، أو للسفر إلى الخارج، إنما في المَشرَع وكل القرى المجاورة، لا أستعملها، ولا أحد يستعملها للتعريف بي. والمسألة ليست غامضة فحين تكون الشهرة هي نفسها لمعظم أهالي القرية، لاتعود مفيدة في تمييزهم الواحد عن الآخر. فيحتاجون إلى شهرة أخرى، أكثر خصوصية. وللإشارة إلى هذه الفروع، تستعمل كلمة "جبّ" التي تعني حرفيّاً "بئر"، أو ببساطة أكثر، كلمة "بيت". وعلى هذا النحو، ينتمي بطرس وإخوته إلى بيت "مختارة"، وهو فرع من فروع الأسرة يرجع اسمه إلى اسم سيدة من أسلافي كانت تدعى مختارة. واليوم، حين يستحضر الأهالي ذكرى جدي، لايشيرون إليه بغير بطرس مختارة.

كان الأشخاص الذين لا يفارقون عالمهم القروي الضيق لا يستعملون اسماً آخرَ إطلاقاً. واليوم، قلّما يصادف المرء هذه الظاهرة ولكنها كانت شائعة فيما مضى. وأحياناً، حين يسألهم

موظف عثماني أو فرنسي أو لبناني عن شهرتهم، يذكرون عفوياً اسم فرعهم فيُدوَّن على أوراقهم الثبوتية. وفي أغلب الأحيان، يحدث العكس في الوقت الحاضر: فالاسم الشائع غير وارد في الأوراق الثبوتية التي لاتذكر سوى اسم "العشيرة" الأوسع، الأمر الذي يؤدي، كما هو متوقع، إلى حالات غريبة كحالة ذلك القريب العجوز الذي نادوا عليه عشر مرات باسمه "الرسمي" في طابور بدون أن يخطر بباله أنه هو الشخص المعني إذ لم يسبق لأحدهم أن ناداه بهذا الاسم...

أما بطرس وإخوته فقد اعتادوا استعمال شهرتهم ولقبهم معاً لاسيما لدى إقامتهم في "الديار الأميركية" حيث من المألوف إقحام حرف بين الاسم والشهرة - فتحول لقبهم "مختارة" إلى حرف MÁ خفي وغامض...

في ختام هذا الاستطراد الطويل، يبقى أن أنقل بالكامل الاسم الذي طالعني هذا الصباح على ضريح عمي الأكبر في مقبرة هافانا:

GABRIEL M. MALUF

45

الجمعة

رجعت، كما وعدتُ، إلى مقبرة كولومبوس إنما ليس سيراً

على الأقدام هذه المرّة؛ فلم أجد في نفسي الشّجاعة الكافية للسير تحت الشمس الكاريبية ولو لعشر دقائق. ناديتُ سيارة أجرة- كان سائقها في الواقع جاراً لصاحبة النزل، يمارس هذه المهنة بدون رخصة. تمكّن من الدخول إلى المقبرة والتجول في ممراتها، ثم ركن السيارة في الداخل، وكنت أظن أن كل هذه الأمور ممنوعة.

سرعان ما جاءت ماريا دي لوس أنخيليس للقائي، ولم تناولني "إفادةً حرفيةً" واحدة بل اثنتين، متشابهتين تقريباً، مسحوبتين من السجل عينه، الأولى تتعلّق بجثمان عمي الأكبر، والثانية بجثمان رجل في الثامنة والعشرين، متأهل، إسباني الأصل، كتب اسمه وهو خوسيه كويتو، بعد بضعة سطور، بطريقتين مختلفتين، مرّة Jose Cueto، ومرّة Jose Cuaeto، وقد توفي كذلك "انسحاقاً"، ودفن في القبر نفسه؛ ولعلّه على الأرجح ذلك السائق "الأجنبي" الذي ذكره لي "الخطيب"...

أطلعتني مخبرتي البارعة أن "الملكية" التي يرقد فيها جبرايل ما زالت لأسرتنا استناداً إلى سجلات المقبرة. وخطر ببالي أنه لو وافتني المنية خلال هذه الرحلة، فسوف أدفن هنا - وهي خاطرة لا تفرحني، بالتّأكيد، ولكنها لا تثير قلقي كذلك؛ فلو وافتني المنية في فرنسا، على سبيل المثال، لا أعلم كذلك أين سأوارى الثرى على الإطلاق. وفي الحقيقة، لا أكترث لهذه المسألة. فبعد وفاتي لن أكون سوى شبح رحالة يهيم في أرجاء العالم، أو مادة جامدة. أليس ذلك هو الخيار الذي يتأمّله البشر: فإمّا ألوهة ثانوية أو العدم بدون ذكريات أو آلام؟ في هذه الحالة أو تلك، لن يقدّم أو يؤخّر دفني في أية تربة كانت.

ومع ذلك، اجتزت نصف الكوكب لأتأمّل هذا الضّريح!

وهذا الصباح كذلك، بعد توجهي بالشكر رسمياً إلى ماريا وتسديد كلفة الإفادة، خشعت مجدّداً أمام ضريح الأسرة المرمري، ولم يكن تأثري مفتعلاً.

مرّت سحابة لطّفت حدّة الشّمس، الأمر الذي أتاح لي الوقوف، حاسر الرأس، بضع دقائق إضافية أمام الضريح تتلاطم على صدغيّ الصور والحنين.

حالما انحسر الظلّ، أقلتني سيارة الأجرة إلى المكتبة الوطنية التي تحمل في هافانا اسم خوسيه مارتي الحاضر في كلّ مكان. كنت أعتزم القيام ببحث بالغ الدّقة لأنّني أصبحت أعلم الآن، بفارق يوم واحد، تاريخ الحادث المميت. أفلن أعثر في الصحف التي صدرت آنذاك على بعض الأصداء حول هذا الحادث؟

يذكر جبرايل مطوّلاً، في إحدى رسائله، صحيفة يومية هافانية، اسمها "إل موندو"، نشرت مقالاً عام 1912، يتحدّث عنه مشيراً إليه بعبارة "السينيور غبريال معلوف الذائع الصّيت"؛ فالمنطق يفترض في هذه الحالة أن الصحيفة نفسها لا بدّ أن تذكر وفاة مثل هذه الشخصية في حادث سير.

أعلنت المسؤولة أنّه من غير الممكن للأسف استشارة أعداد صحيفة "إل موندو". فالمجموعة موجودة في المكتبة، بل وأعداد سنة 1918 متوافرة بالكامل، حسب الملفات؛ ولكنّها في حالة مهترئة، وقد تتفتت الصفحات بين أصابعي. وللأسف، فالصحيفة غير متوافرة على ميكرو فيلم.

هل ثمّة صحيفة يومية أخرى تعود لتلك الفترة؟ توجد صحيفة واحدة متوفرة على ميكروفيلم، هي "دياريو دي كوبا"؛ ولكنّها صحيفة لا تصدر في هافانا بل في سانتياغو. لا بأس، حتى لو كانت الوحيدة المتوافرة، فسوف أستشيرها.

وصلتني وشيعة العام 1918 التي تمكنت من إدخالها بصعوبة في آلات قديمة من صنع ألمانيا الشرقية، وبذلت جهداً مضنياً للتقليب فيها، صفحة تلو الأخرى، ويوماً بعد الآخر. اقترب تاريخ الحادث: 27 نيسان/أفريل، 3 أيار/ماي، 12 أيار/ماي، 31 أيار/ماي... في الصفحة الأولى، تتحدث العناوين العريضة بالطبع عن الحرب الدائرة في أوروبا وبعض المساعي لإحلال السلام. 14 حزيران/جوان، 17، 18، 20 حزيران/جوان. الحرب ثانية، وشائعات حول السلام الوشيك، ولكن الصحيفة تذكر كذلك الأمطار الغزيرة التي تتساقط على الجزيرة - بدون نشر صور كانت لتوضح اليوم تلك الكوارث الطبيعية.

وفجأة، صادفت عنواناً عريضاً يتوسط الصفحة الأولى:

DOS MUERTOS A CONSECUENCIA

DE UN ACCIDENTE AUTOMOVILISTA

(مقتل شخصين في حادث سير)

وتحت العنوان مباشرة، بحروف أصغر قليلاً:

أحد الضحيتين تاجر هافاني معروف هو السينيور غبريال معلوف.

ثم نص البرقية:

هافانا، 21 حزيران/جوان (من قسمنا التلغرافي)- البارحة، وفيما كان التاجر السينيور المعروف غبريال معلوف ذاهباً إلى هذه المدينة على الطريق المؤدية إلى سانتا ماريا ديل روساريو، انقلبت السيارة التي تقلّه، الأمر الذي أدّى إلى إصابته بجروح بليغة توفي متأثراً بها بعد دقائق معدودة. كان يقود السيارة

المحامي خوسيه كاستو الذي توفي بدوره، على الفور، جراء الحادث.

وفيما كنت أنسخ بخط يدي، كلمة تلو الأخرى، نص البرقية متسائلاً إن كان المسكين خوسيه يدعى كاستو Casto بدلاً من كوايتو Cuaeto أو كويتو Cueto، أو كان محامياً أو سائقاً، جاءت المسؤولة عن قاعة المطالعة تعلمني أنها عثرت على أعداد صحيفة يومية أخرى لعام 1918، صحيفة صادرة في هافانا هذه المرة، واسمها "دياريو دي لا مارينا"؛ وأنها تسمح لي استثنائياً باستشارة أعدادها الورقية.

لا بد أن هذه الصحيفة مهمة لأنها كانت تنشر إصدارين يومياً، في الصباح وبعد الظهر. وفي إصدار بعد الظهر، بتاريخ الخميس الواقع فيه 20 حزيران/جوان 1918، قرأت، في الصفحة الأولى، تحت عنوان مشابه لعنوان صحيفة سانتياغو - "مقتل شخصين في حادث سير"-، هذا العنوان الفرعي:

انقلبت سيارة تقلّ التاجر غبريال معلوف وسائقه من علو عشرين متراً فوق جسر سان فرانسيسكو دي باولا.

ثم النص التّالي:

علمنا، لحظة استكمال هذا العدد، بحادث سير مؤسف حصل على مشارف العاصمة، على مسافة كيلو متر واحد من قرية سان فرانسيسكو دي باولا. فالتاجر السنيور غبريال معلوف، صاحب المحلات التجارية La Verdad الواقعة على زاوية مونتي وكارديناس، والذي كان يقود سيارته على طريق "غونيس" باتجاه هافانا، انحرف وسقط من فوق جسر على

مقربة من قرية سان فرانسيسكو، في النهر الذي يمرّ تحت الجسر البالغ علوه عشرين متراً.

تحطّمت السيارة. وأخرجت جثة السنيور معلوف وجثة سائقه من حطامها، مسحوقتين كليّاً. وهرعت سلطات القرية لتقديم المساعدة، ووصل القاضي إلى مكان الحادث ليأمر بنقل الجثّتين.

وسوف نزودكم بمزيد من التفاصيل عن هذا الحادث في عددنا القادم.

قلبت الصفحة بسرعة، متشوّقاً لمعرفة البقية؛ فتعالى في صمت المكتبة صوت تمزّق الورق؛ لم يكن الأمر خطيراً، فقد تمزّق بالكاد سنتيمتر واحد من زاوية الصفحة–، ولكن المسؤولة عن القاعة انتصبت أمامي على الفور وشرحت لي أنّه من المجازفة بالفعل السماح للزائرين بالاطلاع على مثل هذه المستندات الهشّة؛ ولم أحسن الدّفاع عن نفسي، إذ شعرت بالارتباك والذنب، فانتزعت مني المجموعة. وعلى حين غرة، أعادتني هذه الحادثة المبتذلة التي أكاد أخجل من سردها إلى سن الطفولة. فعلى الرغم من سني الذي يناهز ثلث قرن من الحياة الراشدة، وبضع مئات من الشعرات البيضاء في رأسي، إذ بي أعاقب كتلميذ مدرسة! فشعرت بالسخط وكذلك برغبة في الضحك. وأخيراً، نهضتُ، وتظاهرت بالاستياء، وانسحبت بكبرياء.

سوف أعود لاحقاً. سأتغيب قليلاً، لمدة يومين في نهاية الأسبوع، ثم أعود كأن شيئاً لم يكن. لامصلحة لي في إثارة فضيحة، ولسوف ألوم نفسي لو تصرفت على هذا النحو. فبعد التفكير بالأمر مليّاً، لا بدّ لي من الاعتراف بأن مكتبة مارتي قد منحتني بعض الامتيازات؛ ففي قاعات المكتبات الباريسية حيث تعودت أن أعمل، لايسمح لي إطلاقاً باستشارة مجموعة

محميّة، ولا يمكن لي أن أحصل على الموافقة أبداً؛ وأصلاً، فشخص مثلي، مجرد مسافر، وعابر سبيل، لن يسمح له إطلاقاً القيام بأبحاث، فعليه أن يملأ استمارةً، ويبرز عدداً من المستندات، وينتظر عدة أيام، بدون أن يضمن الحصول على الموافقة. أما في هافانا، فقد حصلت على امتياز، ولسوف أخطئ لو تصرفت بوقاحة، ومن الأفضل أن أدع العاصفة تمرّ. في كل الأحوال، جمعتُ معلومات ثمينة لا تتعلق فقط بالتاريخ المحدد والظروف والمكان الذي وقع فيه الحادث الذي كلّف عمي حياته، بل كذلك وللمرة الأولى، الموقع المحدد لمحلاته التجارية –، "عند تقاطع مونتي وكارديناس".

مساء الجمعة

بعد تناول الغداء، وقبل انتظار ساعة الطراوة، ناديت سيارة الأجرة المزيّفة لتقلّني إلى هذا العنوان. في السكة، ألقيتُ نظرةً على الخريطة، فلاحظت أن شارع كارديناس يمتد من مونتي إلى محطة سكة الحديد التي يذكرها جبرايل في رسائله. عظيم، كل التفاصيل متطابقة. أحترق شوقاً، كما كنت أقول في طفولتي...

في الحقيقة، كنت لا أحترق بعد. فحالما وصلت إلى المكان، اعترتني الحيرة ثانيةً، فقد اختلطت المعالم الطوبوغرافية، وضاعت الملامح.

نظرياً، لا يمكن لغير المبنيين عند تقاطع الشارعين أن يكونا، في حياة سابقة، البيت الذي شيدته الحكومة للبطل مكسيمو غوميز، واشتراه عمي مقراً لمحلاته التجارية La Verdad. تنقلت من رصيف إلى آخر أتفحّص المبنى الأول، ثم الثاني، ثم الأول، فالثاني. لا، لا يقنعني أي منهما، فلا واحد منهما يلوح

كأنه كان قصراً فيما مضى؛ فالأول يشبه مصنعاً قديماً، والثاني يلوح كمبنى للإيجار. أدوِّن الملاحظات، أقيس بأصابعي المنفرجة علوَّ السطوح، أتكئ على عمود؛ محموماً، خائباً، مهموماً، لا ألمح أن الناس يتجمعون من حولي شيئاً فشيئاً أو يطلّون من النوافذ، يراقبونني بفضول، وبشيء من الريبة.

لم أدرك البلبلة التي أثيرها إلا حين نادتني امرأة خلاسية، في حوالى الأربعين من العمر، من شرفتها، وقد ضمَّت يديها على شكل بوق. رمقتها، بفضول؛ فأشارت لي أن أقترب، وشعرت بنفسي مضطراً لذلك. ثم شرعت أشرح لها سبب رواحي ومجيئي، واقفاً تحت شرفتها مباشرة، وقد ضممت يدي على شكل بوق.

كنت متأكداً أنها لن تفهم شيئاً، ولكنني أردت على الأقل الإعراب عن حسن النية باعتمادي وضعية التبرير، ثم أعتزم تحيتها بإيماءة والانصراف بهدوء. ولكن السيدة ألحّت، ولمّا لم تفهم شيئاً بالضرورة من إيماءاتي، فعلت شيئاً لا يحدث عادة في بلد آخر غير هذا البلد: سحبت من جيبها علاقة مفاتيح ورمتها لي بدون أن تتفوه بكلمة واحدة. فالتقطتها في الهواء، ثم نظرت إليها متسائلاً وضاحكاً. أشارت إلي بإصبعها إلى مدخل بنايتها ودخلتْ إلى شقتها على الفور استعداداً لاستقبالي. هل بقي أمامي خيار؟ فصعدت إليها.

خلف الباب المعدني، يوجد سلّم معتم ووعر ينسى المرء لدى رؤيته على الفور أن الشمس مشرقة في الخارج. وبدلاً من تلمّس موقّتة إنارة غير موجودة على الأرجح، تشبثت بالإفريز كحبل تسلق الجبال، مردداً للمرة المئة منذ وصولي إلى هافانا أن

هذه المدينة هي على الأرجح أجمل المدن التي زرتها، ولكنها كذلك الأكثر قباحة؛ ففي كل خطوة، أرغب بالتوقف أمام مبنى فخم افتراضياً، لأنصّب نفسي مهندساً معمارياً أو مزخرفاً، وأتخيل واجهته في حال ترمّمت "إساءات الزمن" الثوري... ففي هذه المدينة، يتشظى قصر إلى أربعة عشر بيتاً حقيراً، ويستعيد المرء على الدوام معضلات ضميرية فاسدة: فهل يتحتم حقاً على مبدأ المساواة السامي أن ينشر على هذا النحو القذارة والقباحة؟

وإذ بلغت عتبة الطابق الثاني، وهذه التساؤلات تلوح في عينيّ، كدت أخجل من النظر إلى وجه هذه السيدة اللطيفة التي دعتني إلى شقتها. في الحجرة الوحيدة التي ترتعش فيها الصورة على شاشة تلفاز قديم، عرض عليَّ مراهقان مضطجعان أرضاً على الفور شراء بعض السيجار المهرَّب لدى رؤية سحنتي الأجنبية؛ إنّما باسترخاء، وبدون أن يجشما أنفسهما عناء النهوض، وكأنّما ذلك العرض يندرج ضمن العادات الطبيعية بين عالمهم وعالمي. فأجبت بابتسامة لبقة، ولكن الأم وجهت لابنيها تقريعاً أشاح بنظرهما إلى الشاشة الصغيرة الساحرة.

فحاولت أن أشرح لمضيفتي سبب وجودي في شارعها، أمام بنايتها، متحدثاً بالضرورة، مرة أخرى، عن "سلفي"، مما أثار لديها ولدى ابنيها على الفور ارتعاشة قلق؛ ففي هذا البلد الذي صودرت فيه الكثير من المنازل لتوزيعها على سكانها الحاليين، قد يخالونني ببساطة مالكاً قديماً قدم لتفحص المكان بنيّة العودة بعد حين، برفقة كاتب محكمة، للمطالبة بأملاكه.

بذلت جهداً لإشاعة الطمأنينة في نفوسهم: فوالدي لم يكن مقيماً في كوبا بل عمي الأكبر؛ ولم يسكن في هذا المبنى بل في

المبنى المقابل؛ كما أنّه توفي عام 1918. كررت مرتين وثلاث وأربع مرّات التّاريخ، للايحاء بأنّني مجرد شخص مجنون يشعر بالحنين عوضاً عن مهاجر يأتي للانتقام. ودعتني السيدة، وقد استعادت ابتسامتها، أن أرافقها عند جارها فيديريكو، في آخر الممر. وهناك، تكررت التفسيرات وأمارات القلق والاستيضاحات- "شقيق جدّك؟"- والتواريخ، الخ. وأمعن الرجل التفكير، وحكّ شعره، قبل إصدار الحكم: "دولوريس وحدها قد تعرف". فوافقت جارته على كلامه. فدولوريس هي الوحيدة التي تعيش في المبنى منذ زمن بعيد. وهي تسكن في الطابق الأرضي لو شئت مقابلتها...

أوحت لي السيدة في الطابق الأرضي أنّها إسبانية أرستقراطية قد يكون أسلافها قدموا إلى كوبا على متن سفن كريستوف كولومبوس، ثم رحلوا بعد أن نسوها في هذا المكان. كانت شقتها معتمة كالكهف، ولكن ضياءً ليلياً ساكناً يشع من شعرها الأبيض. كانت شقتها تشرف مباشرة على الرصيف، ولعلها مخزن قديم. استقرّت في الحي منذ عشرات السنين، وعملت طويلاً في المبنى المقابل رئيسةَ قسم للمبيعات. ولكنها لم تسمع في حياتها بمخازن La Verdad، ولا ببيت شيّد سابقاً لمكسيمو غوميز. "أنظر بنفسك أصلاً، فلا مبنى من هذه المباني صمّم كسكن لبطل قومي". لم تسعَ لإثباط عزيمتي، فتلك هي الحقيقة كما تراءى لي. ثم أعربت عن أسفها، وكان أسفها يبدو لي صادقاً؛ ولمع في عينيها، منذ تبادلنا الكلمات الأولى، بريق من الفضول السويّ. فاستفسرت عن تلك المخازن، وعن جبرايل، وعن

وفاته، ثمّ أصدرت فرضيات منطقية، وقدَّمت بعض الاقتراحات: "يجب أن تذهب لاستشارة مؤرّخ المدينة؛ ولو شئت، تعال وسوف أرافقك إليه". لفظت عبارة "مؤرّخ المدينة" باعتزاز كبير، فوعدتها- ووعدت نفسي- باللجوء إليها في مطلع الأسبوع، لأنّ الوقت قد تأخر، بعد ظهر يوم الجمعة، لزيارة إدارة رسمية.

مرّة أخرى، لم أشبع فضولي بشأن بيت غوميز الشهير. وما زلت لا أعرف هذا البيت، أو إن كان موجوداً حتّى الحين. فالغموض لم يتبدد على الرغم من وضوح العنوان أكثر من ذي قبل.

تخلّلت الخيبات نهاري، ولكن هذا النهار لم يخلّف لدي أي مرارة. فلئن لم تزد معلوماتي عن البارحة، فقد تلقيت ألف إحساس غامض وملتبس على الرغم من حقيقة هذه الأحاسيس. فهذا البلد بدأ يروضني كما استحوذ في الماضي على جبرايل. يُرمى لي بمفاتيح من الشرفات، تُصادر كتبي، تُرفع معي الكلفة في الشوارع، يبادلونني الابتسام، يلاطفونني، يساعدونني، يعاقبونني. إنني أتعرض للضغط بملء روحي كذكر مشرقي وراشد مطبوع بالطّباع الأوروبية. ما كان جدّي ليطيق ذلك، ولا ألومه. أنا فقط حزين من أجله، من أجلنا، لأنّه اختار ألاّ يبقى في هذه الجزيرة.

أجل، أعرف أنّه من العبث تحليل الأمور على هذا النّحو؛ فلو اختار بطرس الاقامة في كوبا، لعاش حياة أخرى، وأنجب أولاداً غير أولاده، وكان له أحفاد غير أحفاده، وما كنت جئت إلى هذا العالم لا في جزر الكاريبي، ولا في الشرق، أو في

مكان آخر. فقد ولدت من لقاءات متعاقبة، لو نقص أحدها، لما أبصرت النور ولما اشتاق إليّ أحدهم... كنت أسعى فقط للقول إنّ هذه الجزيرة تلهمني حناناً عميقاً؛ وفي حياة أخرى، كنت لتبنيتها واستمتعت بعشقها.

46

السبت

لا ريب أنّني لم أكتشف البارحة أي اكتشاف يذكر، ولكني علمت بواسطة الصحيفة التي طالعتها في المكتبة الوطنية الموقع المحدد الذي وقع فيه حادث السير الذي كلّف جبرايل حياته وحياة الشاب الذي كان يرافقه. واليوم، ذهبت أحجُّ إلى الجسر القديم في سان فرانسيسكو دي باولا.

لا تذكر الأدلّة السّياحية الحديثة هذه البلدة الواقعة جنوب شرق هافانا إلاّ لأنها تضمّ متحف هيمنغواي. وعلى الرّغم من موقعها بجوار العاصمة، فهي لا تعتبر جزءاً منها بكل ما للكلمة من معنى، على الأقل ليس بعد؛ لأن المنشآت العمرانية المتنامية لم تصل تماماً بين الضاحيتين؛ ويكتنف المرء الاحساس بأنّه غير موجود فيها بالفعل في مدينة، لاسيما حين يجتاز المباني الحديثة القليلة في وسط المدينة لسلوك الطّريق المؤدية إلى "غونيس"، ثمّ أبعد منها، إلى ماتانساس.

"على بعد كيلو متر واحد من القرية"، كما تذكر صحيفة دياريو دي لامارينا بتاريخ. 2 حزيران/جوان 1918، كان يوجد- وما زال- جسر.

تركن سيارة الأجرة على بعد خطوات، في زاوية ظليلة، وأعود سيراً على الأقدام إلى الموقع الذي لا بدّ أنّ الحادث وقع فيه. تضيق الطريق المؤدية إلى هافانا فجأة عند هذا المستوى. لا ريب أنّ جبرايل الذي كان يقود سيارته بسرعة فائقة أدرك ذلك بعد فوات الأوان؛ وإذ حاول الفرملة، انزلق على الطريق الموحلة، وهوى في الوادي الذي لايقع "في الأسفل على مسافة عشرين متراً"، كما ذكرت الصحيفة، بل على مسافة ستة أو سبعة أمتار- ولكنه علوٌّ كافٍ للتسبّب بمقتل ركاب السيارة التي اندفعت إلى الهاوية بأقصى سرعة.

لو يتسنى لي للحظة نسيان المأساة التي حصلت، لتراءى لي الموقع كجنّة استوائية صغيرة: ذلك الجدول العذب المزيّن بالحجارة البيضاء، وأشجار الموز؛ وأشجار النخيل الشبيهة بتلك الصورة في البطاقات البريدية؛ وشجرة "الياغروما" التي اجتاحها حتى قمتها نبات متسلّق ضخم الأوراق؛ ومن ثمّ هذا البساط من الأعشاب البريّة. ولكنّ الموقع كان يحتوي على الوحل، والوقود المسفوح، والدماء يوم لقي جبرايل مصرعه.

وفيما كنت منهمكاً برفقة سائق سيارة الأجرة، قرب الهاوية، اقترب منا رجل مسنٌّ وسألنا إن أصابنا مكروه. أوحى لي، بقبعة الورشة البرتقالية التي يعتمرها للاتقاء من الشّمس، أنّه مهندس مدني متقاعد. قال لي: "كنت أعمل في حديقتي وإذ بي ألمحكما تنظران إلى الأسفل، فخشيت أن يكون حادث آخر قد وقع.

فالحوادث كثيرة في هذا المكان، كما تعلمان! لأن الطريق تضيق فجأة، والناس الذين يقودون بسرعة فائقة لايستطيعون التوقف" . . .

كان الرّجل يرافق كلامه بإيماءات توضيحية. أصغيت إليه، وأنا أهزّ رأسي بلباقة، لا أعرف إن كان يجدر بي الضحك أو البكاء أمام هذه الشهادة المتأخرة. فلو قيلت هذه الأقوال أمام لجنة محلفين، لبدَّدت كل الشكوك حول فرضية الاغتيال. كانت تخامرني الشكوك قبل زيارتي للموقع؛ أمّا وقد وقفت اليوم هنا، فقد تبدّدت شكوكي. ففي ذلك النّهار المشؤوم من شهر حزيران/ جوان 1918، كان العدو الوحيد لعمي الأكبر هو نفسه، وقاتله كانت رغبته الجامحة بالعيش والوصول بسرعة فقط. وتواطأت معها الأمطار الغزيرة. . .

لعلني مخطىء ولكن هذا هو إيماني العميق في هذه اللحظة.

منذ إقامتي عند بيتي، سألتني هذه السيدة مراراً عن سبب زيارتي لهافانا، وتنقلاتي؛ فأطلعتها بطيب خاطر؛ ولأنّه ليس لديّ ما أخفيه، ولاقتناعي بأن جارها، سائق سيارة الأجرة المزيف قد أعلمها أصلاً بتنقلاتي، تعوّدت أن أسرد لها في المساء ما أفعله خلال النهار، على الشرفة، أمام كأس من الروم، أو في الصباح أمام فنجان قهوة- بالمقابل، لايوجد أثر للشاي في كوبا هذا العام؛ ولم أسع لمعرفة السبب. . .

في ذلك المساء، إذن، لدى عودتي، أعلمتني صاحبة النزل أنها أخرجت من خزاناتها القديمة وثيقة ترى أنها قد تفيدني في أبحاثي: كانت خريطة قديمة جداً لهافانا، رُسمت في عهد

الإسبان، واشتراها جدُّها حين كان ضابطاً؛ ونظراً لأنها لم تستعمل، فقد ظلّت بحالة جيدة، بالرغم من تهشّمها لدى ثنيها. ولكنها كانت مقروءة بوضوح وتبين أنها غنية بالمعلومات بعد بسطها على مائدة الطعام، تحت ثريا قوية الإنارة.

بحثت نظرتي أولاً عن الجادات الكبرى: كانت كلها، بصورة غريبة، هي نفسها في الخرائط الحديثة، إلاّ أن معظمها تبدّل اسمه- على الأقل ظاهرياً. وعلى هذا النحو، كانت الجادة التي تحمل اليوم اسم مكسيمو غوميز تدعى في أواخر العهد الكولونيالي اسم جادة "الأمير ألفونسو"؛ ويبدو أن الناس أصرّوا على تسميتها "مونتي"، نظراً لأن هذا الاسم مذكور بين قوسين. وعلى مقربة، تقع حديقة " إيزابيل الكاثوليكية"، وكذلك "شارع الملكة" الذي أعيدت تسميته، في قسم منه، بشارع "سيمون بوليفار". أما "شارع إيخيدو" فقد عجبت كثيراً لأن اسمه لم يتبدل إطلاقاً! قارنت الخريطة القديمة بالخريطة الحديثة، ولاحظت أن الشارع يبدأ دائماً في المكان نفسه؛ وبوسعي مقارنة الأرقام: فحيث أقرأ على الخارطة الحديثة 517 - وهو دير قديم للأورسولين- كان هذا الرقم 17 في عهد الإسبان. هذه المرة، أجل، أرغب أن أصرخ: "وجدتها!".

ليت الفجر يبزغ سريعاً لأقصد المكان وأتحقق من الأمر.

دخلت إلى غرفتي لأنام، ولكن نفاد صبري سبَّب لي الأرق. سكبتُ كأساً من الروم وخرجت للجلوس على الشرفة، حاملاً مفكرتي.

لعل الحي نائم، ولكنّ الأصوات لا تنام. فالكلاب ما زالت

تعوي، كلاب الجوار وكذلك كلاب الليل البعيد. وبين الحين والآخر، تزعق الجارة الشرسة، كعادتها:

"لازارو!"

ابتسمت وأغمضت عينيّ. هبت ريح خفيفة دافئة على جفنيَّ الدبقين. فجأة، يخالجني الشعور أنني ولدت في هذه المدينة. أجل، في هذه المدينة أيضاً.

47

الأحـــد

باكراً هذا الصباح، حين بدأت العائلات السبع أو الثماني التي تقطن في 505، شارع إيخيدو، تفتح نوافذها ليتسلل إلى شققها ضوء النهار، لمحت غريباً جسيماً، طويل الشعر أشْيَبَه، واقفاً على الرصيف المقابل، مستنداً إلى الصخرة الغريبة المزروعة، والله أعلم بسبب زرعها، وسط أشجار النخيل المروحية في الساحة المثلثة الصغيرة، حاملاً في يده مفكرة بلون التراب ورسالة كتبت في هذا السكن عام 1912.

طالما لم أشاهد المبنى بعد، كنت في حيرة من أمري، لا أملك سوى فرضيات، وظنون، وتوقعات. والآن، أصبح لديّ يقين أتحقق منه بأمّ العين: فالواجهة أمامي مطابقة لتلك الواجهة المرسومة على مغلفات جبرايل، كما على الورق الذي يحمل

شعار محلات La Verdad. أجل، مطابقة كلّ التطابق، فالأعمدة الأمامية نفسها، وأطر النوافذ نفسها، وشكل السطح نفسه، والأفاريز نفسها... إلاّ أن محلات عمّي الأكبر كانت تمتد على مبنيين مجاورين، رقم 5 و 7؛ واليوم لم يبق سوى المبنى الأول، الكائن لجهة اليسار، والمعاد ترقيمه 505؛ وقد تهدم المبنى الثاني، ولا يوجد في موقعه سوى أرض بور.

نظرت مجدداً إلى الرسم، ثم المبنى، فالرسم، ورحت بأصابعي أقيس، وأقارن... كان عمّي الأكبر قد كتب بحروف بيضاء على الواجهة بأكملها:

La Verdad De G. M. Maluf، أي محلات "لا فرداد" لصاحبها غ. م. معلوف. وعلى المبنى الذي ما زال منتصباً، كان يتسنى للمرء أن يقرأ فيما مضى La Verdad وحرف D في، DEوحرف E المتوزع على مساحة المبنيين الأوسطين. اقتربت. هل هو وهم، أم هلوسة، أم سراب؟ يوجد بوضوح، في الموقع نفسه، النصف السفلي من حرف A في كلمة Verdad، وكذلك بقية من حرف D الأخير. هل يعقل أن تكون هذه الحروف قد بقيت بعد مرور كل هذه السنين؟ يأمرني المنطق أن أصمت، ويفضل أن يعتبرها آثاراً كلسية، أو بقايا طلاء حديث. لاحقاً، سوف أتفحّص الصور بالعدسة المكبرة، وبالمجهر... إنما لا، ففي نهاية المطاف، ما جدوى القيام بذلك؟ لديّ الأرقام والرسوم، فما حاجتي لاستحضار الهلوسات؟ لماذا أقايض بهجة الاكتشاف المباغت بمعجزة مبتذلة؟

اقتربت من المدخل الذي أصبح اليوم مدخل مسكن قذر ولكنه يملك باب متجر أثري. رمقني الناس بفضول، فشرحت لهم

بإسبانيتي المتعثرة ما لا أكف عن شرحه منذ وصولي إلى كوبا. لم يبتسموا لي، وظلّوا صامتين، مكتفين بهزّ رؤوسهم بإرهاق وإذعان. في الداخل، اسودَّ كلّ شيء بسبب البؤس والسخام. ارتقيت سلماً إلى الطابق العلوي، وجال بصري باحثاً عن السقيفة التي نام فيها جدّي لدى إقامته في المدينة، ممّا تسبب له بالإحباط لا ريب، وأثناه عن تمديد إقامته.

على الرغم من شعوري مثله بالضيق في هذا المكان، فرضت على نفسي البقاء فيه لدقيقة أو دقيقتين، ساكناً وسط رطوبة العتمة، وكأنني أريد أن أستنشق داخل روحي شيئاً من روح "بيتنا" القديم. غير أنني كنت مستعجلاً للانصراف. فذهبت مجدداً للجلوس على الصخرة، قبالة البيت، لأشمله بنظري من بعيد، وأتخيل الأزمنة الغابرة، وأقوم بتدوين هذه الملاحظات.

أشعر بإحساس من عدم الجدوى والنسيان يجتاحني. عما جئت أبحث، أصلاً، في هذه المدينة؟ عن بصمة أهلي؟ أمام ناظري، تنتصب أساطيرهم المتصدعة، ورمادهم يرقد في المقبرة.

48

الاثنين

ذعدت هذا الصباح إلى مكتبة خوسيه مارتي. ففتحت الأبواب التي كانت موصدة، وأبواب أخرى لم أفطن لها. الآلهة

المرحة في هذه المدينة تسهر على مساري، أو لعلها أرواح الموتى المهاجرين.

وصلت إذن، وجلست إلى طاولة فارغة، وطلبت استشارة الأعداد الورقية لصحيفة "دياريو دي لامارينا"، وكأن حادثة الجمعة لم تحصل. فأحضرت لي المسؤولة عن قاعة المطالعة بنفسها المجلد إلى طاولتي، وهي تغمزني غمزة متواطئة لتفهمني أن ما حصل كان ضد إرادتها. طبعت على وجهها قبلة عفوية؛ فانتفضت، ولكن ابتسامتها اتسعت. سمعت زملاءها يتضاحكون خلفي. يا إلهي، كم أعشق هذا البلد! وكم آسف لأن أهلي تخلوا عنه يوماً! ولعلهم كانوا سيفارقونه في كل الأحوال، لأسباب مختلفة كلياً، بعد عشرات السنين. فدروب التاريخ الكوبي لم تكن أقل انزلاقاً من دروب سان فرانسيسكو دي باولا...

عبثاً بحثت في عدد الصحيفة الصادر بتاريخ 21 حزيران/جوان 1918 عن تفاصيل إضافية حول الحادث. ولكنني طالعت في الصفحة الرابعة نعوة مؤطرة بالسواد، يعلوها صليب، والحروف التالية: .D.E.P اختصار لعبارة Descanse En Paz، أي "فليرقد بسلام". ثم نص النعوة:

وفاة السنيور

غبريال م. معلوف

سوف يوارى جثمانه الثرى اليوم الجمعة الساعة الرابعة بعد الظهر. وترجو أرملته وأقاربه أصدقاءه حضور تشييعه من منزله الكائن في 53، شارع باتروثينيو، لوما ديل ماثو، إلى مقبرة كولومبوس.

ويلي ذلك أسماء أليسيا وأولادها، وألفرد، وشخص يدعى سالومون ب. معلوف، وزهاء اثني عشر صديقاً مقرباً، ولا عجب أن يكون في عدادهم الحاضر أبداً فرناندو فيغيريدو سوكارّاس. لاحظت أن الأصدقاء المقرّبين الآخرين المشاركين في المأتم ينتمون إلى أصول مختلفة للغاية: خوسيه سيدري فرنانديز، تشارلز بركوفيتز، الياس فليفل، خوسيه سولاون، ميلاد كريماتي، بابلو يودو، برناردو أرغيلييس، أليخاندرو إ. ريفيرو، أوريليو ميراندا، موريس هايمان، وكذلك كارلوس مارتي- الصحافي المشهور، والأديب الكوبي، الكاتالاني الأصل كخوسيه مارتي، ولكنّه لا يمتّ له بصلة قربى...

دوّنت بعناية كلّ الأسماء بدون التركيز عليها كثيراً. فما استوقفني تحديداً في هذا النص كان عنوان جبرايل الذي نقلته بحروف عريضة على ورقة منفصلة: "..... شارع باتروثينو، رقم 53، لوما ديل ماثو".

قررّت البحث عن هذا الحي وزيارته. ولكن قبل ذلك، وإرضاءً لضميري، تابعت قراءتي لصحيفة "دياريو دي لامارينا"؛ حيث عثرت في الصفحات التالية على نعوة ثانية تحمل توقيع موظفي محلات La Verdad، ثم نعوة ثالثة تحمل توقيع الجمعية المدعوّة "الترقي السوري".

في العدد التالي، أي بتاريخ 22 حزيران/جوان، ورد عرض للمأتم، وهو يشكل بدون شكّ أبلغ دليل على المكانة التي كان يتمتع بها جبرايل في المجتمع الكوبي في ذلك العصر.

مأتم السنيور معلوف

مظهر حداد مؤثر، وتعبير جميل عن التعاطف، ذلك كان حفل

تأبين السيد غبريال معلوف الشهير والتاجر المحترم في هذا الحي، والذي ذهب ضحية حادث سير مفجع عرضنا لتفاصيله في عددنا الصادر بعد ظهر يوم الخميس.
تحولت دار الزوجين معلوف البديعة، الكائنة في شارع باتروثينو رقم 53 إلى كنيسة غصت بالمعزين. كان حزن أسرته مفجعاً.
ففي قاعة التأبين نفسها، سجّي جثمان السيد معلوف وجثمان سائقه، السيد كويتو، وعلى نعش هذا الأخير، لمحنا إكليلاً يحمل العبارة التالية: "من أسرة معلوف إلى خوسيه كويتو"، لأن السائق الإسباني المسكين كان بدون عائلة في هذه الجمهورية، وهي بادرة تستحق التنويه.
كان النعش الفخم للتاجر المأسوف عليه مغطّى بالأكاليل الجميلة وبكمية هائلة من الصلبان المصنوعة من الزهور الطبيعية، أرسلتها شركات معروفة، بالإضافة إلى عدد كبير من عائلات مدينتنا.
وفي تمام الرابعة بعد الظهر، انطلق الموكب الجنائزي من لافيبورا. وكان حشد المشيعين عظيماً. وسارت وراء النعش المتقشف والفخم مئات السيارات. وعند مدخل مقبرة كولومبوس، انضم الكثيرون إلى الموكب.
أثناء حفل التأبين، تقدم الحضور سلف الفقيد، السيد ألفريدو ج. معلوف؛ والسيد الكولونيل فرناندو فيغيريدو سوكاراس، الأمين العام لخزينة الجمهورية؛ والسيد خوسيه سولاون، والسيد أوريليو ميراندا، والسيد تشارلز بركوفيتز، والطبيبان برناردو مواس وفيليكس باخيس، وزميلنا كارلوس مارتي، بالإضافة إلى السادة الياس فليفل، وميلاد كريماتي، وبابلو فوخ، وبرناردو أرغيلليس، وأليخاندرو إ.ريفيرو وموريس هايمان. ثم وفود من جمعية الموظفين في قطاع التجارة الذي كان الفقيد عضو شرف فيها، وجمعية "الترقي السوري" الذي

كان رئيساً لها، إلى جانب ممثلين عن الجاليات الفرنسية، والأميركية، والإسبانية والسورية، وشركات بارزة في العاصمة.
وقد ووري جثمانه الثرى في أحد مدافن الأبرشية بعد كلمات تأبينية مؤثرة بالإسبانية، والانكليزية، والفرنسية والعربية، ألقاها الأصدقاء المرموقون للفقيد، أثنت على صفاته، وطبعه، ومهارته، وحيويته، وحسّه القيادي، التي كانت تتجلّى في كلّ مبادراته، وفي كلّ التزاماته اليومية، كما في اهتماماته. ومن بين المقرَّبين الذين ودّعوه إلى مثواه الأخير السّيد مارتي.
كان الفقيد ينتمي إلى أسرة مرموقة في سوريا. ويقيم في جبل لبنان أحد أشقائه وهو من كبار القادة الروحيين في الكنيسة.
فليرقد الفقيد بسلام في مثواه الأخير، وقد كان زوجاً صالحاً وأباً عطوفاً ورجلاً مفيداً للمجتمع.
نتوجّه إلى أرملته المفجوعة، السيدة المرموقة والمثقفة أليسيا معلوف، وإلى السيد ألفريدو معلوف، بأصدق تعازينا.

تطلّب الأمر نسخ هذا المقال الطويل بأناة بخطّ اليد لأنّه لم يكن من الوارد تسطيح المجلّد الضّخم على الناسخة! وبعد فروغي من ذلك، لم أملك الصبر الكافي لمتابعة البحث في الصحف القديمة الصادرة في تلك الفترة؛ وكنت مستعجلاً لزيارة العنوان الذي توجد فيه، حسب كاتب المقال، "الدار البديعة للزوجين معلوف".

فبحثت، على خريطة هافانا، عن حي "ماثو ديل لوما" المذكور في المقال إنما بدون جدوى. فسألت المسؤولة عن قاعة المطالعة في المكتبة. لم يعن لها هذا الاسم شيئاً. ومن الواضح أنه لم يعد متداولاً. فنصحتني بالبحث في قسم الخرائط القديمة. وكان بوسعي كذلك الانتظار ريثما أعود إلى النزل وأستشير

الخريطة القديمة التي أعطتني إياها صاحبته، ولكن بما أنني موجود في المكتبة...

كان بحثي قصيراً ومثمراً: فذلك الاسم كان وارداً بالحروف العريضة على خريطة للمدينة تعود لأوائل القرن العشرين؛ ولا بدّ أنّه الحي السكني المعروف للهافانيين الأثرياء، على مرتفعات المدينة؛ ولكن اسمه "ماثو ديل لوما" أي "مطرقة التلة "تعرّض حينها لمزاحمة اسم آخر، أكثر تداولاً، ظلَّ في التداول؛ وتذكر صحيفة "دياريو دي لامارينا" هذا الاسم الشائع لأنها أشارت إلى انطلاق الموكب الجنائزي من حي "لافيبورا"؛ وقد قرأت هذا الاسم بالفعل أثناء نسخ المقال، ولم أفهم الصلة بين الاسمين بسبب استعجالي...

مما لاشكّ فيه أن الكوبيين لا يراعون إطلاقاً الأسماء المفروضة عليهم. فلا عجب أن قائدهم العظيم اليوم لم يشأ أن يقترن اسمه بأي شارع، أو ساحة، أو مبنى. واتخذ تدبيراً حكيماً إضافياً فلم يشيد نصباً تذكارياً له أو يعتمد طابعاً بريدياً يحمل صورته. ويوم يثور أخلافه على ذكراه، وهو يوم قريب حتماً، لن يجدوا أية لحية برونزية يحطمونها، ولا شيء يذكر ليبدلوا اسمه...

وبالتالي، تناسى الناس اسم "مطرقة التلة"؛ وبقي اسم "لافيبورا" أي "الأفعى"- وهو الاسم الوحيد الذي يعرف به اليوم ذلك الحي الواقع جنوب شرق العاصمة، على مقربة من طريق سان فرانسيسكو دي باولا؛ ولو اعتمدنا على الساعة التقريبية لإنجاز العدد اليومي الثاني من صحيفة "دياريو دي لامارينا"، بوسعنا الافتراض، عن صواب، أن جبرايل كان

مستعجلاً للعودة إلى البيت من أجل تناول الغداء ساعة فقد السيطرة على سيارته.

هتفت لسيارة أجرة لدى خروجي من المكتبة- كانت سيارة "دودج" عتيقة، حمراء سقفها أبيض، يصادفها المرء في المتاحف وفي شوارع هافانا فقط؛ حددت للسائق العنوان، ثمّ غرقت في بئر من التأملات. لاشيء من حولي سوى الضوضاء وصور خاطفة. كان يساورني شعور غريب بأنني ركبت سيارة للعودة إلى أوائل القرن العشرين القهقرى، وينتابني الخوف من اللحظة التي سأستيقظ فيها في فراشي متسائلاً عن مغزى هذا الحلم. غير أنني فتحت عيني فألفيت نفسي أمام اللوحة التي تحمل اسم شارع باتروثينيو.

_عن أي رقم تبحث؟

_ ثلاثة وخمسين.

مضى السائق قدماً لأن هذا الشارع كان مستقيماً لا ينتهي. ومع ذلك، يبدو أنه يتوقف في لحظة من اللحظات؛ فيما أرقام منازله ما زالت في الثلاثمئة ونيف، واعترض أحد المباني سبيلنا عملياً، كان إنذاراً خاطئاً إذ يكفي الانعطاف إلى اليسار، ثمّ سلوك الاتجاه عينه، لنعود إلى شارع باتروثينو مجدداً، وبدأت الأرقام تتناقص.

ثمّ صارت الطريق جبلية؛ وعلى يسارها ويمينها، سلالم طويلة وعرة بدلاً من الأرصفة؛ فافتقر السائق إلى الجرأة والقدرة على الصعود بسيارته؛ وفضّل العودة أدراجه واستعادة اندفاعه في السّهل. ولما عاود الهجوم، وبلغت سيارته، على الرمق الأخير، أعلى التلة، كدت أصفق له كما يصفق الركاب أحياناً لدى هبوط الطائرات المتوسطية.

تناقصت أرقام الشارع، واحد وسبعون، خمسة وستون، وعلى يسارنا، ثمانية وستون. أما الطريق فاستمرت صعوداً، إنّما بانحدار أخفّ. فخطر ببالي تعبير شائع في لبنان؛ فللتلميح إلى نجاح أحدهم، يقول الناس: "بيته في راس الضيعة!". فلا عجب أن يكون ابن الجبل قد أراد التأكيد على نجاحه الاجتماعي بالإقامة على قمم الجبال.

ثلاثة وخمسون. يا إلهي!

تمتمت: "هذا بيتنا"، مع العلم أنه ليس بيتي بمطلق الأحوال؛ بل على أبعد تقدير، ووفق الفرضيات، بيت حوالى اثني عشر نسيباً بعيداً لم ألتق بهم قط. وتمتمت ثانية: "بيتنا"، واغرورقت عيناي بالدموع، بغباء، وبتفاهة.

ثم تأملته بحنان، ولاحظت أنه لم يتصدع قط على عكس معظم البيوت الهافانية، بل يبدو أنه قد طلي حديثاً خلال هذا العام. وحده السور الخارجي الذي يحمل البوابة الحديدية ويشرف على الشارع مباشرة ملطخ بعفونة حديثة، ولكن البوابة نفسها مكتملة الأجزاء، لا ينقصها رمح واحد، لم تصدأ أو بالكاد.

"بيتنا في هافانا" بناء متين برجوازي بأعمدة، شبيه بتلك المباني المنتشرة في الأحياء السكنية للعاصمة، ألوانه بيضاء وعاجية، أنيق أكثر منه جذاب، وكأنما عرف عمي الأكبر الذي اغتنى فجأة أن يتحاشى، على الرغم من كل شيء، الوقوع في الاستعراضية المبتذلة. وهذا يشكل عندي مفاجأة سارة ونوعاً من العزاء. ونظراً للزخرفة المشرقية على ورق الرسائل الذي يحمل شعار محلاته التجارية واسمه، كنت أتوقع شيئاً مغايراً. ومن المؤكد أن هذه البساطة تعزى إلى التأثير الملطّف لزوجته المشيخية

التي أسهمت تربيتها في تحفظها عن أي تفاخر - ولأنني "تمرَّست" بجدتي، شقيقة أليس، أكثر من ثلاثين عاماً، فليس لدي أدنى شك بهذا الشأن.

كانت البوابة مغلقة بسلسلة حديدية. هل يجدر بي الاكتفاء بهذه النظرة السريعة من الخارج، وبهذه المشاهدات المطمئنة، والعودة أدراجي مزوداً بصورتين أو ثلاث صور للواجهة؟ في الأيام العادية، كنت أحجمت عن الدخول؛ ولكنني لا أتردد عن مخالفة طبيعتي أحياناً منذ وطأت قدماي هذه الجزيرة. فقررت الدخول، ولو اقتحاماً، إذا اقتضى الأمر. فلم آتِ من بعيد، زمنياً ومكانياً، للبقاء خارجاً بتعقّل! فحاولت فكّ السلسلة التي كانت ملفوفة ومعقودة، إنما غير مزودة بقفل لحسن الحظ. ثمّ ارتقيت الدرجات حتى الباب الكبير والعالي من الخشب المنحوت، وكان بدوره محفوظاً بشكل ممتاز، أو لعله مرقّم، وكان منفرجاً فرجة بسيطة لا يمكن أن يلمحها المرء من الشارع.

بأصابعي المثنية والمشدودة، طرقت الباب، بما يكفي من القوة قرب الحافة لينفتح المصراع قليلاً مع كل طرقة. وحين أفلحت أخيراً في إدخال رأسي، لمحت رجلاً جالساً وراء مكتب مثقل بالأوراق والأقلام والأختام. كان من الواضح أنه ليس منزلاً سكنياً، بل مكاتب شركة أو إدارة.

فدفعت الباب تماماً، ملتقطاً أنفاسي. ماذا لمحت أولاً؟ زليجات شرقية على جدران المدخل، يبلغ علوّها قامة رجل، كأنها إمضاء. كان الإمضاء الأرابيسكي القديم الذي خلَّفه عمّي الأكبر على زاوية وطنه الأميركي. فلو كنت قد اجتزت المحيط فقط لتقع عليه عيناي، بوسعي القول إن جهودي لم تضع سدىً.

ابتسم لي موظف الاستقبال وصافحني - كان رجلاً خلاسياً طويل القامة ونحيلاً، يمضغ عقب سيجار، ويدعى ماتيو. أصغى إلى ملخصّي الذي بات محبوكاً لكثرة التكرار حول سلفي الكوبي، فأعرب عن تأثره، ثم شرح لي أن المبنى تحوّل إلى مركز ثقافي، أو تحديداً "مركز النهضة الثقافية لمدينة هافانا" Centro de Superación para la Cultura de la ciudad de Habana، وتشير فيه كلمة Superación إلى مفهوم أكثر طموحاً من "تنمية"، و"ارتقاء"، أو "تقدّم"؛ وفي الواقع، كان المركز معهداً لتعليم الموسيقى.

أصلاً، بعد لحظات قليلة من وصولي، تصاعدت الأنغام، صادرة، في آخر الرواق، من حجرة فسيحة غطي سقفها العالي وجدرانها بالخزف، والجبس، وبزخارف ونقوش مستوحاة من الزخارف والنقوش في قصر الحمراء، لاسيما شعار بني نصر، آخر ملوك غرناطة المسلمين: "لا غالب إلا الله". في هذه الحجرة التي كانت ربما قاعة الطعام، يبدو أن تأثير ابنة المبشر لم يكن طاغياً؛ لا لأن المكان يعكس فسقاً استعراضياً بل لنقل إن الجاه فيه لم يظل خجولاً.

إلا أنه من غير المنصف اعتبار هذه التفاصيل نزوة من نزوات محدث نعمة، فجبرايل لم يستعرض على هذه الجدران راية ثروته، بل راية ثقافته الأصلية وهويته؛ وكان يشعر بالحاجة للمجاهرة باعتزاز بانتمائه إلى الحضارة الأندلسية، رمز الإشعاع الحضاري لشعبه.

يحضرني، في هذه اللحظة المشحونة، مشهد كنيسٍ يهودي في برلين شيّد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتحوّل

اليوم إلى متحف، زرته في الآونة الأخيرة. وحين عجبت للشبه المذهل بين هندسته المعمارية وهندسة قصر الحمراء، شرح لي القيمون على المتحف أن اعتماد مثل هذا الطراز كان طريقة يؤكّد بها يهود المدينة في ذلك العصر أصولهم الشرقية، ويعبرون عن ثقتهم بأنفسهم؛ عدا عن كونه كذلك، وبدون شك، ظاهرة رائجة أرادوا التماشي معها.

بوسعي أن أقول الشيء نفسه تماماً عن عمي الهافاني: تأكيد للهوية، ثقة بالنفس، وتماشي مع الطراز الزخرفي آنذاك، ففندق انكلترة، وهو قصر هافاني شهير مشيّد في تلك الفترة، يحمل على جدرانه الزخارف نفسها، بما فيها شعار أبي عبد الله. وأضيف، في ما يتعلّق بجبرايل، أن الأمر، بالنسبة إلى مشرقي مهاجر إلى بلد ناطق بالإسبانية، كان رمزاً إضافياً على إسهام أجداده في شبه الجزيرة الإيبيرية.

وقد طلب عمّي الأكبر، كما لو أراد الإمعان في التشديد على انتمائه المزدوج، لوحتين من الخزف تمثلان مشاهد من رواية "دون كيشوت"، أنجزهما بدون شك أمهر الحرفيين في عصره، وقد علقتا على جدار الرواق، قبالة القاعة الأندلسية الكبرى، كأنهما تناظرانها.

لم أشأ البقاء طويلاً في القاعة الأندلسية الكبرى. فقد صادفت فيها أستاذ موسيقى وثلاثة من تلاميذه، أوقفوا صفّهم مراعاةً لمحجتي؛ ولئلا أستغل دماثتهم، تابعت جولتي مع دليلي ماتيو الذي كان يلوح لي متأثراً مثلي باكتشافاتي، ومستعداً لتخصيص كل الوقت اللازم لي، بعقب سيجاره الكوبي بين شفتيه، وبعلاقة مفاتيح ضخمة في يديه.

أمّا بقية الحجرات في البيت، وعلى الرغم من افتقارها إلى البهرجة، فتظلّ فاخرة، لاسيما لدى مقارنتها بظروف العيش في ذلك الحين في قرانا بجبل لبنان، وكذلك بحياة جبرايل في أول فترة من إقامته في كوبا. فقد كتب لجدي يشجعه على العودة للعيش معه: "من خير الرب، أصبح عندنا بيت نعيش به سويةً مثل باقي الأوادم الذين يزورونا وليس بالتتخيتة كالسابق... ". وفي الواقع، يضم البيت الرئيسي سبع غرف للنوم، وثلاثة أو أربعة حمامات، بغض النظر عن المنتفعات التي كان يسكن فيها الخدم الكثيرون، ولا سيما السائق البائس.

لم أنس بعدُ أيام كانت جدتي نظيرة، وكذلك جدّي أحياناً، يصطحبانني لزيارة بيتنا -مدرستنا في المَشرَع؛ لم يكن فيها حمّام أو مرحاض، فيذهب التلاميذ لقضاء حاجتهم في كوخ صغير خارج البيت، بل أحياناً في الحقول بكل بساطة، في بقعة منزوية؛ يأخذون معهم حصاة صغيرة مسطحة، يمسحون بها قفاهم، قبل أن يرموها بعيداً بعد النهوض من وضعية القرفصاء.

وكان المطبخ كذلك خارج البيت، في حين خصّص جبرايل في داره بشارع باتروثينو مطبخاً فسيحاً يحتوي على خزائن، ومجلى كبيراً ومنضدة لإعداد الطعام، على مقربة من قاعة الطعام الفاخرة.

ولكنّ الأبلغ تأثيراً في "بيتنا" الكوبي ليس ما يحدث قطيعة مع الأصول، بل ما يذكّر بها. القاعة الأندلسية أولاً؛ ثمّ على السطح، الشرفة الفسيحة المبلّطة. وتجدر الإشارة إلى أن اسم قرية المنشأ للأسرة، المَشرَع، يعني على الأرجح، كما سبق لي أن ذكرت، "المكان المفتوح"، يمتع الطرف برؤية شاملة للجبال،

والقرى المحيطة بها، إلى جهة اليمين، البحر، البعيد، بالتأكيد، وإنّما المتداخل في طبيعتنا، نظراً لموقع الضيعة على علو 1200متر، ولعدم وجود حاجز بين البحر وبيننا. ولذلك، وبدون شكّ، لا يغيب إغواء الرحيل عن أذهاننا.

على قمة تلة الأفعى، كان بوسع جبرايل المتربّع على عرش شرفته، والمتكىء على إفريز شرفته الحجري، استحضار الأحاسيس عينها. كانت شرفته المبلطة تبليطاً فاخراً مضافته الأساسية بدون شكّ؛ ولا بدّ أن عمي الأكبر كان يجلس فيها لدى عودته من العمل، وسط أسرته وأصدقائه، حتى ساعة متأخرة من الليل. من بعيد، كان بوسعه أن يتأمل هيئة هافانا؛ وعند خطّ الأفق، كانت نظرته تحتضن البحر، لا ذلك البحر الذي سوف يمخر عبابه يوماً للرحيل عن الجزيرة، بل البحر الذي قاده إلى شاطئها. لا بدّ أنه كان يستمتع على هذه الشرفة بكل لحظة في حياته، كلّ لحظة من الانتصار على القدر؛ وللأسف، فقد احتسبت له تلك اللحظات بالتقتير.

أستطيع تخيل مواقف جبرايل أفضل من مواقف أليس التي كانت مشاعرها بالتأكيد أكثر اعتدالاً؛ فلا ريب أنها كانت لا تحمل في فمها مذاق الانتصار نفسه، بل الخشية أمام كلّ هذه الثروة المكتسبة بسرعة مفرطة، والمبدّدة بخيلاءٍ مفرطة. في الرسائل المحفوظة، يذكرها زوجها باقتضاب: "أليس توجّه لك التحية"، " أليس تشكرك على الهدية... "، "أليس ترجوك أن تطلب من صديقنا بذّور إرسال كتاب تراتيل دينية يحتوي على نوطات موسيقية". ثمّ تلك الصورة، مراراً وتكراراً، الملتقطة خلال الاحتفال الماسوني، حيث نراها متوّجة وبيدها صولجان. نظرت

إليها عن كثب شديد؛ لاشيء في وجه عمّتي الكبرى يوحي بالانتصار الذي تعيشه في تلك اللحظة. تبدو متوجسةً، بل ربما هلعة. لا لأنها تشعر بالكارثة الوشيكة، بل لأن كل ما في تربيتها ينصحها بالحذر من النجاح والثروة، وكل شيء يطبع قلبها ونظرتها برعب خفيّ.

استناداً إلى ذكريات عجائز الأسرة، ظلّت أليس منعزلة في بيتها طوال أشهر عديدةٍ بعد موت جبرايل؛ مصعوقة، ضائعة، مريرة، ومصابة بعض الشيء بعقدة الاضطهاد. فخلافاً لأخيها ألفرد، يبدو أنها لطالما اعتبرت أن زوجها ذهب ضحية مؤامرة لقتله.

إثر قراءتي لوصف صحيفة "دياريو دي لا مارينا"، ونظراً لمعرفتي الحين بالبيت الكائن في شارع باتروثينيو، أتخيّل تماماً يوم الدفن. الأرملة المنهارة في أريكة، متشحة بالسواد، تغشى الدموع عينيها، محاطة بنساء يهمسن لها بعبارات عزاء لا تسمعها؛ أولادها البالغة أعمارهم السابعة، والرابعة، وأصغرهم في عامه الأول بالكاد، محتجزون في إحدى غرف الطابق العلوي مع بعض الأصدقاء والخدم، الكبيران يبكيان، والصغير يلاغي، وينادي أبيه أحياناً، مثيراً في الحضور نوبات من النحيب والعويل.

أشعر بالامتنان لماتيو الذي فتح لي، بعلاقة مفاتيحه الثقيلة، الأبواب الواحد تلو الآخر، لأجول وأحلم. لم يعد الماضي بالنسبة لي بعيداً نائياً اليوم، فهو يرتدي استنارات حاضرة، وضوضاء معاصرة، وجدراناً متيقظة. أحوم، أروّض، وأنسى نفسي، أتخيلها، أستملكها. أجرّ من غرفة إلى غرفة هاجس الإنسان الضائع: هنا، فيما مضى، كان أهلـي...



عداوات



49

الثلاثاء

قررت ألاّ أكتشف شيئاً هذا الصباح. فكثير من الصور تتراكم الواحدة فوق الأخرى، وكثير من الانفعالات تتوالى، وأنا بحاجة لتوضيحها وتحديد ما توصلت إليه في محججتي. تعتمل في قرارة نفسي مشاعر متناقضة؛ الشعور بإنجاز مهمتي، والشعور بتلمسي الأحداث الماضية بالكاد. فانزويت في غرفتي طيلة النهار لأغوص مجدداً في الأوراق التي أحضرتها معي. كان مفترضاً بها أن ترشد خطاي، ولكنني تركت نفسي أهتدي بيومية المعجزات - ولن أتذمّر بسبب ذلك على الإطلاق! وكان مفترضاً بها كذلك أن تذكرني بتأثير الأحداث الماضية التي جرت في هذه الجزيرة على أولئك الذين لم يغادروا الوطن. لم أحضر معي سوى نزر يسير من الوثائق العائلية، وجلّها تلك التي تظهر فيها وجوه مغتربينا الكوبيين، أو أسماؤهم. فاستعرضتها على فراشي لأحتضنها بنظرة شاملة.

لم تذرف القرية الدموع الأولى على جبرايل قبل شباط/ فيفري 1919، أي بعد سبعة أشهر ونصف الشهر على وفاته. نظّم

على روحه تيودوروس قداساً - ولكنني لم أعرف أن كان قد ذكر في مرثاته تلك النبوءة التي حلّت عليه، وخط الحبر الأحمر الرفيع الذي سال على يومياته، وساعته التي توقفت عقاربها بغموض. ثم، بالطبع، "فتحت البيوت"، حسب التعبير الشائع، ليقدم أهالي القرية والنواحي التعازي.

أما بطرس، كما في أغلب الأحيان، فقد نظم قصيدة من وحي الفاجعة. واختار أن يخاطب، للمناسبة، الرسالة التي حملت نبأ وفاة أخيه. ألم يكتب شخصياً لجبرايل وأليس في تشرين الثاني/نوفمبر 1918 مبتهجاً بالهدنة ومعلناً لهما أن أسرتنا، وبالرغم من المعاناة الشديدة التي عانتها خلال الحرب العالمية الأولى، خرجت منها سالمة، ولم تفجع بموت أحد الأهل والأقارب؟ سبق له أن ذكر هذه الرسالة بحزن مرير حين اضطر لإتباعها، بعد بضعة أيام، بالنعوة التي تعلن وفاة خليل. وهذه المرة، كان الظرف أقسى لأن جدّي اكتشف أن شقيقه قد قضى نحبه ساعة كتب هذا الكلام المطمئن.

يا بريد الشرق إن جئتَ الحمى   فاقْرَ عنا معشرَ الأهل السلامْ
لا تخبرهم بما قد نابنا   إنهم من بعدنا ذاقوا الحمامْ
يا بريد الأهل خفّ رب العباد   لا تقل إنا سكنا في القبوزْ
أهلنا أودى بهم مرُّ البعاد   بينما نحن ملوك في قصورْ

إنها مقارنة قاسية، بدون قصد لا ريب. فالقول عن جبرايل إن بيوتنا المتواضعة في الضيعة قصور بالمقارنة مع قبره- أليس هذا أسلوباً غريباً للحديث عن الأخ الفقيد؟ ليس هذا ما قيل بالضبط، ولكن لا يسعنا إلا أن نسمع، بين السطور، صدى تهكم، أو على الأقل شجار قديم: هل كان يجب الهجرة أم

البقاء؟ لدى تأمل المنزل الفخم في شارع باتروثينيو، يتبادر للأذهان أن جبرايل أصاب في الرحيل؛ ولكن حالما يفكر المرء بالطريق المنزلقة في سان فرانسيسكو دي باولا، وبالهاوية البائسة التي تحطمت فيها السيارة، يعتبر أنه كان من الأفضل له عدم الرحيل عن ضيعته.

ذكرت القساوة والتهكم. فالقدر تكشّف أولاً عن قساوته وعن تهكمه إذ جعل الأخ الذي بقي في البلاد ينجو بالرغم من المجاعة، والحرب، وانهيار الإمبراطورية العثمانية، في حين قضى الأخ المهاجر إلى جزيرة سلمت من الانفجار العالمي،وهو يقود سيارته السريعة الفارهة، وذهب ضحية ازدهار أحواله! يكتفي بطرس بملاحظة سخرية القدر؛ ولئن اغتبط بنجاته، فقد شعر بحدسه أن موت شقيقه سوف يكون، بالنسبة إليه، اختفاء أفق وتلاشي رجاء.

كم رمانا الدهر لكن لم يصب من قبل مقتلِ

ثمّ يختتم قصيدته بهذا التضرّع المألوف:

بـرَّد الله فـؤاداً عـنـه جـبـرايـل رحـلْ
بـرَّد الله ضـريـحـاً فـيـه جـبـرايـل نـزل

بعد انقضاء فترة الحداد، يبدو أن الأسرة سرعان ما شعرت بالقلق. فقد وردت أنباء من كوبا تلمح إلى أن الثروة التي جمعها جبرايل مهددة بالتبديد. وراح أقارب موجودون في المواقع الأمامية، أي في الولايات المتحدة، وبورتوريكو، وجمهورية الدومينيكان، وكذلك في هافانا، يبعثون رسائل، بعضها مبطن،

وبعضها الآخر في غاية الصراحة، يتحدثون فيها عن ديون، ورهون عقارية، وعقارات يجب بيعها... لم تفهم الأسرة من بعيد، الأسباب ولكنها كانت مهمومة. كان من المؤسف، وقد استطاع أحد أفراد أسرتنا أن يجني ثروة، أن تتبدّد كل هذه الثروة. واتهمت بعض الرسائل صراحة ألفريد بتبديد تركة جبرايل، بل وانتقدت أليس.

فعقد مجلس عائلي، توسّل فيه عدد من الأشخاص إلى بطرس أن يمسك بزمام الأمور، لأنه كان يعرف كوبا أصلاً وشركات جبرايل؛ وفضلاً عن ذلك، لا بدّ أن تتسهّل مهمته بفضل الأواصر العائلية الوثيقة مع "المتهمَيْن"، وهما شقيق وشقيقة زوجته. ولكن جدّي رفض رفضاً قاطعاً، فلم يكن من الوارد أن يتخلّى عن المدرسة التي أنشأها، وعن بيته- وكان قد أنجب طفلاً رابعاً.

فاقترح أحدهم أن يكون تيودوروس موفد الأسرة؛ ولعلّ الأسرة سمعت بالمقالات التي نشرت في الصّحف الكوبية عن وفاة جبرايل، وذكرت بتفخيم أن شقيق الفقيد من كبار رجال الكنيسة. فلو وصل الكاهن شخصياً إلى الجزيرة، لاشكّ أن كل الأبواب ستفتح أمامه، وسوف يكون بوسعه تسوية الوضع لصالح أهلنا.

لم يكن ذلك القرار حكيماً. فأليس وألفرد بروتستانتيان متشددان، ولن يخلو الأمر من المجازفة قليلاً لو أوفد إليهم كاهن كاثوليكي كثّ اللحية ليقول لهما: "تنحَّيا جانباً! سوف أهتم بكل شيء!".

كانت ردّة فعلهما مرتابة بالفعل بل عدائية، كما تؤكّد رسالة

طويلة وغريبة عثرت عليها في وثائق العائلة، وأحضرت عنها نسخة خلال هذه الرحلة. وهي محرّرة في هافانا، بتاريخ 23 كانون الأول/ديسمبر 1920، وتحمل توقيع تيودوروس. ولا أدري إن كانت تفيد عن الوقائع بدقّة وتجرد، ولكن أهميتها تكمن في عدم اعتمادها التبطين والتلميح.

أخي العزيز بطرس لا عدمتُهُ،
بعد السلام الأخوي والدعاء، تقدم خلافه عدة تحارير من الإسكندرية ومرسيليا وهافانا تطميناً بوصولي، ليس باسمكم الخاص بل باسم إخوتي عموماً، وذلك لأجل التطمين عني، والآن، أكتب لكم خصوصي حتى أخبركم الذي جرى بعد وصولي.
أخبرتكم بأني وصلت إلى هافانا، ونزل لعندي إلى البابور أرملة أخي وابنها توفيق وأخوها ألفرد، ورحبوا بي، وأنزلوني عندهم في البيت. ثم بعد يومين من وصولي (أخبرتكم أنهم كلهم الآن يسكنون بيتاً واحداً)، تكلم معي ألفرد بحرية، وأظهر استياءه من حضوري، وقال لي إنك في أحد تحاريرك، ذكرت بأنك تريد أن تزورنا، وأنا ما أردت أن أكتب لك رأساً، وأنهيك عن الحضور تأدباً، وقد كتبت إلى كل الأهل بأن عندما يتحققون من عزمك على السفر، أن ينهوك عنه، وأنا لا أعتقد بأنهم كلهم أخفوا ذلك عنك، فبحضورك إلى هنا قد سببت لنا أضراراً كثيرة. وأخذ يتكلم بحدة، فأنا أجبته بكل لطف، وبرهنت له بأني أتيت بشغل روحي، وأردت أن أعرج عليكم لكي أتفقد أحوالكم، وأشاهدكم، وأقوم عن العائلة بواجب التعزية لأرملة أخي، وأتشكركم على حسن معاملتكم، لأنه ذكر في كلامه بأنه ما من أحد من العائلة افتكر ولا كتب تعزية إلى أرملة المرحوم، ولذلك هو وإياها متكدرين من

ذلك، ويريدون أن يقطعوا العلاقات بل قطعوها.. بعد ذلك، قابلت أرملة أخي على حدة، وأظهرت لها غاية حضوري، وأن العائلة كلها فكرها عندها وتحبها وتحترمها، وقد انتدبتني بأن آتي عنها جميعاً لكي أزوركم،وأستعلم عن أحوالكم الخ. فكان كلامها مثل كلام أخيها ألفرد، وزادت عليه بأنه قبل وصولي، كانت تتكلم مع أحد الأشخاص كي تتزوجه، فلو كان تم النصيب وتزوجت، ما كان حضوري له معنى أبداً، ثم إنها مع أخيها متفقة بأنهم لا يقدرون أن يقبلوني في البيت إلا موقتاً، لأنهم كلهم في بيت واحد، وعليه، نقلت إلى الأوتيل حيث أنا الآن.

هكذا، طرد المبجّل تيودوروس عملياً. وأصلاً، كتبت رسالته على ورق يحمل شعار فندق فلوريدا، الكائن في 28 شارع أوبيسبو، هافانا. وعندما يرى المرء حجم البيت في شارع باتروثينيو، ليس بوسعه سوى الابتسام بسبب الحجة التي تذرعت بها أليس هذا لو نقل كلامها وكلام أخيها بأمانة... فهذه السطور تعكس أصداء شجار محتدم أصلاً. وحين يلوم ألفرد الأسرة لأنها لم تكتب لأخته بعد وفاة زوجها، لا يكذبه الكاهن، مع العلم أن هذا الكلام قيل بعد موت جبرايل بسنتين ونصف السنة، ومعرفة أهله بنبأ وفاته منذ سنتين، وأقل ما يقال عن عدم إرسال تعزية إلى أرملته أنه موقف غريب وفظّ.

وحتى لو تراءى أن هذا اللوم يستهدف الأهل أجمعين، فهو كان يتوجه إلى قسم منهم فقط، أي بعض أهلنا الذين لم ترق لهم قطّ هذه الزيجات المتوالية مع البروتستانت، وفي مقدمتهم تيودوروس نفسه. فطالما كان شقيقه جبرايل على قيد الحياة، حافظ معه على علاقات وثيقة؛ ولكنه ظلّ بعيداً عن بيت خليل-

ابن خوري كاثوليكي ينقلب إلى واعظ مسيحي، أليس بنظره رجلاً شريراً؟

كون تيودوروس لا يكن أي مودة لهؤلاء "المهرطقين"، وكونهم لا يكنون أي إعجاب لهذا "البابوي" الملتحي والمتكرش، هو حق لكل منهم.. ولكن هذا لا يبرّر عدم إرسال الكاهن تعازيه إلى أرملة شقيقه. وفي مطلق الأحوال، كم كان قراراً أخرقاً ذاك الذي قام على تكليف مثل هذا الرجل بمهمة المساعي الحميدة! لو لم يشأ بطرس القيام بهذه الرحلة، لكان من الأفضل ألاّ يقوم بها أحدهم! ويتابع تيودوروس رسالته:

هنا، زرت بعض أصحاب المرحوم، وبعضهم زاروني، وأكثرهم مستائين من تصرف ألفرد لكن لا واحد منهم يقدر أن يقول ذلك جهاراً لأنه راخيهم كلهم، وعمل ألفرد هو الذي عارفينه أنتم أيضاً بأن أخته التي هي الوصية الوحيدة على تركة المرحوم، قد أقامته وكيلاً عنها، وهو يخدمها ويخدم أولادها كأنهم أولاده، ويعاملهم بكل حسنى، إنما يستعمل الطرق بقدر الإستطاعة أن يبيع من التركة، ويستدين على الباقي أو يرهنه، وما يجنيه من مشترى أراضي أو غيره، يكون باسمه الخصوصي، ويقدك عنه ضمانة جزئية بنوع أنه أي وقت أراد أن يجعل التركة باسمه وحده، يكون قادراً على ذلك بمسوغات قانونية، وأخته راضية ومسرورة من عمله، لا تسمع لأحد، وهو عامل جهده بأن يبعدها عن كل أحد من العائلة، وكل عمل منا، ولو كان حسنة، يجعله ذنباً، ويجفلها منا بقدر ما يمكن حتى يبقى مالكاً لها إلى أن يتمم عمله، فأنا قد فهمت ذلك من كثيرين، وكل الإشارات أكدت لي صدق ذلك خصوصاً حمله أخته وكل أفراد العائلة هنا على الإجفال مني،

فلا يدعهم أن يتكلموا معي أو يسمعوا لكلامي. فأنا مع كل الجفاء الذي يظهره لي أحاسنُهُ، وقد طلبت منه بلطف أن يفهمني عن حصة كل واحد من الورثة وكميتها وعن بعض أعماله، وهو متابع مع عمله بكل تستر، فـأنا لا أقدر أن أوقف هذا العمل إلا بطريقة قانونية ودعوى ومحاكمة، وهذا لا أقدر عليها إلا برضى الوصية الشرعية التي هي أرملة أخي، وإني مجتهد لاستجلابها وتفهيمها الحقيقة، فإذا قدرتُ على ذلك، أوقفت العمل، وإلا لزم الأمر إقامة دعوى على الموكلة والموكل، وإثبات تواطيهما على القاصرين، وهذه يلزمها وجود بطرس هنا حيث يمكنه أن يكون في المجلس، ويظبط سيره، ويقدر أن يخابر السفارة الأميركانية هنا بدون ترجمان، ويبرهن عن حقوق القاصرين حتى يربح الدعوى ويحفظ الباقي للقاصرين، الأمر الذي لا يقدر أن يعمله رجل إكليريكي مثلي..

توحي هذه الملاحظة الأخيرة أن جبرايل كان مواطناً أميركياً، ولا شكّ أنه حصل على الجنسية الأميركية في شبابه، خلال إقامته في نيويورك؛ ومما يؤكد ذلك حضور ممثلين عن الجالية الأميركية في الجزيرة لمأتمه.

ويسمّي تيودوروس لاحقاً شخصاً من أصل لبناني قد يساعد بطرس لو شاء هذا الأخير السفر إلى هافانا ورفع دعوى قضائية؛ ويتحدث كذلك عن "قرار" يهدف "لمنع ألفرد من التسبب بمزيد من الأذى". ثمّ يطلق العنان لمرارته:

من جهتي، أنا ساعٍ لأخذ خاطر أرملة أخي وتفهيمها الحقيقة بما أمكن، فإن امتثلت ووافقتني، خدمتها وأولادها ما أمكن، وإلا فإني قريباً أغادر جزيرة كوبا، متأثراً أشد التأثر من

تذكاراتها الماضية والحاضرة، وقايلاً بالمثل البسيط (راح البيت لا أسف على الكراسي)، أحسب أن أخي جبرائيل مات غريباً فقيراً، وإني بذلت جهدي في عمل الواجب فلم أنجح، فأحسب نفسي كمن نفتهم الدولة إلى بر الأناضول، وبكل الأحوال، لا أقدر أن أشرح لكم شدة تأثري من هذه الحالة، فيا ليتكم نصحتموني بعدم المجيء هنا.
أهدي سلامي للجميع عندكم، وإلى أن أراكم بخير وسلامة، أكرر الدعاء بحفظكم.

بعد التوقيع، يصف تيودوروس في أسفل الصفحة:

عند آخر مواجهة، عرفت بأنه لكم فكر بالحضور، فإذا كنتم بعدكم على عزمكم، فعجلوا بذلك، وإلا فالحالة غير مرضية، إنما بحضوركم وإقامة الدعوى، تقدرون أن تحفظوا الباقي من حصة الأولاد، وتعملوا مستقبلاً حسناً لكل أفراد العائلة، لأن اسم المرحوم جبرائيل كبير جداً هنا، وإن كان حضوركم غير ممكن، فلا لزوم للكلام بهذا الموضوع، بل نترك الأشياء تسير كما هي سايرة.

لن يسافر بطرس إلى هافانا. لم يشأ اجتياز نصف الكرة الأرضية لرفع دعوى بحقّ شقيق زوجته وشقيقتها! وآثر كذلك التصرف كما لو كان جبرايل "مات غريباً فقيراً". وربما يجب اعتبار رسالة الكاهن، والنقاشات العائلية آنذاك، كمصدر إضافي للأسطورة التي مفادها أن جدي سافر إلى كوبا لرفع دعوى أمام المحاكم، و"إنقاذ أخيه"؛ فالأساطير، كما الأحلام، ترتشف رحيقها من الذاكرة لتركيب ما يشبه التسلسل المنطقي...
عندما عاد تيودوروس إلى البلاد، وعلم أهله أن ثروتهم الكوبية ضاعت، وأخطرهم باسم المذنب، عمّ الغضب والغيظ،

ثمّ سرعان ما حلّ محلهما الإذعان المشوب بالمرارة. وفي مطلق الأحوال، كان هذا الحلم جميلاً جداً ليتحقّق، ولا يقدر أن يدوم إلى الأبد، ولا بدّ من الصحوة في يوم من الأيام.

هذا لا يعني أن العائلة غفرت لألفرد. فقد نبذته بين عشية وضحاها. نبذته من الذاكرة، إلى الأبد. بدون قدح أو ذم أو حملة تنكر. فقط النسيان، مجرد النسيان. في رسائل العائلة، اختفى اسمه اعتباراً من عام 1921. ولم يعد أحدهم يتسقط أخباره أو يأتي على ذكره. فقد انتفى وجوده بكل بساطة.

وتلاشت كوبا بدورها. فذكراها أليمة، والأفضل محوها. وانقطع الاتصال مع أهلنا الذين بقوا فيها. وبعد ثلاثة عشر عاماً، حصل اللقاء، ولكنه كان مأساوياً- وسوف أتحدّث عن الأمر لاحقاً.

في المساء

اتصلت بي ماريا دي لوس أنخيليس من بيتها. ذهبت اليوم، بصفتها عالمة أنساب حيّة الضمير، للتنقيب في سجلات الأحوال الشخصية، بحثاً عن الأولاد الذين أبصروا النور في كوبا ويحملون شهرتي على اختلاف أساليب كتابتها. وحتى الحين، أحصت ستة منهم؛ بالإضافة إلى بعض الزيجات التي لم يتسنى لها التحري عنها.

عددت لي أسماء الأولاد، ثلاثة أو أربعة لكل واحد منهم، مع تهجئة الأسماء التي بدت لها غريبة:نسبيت فكتور أبراهام، توفيق غبريال مارتين تيودورو، نيللي سوزانا مارغريت، وليم جفرسون غبريال، كارلوس ألبرتو أنطونيو، هنري فرانكلين بنجامين. . .

- ألم تصادفي اسم أرنالدو؟
- للأسف لا، لا يوجد أرنالدو. ومع ذلك، بحثت جيداً. ولكن ثمة سجلات أخرى، وسوف أبحث فيها لاحقاً...

لا بد أن ماريا استشفت في صوتي بعض الخيبة، لأنها سرعان ما سألتني إن كنت أرغب "بالرغم من كلّ شيء" بالحصول، لكل منهم، على "شهادة ميلاد". أجل، بالطبع! كلهم؟ أجل، كلهم! و"زيجاتهم" كذلك، إن أمكن

ماذا ستفيدني كل هذه الإفادات؟ أولاً سوف تفيدني في الإبقاء على أثر مكتوب للأسماء والتواريخ، إنما كذلك، وعلى الفور، في عدم الإيحاء لمخبرتي بأن حماسي أقل من حماسها. فكل ما تنجح في الحصول عليه من أجلي على الرحب والسعة.

وثمة شخص آخر لا يجب أن أخذله، إنها دولوريس. فمن غير اللائق ألا أعود لزيارتها لأنها عرضت اصطحابي عند مؤرخ المدينة. سوف أزورها غداً، غداً في الصباح، بالتأكيد. فالوقت المتبقي لي في هذه الجزيرة أصبح محسوباً.

50

الأربعاء

عدت إذن هذا الصباح إلى وسط هافانا، وتأمّلت مجدداً

البنايتين الكائنتين عند تقاطع "مونتي" و"كارديناس" حيث التقطت بعض الصور الاستطلاعية، قبل قرع باب دولوريس. كانت ترتدي أجمل أثوابها، كأنها تنتظرني. وعلى الفور، ذهبنا، كأننا وفد، إلى "بلازا دي أرماس" حيث يوجد متحف المدينة، وكذلك خلف المبنى الكولونيالي، مكتب "مؤرخ المدينة" الغامض الذي كتب لقبه الجميل على كلّ ورش الترميم. وللأسف، كان المؤرخ غائباً. نصحتنا سكرتيرته، بعد الإصغاء إلى تفسيراتنا، الذهاب إلى قسم التصوير الفوتوغرافي للسؤال عن توافر صورة قديمة للبيت الذي شيدته الحكومة في الماضي للجنرال مكسيمو غوميز.

وجلست مع دولوريس في حجرة صغيرة مكيّفة- بل مجلّدة - وقيل لنا إن التبريد ضروري لحماية المحفوظات. غرقت في الألبومات القديمة حتى نسيت الوقت؛ كانت مطالعتها متعة حقيقية، بالرغم من شحّة الحصاد، فلم تتضمن سوى صورتين بانوراميتين التقطتا عام 1928 للحي بأكمله الذي تقع فيه محلات La Verdad. ونظراً لعدم استطاعتي تحديد موقع "مبنانا" على الفور، طلبت نسخاً مطبوعة على قرص لتفحصها بروّية في منزلي خلال الأسابيع التي تلي عودتي. حذرتني المسؤولة، مرتاعة، أن هذا "مكلف للغاية" فخجلت قليلاً من الاعتراف لها بأن هذه الكلمة لا تحمل الدلالة نفسها لمعايير بلادها والمعايير الأوروبية. وشرحت لها فقط أن لهذه الصورة قيمة عاطفية كبيرة عندي، ومن المستحيل أن أغادر كوبا بدون إلقاء نظرة على المبنى الشهير الذي اشتراه "سلفي" في الماضي. وتلك هي الحقيقة أصلاً.

لمّا غادرنا مكتب المؤرخ، اقترحت دولوريس أن نقوم بجولة على السجلات العقارية. وقالت لي إنه لا يوجد مصدر آخر

للمعلومات لو شئنا أن نعرف مصير مبنى من المباني في هافانا، وسنة تشييده ومن قام بتشييده، وسنة بيعه ومن اشتراه: لم لا؟ فلننطلق!

للوهلة الأولى، تراءى لي المكان واعداً: قاعة ضخمة ينهمك فيها عشرات الموظفين، وفي الخلف، باحة مستطيلة واسعة كباحة دير- وبعد الاستفسار، تأكّد لي أن المبنى كان ديراً قديماً بالفعل. ناولت دولوريس للموظف بطاقة بلاستيكية فحيّاها باحترام، ثم طلبت بنبرة حاسمة أن يدلنا على قسم المحفوظات. فأجاب الرجل أنه في الطابق العلوي، عبر ذلك السلم الكبير، هناك في آخر القاعة.

توجهنا بامتثال نحو السلم الكبير، هناك، في آخر القاعة. صعدنا إلى الطابق العلوي، وبحثت نظراتنا عن المسؤول، أو على الأقل عن شخص نتحدث إليه. ولكن لم نلمح أحداً. كان المكان فارغاً، لا يلوح كأن الموظفين تغيبوا لتناول الغداء، أو لعقد اجتماع. لا كان المكان مهجوراً، مهجوراً، خاوياً، خالياً ثلاث حجرات مشرعة الأبواب خالية من أي طاولات أو مقاعد أو هواتف أو أي آلة. لايوجد فيها سوى الجدران، فقط جدران نسيت منذ عهود لون الطلاء. ثم قاعة شاسعة، خاوية بدورها، بوسع المرء أن يتأمّل فيها، في أسفل جدار، كومة من الملفات المسمّرة والمغبرّة، المتراكمة كالصليب بانتظار الإعدام حرقاً، وعلى جدار آخر، رفوف تراكمت عليها ملفات أخرى، معقودة بخيوط مسوّدة ومهترئة. هنا ترقد السجلات العقارية.

نظرت إلى دولوريس وابتسمت؛ فابتسمت بدورها، إنما بأسى شديد. شعرت بها مجروحة، وقد انتهك اعتزازها القومي.

خرجت من القاعة بحثاً عمن تؤنبه، ثم سرعان ما عادت، إذ لم تصادف أحداً، وغضبها لم يهدأ وراء ابتسامتها.

قررت لمواساتها أن أتصرف كأن هذا الركام كنز ثمين. وشرعت أتناول عن الأرض والرفوف، على السطح، وفي الطبقات الجوانية، ملفات تتفاوت درجة اسمرارها للتحقق من تاريخها. فاكتشفت أن أقدمها يعود إلى الخمسينات، وأن أحدثها عهداً يرجع إلى أواسط الثمانينات. وبالتالي، لاشيء فيها يخصّ جبرايل، أو محلاته.

هذا أفضل، في الحقيقة. فلو عثرت على ملف واحد يعود لسنة 1912 أو 1918، لكنت اضطررت للغوص برأسي ويديّ في هذا الفخ المليء بالغبار. أنقذني بحثي غير المثمر، وأنقذ كرامة مرافقتي. وصار بوسعنا الانصراف.

التفت، لحظة الانصراف، لإلقاء نظرة أخيرة: في نهاية المطاف، هذه الأكوام المحفورة مؤثرة كأطلال أثرية؛ ولكان مصور بارع عرف تخليدها بعدسته. وأظن أن أملي سيخيب، في زيارتي القادمة، لو ألفيت هذه الملفات محتجزة بغباء في خزائن نظيفة..

أمّا دولوريس فلم تنظر إلى المسألة بمثل هذه الخفّة. ولدى خروجها من "الدير" القديم، لم تتمالك نفسها من توجيه بعض الملاحظات القاتلة للموظف الذي دلها على السلم، هناك، في آخر القاعة لم يفهم الرجل سبب غضبها: ألم تكن السجلات موجودة في الطابق العلوي؟ فطمأنته قدر المستطاع بإسبانيتي الركيكة- أجل، بالطبع السجلات موجودة، ولا داعي للقلق!

ثم أسرعت لموافاة دولوريس التي راحت تسير، في خطّ

مستقيم، وسط الطريق، معترضة سائقاً مذهولاً. كان عنقها مشرئباً وهي تظلع قليلاً مما يمنح مشيتها - تحت وطأة الغضب- نوعاً من الجلال.

فجأة، توقفت عن السير.

- ماذا لو ذهبنا لزيارة تيريزيتا؟

لم لا؟ ولكن من هي تيريزيتا؟

- إنها صديقتي، تعال!

تبعتها. وبعد عشر دقائق، وصلنا إلى أسفل مبنى عند زاوية شارع، قسمه الأعلى قديم، والطابقان في الأسفل حديثان. لا بدّ أنه مبنى إداري آخر، يضم أشخاصاً ينتظرون في الصف، وبعض الموظفين الذين يعملون، وبعضهم الآخر الذين يتظاهرون بالعمل. طلبت دولوريس مقابلة تيريزيتا التي خرجت بعد دقائق معدودة من مصعد أخضر فاقع. كانت رقيقة القامة، تضع سيجارة بين شفتيها، وتحتذي في قدميها مشاية بلاستيكية مفتوحة من الأمام. ثرثرت المرأتان مطولاً. وكان حديثهما الذي تابعته على مسافة متحمساً. ولكن دولوريس، بعد ركوب تيريزيتا المصعد، اقتربت لإطلاعي على القرارات الأخيرة:

- يجب مقابلة أولغيتا!

من تكون أولغيتا؟

- إنها صديقة. تعال!

سوف تمحى من ذاكرتي الكثير من تفاصيل رحلة الحج الهاتفانية هذه مع مرور الوقت، ما عدا مملكة أولغيتا. كانت مملكتها طابقاً أرضياً، نصفه مدفون في أسفل مبنى سكني قديم، ينزل إليه المرء بواسطة درجات قليلة، ويدخل من خلال باب

معدني، وفي الداخل، لو كان المرء أي شخص في العالم باستثناء أولغيتا، يحبس أنفاسه، ولا يحرك ساكناً. في العتمة، وعلى مد النظر، متاهة من المحفوظات، وصرير ماء غير مرئي ودائم الحضور كما في قلب مغارة. لا سبيل للمقارنة بين هذا المكان والطابق الأول في الدير القديم. هنا توجد ذاكرة المدينة، حياً تلو الحي، شارعاً تلو الشارع، مبنى تلو المبنى. تبصر عين الزائر، حالما تعتاد على عتمة المكان، مجرد جدران من الملفات المبهمة والمتداخلة بحيث يكفي سحب أحدها لينهار البناء، ويدفن المرء تحت الحطام. وحدها أولغيتا تبحر بسهولة في هذه الذاكرة الحالكة.

ـ أي شوارع تريدان؟ آه، أجل، مونتي و كارديناس وأي أرقام؟

مضت مباشرة، بدون تردد، ثم عادت بملفات ملء ذراعيها سكبتها على منضدة معدنية في أكثر الزوايا إنارةً، تحت الكوة. غصت فيها بهلع. كانت رخص بناء وتهديم، وخلافات بين المالكين، وتركات، وعقود رسمية، ومحاضر - هل أحتاج فعلاً للغوص فيها؟ بين الحين والآخر، تفلت عيناي نحو الأرض حيث ترقد عشرات الصراصير الميتة، أو نحو الجدار، قبالتي، حيث ألصقت فراشة صفراء بلاستيكية تحمل الشعار التالي:

Viva el dia del Constructor، أي "يعيش يوم الباني".

المزيد من الملفات المصادقة، والمشبوكة والمدموغة ولكن لا ملف منها يوفّر الرضى البسيط برؤية اسم غبريال مكتوباً، أو اسم محلاته التجارية. فشعرت بالملل، وبالرغبة بالاستسلام، إلاّ أن نظرات دولوريس وأولغيتا كانت مسمّرة عليّ، تنتظر أن أهتف: "وجدتها!"، ولم أرغب بتخييب ظنّهما أو بجرح كبريائهما.

ما اكتشفته في هذه المغارة الادارية بعد ساعة ونصف من التنقيب المضني غير مدون في أي ملف، أو وثيقة؛ ولم أتوصّل إليه إلاّ بعد تقاطعات عديدة، ولكنها الحقيقة القاتمة: فالمبنى الذي شيدته الحكومة ليكون سكناً للجنرال مكسيمو غوميز، ثم اشتراه غبريال عام 1912 وحوّله إلى مخازن كبرى، هُدّم ببرودة عام 1940 لينتصب مكانه مبنى سكني عادي، ومنكفىء قليلاً. أمّا La Verdad، "محلُّنا" La Verdad، فلم يعد قائماً.

لحظة كنّا نهمّ بمغادرة مقر المحفوظات، حصل مشهد غريب: فأولغيتا التي قفلت بعناية الباب المعدني لم تقدر أن تفتحه ثانية. وبعد المحاولة الرابعة غير الناجحة، و بعد أن كاد المفتاح ينكسر، واستسلمت مضيفتنا، تبادلنا أنا ودولوريس نظرات يشوبها المرح والقلق؛ كانت ساعة الغروب، ولا أحد منا سوف يكون سعيداً بقضاء الليل في هذا القبو الرطب والمعتم، بدون هاتف، بدون اتصال مع الخارج، في وكر الصراصير هذا، الموبوء على الأرجح بالجرذان بالرغم من عدم ظهور أي جرذ للعيان. فصعدت أولغيتا على طاولة وأطلّت من الكوة على أمل مرور أحد الجيران. وحالما سمعت خطى في سلم المبنى، نادت، فاقترب فتى، وانحنى على الكوّة ليفهم ما المطلوب منه أن يفعل، فمن الخارج يفتح الباب بسهولة. ناولته مضيفتنا المفاتيح. كان منقذنا المرتجل يضحك، وخشينا للحظة ألاّ نراه أبداً، إما لأنه أراد أن يحتال علينا، وإما لأن حيازة المفاتيح أثارت لديه بعض الأطماع. ولكن بعد انقضاء ثوان معدودة بدت لنا دهراً، سمعنا صوت القفل، وخرجنا إلى الهواء الطلق.

بعد مرافقة دولوريس إلى بيتها، عبر متاهة هافانا القديمة السيئة الإنارة، حيث كان مئات الشبان جالسين يثرثرون في مجموعات على عتبة البيوت، اجتزت شارع أوبيسبو، وألفيت نفسي فجأة أمام فندق فلوريدا، ذلك الفندق الذي أقام فيه تيودوروس بعد طرده من بيت ألفرد وأليس عام 1920. ولدى رؤية لافتته المضيئة، تذكرت أنني قرأت في دليل سياحي أن هذا القصر الأسطوري في كوبا قد استأنف نشاطه مؤخراً بعد أربعين عاماً من الإغلاق.

كما ترمّم الفندق، ولاشك كما كان حين أقام فيه عمي الأكبر، يبدو متوسطياً؛ فبهو الاستقبال مجرد صحن دار مسقوف السطح، والأقواس المتناضدة تذكر بقرطبة، وفي الطابق العلوي، أبواب الغرف الذي يعلوها نصف دائرة من الزجاجيات الملونة تلويناً خفيفاً مطابقة لأبواب بيتنا في الضيعة. وعلى الرغم من وجود هذا الفندق في أقصى الغرب، واسمه فلوريدا، فقد كان أصلاً خاناً للمسافرين. ولا عجب أن يكون أوحى لتيودوروس بأراضي الأناضول الشاسعة.

في المساء

شعرت بالحاجة، إذ جلست على شرفة بيتي المؤقت، وبيدي كأس من الروم المعتّق، لتحليل مجمل ما أنجزته خلال رحلتي حتى الحين، وما عليّ أن أقوم به في القليل من الوقت المتبقي لي - أي ثماني وأربعين ساعة بالكاد.

قبل المجيء إلى كوبا، دوّنتُ على ورقة مقوّاة صفراء مخططة بالمربعات قائمة بالأماكن التي عليّ زيارتها، والمعلومات

التي أبحث عنها، أو عليّ التحقق منها. استعدتها لوضع علامة، والتشطيب، والتدوين.

"إيخيدو 5 و 7"...

أنجزت ذلك بل التقطت صوراً عديدة.

"بيت مكسيمو غوميز"

لم يعد موجوداً للأسف، ولكنني أملك في أمتعتي صورة قديمة من المفترض أن يظهر فيها.

"صحف ذلك العصر"

استشرتها؛ لاشك أنه كان بإمكاني العثور فيها على تفاصيل كثيرة أخرى، إعلانات عن محلات La Verdad، مثلاً، ولكنني وجدت فيها أكثر ممّا كنت أرجو: خبر وفاة عمي الأكبر، والنعوات، والتقرير حول المأتم، وموقع الحادث، وعنوان بيته...

"مقبرة كولومبوس"...

زرتها وعاودت زيارتها بالطبع، ولكنني سوف أزورها للمرة الأخيرة قبل ركوب الطائرة، لو سنحت لي الفرصة...

"المرفأ والكرنتينا"...

أعرف الآن أين كان موقع الكرنتينا في ذلك العصر، وكيف نذهب إليها، ولا أعتقد أنني سأكتشف فيها شيئاً آخر لو زرتها - وفي كل الأحوال، لا يسمح لي الوقت بزيارتها؛ أما المرفأ فقد تجولت قربه، ولمحت مباني الجمارك القديمة والأرصفة القديمة، وانتقلت في معدّية حتى جادة "ريغلا"، ثم عدت بالوسيلة نفسها، على أمل مشاهدة الصور التي تراءت أمام جدي حين وصل بالباخرة عام 1902؛ ولكنني غصت كذلك في الصور القديمة التي

اشتريتها من عند باعة الكتب القديمة في "بلازا دي أرماس" تظهر الضوضاء والغبار في المرفأ لدى وصول المهاجرين.

"الكنيسة المشيخية التي كانت تصلي فيها أليس"... لم أبحث عنها. والأمر سيّان.

"الماسونيون"...

آه، كدت أنساهم... يجدر بي ربما أن أحاول التحقق من احتفاظهم بأثر عن "الأخ" جبرايل و"الملكة" أليس.

"الصورة الكبيرة لحفل محفل "نجمة الشرق"...

كنت قد قررت الطلب من مؤرخ محلي تحديد هوية الشخصيات المحيطة بعمي الأكبر على صورته الأخيرة... ولم أهتم بالأمر. وفي الواقع، تضاءلت فائدة القيام بذلك عندي. فمشاهير الكوبيين في الماضي هم مغمورون بالنسبة إلينا. ونجاح جبرايل في انتزاع موقع وسط البرجوازية الهافانية في عصره، هو أمر عرفته بالتفصيل من الصحف، ومن مظهر البيت. ولاحاجة بي لدلائل إضافية، ولن أحصي معارفه الاجتماعية الواحدة تلو الأخرى...

يبقى كل ما حصدته حتى الحين، كل ما حصدته متشرذماً، أعلم ذلك. ولكن من ضرب الوهم الطموح إلى شيء آخر. فالماضي بالضرورة متشرذم، وبالضرورة مستعاد، وبالضرورة مبتدع من جديد. لا يحصد فيه المرء سوى حقائق اليوم. فلو كان حاضرنا ابن الماضي، فماضينا ابن الحاضر. والغد حاصد لتهجيناتنا.

51

الخميس

في كوبا، ليست الماسونية جمعية سرية بل لها مقر في الجادة التي تحمل اسم "الأخ" سلفادور الليندي، وكانت سابقاً تعرف بجادة كارلوس الثالث، وهذا المقر عبارة عن مبنى شاهق، أحصيتُ فيه أحد عشر طابقاً، تبرز على واجهته شعارات المحفل الأكبر، غير أن هذا لا يعني أن كل ما في المبنى ظاهر للعيان.

زرته برفقة روبين، وهو أديب كوبي اتصل بي هذا الصباح من طرف لويس دومينغو، معتذراً عن عدم اتصاله من قبل. عمل سابقاً في سفارة إسبانيا، وعرض علي مساعدتي قليلاً في تحرياتي. كان يعرف شخصاً هناك، نسيباً لزوجته، واسمه أمبروزيو. . .

وبالرغم من صلة القربى، استقبله هذا الأخير واستقبلني استقبالاً فاتراً. رسم على وجهه ابتسامة منزعجة، ونهض متثاقلاً من كرسيه كأنه يخرج من مصيدة. . . ثم صافحني بطريقة خاصة، طقسية، أعرفها، وكان بإمكاني أن أدعه يظن بأنني واحد منهم. ولكن، مراعاةً مني لذكرى بطرس، وجبرايل، وأليس، والكثيرين غيرهم من أسلافي، لم أشأ خوض هذه اللعبة، فصافحته كأي شخص عادي، فانغلق محاوري كجرن الماء المقدّس.

ودفاعاً عن الرجل، يجدر بي القول إنه لا يملك في الظاهر أي خبرة في العلاقات العامة؛ ونظراً لكونه يشغل إدارياً منصب المرؤوس نسبياً، لا بدّ أنه خشي قدوم غريب مثلي لانتزاع

معلومات لا يفترض به هو أن يفشيها. وحين أعلنت أمامه أن عمي الأكبر كان ماسونياً، سألني كيف علمت بالأمر؛ ولمّا شرحت له أن متجره كان يبيع الشارات الماسونية، أجاب أن هذا لا يثبت شيئاً. فأريته صورة حفل تتويج أليس، مشيراً بإصبعي إلى الشخصيات الرفيعة التي حضرته، رؤساء الدولة السابقين، وبالطبع فرناندو فيغيريدو سوكارّاس، الشخصية المشهورة في المحفل الماسوني الأكبر. فنظر الرجل إلى كل هذه الدلائل، وهو يهز رأسه بلباقة، بدون الإعراب عن أي اهتمام بما كنت أرويه. ولئن تعذّر عليه التشكيك بكون "سلفي" كان "أخاً"، أكد لي أنه لن يستطيع التحري عنه ما لم أذكر له المحفل الذي كان ينتمي إليه. وكيف بوسعي أن أعرف اسم محفله؟ دار نقاش بالإسبانية بين الرجلين الكوبيين، ثم اقترح الاثنان عليّ إلقاء نظرة على المتحف الماسوني والمكتبة، وهما يقعان خمس طوابق إلى الأسفل.

وهناك، عند المدخل، كانت تنتظرني مفاجأة فالمتحف مهدى لذكرى أوريليو ميراندا، أحد الأصدقاء المقربين الاثني عشر الذين ترد أسماؤهم في النعوة المنشورة إبان وفاة جبرايل، وكانوا حاضرين خلال مأتمه. لعل كلمة مفاجأة ليست الأكثر ملاءمةً، ولكن هذا دليل دامغ. وقد أخبرنا حارس المتحف العجوز الذي رافقنا في جولة على الصالة، وكان شديد اللطف هذه المرة، أن ميراندا كان المؤرخ العظيم للماسونيّة الكوبية. وبالصدفة، ثمة ميراندا آخر معروف لأنه "أطلع" سيمون بوليفار، أحد كبار محرّري أميركا اللاتينية على أسرار الماسونية.

وقد خُصّص قسم كبير من الصالة لمعرض دائم حول محرِّر ماسوني آخر هو خوسيه مارتي. بحثت عن وجه فرناندو فيغيريدو

على الصور القديمة بدون جدوى. وفي لحظة ضياع، ألفيت نفسي أبحث، وسط حشد متحلق حول مارتي، عن وجه جبرايل الشاب؛ ولكن ظهورهما في الصورة نفسها مستحيل لأن عمي الأكبر وصل إلى نيويورك في كانون الأول/ديسمبر 1895، وغادر القائد الثوري هذه المدينة في شهر شباط/فيڤري من السنة نفسها، ثم قضى في ساحة القتال في آب/أوت، وبالتالي فجبرايل لم يصادف سوى أسطورته، أسطورته المتعاظمة، وبعض الأشخاص الذين عرفوه.

يضم المتحف صفحات أخرى من التاريخ، وأبطالاً آخرين، ومخطوطات رسائل، وكتباً مفتوحة، وشرائط، وذخائر... لاحظت فجأة، إذ انحنيت على واجهة زجاجية أفقية، ميداليتين موضوعتين جنباً إلى جنب، الأولى لأخوية "نجمة الشرق" النسائية، والثانية مصدرها محفل يدعى La Verdad. فهرعت مع روبن، متسلحاً بهذا الاكتشاف، عند أمبروزيو المشكّك، وأعلنت له برباطة جأش:

ـ "أصبحت أعرف الآن اسم محفل سلفي".

كنت لا أملك أي يقين، صدقاً، بل سمحت لنفسي فقط بالتعميم: فطالما أطلق جبرايل على مؤسسته اسم La Verdad، وطالما انتمى إلى محفل ماسوني، وكان أحد المحافل الذي يحمل هذا الاسم تحديداً موجوداً في كوبا آنذاك، قد يجوز الربط بين الاسمين... ولو كان محاوري شخصاً متفهماً، لشرحت له هذا المسار الذي لا يخلو من المجازفة؛ ولكنني لن أدع نفسي عرضة للنقد، وأنا أتوجه إلى شخص رفض رفضاً منهجياً كل ما

سعيت لتبريره. فزعمت أنني عثرت للتو على اسم المحفل في مفكرتي، وأنني على يقين تام ممّا أقوله.

حققت رباطة جأشي الوقع المرجوّ. فقد ارتبك الرجل. وتفوه، متوجهاً إلى روبن،بجملة بالإسبانية سمعت فيها بوضوح كلمتي "محفوظات " و"الولايات المتحدة". فترجم لي مرافقي بالإنكليزية: "يبدو أن المحفوظات المتعلقة بهذا المحفل قد احترقت". وبدون التعليق على هذه الكذبة الثورية الورعة، اعتبرت أن بعض "الإخوة" المهاجرين قد يكونوا حملوا إلى فلوريدا المحفوظات الماسونية؛ فالماسونية الكوبية، في نهاية المطاف، كانت تضم على الأرجح برجوازيين أكثر من العمال، ومما لاشك فيه أن معظم أعضائها البرجوازيين غادروا البلاد منذ سنوات طويلة؛ وأظن أن مقرهم في ميامي أعلى من مقرهم في هافانا، ويحتوي على المزيد من المحفوظات.

قبل الانصراف بخفي حنين، أطلقت آخر سهم في جعبتي: فأخرجت من جيبي نصّ النعوة الذي نشر لدى وفاة عمّي الأكبر، مسطراً بالحبر الأحمر اسم أوريليو ميراندا. تناول محاوري النصّ؛ وقرأه، ثم عاود قراءته؛ وللمرة الأولى، لم يظهر بمظهر اللامبالي بروايتي. فزوّد روبن باسم ورقم هاتف مسؤول ماسوني رفيع سوف يأتي إلى المقر غداً بعد الظهر، وقد يساعدنا في تحرياتنا.

لا أتوقع الكثير من هذه المحفوظات، ولكنها تضمّ على الأقل، كما قيل لي، ملف ترشيح لكل عضو، يحتوي على معلومات عن مساره، وأصوله، ومعتقداته... فلو استطعت

الاطلاع على ملف جبرايل، سوف يماط لثام، لثام آخر. وسوف نرى...

بعد الظهر

فوجئت لدى عودتي إلى نزلي في فيدادو، مثقلاً بالتساؤلات عوضاً عن الأجوبة، خائباً بالضرورة، بدون إشباع فضولي، بماريا دي لوس أنخيليس تنتظرني. قيل لي إنها تنتظر منذ ساعة. وقد أحضرت لي شهادات الميلاد الست التي وعدتني بها. "ثلاث منها لأولاد غبريال وأليس، وثلاث منها لغيرهم"...

تلمست هذه الأوراق بحنان، بالرغم من كونها مجرد نسخات طبق الأصل، حديثة، ومكتوبة بالخط العجول لأحد موظفي الأحوال الشخصية: توفيق غبريال مارتين تيودورو معلوف معلوف. مولود في هافانا، بتاريخ 30 كانون الثاني|جانفي 1911. الجنس: ذكر. ابن غبريال معلوف معلوف، المولود في "جبل لبنان، سوريا، تركيا"، وأليسيا معلوف بارودي، المولودة في المكان نفسه. اسم أهل الأب: أنطونيو وسوزانا. اسم أهل الأم: خوليان وصوفيا. وقد اعتمدت كتابة هذه الأسماء بناءً على تصريح الأب، الخ...

كون أسماء أجدادي طنوس، سوسن وصوفيا قد "تأسبنت" وأصبحت أنطونيو، وسوزانا وصوفيا فهذا مرده إلى الترجمة المألوفة والشائعة؛ ولكن تحول جدي الأكبر الآخر، خليل، إلى خوليان، لا بدّ أنه سلك معاملات تخفى عليّ. لاشك أن المخرج الصوتي العربي "خ" هو المعادل - بل السابق- لحرف " J " الإسباني المعروف بالخوتا؛ إلا أن التبدل يثير الدهشة....

ذكر اسم توفيق غبريال مارتين تيودورو مراراً في رسائل العائلة

التي تضم إعلان عمادته الذي سبق لي أن ذكرت، مشيراً إلى اسم عرّابه الشهير؛ وكذلك بعض الصور له، في مراحل مختلفة من حياته. وحين بدأت أهتم بأقاربنا الكوبيين، كان توفيق الشخص الذي أتمنى لقاءه لأنه الوحيد الذي عرف أباه قليلاً من بين إخوته. وللأسف، لم ينتظرني، إن جاز لي القول. فلما حاولت معرفة مصيره، علمت أنه قد توفي للتو في الولايات المتحدة. فلا فائدة من إثقال هذه الصفحات بمزيد من التواريخ، وأكتفي بالإشارة في هذا السياق إلى أنه قد توفي في الفترة نفسها التي عثرت أمي خلالها، أثناء اصطيافها في لبنان، على الرسائل الأولى لجبرايل في خزانة بيتنا.

لدى التفكير بالمعلومات التي كان بوسع ذلك النسيب البعيد إطلاعي عليها، كيف لا أشعر بحرقة الندم؟ ولكنه ندم يضاف إلى ندم آخر، أكثر تبريراً... ولن أتوقف عنده بعد الآن!

راحت ماريا تتأملني فيما كنت أتفّحص ساهماً هذه الإفادات بصمت واعتزاز. شكرتها مجدداً، وكررت لها امتناني الشديد منذ تلك اللحظة العجائبية التي قرأت لي فيها بصوت مسموع سجل المقبرة، وتحديداً الصفحة التي تذكر مصير أسلافي، قبل مرافقتي إلى ضريح عمّي الأكبر. فضحكت كفتاة شقية، ثم همست في أذني، بأسلوب مسرحي، وهي ترفع الكلفة للمرة الأولى:

ـ لم أطلعك على كلّ شيء. فلم آت إلى هنا من أجل هذه الأوراق فقط!

وما السبب الآخر لزيارتها؟

قالت لي: "من أجله"، مشيرة بسبابتها إلى إحدى شهادات الميلاد.

انتظرت ولكنها لم تضف شيئاً. فتناولت الشهادة واستعرضت ما كتب فيها. "وليم جفرسون غابريال... مولود في هافانا... 1922... ذكر... ابن ألفريدو... وهدى... اسم أهل الأب: خوليان وصوفيا..."

كنت أعرف أصلاً بواسطة الرسائل العائلية أن هدى لحقت بزوجها إلى كوبا بعيد نهاية الحرب. وصار بإمكان حياتهما الزوجية أن تبدأ بعد ست سنوات طويلة من الإنتظار. فرافقت الزوجة الصبورة حماتها صوفيا التي كانت تريد البقاء لبعض الوقت إلى جانب ابنتها الحزينة، أليس. ثم عادت جدتي الكبرى من هافانا عام 1920، قبيل سفر تيودوروس إليها في مهمته الفاشلة.

وكنت أعلم كذلك أن ألفرد وهَدَى، بعد أن التم شملهما، أنجبا مولودهما الأول، واسمه هنري فرانكلين بنجامين، عام 1921 ـ فقد عثرت على الإخطار بالولادة. ولكن ذلك الابن، وليم، لم يسبق لي أن صادفت أو سمعت اسمه من ذي قبل. وعموماً، من المستغرب أن يقرر هذان المهاجران، في بلد ناطق بالإسبانية، تسمية ابنيهما هنري ووليم، بدلاً من إنريكي وغييارمو! وأن يختارا للأول اسماً ثانياً هو "فرانكلين"، وللثاني اسم "جفرسون"! لا سيما أن أسماء أسلافهما، وهم أسلافي، كانت عادةً "خطار"، "عزيز"، "أسعد"، "غندور" أو "ناصيف"...

ولكن عالمة الأنساب التي كانت تراقبني منذ برهة لا تعلم بالطبع شيئاً عن مفارقاتنا المشرقية. فالسبب الذي أتى بها لعندي عصراً، السبب الذي يملأ عينيها بالمرح والاعتزاز، كان مختلفاً، مختلفاً كل الاختلاف.

أشارت بسبابتها مجدداً إلى شهادة الميلاد في يدي.

ـ "ما زال يعيش في كوبا!".

وتابعت ببطء، لأنها لمحت جمودي، وعدم ارتعاش أهدابي:

ـ "وليم. ما زال يعيش هنا، في بلايا".

خطر ببالي للوهلة الأولى: الحمد للّه، عائلتنا لم تفارق كوبا! ظننت أن الصفحة قد طويت، ولكنها لم تطو بعد. فذرية عمي المنبوذ بقيت في الجزيرة! بقي أحد أبنائه.

لا أحد منا يعرف حتى اسمه، أو يشك بوجوده.

رحت أتمتمُ بصوت مسموع:

ـ "وليم جفرسون غبريال..."

فوضعت ماريا يدها على كتفي:

ـ "كنت عنده. وهو ينتظرنا!".

كان وليم ينتظرنا بالفعل على عتبة منزله ـ منذ كم ساعة؟ منذ كم سنة؟ ـ يتفحص، محاطاً بكل الذين يشكلون اليوم أفراد أسرته، كل السيارات التي تعبر جادة "ماريرو"، أكبر الجادات وأكثرها ضجيجاً في حي بلايا. إنه في الثمانين من العمر، وهذه هي المرة الأولى في حياته التي يلتقي فيها أحد أقاربه الذين اختفوا. يشعر بالمرارة بالرغم من تحفظه عن الإقرار بذلك. لم يفهم أبداً سبب تخلي الأهل عن أبيه وأمه وأخيه وعنه. كان أهله لا يتحدثون عن هذه المسألة إطلاقاً، وبدوري، في يوم اللقاء هذا، لم أرغب كثيراً بالتطرق إلى هذه المسألة الشائكة. أجل، بالطبع، يعرف أن غبريال، زوج خالته أليس، كان يملك محلات

La Verdad، وأن والده ألفرد كان يعمل فيها، وأنه توجب بيعها بعد وفاة العم. وكذلك سمع بالطبع عن حادث تحطم السيارة. فوالداه كانا يذكران هذا الحادث أحياناً.

ـ "يبدو أن غبريال كان يفقد صوابه كلّما سمع زئير محرك سيارته. كان لديه سائق، ولكنه بمثابة صبي إسطبل، يغسل السيارة، يلمّعها، يحرسها في النهار، ويركنها في المرآب ليلاً. كان رب العمل وحده يقودها، وبأقصى سرعة. وهكذا، قضوا هم الثلاثة".

الثلاثة؟

ـ "هو، وسائقه، والصبي".

أي صبي؟

ـ "كان لغبريال جيران يعاملهم مثل أهله. عائلة متواضعة. وابنهم الذي يبلغ من العمر سبعة أعوام يلحّ عليه دائماً ليصطحبه في السيارة، وقد اصطحبه في ذلك اليوم بالرغم من ممانعة أهل الصغير".

التفت نحو ماريا التي أكدت لي الأمر: فقد دفن طفل في اليوم نفسه بمقبرة كولومبوس، مقتولاً، بدوره، في تحطم سيارة؛ وقد لاحظت ذلك لدى نسخ صفحات السجل، وقالت لي إنها عجبت لهذه الصدفة، ولكنها لم تربط بينها وبين "حادثنا".

لماذا لم تذكر هذه الفاجعة، لا في أكثر التقارير تفصيلاً عن الحادث أو المأتم؟ لا أعلم... أتخيل أن أهل الطفل كانوا ساخطين على جبرايل وعائلته ورفضوا أن يقترن اسمهم واسم ابنهم بالتعازي نفسها. وماذا عن الصحف؟ لماذا لم تذكر ذلك؟ لعدم تلطيخ سمعة الوجيه الراحل؟ لا بد أن أقنع بعدم معرفتي للحقيقة أبداً...

ثم أطلعتُ وليم على صور عديدة في وثائق العائلة أحضرتها معي إلى كوبا. انتفض أمام إحداها، وكانت تظهر زوجين شابين؛ الزوجة فارعة القامة ومكتنزة، والزوج أقصر قامة منها وأكثر نحولاً؛ يبتسم أحدهما للآخر، إنما ابتسامة خفيفة؛ وقد أحنت رأسها برقةٍ على رأسه، بحنان أمومي.

ـ "إنهما أبي وأمي! كانا متزوجين حديثاً!".

بالضبط، ولكن ليس تماماً: فالصورة التي تحمل دمغة محترف للتصوير في هافانا، تعود لسنة 1920. ولو كانت بالفعل الصورة "الرسمية" لزفافهما، فلا بد من الإشارة إلى أنهما كانا متزوجين منذ سبع سنوات!

سألني وليم: "أين عثرت عليها؟".

أخبرته أنني وجدتها في درج جدتي، عمته، الصديقة الحميمة لأمه، واسمها نظيرة، مترقباً ردة فعله. من الواضح أنه لم يسمع بهذا الاسم أبداً، أو لو سمع أمه هدى تلفظه، فلم يحفظه. فانتهزت الفرصة لأقول إنها لم تنسهم على الأقل كلياً بما أنها ظلت تحتفظ بصورهم. كان هذا أسلوبي في التخفيف من ذنب الأسرة، من ذلك الهجران الطويل، وتلك القطيعة المديدة.

في الواقع، يبدو أن جدتي كانت بالفعل آخر شخص حافظ لبعض الوقت ـ لبعض الوقت فقط ـ على بعض الصلات مع فرعنا الكوبي. أما الآخرون فقاطعوا جميعاً ألفرد منذ أوائل العام 1921، بعد عودة الأب تيودوروس يجر أذيال الخيبة من هافانا؛ وقد عثرت لدى نظيرة على رسائل أحدث عهداً. ففي أحد الدروج الذي كانت جدتي قلما تفتحه، احتفظتْ ببعض الرسائل، والإخطارات، وبصورٍ كثيرة التقطت ما وراء الأطلسي. وأبرزها

تلك التي أرسلتها لها شقيقتها أليس التي كانت لديها العادة المحمودة بتدوين التاريخ والمناسبة وهوية الأشخاص على ظهر الصور. وفي صورة تعود لشباط/فيفري 1922، يظهر أولاد غبريال بزي الكرنفال، على شرفة مبلّطة، لعلها شرفة بيتهم في شارع باتروثينيو؛ وفي صورة أخرى، بتاريخ 1923، تظهر الأرملة، متشحة بالسواد، جالسة على أريكة من القش، تشعل مصباحاً من طراز "تيفاني"؛ وعلى الحائط، صورة مؤطرة يتسنى للمرء أن يميز فيها، بواسطة عدسة مكبرة، كل أفراد الأسرة، أي جبرايل وأليس وأولادهما الثلاثة؛ وأصغرهم الذي لا تتجاوز سنه بضعة أشهر جالس في حضن أبيه.

أحضرتُ معي بعض هذه الصور، وكذلك صورة ألفرد وهدى "العروسين" ـ فلا عجب أن يتجاوب النسيب الذي عثرت عليه بعد طول غياب لدى رؤيتها. ولكنه بالمقابل، لم يتجاوب، أو بالكاد، لدى رؤية صور أسرة جبرايل. استعرضت أمامه الأهل والأولاد، وقرأت التعليق، متى وجد، على ظهر الصورة. أجل، سمع ببعض الأسماء ولكنه لا يذكر الوجوه.

وفجأة، انتفض وانتزع صورة كنت أحملها:

ـ "هذا أنا!".

وامتقع وجهه.

ـ "هذا أنا!".

تظهر الصورة ولدين، الأول يبلغ من العمر بضعة أشهر، والثاني في عامه الثاني تقريباً. كانت وحمة سوداء ظاهرة للعيان على الذراع الأيمن للرضيع. أشار إليها وليم، ثم شمَّر كمَّ قميصه ليريني الوحمة نفسها.

ـ "هذا أنا!".

اغرورقت عيناه بالدموع، وكذلك اغرورقت عيناي، وعيون كل الحاضرين لهذا المشهد بمن فيهم ماريا.

تبادلنا النظرات، أنا وهو، وتعانقت أيدينا، بشدة، للإعلان عن نهاية الفراق. طالعت في عينيه ذلك القلق الذي ترعرع ثم شاخ معه: لماذا تخلّوا عنا؟ لو طرح عليّ السؤال، لصارحته بما كنت أعرف أصلاً، مهما كانت المصارحة عسيرة. لم يسأل، ولم أبح. فلا يعقل أن أشرح له، منذ لقائنا الأول، أن العائلة تتهم والده بتبديد الثروة التي جُنيت في كوبا، وأن الحكم صدر، ولعلّه لم يعلن بوضوح أبداً، وأدى إلى التصرف كما لو أن ألفرد وهدى وابنيهما غير موجودين، أو لم يكن لهم وجود على الإطلاق. كنت خجلاً مما حصل، ولكني لم أشرح شيئاً لأن كل هذه الأمور مجرد انطباعات وتكهنات. واكتفيت بطرح أسئلتي لأفهم.

متى توفي أبوه؟

في أواخر الأربعينات.

وماذا كان يعمل بعد إغلاق محلات La Verdad؟

كان يعلّم الإنكليزية.

وأمه؟

نهض وليم لإحضار علبة تضم أوراقاً قديمة من غرفته. أخرج منها صورة لهدى في أواخر حياتها، نظرتها حزينة ولكن وجهها مشرق بفضل ابتسامة الفتاة الشابة التي احتفظت بها. ثم وثيقة وفاتها ـ عام 1969، عن أربعة وسبعين عاماً، في مأوى هافاني للعجزة. وتحتوي هذه العلبة على وثيقة بالعربية يحرص عليها النسيب الكوبي ولكنه لا يستطيع قراءتها. فبسطتها واكتشفت أنها

وثيقة زواج أهله في القرية عام 1913، وكان الشاهد بطرس. . .

وماذا حلّ بأخيه البكر، هنري؟

رحل عن كوبا قبل الثورة وانتقل للعيش في ولاية يوتا الأميركية، والعمل مع أخواله في النسيج. أخبرني وليم أن أخاه كان حزيناً على الدوام منذ الطفولة؛ قلما يلهو ونادراً ما يبتسم. "علمت في أحدالأيام أنه توفي". وما زالت البرقية المشؤومة محفوظة في العلبة إياها؛ ومؤرخة في كانون الثاني/جانفي 1975، تحمل توقيع زوجة هنري النروجية؛ وتعلن أنه أصيب بأزمة قلبية، قبل خمسة أشهر من بلوغه الرابعة والخمسين.

هل عاشوا دائماً في هذا البيت؟

أجل، منذ عام 1932. قبلها، كانوا يعيشون في شقة تقع في وسط المدينة، على مقربة من محلات La Verdad، ثم انتقلوا للإقامة في هذا الحي، البعيد عن الوسط، والسكني في ذلك الوقت. وبيتهم اليوم ضيق، ولعله جزء مما كان عليه أصلاً. وقد تقاسمته عائلات أخرى كما حصل في أغلب الأحيان وانتصب جدار اخترقه بالعرض.

لا يتحدث وليم عن الأمر، ولا أسأله بدوري تفادياً لإحراجه. ولا حاجة أصلاً للكلام لأن لجدار الفصل حضوراً ثقيلاً. وعلاوةً على ذلك، يبدو أن القاطنين في نصف البيت المجاور كانوا الأكثر نفوذاً، لأن الجدار ليس مستقيماً، بل شُيِّد مواربة، بحيث يلوح البيت مثلثاً أكثر منه مستطيلاً؛ ولا بد أن النصف الآخر يشبه مربعاً منحرفاً كبيراً. فالمساواة غالباً ما تكون متقلِّبة الهندسة.

غير أن هذا التعدي على الملكية لا يخفِّف من الطيبة الدائمة

للنسيب المسترجع، وأماليا، زوجته تشهد على ذلك بحنان. لقد تعرفت إليه حين كان الاثنان يعملان في وزارة الصناعة. وكان كلاهما مطلق، هو لم ينجب أطفالاً، وهي أم لبنت وصبي. كان الجميع في العمل يحبون وليم لمرحه وبشاشته على الدوام... وفي أحد الأيام، توفي صديقه الحميم؛ ولشدة حزنه ويأسه، قررت مواساته. ومنذ ذلك الحين، لم يفارق أحدهما الآخر.

في لحظة من اللحظات، راح وليم يحدثني بصوت منخفض عن الرحلة اليتيمة التي قام بها في حياته: ففي طفولته، اصطحبته أمه مع أخيه إلى ولاية يوتا لزيارة أخواله. وأمضوا هناك سنتين؛ ولم يرافقهم والدهما. لا شك أن الزوجين كانا على خصام في تلك الفترة؛ وهو الرأي الذي ترسخ لديه بعد مرورسنوات لمجرد سماعه قصص أمه؛ ولكنه لم يلاحظ شيئاً في ذلك الحين. وقال لي إن مثل هذا الخلاف كان ليؤدي إلى طلاق الزوجين في أيامنا، ولكن الأمور لم تكن تجري على هذا النحو في العشرينات. فأذعنت هدى أخيراً وعادت للعيش في كوبا مع زوجها. ولن تغادر الجزيرة إطلاقاً، وكذلك وليم. ولا ألفرد أصلاً.

كل التفاصيل التي سمعتها حول هذا الأخير إنما تؤكد لي ما قالته لي ليونور يوماً بأسلوبها الخاص، ومفاده أن "العيش معه كان صعباً" بكل بساطة. وأصلاً، إذا قررت العائلة بأكملها أن تجافيه، وتخاصمت شقيقته أليس معه في نهاية المطاف، بعد أن منحته ثقة عمياء وشعرت زوجته بالحاجة لاصطحاب ابنيها، والابتعاد عنه؛ فلا سبب يدعوني للتشكيك بصحة كل ما قيل عنه.

يبقى أن أعرف إن كان لصاً، أم مجرد فاشل، ومتبجح

وشرس الطباع ببساطة. ويبدو لي أنه لما اضطر لإعطاء دروس خصوصية لإعالة أسرته الصغيرة لو ارتكب الاختلاسات التي اتهمه بها تيودوروس، وسجّل أراضي جبرايل وعقاراته باسمه.

أتأمل مجدداً الصور التي يظهر فيها ألفرد وهدى، ثم هنري ووليم. هل أقوم بهذا التأويل استناداً إلى معلوماتي؟ أم أن هذه الصور بالفعل معبِّرة؟ يبدو لي الحين أنها تفصح عن حقيقة الأمور. ألفرد، غير الواثق من نفسه، القميء والضعيف، وهدى التي ترنو إليه بحنان وأمومة وابتسامة تخفي وتفضح هاويةً من القلق. ثم الوالدان، الأول يقطب جبينه، ويلوح خائفاً من المصوِّر ومن التحرك، والثاني يتكلم أو يلاغي، بدون اعتبار لمهابة اللحظة. وكأنما بيت ألفرد وهدى ينقسم إلى معسكرين. فالأب وابنه البكر كانا صموتين، وشرسي الطباع، وكئيبين، لا يشعران بالرضى على الدوام، فيما الأم والابن الأصغر يتعاملان مع الحياة كما هي، ويشيعان حولهما الضياء أكثر من الظلمة.

هذا الصغير المرتدي ثوباً أبيض مطرزاً بالدانتيل هو اليوم عجوز محبوب، محاط بزوجة كريمة وبشوشة، وكنة وصهر يعشقانه، وحفيدين يلاعبهما على حضنه ـ يبدو لي أنه سعيد في حياته، ولكنه يحمل دائماً، في قلبه، جرح الفراق.

عندما نهضت أخيراً للانصراف بعد ثلاث ساعات، سألني بقلق غير مصطنع عن مدة إقامتي في هافانا. للأسف، سأبقى حتى الغد. أي ساعة سأغادر؟ في المساء. لماذا لا أعود لتناول الغداء عنده من أجل التعويض قليلاً عن هذا القرن الضائع؟

في طريق العودة، فكرت به، وسوف أفكر به طويلاً، طويلاً. وأتحدث عنه لأقاربنا الأحياء بل أشجع بعضهم على

الكتابة له. ولكن بأي لغة سيكتبون؟ فقد قال لي إنه ظل يتكلم العربية حتى عامه الثاني؛ والآن، لا يعرف سوى كلمة واحدة، "لَبِن"، يلفظها بلهجة الضيعة. ولديه كتاب بالعربية هو كتاب "الشجرة"؛ ويعلم أنه يسرد تاريخ العائلة، وأن والده مذكور فيه؛ ولكنه لم يفلح أبداً في قراءته.

وفي مرحلة لاحقة، تكلم الإنكليزية قليلاً؛ فحتى سن الرابعة، في ولاية يوتا الأميركية، كانت الإنكليزية لغته؛ وتعلّمها قليلاً، لاحقاً، مع والده، ولكنه نسيها؛ وما زال قادراً على استيعاب الفحوى العام لجملة ما، لا أكثر. واليوم، ينطق بلغة وحيدة هي الإسبانية، ولديه وطن وحيد هو كوبا. أجل، بالطبع، يعلم أن أهله قدموا من بلد آخر. ولكن أليس هذا هو حال كل الكوبيين؟ لا شك أن سلوك أسرتنا قد عزّز لديه الشعور بأنه لا يملك روابط في أرض أخرى. أما أنا، في كل الأحوال، فسأكتب له، لقد وعدته، بالإسبانية، إذا استطعت إلى ذلك سبيلاً، أو بالإنكليزية؛ وسوف يترجم له صهره رسالتي. أعد بذلك، أعد بذلك، لن أفارقه أبداً، لن أتخلى عنه أبداً، ولو رحلت بعيداً عن كوبا، إلى وطني بالتبني.

هذا المساء، غصت مجدداً في الوثائق التي أحضرتها معي، وعاودت قراءة الرسالة الإتهامية التي كتبها تيودوروس، وبعض الملاحظات التي قمت بتدوينها. سعياً لفهم ما جرى...

استناداً إلى الأحياء القلائل الذين ما زالوا يذكرون اسمه وسيرته، يبدو أن ألفرد لطالما كان فتى كثيرالمتاعب. وكلما استقر أحد إخوته في بلدٍ ما، سعى لتدبير عمل له إلى جانبه؛ كان يسافر، ولا يستطيب العيش، فيغرق في الأحزان. كان متقلب

المزاج، سريع التأثر، باطنياً، لا يفلح أبداً في إقامة علاقات طبيعية مع زملائه أو رؤسائه، أو حتى إخوته. فيعاود الرحيل ـ وهكذا، صادفناه تباعاً في الخرطوم يعمل لحساب الجيش البريطاني؛ وفي القاهرة موظفاً لدى الحكومة المصرية؛ ثم لفترة قصيرة في حلب، عام 1913، موظفاً في الشركة الجديدة لسكة الحديد؛ وأخيراً في هافانا...

في ذلك الحين، كان جبرايل قد يئس من استقدام بطرس، ويئس من تشغيل أبناء أخيه كما كان يرغب منهم أن يشتغلوا. فوصل ألفرد في اللحظة المناسبة، واستقبله صهره على الرحب والسعة، وسرعان ما عهد إليه ببعض المسؤوليات، وأشركه في كل أعماله. وعلى وجه الخصوص، عهد إليه ببريده المهني، عشرات الرسائل التي كان عليه أن يكتبها كل يوم للمموِّلين، والعملاء، والمصارف، وهو عبء كان جبرايل يزعم أنه يثقل كاهله. كان الوافد الجديد يملك قلماً سيّالاً، وخاصة بالإنكليزية، فيكتفي رب عمله بمراجعة الرسائل سريعاً، وتوقيعها.

كان الاثنان مبتهجين، وأليس تفوقهما ابتهاجاً. فأخيراً، استقرّ أخوها المتشرد، وسلك طريقاً قويماً، بفضلها!

وفجأة، وقع الحادث، وفجأة، حلَّت الكارثة. وبعد وفاة جبرايل، ألفى ألفرد نفسه على رأس إمبراطورية تجارية صغيرة ـ محلات، ومعامل، وعشرات الموظفين، وعلامات تجارية أميركية وفرنسية أو ألمانية أصبح وكيلها الحصري، وكان لم يتعامل معها أبداً من ذي قبل. لا شك أنه كان موضع ثقة صهره خلال أربع سنوات؛ ولا شك أنه عرض عليه أحياناً هذا الاقتراح أو ذاك؛ ولكنه لم يتول أبداً إدارة مؤسسة، ولم يتخيل كل الطاقة التي

يجب إنفاقها يومياً، وفي كل الاتجاهات، للبقاء على قيد الحياة فقط؛ ولم يفهم الأهمية الفائقة لتلك الشبكة من العلاقات السياسية والمالية أو الاجتماعية التي نسجها جبرايل على مرّ السنين وأتاحت له مواجهة منافسيه وحسّاده، وكذلك الموظفين المدقّقين. حصل ما حصل بسرعة مباغتة، وألفرد ما زال منتشياً بارتقائه السريع، ولعله ظن أنه سوف يرتقي الدرجة الأخيرة كما ارتقى سابقاتها. ولا يفطن إلى أن المنافسين سوف يتصلون، فور انتشار خبر الحادث، بالممولين الأجانب ليعرضوا عليهم خدماتهم، أو أن صاحب المصرف سوف يطلب من سكرتيرته، فور عودته من المأتم بمقبرة كولومبوس، ملف شركة La Verdad ويسعى لاسترجاع حصته.

راحت المؤسسة تتكبد الخسائر بعيد افتقارها إلى منتجاتها المعروفة، وحرمانها من إشراف رئيسها الذي كان يؤمّن حسن سيرها اليومي، وافتقادها إلى الصداقات التي تدعمها؛ ومن أجل تقويمها، وتهدئة الباعة، لم يكن أمام ألفرد خيار آخر سوى بيع الأملاك الكثيرة ـ لا سيما الأراضي ـ التي اشتراها جبرايل خلال عشرين عاماً من ممارسة التجارة في كوبا. ثم، ولوقف النزيف، بيعت المحلات بدورها... ولم يعد بيت غوميز الشهير "ملكنا"! وقد أشار تيودوروس إلى ذلك بوضوح في رسالته: فكما لو أن أخاه عاد فقيراً.

في القرية، سرى القلق في أوساط العائلة باكراً للغاية. فإذا كان جبرايل رمزاً للنجاح والحنكة، فألفرد كان نقيضه تقريباً. ولم يطمئن أي فرد من أفراد الأسرة لمعرفة أن هذا الشاب الذي عاش حياة متقلبة سوف يصبح مؤتمناً على ثروة طائلة. وحين عاد

تيودوروس بعد فشل مسعاه، وتحدث عن اختلاسات، وأعلن أن الثروة قد تبدَّدت، أو على وشك أن تتبدَّد، تحولت الريبة إلى سخط وعداوة.

ووجهت الضربة القاضية إلى ألفرد حين قطعت أليس نفسها علاقتها به بعد اكتشافها هول الكارثة. إنما بعد فوات الأوان، فلم يبقَ شيء أو بالكاد من الثروة التي جناها جبرايل، أو بقي منها فقط ما يتيح لها الانسحاب بكرامة. فغادرت أليس كوبا مع أولادها الثلاثة للاستقرار في الولايات المتحدة، وتحديداً في تشاتهام بولاية فرجينيا. وأحدث صورة لها أرسلتها إلى نظيرة تعود إلى عام 1924؛ ثم أعقب ذلك صمت مرير طويل.

كانت مقتنعة أن عائلتها تخلّت عنها، هي أيضاً. وفي الواقع، كانت العائلة تعتبرها مسؤولة جزئياً عن الإفلاس بالرغم من الإقرار لها بظروف تخفيفية لم يحصل عليها شقيقها.

أما ألفرد فسوف يختفي سريعاً من وثائق العائلة. والصورة التي تظهره "عريساً" مع هدى هي آخر صورة له احتفظت بها جدتي، ثم ثمة إخطار بولادة ابنهما في 22 شباط/فبراير 1921، وهو يدعى هنري فرانكلين بنجامين... أحضرتُ من كوبا المغلف الصغير الذي كان يحتوي على هذا الإخطار، موجهاً فقط إلى "السيدة نظيرة معلوف... المتن"، في حين كان من المفترض منطقياً أن يحمل كذلك اسم زوجها؛ ولكن جدتي كانت على ما يبدو الوحيدة التي حافظ معها ألفرد على صلة، إلا إذا كتبت هدى لصديقتها بدون علم زوجها... ولكن لا، فالخط خط رجل. وما أجمل هذا الخط!

وأخيراً، ثمة تلك الصورة، الأكثر تأثيراً بين كل الصور التي عثرت عليها في وثائقنا العائلية. لا بد أنني تأملتها عشرات

المرات دون التعرف إلى الأشخاص فيها ـ واليوم فقط أفطن لمغزاها. فعلى الرغم من عدم تحديد التاريخ أو المكان على ظهرها، أتعرف فيها إلى هدى، متربعة على العشب، ومتكئة إلى شجرة. كانت ترتدي ثوباً أسود وقد رقد على ركبتيها طفل يرتدي الأبيض، في شهره الثالث أو الرابع على الأكثر، ولكن نظرته تتميز بجديتها الغريبة. كان وليم، واعتباراً من هذا المساء، أعلم أنه كان ذلك الرضيع. كانت أمه ساهمة النظرة، تبدو حزينة للغاية، كالعذراء عند الصليب. وعلى يمينها، يقف طفل آخر، أكبر سناً، في عامه الثاني أو الثالث.

كلما تأملت هذه الصورة، أشعر أنها نداء استغاثة. وكأنما المرأة الشابة التي ترتدي الأسود تصرخ، عبر المحيط، إلى صديقتها البعيدة: "لا تتخلّي عني!".

ومع ذلك، فقد تخلينا عنها، هي وولديها. وقد شعرت اليوم جراء ذلك، في حضرة الطفل الثمانيني، بالخجل والذنب، على الرغم من كوني حفيداً بعيداً...

52

الجمعة

أمضي إلى المطار، ومفكرتي البنية في يدي، لم تمتلء بعد. لديّ الانطباع أنني رحلت أبكر ممّا ينبغي، متخلياً عن بيت، بيت آخر...

كان هذا اليوم الأخير استعادة مقتضبة. محطة تأملية جديدة أمام الرقم 5، شارع إيخيديو. محاولة غير مثمرة جديدة أمام مبنى المحفل الماسوني الأكبر ـ "المسؤول مسافر". زيارة عابرة للمؤرخ من أجل الحصول على القرص الذي يتضمّن الصورتين المؤرختين عام 1928. محجّة إلى جادة مكسيمو غوميز لإلقاء نظرة على الموقع الذي كان ينتصب فيه قصره، قصرنا؛ والآن أعرف ما هو المبنى الذي شُيِّد مكانه، منزوياً، وألفيته قبيحاً بالطبع. غداء عائلي عند وليم، برفقة أقاربنا الذين وجدناهم بعد فراق، كأن كل الحواجز التي انتصبت بيننا بسبب المكان والزمان زالت فجأة، وظل الحاجز اللغوي فقط ـ يا إلهي كم أتعذب لأنني لا أفهم الإسبانية جيداً؛ فلقد شرعت بتعلمها أكثر من مرة، ولكنني أفتقر إلى المثابرة، والقدرة على الحفظ والتكرار، وباختصار، إلى الإرادة... وأخيراً، في ختام هذا اليوم، قمت بحملة استكشافية جديدة، بعد الظهر، في البيت الكائن شارع باتروثينيو. جولة من غرفة إلى أخرى، من شرفة إلى حمام، وتأمل مديد في القاعة الأندلسية، الفارغة هذه المرة من أي موسيقى، أو طلاب أو أستاذ؛ افترشت الأرض، وتأملت السقف، وتخيلت جبرايل يرأس غداء احتفالياً. جولة كذلك في الحديقة، لملمة بعض التمائم الصدئة التي تعود إلى الفترة التي "كانوا" فيها هنا. حلم مستيقظ حول حلم محطَّم.

أنظر إلى ساعتي، تأخر الوقت، انتهى قرنٌ، وطائرة باريس لن تنتظرني.

في الجوّ

هكذا انتهت محجتي إلى ذلك الوطن الزائل الذي كانت

تمثله هذه الجزيرة المضيافة لأهلي. منذ اليوم الذي نفض فيه لويس دومينغو الغبائر الغافية، علمت أنني يجب أن أسافر يوماً إلى هافانا. لا شك أنني لم أعثر فيها على أثر لأرنالدو الذي ذكره لي صديقي الديبلوماسي ـ وأذعنت الآن معتبراً هذا القريب الطيف فخاً من أفخاخ القدر، وتضليلاً خلاصياً؛ وما هم لو اضطلع بدور في آخر الثورات الكوبية، وما همَّ لو كان موجوداً أو غير موجود... فبفضله، قررت أخيراً القيام بهذه العودة الصبورة إلى بداياتي.

أنظر من الكوّة، لا ألمح سوى شفافية جامدة ومائلة للزرقة. لوددت أن أحتضن بعينيّ الأطلسي الشاسع؛ ولكني بالكاد أستطيع تمييز ملامحه.

أنظر إلى ساعتي بحركة آلية للغاية بحيث لا أذكر الساعة بعد إشاحة نظري عنها. لا بد أن أتحقق منها مجدداً، وأحسب: من المفروض أن نكون في منتصف الطريق، أو بعده بقليل... أرغب بالنوم قليلاً، ولكن ذهني يأبى الرقاد. تتطاير هواجسي حولي كالحشرات القارصة...

خلافاً لما كنت أخشاه، لم تخاصمني هذه الرحلة التي انتهت كثيراً مع ما روي لي في طفولتي عن المغامرة الكوبية لأسلافي. أردت تأدية واجبي بمثابرة كباحث ومؤرخ هاوٍ، نافضاً كل التفاصيل الواحد تلو الآخر؛ غير أنني أشعر بنفسي مرغماً، ساعة وصولي، على سرد القصة نفسها. فروح الأسطورة لم تكذب، والمأساة حاضرة هنا، تتصاعد كما في أغلب الأحيان منذ أصبح الكون كوناً ـ في تضحية مأساوية.

موت جبرايل ـ المهاجر إيكار الذي يصعد نحو السماء، ثم يهوي ويتحطم كما بفعل قصاص إلهي ـ، لم أفهم أبداً قبل هذه

الأشهر الأخيرة مدى حضور هذا الحدث على الدوام في ذاكرتي الصمّاء، كما في ذاكرة أهلي. موت سوف تعقبه تسلسلياً ميتات أخرى، أكثر مأساوية، بل أكثر استحواذية...

يمكن أن تروى سيرة أهلي تماماً على النحو التالي: يموت الأجداد، ومن ميتاتهم البعيدة، يموت أحفادهم بدورهم. هل تولِّدُ الحياة الحياة؟ لا، بل الموت يولِّدُ الموت ـ لطالما كان ذلك عندي، وعندنا قانون الأصول الأبكم.

معضلات



53

مساء عودتي من كوبا، افترشت الأرض على وسادة، وبعثرت حولي الصور، والدفاتر، والمغلفات، مقتنعاً أنني أقمتُ، مع ماضي أهلي، صلة جديدة. لا لأنني علمتُ أموراً كثيرة إضافية، بل لأنه كان عليّ أن أقترب على هذا النحو من الأسطورة، وأتلمّس بيديّ الحجارة هناك، وأتصفح صحف ذلك العصر، وأدخل، خافق القلب، تحت السقف الذي كان سقف بيتنا، لأنغمس مجدداً بسكينة وثقة ومشروعية في الوثائق العائلية.

إلى أين وصلت أصلاً؟

وصلت إذن الرسالة الأخيرة التي بعثها بطرس إلى جبرايل في كانون الأول/ديسمبر 1918 بعد وفاة المرسل إليه بفترة طويلة. ويشعر المرء، لدى قراءتها مجدداً، أن شيئاً من الحبور ينبعث منها. ومع ذلك، يتعلق الأمر بنعي خليل، ويدور الحديث فيها عن الدموع، والنعش، والمحنطين، والتعازي. ولكن النبرة الحزينة لا تنجح في إخفاء الارتياح للبقاء على قيد الحياة بعد أقسى محنة عاشها البشر ـ بمن فيهم سكان جبل لبنان ـ خلال تاريخهم. كان موت شخص عزيز بحد ذاته، وفي بعض الجوانب، انتصاراً على

الحرب والهمجية: فوفاة المبشر المبجّل، بعد انتهاء هذه المذبحة، وفاة طبيعية، في عامه الثاني والثمانين، مرتاح البال، مستسلماً، بطريركاً محاطاً بأولئك الذين كانوا يدلّلونه، أليس انتصاراً للحشمة والبشرية؟

لم تعرف القرية بالأنباء المشؤومة قبل انقضاء شهرين: الموت السابق لأوانه لمغتربينا، هناك، في الأميركيتين، في عز الشباب. فطوبى لخليل الذي رقد ولم يعلم بوفاة أنيس! وطوبى لسوسان التي رحلت، بدورها، قبل أشهر على اندلاع الحرب، مطمئنة على حبيبها جبرايل المشهور والثري! وواحسرتاه على صوفيا بالمقابل، واحسرتاه على كل الناجين!

بدأت بالنسبة إلى بطرس مرحلة صعبة في مساره، بالرغم من عدم تجلي الأمور أمامه على الفور بصورة قاتمة، بل حملت له سنة 1919 بعض المسرات؛ وكذلك ظلّ مزاجه ـ استناداً إلى الرسائل التي وصلتنا ـ لبعض الوقت، مطمئناً وقتالياً.

بالطبع، ظلت المدرسة العمومية تواجه المتاعب: الأهل غير القادرين على تسديد الأقساط، ضآلة معونة المبشرين المشيخيين، والأولويات الكثيرة الأخرى لسلطات البلاد. غير أن شهرة هذه المدرسة القروية الصغيرة ظلت تترسَّخ، بحيث طلبت الكنيسة الأورثوذكسية من بطرس على الرغم من عدم انتمائه إليها أن ينشىء لحسابها مجموعة من المدارس على النموذج عينه، وفي كل المشرق. وقد عرض عليه هذا العرض في بيروت التي قصدها لتسوية بعض المسائل.

ولكني سأدعه يروي، بأسلوبه، في رسالة بعثها بتاريخ تشرين الأول/أوكتوبر 1919 إلى جدتي نظيرة وشقيقها شكري الذي كان

قد عاد إلى البلاد لبعض الوقت لدى وفاة والده وراح "يساعد" في المدرسة على الرغم من اختلاف اختصاصه، وهو الطبيب أصلاً.

لا ريب أن الرسالة كتبت في عجالة لأن الورقتين اللتين استعملهما بطرس هما فاتورتان لمكتبة " الأحوال" بإدارة السيد رحمة، بيروت (سوريا). الورق والمغلفات بأنواعهما، جميع لوازم المكاتب التجارية، أدوات مدرسية، كتب بلغات مختلفة، روايات فرنسوية وعربية، صور كنسية وآنية قدسية الخ، تكبير وتصغير الصور الفوتوغرافية، وقد طبع كل هذا الكلام بالفرنسية إلى اليسار، والعربية إلى اليمين؛ وعلى النصف الأسفل من كل ورقة، أعمدة لتسجيل السلع المباعة، وعددها وسعرها...

الأعزاء شكري ويمنى ونظيرة لا عدمتهم،
بعد الواجب الأخوي، أعرض نزلت البارحة إلى بيروت لأشغال البيت والمدرسة، فحملني التيار الأدبي الغريب المطالب بالمدارس والتعليم الصحيح، وأوصلني إلى سيادة المطران صعب الذي نزل إلى بيروت من برهة يطلب من ينظم له مدارس أبرشيته على الصورة المفيدة، فأمسك بيدي وقال العناية أنزلتك إلى بيروت الآن، أنت هو الرجل الذي جئت أطلبه، فاعتذرت بما عليَّ من واجبات للمدرسة وللبيت ولغيرهما، فما كان من سيادته إلا أن سلَّط عليَّ فريقاً من أصدقائنا خدمة العلم الأفاضل، فقطعوا عليَّ طرق الإعتذار، وقالوا هذا هو الوقت لتعميم خدمة الدين المسيحي والعلم الصحيح، فما أمكني إلا أن وعدت بأن أذهب معه لمدة شهر واحد من تاريخه اهتماماً بتنظيم مدارس الأبرشية المذكورة على مثال مدرستنا العمومية، وعليه سنسافر في أول قطار، وأعود

> إن شاء الله في أوائل الشهر القادم، فأرجو أن تنوبوا عني باستقبال تلامذتنا الأعزاء وترتيبهم وتمرينهم على اللغات الثلاث بمساعدة العزيز تيودوروس، خصوصاً في الإفرنسية، ومساعدة النظار الأفاضل إلى أن أعود، وأنا ما كنت تركت خدمة مدرستنا لحظة واحدة لولا ما علينا من الواجب المقدس في مثل هذه الخدمة التي فيها نشر المعارف على أصول الدين وحب الوطن...

كان بطرس يشعر بحماس عارم. فعلى حين غرَّة، حصل، كما بفعل أعجوبة، ما لطالما تاق إليه ولم يجرؤ على الإيمان به، أن تتحوّل التجربة الرائدة، التي طبقها في قرية صغيرة من قرى المتن إلى نموذج يحتذى. كانت حلب آنذاك أكبر مدن سوريا؛ والأورثوذكس الذين يعيشون فيها يشكلون على الأرجح أكبر طائفة مسيحية وأكثرها رخاءً في الشرق؛ وإنشاء مدارسهم العصرية على نموذج مدرسة بطرس يمنح هذا الأخير بالضرورة الشعور بأن جهده لم يذهب هباء.

ولم يتعلق الأمر بمدينة أو طائفة وحسب، فالبلد بأكمله كان يستقبل عصراً جديداً يبدو واعداً. والإمبراطورية العثمانية التي منيت بالهزيمة عام 1918، انهارت لتوها بعد هيمنتها على الحوض الشرقي للمتوسط أكثر من أربعة قرون. وفي أراضي سوريا ولبنان، تسلمت فرنسا زمام الأمور، بصفة مؤقتة، منتدبةً من عصبة الأمم لإعداد هذين البلدين للاستقلال. وأعلنت على الفور عزمها على تطوير التعليم للحد من الهجرة.

ابتهج بطرس، لا لأنه كان معادياً للعثمانيين بل على العكس، فقد رحَّب بالإصلاحات التي قاموا بها خلال العقود

الأخيرة قبل انهيار الإمبراطورية. وكما رأينا، كان يكتب باعتزاز: "أنا، بطرس م... مواطن عثماني". ولكن الثورة خيبت آماله، وتجاوزات حركة تركيا الفتاة أثارت اشمئزازه، ولم يكن مستاءً لرؤية الحرب العالمية الأولى تطيح بالنظام القديم المهترىء الذي كانت شعوب المشرق ترزح تحت وطأته.

يستشف من رسالته المكتوبة في بيروت ـ وسوف تليها ثلاث رسائل أخرى، مرسلة من حلب ـ حماسٌ سرعان ما سيهمد للأسف. أولاً، بسبب ردة فعل أهله. ففي الضيعة، وفي بيته، لم ينظروا إلى الأمور كما نظر إليها، بل ارتابوا من طموحاته المتعاظمة. وبسبب سمعته الراسخة منذ وقت طويل بعدم الاستقرار، ألن يقوم بزعزعة حياة أهله، ويجرُّهم، بسبب نزوة من نزواته، إلى مغامرة جديدة؟

كان بطرس يخشى بالضرورة مثل هذا الموقف. وسعى جاهداً لتبرير رحلته متذرعاً بأسمى المبادىء، على أمل تحاشي ملامة أولئك الذين بقوا في الضيعة، إنما لم يفلح. والرد الذي تلقاه موجود في الوثائق، وهو لا يتطابق بالتأكيد مع آماله.

لم يوقعها شخص راشد، بل طفل في السادسة، هو ابنه، وبكر عمومي. ولدى قراءتها، لا أصدق أن طفلاً ولد في تموز/ جويليه 1913 استطاع كتابتها في تشرين الأول/أوكتوبر 1919. ولكن لا أحد غيري في الأسرة يعرب عن مثل هذه الشكوك. فكل الأحياء، بدءاً بالمعني نفسه، يؤكدون لي أنه كتبها فعلاً، وأن نباهته المبكرة كانت مضرب مثل... وقد سجَّلتُ هذا التأكيد، وترجمت:

سيدي الوالد المحترم دام بقاؤه،

أقبّل يديك بشوق واحترام وأسأل المولى بأن يديمك لنا سندا وّفخراً مدى الأعوام، ثم أخبرك أنه سبق مني تحريرعدد 2، الأول من مدة خمسة عشر يوم، والثاني من مدة أربعة أيام، وأخبرتك عن أحوال المدرسة وعن لزوم حضورك إليها في أقرب ما يمكن لأن عدداً كبيراً من التلاميذ متوقف عن الحضور إلى المدرسة لبعد حضورك، والبعض لم يدفعوا الراتب تماماً كما سترى في القائمة خوفاً من عدم حضورك، لأن البعض شيّعوا أنك ستأخذ شغل كل السنة هناك وتترك المدرسة، وملأّتيس قال لهم إنك تسركلت إلى حلب ومجهول عنده السبب، وهذه الأخبار وقفّت قسم كبير من التلاميذ، وخصوصاً تلاميذ بسكنتا...

رفاق الصف الأول، أي أسد وطنوس ونسيم وعفيفة وخطار، محافظين تماماً على نظام المدرسة مع مساعدة من الماما قدر ما تساعدها صحتها، وهم منتظرين قدومك بفارغ الصبر.. وخالي يعطي درس إنكليزي للصف الأول...

54

سواء كتب الرسالة أم لم يكتبها "الابن المطيع" الذي وقّعها، من المؤكد أن الإلحاح على عودة بطرس الضرورية، بأسرع ما يمكن، كان كذلك مطلب الراشدين، وخاصة جدتي الحامل آنذاك في شهرها الرابع وبطفلها الرابع، ممّا يوضح الإشارة إلى صحتها.

أما الحجة الأكثر إفحاماً لإقناع جدي باختصار إقامته في حلب فكانت بكل تأكيد الإشاعة المغرضة التي نشرها خصمه القديم، الخوري مالاتيوس، ومفادها أنه "تسركل"، أي اقتيد مكبلاً بالأصفاد، كالمجرم. والمختصر المستعمل في الرسالة، وهو "تسركلت" كان متداولاً في العهد العثماني الذي ما زال قريباً... ولدى قراءة هذا المقطع من الرسالة، لا بد أن دماء بطرس فارت في عروقه، وأدرك عدم استطاعته البقاء لمدة أطول بعيداً عن عائلته.

فقد استعرت حرب المدارس مجدداً، بعد استكانتها خلال الحرب العالمية حين اضطر الخوري لوقف نشاطه. وبينما كان مؤسس المدرسة العمومية يحلم بتعميم تجربته الرائدة في كل أنحاء البلاد، تعرض للتهديد في عقر داره، لا سيما أن خصمه حصل للتو على دعم سلطات الانتداب لمدرسته.

ماذا؟ فرنسا؟ بلد الأنوار؟ تمنح المساعدات لمدرسة المتدينين الكاذبين؟ وتحجبها عن تلك التي تنشر مبادىء الثورة الفرنسية؟ كان جدي يستشيط غضباً. وفي 24 كانون الثاني/جانفي 1920، بعث إلى مكتب الجنرال غورو، المفوض الفرنسي السامي، الرسالة التالية التي حرص على الاحتفاظ بنسخة عنها في ملفاته:

مولاي،

بعد فروض الإحترام والإجلال، أعرض أنني بعنايته تعالى وإقبال أنصار الفضيلة، أسستُ منذ سبع سنين في وطني "مديرية بسكنتا" مدرسة جعلت لغاتها وسائردروسها ومبدأها وتهذيبها مما يرضيعنه الخالق والمخلوق، وتركت فيها للتلامذة حرية

المذهب، فلم يرق ذلك لبعض الجهلة المتعصبين فاضطهدونا ولم يفلحوا لأن ما بدا من نجاح المدرسة رغَّب الجمهور فيها عنهم. وقد أقفلت المدارس السورية أثناء الحرب، وبقيتُ أحتمل الضيق المالي والاضطهاد، وأجدُّ في العمل، . . .

في الحقيقة، لا أظن على الاطلاق أن بطرس قد تضرّع ليأتي الفرنسيون. ولكن هذه الكذبة الديبلوماسية البيضاء كانت كذبة من حيث الشكل وحسب؛ أما المبادىء، فلطالما شعر جدي بقربه من البلد الذي ينادي بشعار "الحرية، المساواة، الإخاء"؛ وكون فرنسا أصبحت المسؤولة الحين عن رسم طريق المستقبل لبلاده لم يقض مضجعه، بل كان عنده أهون الشرِّين.

. . . فبذلت جل ما كنت أدخره على أمل أنه متى تداركتني النجدة الفرنسوية، تعوض الخسائروتدفع جور المضطهِدين، ولكن بأسفٍ أقول إن النجدة كانت للمضطهدين، ولم تلتفت إلينا، مدتهم بالمال ليجددوا به مدارس، فأنفقوه في سبيل اضطهادنا. . .

. . . وقد فاوضت بعض مأموري المعارف بذلك، فظهر من أجوبتهم أنهم مسامحين باضطهادنا، أجابوا بما لا يرضى عنه الرجل الإصلاحي العمومي الكبير مثل موسيه غورو، وقالوا "لا نسعف مدرستين في بلدة واحدة"ـ لماذا لم تسعفوا المدرسة الموجودة المعترف بقاؤها عوضاً عن تجديد مدرسة في نفس البلدة؟ وقالوا "مدرستكم بنايتها حقيرة" ـ ماذا يضر إذا كانت بنايتها حقيرة وفوائدها كثيرة؟ ربما متى أسعفتم، تصير بنايتها خطيرة، وقالوا " لكم إسعاف من جهة أميركا " ـ فإذا صح وكان الأجنبي يسعف، أفلا يسعف بالأولى صاحب البلاد من وقفوا أنفسهم على خدمته؟. . .

تشبَّث بطرس بموقفه، وتمرّد، وحاجج، وقارن مدرسته بالمدرسة الأخرى ـ "لدينا ستون طالباً، أسوةً بمدارس فيها دون العشرين، أو ليس فيها من يصح أن يسمى تلميذاً. . . " ـ، ولوَّح بالمبادىء السامية، وبالحرب ضد التعصب الطائفي، والتزمت، والجهل، وطالب بإيفاد مفتش محايد. . . إنما بدون جدوى. فقد ارتاب الفرنسيون من المدرسة العمومية لحصولها على معونات من المبشرين الأميركيين. وأصبح مؤسسها مجرد بيدق صغير ومؤثر في لعبة القوى العظمى، ولم تُجْدِهِ مبادئه الثورية نفعاً. فلن يحرم من المعونة وحسب، بل سيُحارب بصورة أشرس مما سبق، بحيث تحسَّر على زمن العثمانيين، والحرب الكبرى، والمجاعة، وقطعان الجراد التي تنقضّ على حقول القمح الأخضر.

ولكن بطرس لم يتخاذل على الفور، وحين أعلن الجنرال غورو، في 31 آب/أوت 1920، إنشاء ما سيعرف لمدة قصيرة بدولة "لبنان الكبير"، ـ وهو في الواقع لبنان الحالي الذي قام على الجبل، وبيروت، وطرابلس، وصيدا، وصور، وسهل البقاع. . . ـ، وقام الحاكم الفرنسي للدولة الجديدة، جورج ترابو، بجولة تدشينية قادته إلى بلدة بسكنتا، على بعد ساعة من قريتنا سيراً على الأقدام، ذهب جدي للقائه، وأعدَّ بعناءٍ خطاباً بهذا الشأن. وأسمح لنفسي أن أقول "بعناء" لأن هذا الخطاب الموجود في وثائقنا العائلية يبدو مشوشاً بعض الشيء. والنصوص المكتوبة عادة بخط بطرس واضحة ومقروءة، ومعروضة بعناية؛ والتصحيحات فيها، إن وجدت، مدوَّنة بدقة في الهامش أو في سطر أوسط مضاف بحروف صغيرة. ولكن الخطاب الذي ألقاه بطرس أمام ترابو يخلو من كل هذه التفاصيل ويحفل بالتشطيبات

الفظّة على شكل أسلاك شائكة، وبلطخات الحبر، وبخط متوتر ومشوَّش، يعكس ذهناً معذباً، لا يعلم إن كان عليه الانصياع أمام العداوة أم التمرد...

إني طمعاً بشرف الموقف أزج نفسي بين الخطباء...

لا، هذا السطر مشطوب.

وأقف بين أيديكم اليوم...

وهذا السطر مشطوب أيضاً. لماذا هذه النبرة المسحوقة؟ من الأفضل اعتماد صيغة أكثر مباشرة وحزماً؛

أيها المولى، إني باسم المدرسة العمومية وجمهور من سادتي أبناء هذه المديرية أحيي وفدكم الجليل...

هذه الصيغة أكثر كبرياءً، فاحتفظ بها جدي. ثم تليها بعض عبارات الترحيب والمديح المعهود؛ وسرعان ما يعقبها اللوم:

أما ما نشكوه لدولتكم فهو اختصاصنا في بعض الأحيان بالمغارم وحرماننا من المغانم، وربما كان سبب ذلك بعدنا عن المراكز العلية، مصدر الأمر والنهي، حتى إذا صدر عنها ما به مغنم، استأثر به من هو قريب من دوننا، فلحقنا منه إلا بعض الأثر أو بعض الخير، وإذا صدر ما به مغرم نحّى القريب من طريقه، وساقه إلى البعيد، فيصلنا بحول الله سالماً، من ذلك أن الحكومة منذ عشرات السنين فرضت ضريبة لإصلاح الطرقات،فكانت تغرم هذه المديرية كل سنة بأكثر كثيراً مما يصيب مثل عددها من المديريات، وكان إذا صدرالأمر بإصلاح الطرق، يصلح كل طريق في لبنان، وتبقى هذه المديرية

محرومة من الإصلاح، ويبقى القديم فيها على قدمه، ولذلك تركت طرقها كما يشاهد الناظر كل من سلكها مخاطر.
ومنه أن فرنسا أيدها الله قد جادت بالملايين لترقية معارف هذه المنطقة وبعض مدارسنا للآن لم يصلها من تلك الملايين درهم واحد، ومعلوم أن الجهل هو وحده الذي أورثنا التعصب والشقاق، وقعد بنا عن الأعمال الحيوية من زراعة وصناعة ونحوه، وحملنا على المهاجرة، وأنذر بوخيم العاتبة، وأن لا حياة لنا إلا بالعلم، ولا نقوى على العلم إن لم تسعفنا السلطة، والسلطة بيدكم، وقد اطلعتم على حالنا بالذات، وحان أن تغفلوا عما فيه لمثلنا حياة، ومثلكم من حقق الرجاء...

وفي ختام هذا الخطاب، بعض الأبيات التي تبدأ على النحو التالي:

لنحيي فرنسا، أم كل فضيلة وقائدة الأقوام في سنن الهدى...

وأخيراً، لن يفلح هذا المسعى لأن "قائدة الأقوام" سوف تظل تتجاهل الرائد الذي ستتعاظم كل يوم حيرته وثورته ومرارته.

55

أما بعد، لنكن مُنصفين، فأسياد البلاد الجدد لم يضطهدوا بطرس، ومدرسته لم تتعرض للإقفال والحظر. وكل ما في الأمر

أنه لم ينجح أبداً في اسماع صوته، بينما راح خصومه "الجاهلون والمتعصبون" يتلقون، من السلطات الفرنسية، مساعدات طائلة، ويوظفونها للتحامل عليه بشتى الأساليب، لإنهاكه، وتثبيط عزمه، وتحطيمه.

ومثال على هذه المضايقات الإشاعة المغرضة التي نشرها الخوري مالاتيوس خلال رحلة جدي إلى حلب. وتتضمن مراسلات العائلة فصولاً أخرى من هذه الحرب التي لا تنتهي.

وعلى سبيل المثال تلك الحادثة التي حاولتُ جمع تفاصيلها من خلال الترتيب المتأني للأوراق المصفرَّة: فعلى مقربة من المدرسة العمومية، كانت توجد أرض مهجورة تملكها أرملة مهاجرة إلى أستراليا؛ وقد اعتاد التلاميذ الذين يفتقرون إلى مساحة للهو في فترة الاستراحة بين الصفوف، على اعتبارها باحة المدرسة. وفي أحد الأيام، تلقى بطرس إشعاراً رسمياً يأمره بإخلاء الحقل وعدم السماح لتلاميذه بدخوله، تحت طائلة الملاحقة القانونية. وأعقبت ذلك سنتان من الدعاوى القضائية التي تضمّ محفوظاتنا العائلية دليلاً عليها، لا سيما هذه الرسالة التي بعثها جدي إلى أحد الأصدقاء ليطلب منه الوساطة مع مالكة الأرض.

> نسيبتنا، امرأة خالكم، السيدة مريم، أرملة المرحوم ميلاد الغندور، قد أرسلت وكالة إلى الخوري ملاتيوس، خوري المَشرَع، لكي يخاصمني، والخوري المذكور مساعيه وأخلاقه وعداوته لي مشهور عند حضرتكم وعند العموم، وقد بدأ بالمخاصمة، وسبب قلقاً لعموم الناحية مما لا تريده حضرتها ولا يريده ذوو ضمير ونية صالحة...

فأرجو أن تقابلوها وتفهموها من هو الخوري وما هي مقاصده، وتطلبوا منها بلسان الداعي وبلهجتكم اللطيفة أن تنزل هذا الوكيل المسمى خوري، وتطلب مني كل ما تريده إما رأساً أو بواسطة وكيل آخر، فتجد كل شيء على خاطرها، وأنا أقول هذا لا خوفاً من الخوري ولكن منعاً لشرور هي لا تريد أن تصير بسببها ودفعاً لخسائر نحن بغنى عنها...

ويبدو أن وساطة الشخص الذي وجِّه إليه هذه الرسالة قد أثمرت لأن رسالة أخرى مرفقة بالسابقة في المغلّف نفسه تعلن تسوية الخلاف بعد بضعة أشهر. والرسالة مكتوبة بخط مالاتيوس، وتوضح أن الخوري مخُول، بموجب وكالة مصدّقة في قنصلية فرنسا بأستراليا، تأجير الأرض المشار إليها إلى جدي لمدة خمس سنوات بسعر ليرة سورية واحدة سنوياً، تدفع مسبقاً... وأرفقت بهذه الرسالة بطاقة مهنية، بالغة التهذيب ولكنها جافة ورسمية اللهجة، تحض "بطرس أفندي" على إرسال المكاري عزيز، مزوّداً بتفويض خطّي، لتسليمه عقد الإيجار المذكور أعلاه. تلوح المسألة كأنها معاهدة بين دولتين، في حين كان يكفي القفز فوق سورٍ وأجَمَتين للانتقال من مدرسة إلى أخرى...

وتحتوي المحفوظات العائلية على وثائق أخرى تعود لنهاية الحرب أو ما بعدها مباشرة، وتشير إلى دعاوى وشكاوى واستدعاءات وشهادات... بل يوجد منها نسخة عن الجريدة الرسمية في دولة لبنان الكبير، نشر فيها قرارا محكمة لصالح بطرس، الأول بحق رجل يدعى منصور، والثاني بحق امرأة تدعى حنّة...

أميل بالضرورة للانحياز إلى جانب جدي، ورؤية الأمور من

منظاره. ولكني لن أخفي أن كل هذه الدعاوى القضائية تسبّب لي الحيرة. ولئن كنت لا أشك لحظة واحدة بنزاهته، فنزاهتي تحتم علي أن أطرح كل التساؤلات، حتى أقلها لياقةً، وأكثرها إيلاماً، تلك التي ما كان ليرغب أن أطرحها. فهل كان ذلك الإنسان الطاهر، المشبع بالقيم والمبادىء، المنصرف فقط إلى نشر العلم والمعرفة والإسهام في ترقي أمم المشرق؟ أجل، بصورة أساسية، وأكثر من أبناء عصره أو مني. ولكنه كان لا يخلو من العيوب التي لا تقتصر فقط على كونه "مدافعاً عن الحقوق المهضومة"، هذا الجانب المحبّب في شخصيته في نهاية المطاف، وإن لم يجعل حياته أو حياة عائلته أسهل، ولا تقتصر كذلك على نزعته الواعظة، المغيظة إنما المحترمة، وغير المنفصلة في كل الأحوال عن طباع المربّي الذي كان. وكان لديه كذلك، والأدلة مؤكدة، ظمأ هائل لا يرتوي للممتلكات المادية، وكذلك لامتنان الآخرين. وهو ظمأ لا يشعر به سوى الذين لم يشبعوا أبداً. وليس هذا بالضرورة لومٌ يحط من قدره ـ وإلا توجه كذلك إليّ، وإلى أبناء بلدي، ومعظم البشر؛ إنما يبدو لي أن هذا "الظمأ"، في بعض الظروف، لا سيما الحرب، جعل جدي يقترف أخطاء تقديرية فادحة.

وسوف توضح كلامي الرسالة التالية التي تحمل توقيع المدعو سبع. والقضية المذكورة فيها تتشابه في بعض تفاصيلها مع تلك التي ذكرتها أعلاه، لأنها تتعلق بأرضٍ عرض على جدي شراؤها خلال الحرب الكبرى. ويملك هذه الأرض ورثةٌ قاصرون، وصاحب الرسالة هو وسيط يعرِّف عن نفسه على أنه نسيب، وفي الواقع، الجميع أقارب في قرانا بهذا القدر أو ذاك.

وقد حدّد هذا القريب إذن سعراً، وجده بطرس باهظاً، الأمر الذي دفع بالقريب المذكور لتوجيه هذا الرد اللاذع والخبيث إلى جدي:

إلى نسيبنا المحترم الخواجة بطرس،
بعد السلام والتحية، أعلمكم أن رسالتكم وصلت، وفهمت تبريركم، وسررت لأنكم بصحة وعافية، ولكني لم أسرّ بجوابكم حول ميراث عمنا غندور، مع العلم أنني شرحت لكم حقيقة الوضع، وأوضحت أننا لا نملك الوقت للاسترسال في المفاوضات. ولذا، فلا بد أن تجيبني بوضوح وتقرّر الشراء أم عدم الشراء. ولا أريد حتى أن أصدق بأنك تتفاوض على سعر ما يملكه هؤلاء الأطفال المساكين، لأنني على ثقة بأنك رجل نبيل. فبالله عليك، حدِّد لنا سعرك بوضوح! ولو ارتضيناه، سوف يأتي أحدنا، مع وكالة لإتمام الصفقة، وإلا فسوف نبحث لهؤلاء الأطفال عن حلٍّ آخر.
ولذلك، ننتظر منكم رداً سريعاً بهذا الخصوص، مع الاطمئنان بالطبع على صحتكم الغالية...

هل راق تهكم المرسِل لجدي؟ على الأرجح لا. ولكنه كان لبقاً فاحتفظ بالرسالة، وبرسالة أخرى، من الشخص نفسه، بعثها بعد ستة أشهر، في 12 تشرين الثاني/نوفمبر 1918. وفي هذه الأثناء، لم تتم الصفقة، وجاء خبير وخمَّن ثمن الأرض بربع السعر الذي عرض على بطرس. وفي الرسالة الثانية، يتهم سبع جدي بالتأثير على الخبير، وتبخيس الأرض، وعرقلة بيع الورثة لها لشخص غيره.

إذا كان صحيحاً أنك تسعى للربح على حساب هؤلاء

> المساكين، فاعلم أنهم كائنات ضعيفة وبائسة لا يستحقون الدخول في نزاع مع أشخاص في مقامك. ومن المخجل أن يقول عنك الناس إنك صغّرت نفسك ونازلت مثل هذا الخصم الضعيف. ولذلك، أتوسل إلى الأستاذ الكبير والعلامة الشهير، المبجّل في ميدان الأدب والعلم، التفكير بالنبي داوود وعدم الطمع بشاة الفقير. فنازل بالأحرى خصوماً قادرين على الدفاع عن أنفسهم...

وتحتوي الرسالة على الكثير من هذا التهكم الذي تلقاه المرسل إليه كطعنات سكين على أغلب الظن.

هل كان بطرس محقاً أم مخطئاً في هذه القضية؟ لا تتوافر لدي بالطبع كل العناصر التي تسمح لي بالجزم. وبالمقابل، أنا على يقين أنه أخطأ، وأخطأ كثيراً، بالغوص في مثل تلك المياة الآسنة. وأطلق هذا الرأي، أجل، بالطبع، وأنا جالس في أريكتي، وسط سكينة بلدي الثاني؛ أما هو، في القرية، وأثناء الحرب العالمية الأولى، فلا بد أنه كان أكيداً، في كل لحظة، أنه يكافح من أجل بقائه، وبقاء مدرسته، ومن أجل موقعه تحت الشمس، ذلك الموقع الذي لن يحصل عليه إطلاقاً.

بيد أنني لن أغرق في التسامح، بشأنه، ولا في التعاطف. ولا أريد أن يقودني إحساسي بالذنب إلى التغاضي عن أخطائه. إذ أدين لذكراه كذلك بالحقيقة. والحقيقة ليست عقاباً أنزله به، بل تكريماً لشخصيته المعقّدة، وهذا بمثابة عمادة النار للرجل الذي أراد الفرار من الظلام نحو الضياء والنور.

خلال سنوات الحرب، ومع انتشار المجاعة، وموت الآلاف، ألفى جدي نفسه، بفضل احترازه، بمنأى عن الفاقة،

يملك من الحبوب ما يفيض عن حاجته لتأمين قوت أولاده، والقليل من المال أيضاً يكفي لانتظار الفرج، واستمرار المدرسة... وهو وضع لا يحسد عليه، بصورة لا تخلو من المفارقة، كما سبق لي أن ذكرت. فالناس لم يرغبوا بالاعتقاد أن بطرس نجا من الكارثة لأنه كان أكثرهم احترازاً، ولم يرغبوا بالتسليم أنه يملك قليلاً من المال أكثر منهم لأنه يدير منذ عشرين عاماً إدارة صارمة أملاك العائلة، ويعنى بالحبوب والحصاد ـ بل لقد درس المحاسبة ونال فيها شهادةً ليحسن إدارة ثروة العائلة الضئيلة. وكان الناس، في زمن المجاعة، لا يرغبون بالاعتقاد أن بطرس كان يحسن إدارة أوضاعه أفضل منهم، بل رأوا فيه شخصاً ثرياً، ومحظوظاً، وبالتالي، مستفيداً بالضرورة.

وعندما عرض عليه بعضهم، خلال الحرب، شراء قطعة أرض، فأجاب أن السعر باهظ، وطالب بتخمين لقيمتها، راحوا يرمقونه شزراً، ويسخرون منه خفيةً، ويصفونه بالصقر الجارح. غير أنه كان مقتنعاً بصحة هذا الإجراء، والخبير يعطيه الحق، دونما حاجة للتأثير عليه أو رشوته. وكيف لا تسير الأمور على هذا النحو؟ فالمنطقة بأكملها كانت معروضة للبيع، ولا أحد يريد أو يستطيع الشراء؛ وكل يوم، يموت الناس جوعاً لأنهم عجزوا عن بيع أراضيهم؛ ولذلك، كانت الأسعار بالضرورة في الحضيض، ولو وجدوا شارياً، فلن يواجه صعوبة في الحصول على أفضل الشروط. بل لا بدّ أن بطرس كان يشعر بإسداء خدمة لدى تخليه عن بعض مدخراته لشراء أرض لا يرغب بها أحدهم، ولن تفيده إطلاقاً؛ أو للطرف الآخر، فكان يرى في الصفقة أنها غير عادلة، وتعسفية، ومشينة؛ إن لم نقل على الفور، فعلى الأقل

بعد الحرب، مع ارتفاع الأسعار، وندم الناس على بيعهم أراضيهم بأثمان بخسة.

لا ريب أن بطرس افتقر إلى التبصّر. وكان الأجدر به ألاّ يشتري شيئاً أثناء سنوات الحرب. ولعل الإغراء كان لا يقاوم بامتلاك حقل من التين، أو حرج من الصنوبر، أو سفح تلة. ولعلّه كان يرغب رغبة دفينة بمضاهاة الثروة التي جناها جبرايل في الأميركيتين، على الرغم من بقائه في البلاد... هذا، ولأن الأمر يتعلّق برجل يتحلى بالشرف والنخوة، فلا يجب استبعاد أسمى الاحتمالات، أي أن موقفه كان نابعاً من رغبة صادقة في مساعدة عائلات محتاجة كانت لتموت جوعاً لو لم تعرض أراضيها للبيع، ومن عدم إدراكه لاحتمال تعرض سمعته للتجريح بسبب موقفه.

وثمة سوء تقدير آخر اقترفه في تلك الفترة: فقد أقرض المال. ولم يزعم أحدهم أبداً أنه فعل ذلك بفائدة المرابين، بل حصل أحياناً أن أَقْرض بدون فائدة. ولكن هذه المسألة لا تخلو من حتمية بعض الأمور؛ فمن الصعب المحافظة بين المدين والدائنين على علاقات إنسانية صادقة. وقد اكتشفت، لدى تنقيبي في رسائل تلك السنوات أن الكثير من الأهالي في القرية عاشوا خلال الحرب بفضل مال بطرس: إخوته، وأبناء إخوته، وعمه خليل، وغيرهم... ففي الفترة التي كانوا يعانون أجمعين من الإفلاس والفاقة، ألفى جدي نفسه في بحبوحة للأسف لم تجلب له، كما أتخيل، سوى الضغائن والأحقاد.

وفي هذا المقام أيضاً، تبرز معضلة. فماذا كان عليه أن يفعل؟ لو كان يملك ثروة طائلة، لوددت أن أسمع بأنه وزعها على كل المحتاجين، وأن أسرتنا الكبيرة وكل القرية بقيت على

قيد الحياة بفضل أريحيته. ولكن معضلته لم تكن تلك المعضلة لأنه لم يملك سوى مبلغ متواضع، لا يعتبره طائلاً سوى الأهالي، ولا يجعل منه رجلاً ثرياً؛ ويكتفي، للتأكد من ذلك، رؤيته بيته ولباس أولاده. . . لا، في الحقيقة، لم يكن ثرياً، بل ادخر بعض المال وكان الأجدى به أن يخفيه عن الأنظار. فاختار حلاً آخر تراءى له أكثر أخلاقية وملاءمة فأقرضه للذين يفتقرون إلى المال، ثم استرده بعد انتهاء الحرب.

أين كان في تلك السنوات الصعبة الخط الفاصل بين الفعل المشرِّف والصفقة التعسفية؟ قد يطول السجال حول هذه المسألة. والأكيد أن سمعة بطرس تلطّخت وشعر هو بالإهانة، لا سيما أنه لم يدرك بكل صدق أين أخطأ في سلوكه.

في وثائق العائلة صورةٌ تبدو كأنها تُخلِّد على الورق تلك الفترة العصيبة، لبطرس ونظيرة وأولادهما الأربعة الأوائل. ولعلها التقطت في ربيع 1921، أو في صيف تلك السنة، بعد تقدير تقريبي لسنّ أصغر الأولاد. كان جدي في الثالثة والخمسين من العمر، ولكنه يظهر بمظهر الكهل، بابتسامته المغتصبة والمتشائمة، وذهنه المشغول بمتاعب تنعكس في عيون أولاده الشبيهة بزيتونات سوداء بالكاد تجرؤ على إطلاق العنان لأحلامها، وهم يرتدون جميعاً القماش نفسه المزين بالمربَّعات كأنهم الأيتام الذين لم يصبحوا بعد، ووراءهم سور حجري قديم وجذع عارٍ لشجرة غير معروفة. يجهلون مصيرهم الذي أعرفه اليوم بدون عناء. من توفي أولاً؟ من هاجر؟ من بقي؟

ما زال واحد منهم على قيد الحياة، ويبدو وحده فرحاً على هذه الصورة. وهو بكر أعمامي، البعيد أبداً، في عزلته الدائمة بولاية نيو انغلاند.

كانت جدتي حاملاً آنذاك. وبالكاد يظهر حَمْلُها على الصورة، ولكني أعلم ذلك بفضل التواريخ. وسوف تضع مولودها أوائل كانون الأول/ديسمبر 1921، وكان جدي قد اختار للطفل اسماً: سوف يدعوه "كمال"، تكريماً لأتاتورك.

56

لماذا تحمّس جدي في تلك السنة لكمال أتاتورك؟ لا يبرِّر هذا الحماس في كتاباته، ولكني أفطن له بسهولة. فهو الذي كان يحلم على الدوام بانقلاب عظيم في الشرق، والذي أمضى حياته يحارب السلفية، وعبء التقاليد الخانق، ويناضل من أجل الحداثة حتى في أزيائه، لم يستطع البقاء بمنأى عما يحدث في تركيا بعد انتهاء الحرب مع ظهور ضابط عثماني ولد في سالونيكا، وتعلّم في مدارسها، وتأثر بأفكارها التنويرية، أعلن عزمه على إلغاء النظام القديم، لإدخال ما تبقى من الإمبراطورية، عن طيب خاطر أو بالإكراه، في القرن الجديد.

يبدو لي أن هذا الجانب الفظ من مشروع أتاتورك راق لجدي. وما زلت أستحضر أبياتاً بالعامية غالباً ما تلاها والدي على مسمعي، نظمها والده، وتستهدف بوضوح رجال الدين ـ وفي مقدمتهم، الخوري مالاتيوس على ما أظن. وهذه الأبيات هي كالآتي:

مقص الصرامي يجزُّن جز
من روسن لكعابيهم

(لو يُجزُّهم مقص الإسكافي لو يجزُّهم من رأسهم إلى أخمص أقدامهم!).

أذكر في هذا السياق هذين البيتين الهجائيين لأنهما يوحيان لي بالطريقة التي سوف يحلق فيها أتاتورك بالقوة لحى الأئمة ـ، كما فعل بطرس الأكبر، قبل قرنين، بلحى الكهنة الأورثوذكس. في عام 1921، لم يكن كل ذلك قد حصل بعد، ولكن المبادىء العلمانية والعصرية لسيد تركيا الجديد كانت قد ترسخت، ولا أعجب لحماس بطرس الذي شعر بالضرورة مع هذا الرجل بالتماهي الشديد، إن بأفكاره أم بطبعه؛ بل أنا على يقين بأنه أسف لأن جبله لم يعد أرضاً تركية. فكمال أتاتورك على الأقل كان منسجماً مع مبادئه العلمانية، وليس كهؤلاء الفرنسيين الذين يفصلون بين الدين والدولة في بلادهم، ويموِّلون في بلادنا مدرسة الخوري!

ولربما تجلت بعض الاختلافات في المواقف بين المعجب وبطله، في هذا المجال أو ذاك ـ وقد صدف أن ذكرت أحدها، بشأن غطاء الرأس؛ ففيما كان أتاتورك يريد استبدال الطربوش والعمامة بالقبعة الأوروبية التي اعتمرها بكل طيب خاطر، كان بطرس يفضل أن يخرج إلى الشارع حاسر الرأس، متميزاً عن أولئك الذين ظلوا متمسكين بالتقاليد الشرقية وبأولئك الذين يحاكون عادات الغربيين على حدٍّ سواء. ولكن الاختلاف كان ظاهرياً أكثر منه حقيقياً: فجدي كان يريد أن يحذو الشرقيون حذو

الغربيين، وانتقاداته استهدفت على وجه الخصوص أولئك الذين يقلدون الآخر بدون السعي لفهم أسباب تقدّمه؛ أما أتاتورك، فكان يعرف مجابهة الغربيين بالرغم من إعجابه بهم.

وفي سنة 1921 تلك، تحديداً، حقق الانتصار تلو الآخر على الجيوش الأوروبية التي كانت تحتل تركيا. وفي تشرين الأول/أوكتوبر من هذه السنة، استحصل من فرنسا على الاعتراف بحكومته، وانسحاب قواتها من بلاده. وأراد جدي تكريم محرّر الأرض والعقول، بإطلاق اسمه على ابنه، بلفظه العربي: "كمال".

ولم يتورَّع أصلاً عن إعلان قراره سلفاً. كان تحدياً في الظاهر لدعاة الظلامية والسلفية، وخصوم مدرسته العمومية، والجنرال غورو والسيد ترابو، وكل الذين يحاربونه، ويشوِّهون سمعته، أو يرفضون مساعدته...

ولد الطفل المنتظر في 9 كانون الأول/ديسمبر 1921. كان بطرس موجوداً في بيروت آنذاك. ولما عاد إلى القرية، بعد بضعة أيام، كان الأهالي يتهامسون حوله، ويسخرون ويتهكمون... وأهله، بدءاً بنظيرة، يشعرون بالحرج. وللأسف، لن يستطيع الوفاء بوعده، لأن العناية الإلهية قررت غير ذلك، ولن يحمل الطفل اسم أتاتورك، لأن المولود كان بنتاً!

فتهجم جدي، ولم ينبس ببنت بشفة. وجلس إلى مكتبه، في زاوية من الغرفة، على مقربة من سرير زوجته التي أشارت للجميع بيدها أن يخرجوا، فاصطحب الكبار الصغار ولم يبق في الغرفة سوى الأم والأب والمولود ـ وقد لزم الثلاثة الصمت.

وبعد تأمل طويل، رمق بطرس نظيرة وقال لها:

ـ وماذا حصل إذن؟ لدينا بنت ـ وما همني؟
سوف أدعوها كمال! إنه اسم صبي ـ وما الفرق؟
لن أغير رأيي بسبب ذلك!

ولا تذكر الرواية إذا كانت جدتي قد حاولت ردعه. أظن أنها فعلت. وأظن أنها حاولت بشجاعة أن تشرح له الإحراج الذي قد تشعر به بنت تحمل مثل هذا الاسم. ولكنه تشبث برأيه، كعادته، وكعادتها، أذعنت لمشيئته.

في الأيام التالية، أظن أن بعض أفراد الأسرة سوف يحاولون إبداء رأيهم... ولكن عبثاً حاولوا! فكلما سعى أحدهم لإرشاد جدي إلى طريق الصواب والمنطق السليم، كان هذا المسعى حافزاً له ليحيد عنها. وسوف تحمل ابنته، عمتي، اسم أتاتورك.

كمال ـ كنت أنتظر هذه اللحظة للحديث عنها. ذكرتها مراراً في الفصول السابقة، أحياناً بين هلالين وأحياناً بدونهما، مع الحرص على عدم تسميتها قبل بلوغ هذا الحد من الرواية الذي يتوضح فيه اسمها المذكور مع اسم زوجها في الصفحات الأولى لأنني أهديها هذا الكتاب بالدرجة الأولى.

حالما عقدت العزم على القيام ببحث حول جدي، وعمي جبرايل، وأقاربنا، وأصولنا، استشرتها وصارحتها بذلك. كان ينقصني، في هذه الرحلة الحسَّاسة، دليل حميم، قريب مني وقريب من ذلك العصر، قادر على وصف الأشخاص بدقة ووضوح، والمشاعر آنذاك، وقادر على تحديد المنطقي وغير المنطقي في أحداث الماضي. دليل يحل إلى جانبي محل كل الذين رحلوا. أتحدث عنها بتأثر وامتنان، وكذلك بأسى، لأنها رحلت بدورها، رحلت باكراً، خلال هذه الرحلة.

في الفترة الأخيرة، كنا نتبادل، في أغلب الأحيان، رسائل مطوَّلة، تشجعنا سهولة البريد الإلكتروني الفوري. أكتب لها بالفرنسية، وتكتب لي بالإنكليزية، بإنكليزية أنيقة ودقيقة. وحين أستفسر منها عن حكاية رويت لي، أو استنتجتها من الوثائق التي كنت أنقب فيها، كنت أعلم أن باستطاعتي الوثوق بتقديرها ثقة عمياء. "هذه الرواية تبدو لي مشبوهة"، "هذه الحكاية تطابق ما سمعته فيما مضى، ويبدو لي أنها قريبة من الواقع"، أو "لدي رواية أخرى عن هذه الحادثة نقلها لي الشخص المعني..."، أو كذلك "في الثالثة عشرة من عمري، سمعت ـ I overheard ـ أليس تهمس لجدتك أن وفاة جبرايل لم تكن مجرد حادث"... كان تقييمه الدقيق لا يمنعها أحياناً من نقل الأقاويل التي تراها مفيدة؛ ولكنها توضح بين قوسين (hearsay) طبيعتها تفادياً للالتباس.

والحكايات حول ولادتها واسمها تندرج جزئياً في هذه الفئة الأخيرة، فئة "الأقاويل". إنما جزئياً فقط. فكل ما يتعلق بأتاتورك، وحماس جدي له، وعزمه على إطلاق اسمه على طفله، لا يرقى إليه الشك؛ وبالمقابل، فكلام جدي في غرفة النوم ليس الرواية الأصلية. والشاهد الوحيد، أي زوجته نظيرة، لم تنقله بالتأكيد كما هو. لماذا؟ لأن جدتي كانت لا تبوح بمثل هذه التفاصيل. لا لابنتها ولا لأي كان. وأصلاً، ما كان أحد ليجرؤ على سؤالها. فابنة المبشرالمشيخي، ابنة صوفيا المتزمتة لم تسمح للذين يقاربونها بأية كلفة؛ بل كانت توحي بالتحفظ والرهبة. لا توحي بذلك لنا، أي أحفادها الذين عرفناها عجوزاً، لطيفة، حنوناً؛ ولكن الذين عرفوها في الماضي كانوا يعاملونها بمراعاة

واحترام، وأولادها يخضعون لمشيئتها. ويحبونها كذلك، بدون شك، ولكنهم يخشونها في المقام الأول؛ والثرثرة بينها وبينهم غير واردة، وكذلك تدفق المشاعر. وقد سبق لي أن ذكرت قصة البنت التي سألت والدتها لماذا لا تقبِّلها أبداً مثلما تقبل كل الأمهات أولادهن في القرية، فأجابت تلك الأم، بإحراج، أنها تقبلها وهي نائمة. وهذه البنت الصغيرة هي كمال تحديداً.

أذكر جدتي في هذا السياق لسبب محدّد، سبب أتقدم نحوه بكثير من الحذر والحيطة. فلأنني من طينة أجدادي، أتحلى مثلهم بأشكال الحياء نفسها، وبعبادة الصمت والوقار. ولذلك، ليس من السهل عليّ تناول هذه المسألة التي تقض مضجعي منذ بعض الوقت، والأحياء لم يحدثوني عنها إلاّ قليلاً. فكيف استطاعت نظيرة بشخصيتها القوية، وصرامتها، وتسلّطها، ومنطقها السليم، التعايش مع زوج غريب الأطوار، استفزازي، ومتقلب المزاج؟ والجواب الذي توصلت إليه أن الزوجين كانا لا يعيشان في أغلب الأحيان تحت سقف واحد.

بلغني الدليل الأول، منذ عهد بعيد، من والدي، ولكنني لم أعره انتباهاً. كنت أخشى في طفولتي أن أفقد أهلي يوماً، لا سيما أبي الذي يبدو لي ضعيفاً، هشاً، مهدداً، منذ عرفت أنه فقد أباه في طفولته. في ذلك الحين، كنت لا أتحرَّى بالطبع، ولا أفكر بالكتابة، بل أرغب بتهدئة هواجسي. فسألت أسئلة عديدة حول "جدُّو بطرس" أجاب عنها أبي بصبر، قبل أن يضيف:

ـ أذكر لك الأمور كما رويت لي لأنني لم أعرف جدك كثيراً؛ كان يعمل في بيروت، وكنا، نحن، نعيش في الضيعة.

ـ ألم يكن يعود إلى البيت في المساء؟

ـ في تلك الفترة، كما تعرف، كانت الطرقات معدومة والسيارات نادرة. . .

لم أستشف حينها أي شيء مريب في هذا الكلام. ففي طفولتي، كنا نمضي إجازة الصيف في الضيعة،أنا أمي وأخواتي. وكذلك أبي الذي لا يرتاح أبداً من عمله؛ ويظل "ينزل" إلى صحيفته في بيروت كل صباح، و"يطلع" إلى الضيعة في العشية. وحالما يصل إلى المقلب الآخر من الجبل، يضغط على بوق السيارة بصورة مميزة، فنهرول على الطريق العام للقائه، حتى نصل إلى موقع المدبغة. كان طقساً يومياً نقوم به إنما في أشهر الصيف الثلاثة فقط. أما في الأشهر التسعة الأخرى، فتجتمع الأسرة في العاصمة.

واليوم، أستغرب لأنني لم أسأل أبي عن السبب الذي كان يدعو جدي للعمل في بيروت، مع العلم أن الجميع لطالما قالوا لي إنه كان مدير "مدرستنا" في القرية التي غالباً ما زرت مقرها المهجور.

بعد سنوات كثيرة، عثرت على دليل آخر. مصدره والدي كذلك، ولكنه يرد هذه المرة في نص كتبه عن أبيه، والوحيد الذي خصصه له على حدٍّ علمي. كتبه بمناسبة الذكرى الخمسين لرحيله؛ لا لأن بطرس كان شخصية مشهورة يحتفل بذكرى مولدها أو رحيلها، بل لأن ابنه انتهز المناسبة، بالضبط، لإخراجه من الظلمة. ويبدأ المقال الذي يقع في نصف صفحة من الملحق الأدبي لصحيفة يومية معروفة بمقدمة يعتذر فيها والدي عن عدم قدرته على وصف أبيه كما يليق به، لأن ذكرياته عنه مبهمة:

> لقد رحل وكنت طفلاً غريراً، وقلما كنت أراه في السنوات الأخيرة لأنه يعمل في بيروت. . .

عثرت على هذا المقال بالصدفة، مهملاً بين أوراقٍ كثيرة، في درجٍ، تحت مكتبة أبي. كان قد توفي، وكذلك توفيت جدتي، ولكن كان بوسعي بعد الاستفسار من بعض الأحياء الثمينين، مثل عمتي كمال التي أرسلت لي، بعد بضعة أيام، هذا الجواب:

> في ما يتعلق بنشاط جدك في بيروت خلال السنوات الأخيرة من حياته، استفسرت عن هذا الأمر من ثلاثة أو أربعة أشخاص ما زالوا يذكرون، وحصلت على هذه المعلومات التي أوافيك بها كما هي: فقد قرَّر إنشاء هيكلية في بيروت أطلق عليها اسم "مكتب المعرفة والعمل" يقدم دروساً خصوصية بعد اطمئنانه على حسن سير مدرسة المَشرَع، واهتمام التلاميذ الكبار بالصغار في غيابه...

بدون التشكيك بهذه الرواية، تتحفظ مراسلتي بشأنها، إذ تنسبها إلى بعض مخبريها (وتذكرهم في موقع آخر من رسالتها واحداً واحداً). وفي الواقع، لا يخلو هذا التعليل من التلميح: فلدى إحاطتنا علماً بكل التحفظات التي أعرب عنها بطرس لدى اضطراره السفر إلى حلب لبعض الوقت، وبالمتاعب التي واجهتها مدرسته للمضي قدماً أمام الحملات المستمرة للخوري مالاتيوس، ليس بوسعنا سوى الابتسام أمام شعوره بقدرته على تأسيس مشروع آخر، بعيداً عن القرية، لمجرد اطمئنانه على اهتمام تلاميذ في العاشرة من عمرهم بتلاميذ يبلغون بالكاد السادسة! فيما كانت زوجته ترعى خمسة أطفال وتوشك على إنجاب الطفل السادس.

حرصت كمال التي كانت تعلم كيف تفطن إلى ما يجول في ذهني، على إضافة ما يلي في بقية رسالتها:

كان جدك يقطن في بيروت عند آل أبو سمرا، الأمر الذي يبرر
العلاقات الوثيقة بينهم وبين عائلتنا؛ وبدوري أقمت عندهم
لدى زيارتي الأولى إلى العاصمة مع أمي... كان ابنهم يهمّ
بالزواج من سارة، المعلمة الأولى في مدرستنا...

فهمت الإشارة: فجدي لم يفارق بيته لعيش حياة مزدوجة، ولكن من الواضح أنه كان يرغب بالابتعاد، لا عن بيته ربما أو مدرسته ـ أجل، قليلاً، بالرغم من كل شيء! ـ بل عن القرية والأهالي. عن كل هذه الخلافات حول الأراضي، وإقراض المال، ورفضه تعميد أولاده؛ وكل هذا القدح والذم، وهذه الدعاوى مع الجيران، والأقارب، بغض النظر عن الخوري...

لا ريب أن بطرس كان مرهقاً ومشمئزاً؛ يحتاج للتنفس، يحتاج لشيء آخر، في مكان آخر. فطغت عليه غرائز العزوبية...

57

لم تحمل سنة 1922 ما يخفف من سخط جدي. فقد عيَّنت فرنسا مفوضاً سامياً جديداً لإدارة مستعمراتها في المشرق: ماكسيم ويغان، الجنرال الشهير والكاثوليكي الورع. لم يجشم بطرس نفسه عناء الكتابة إليه. فمع غورو كان بوسعه السعي للدلالة على عدم انسجام أفعاله مع مبادئه الإنسانية؛ أما مع خَلَفه فلا تناقض، للأسف، بالنسبة إلى جدي، لأن ويغان، فور تسلّمه مهامه، أعرب عن نيته دعم التعليم الديني.

في الوثائق العائلية، تتضاعف حدة الأبيات المنظومة هذه السنة ضد رجال الدين:

هم العفاريت في أثواب مَسْكَنةٍ   وإن تشا فشياطين بلا ذنبِ
لا بل بأوجههم أذنابهم برزت   هذه لحاهم بلاها الله باللهبِ

ويرجى ألا يكون تيودوروس الذي حافظ طوال حياته وحتى مماته على لحية الكاهن المهيبة قد سمع هذه الأبيات، أو تلك:

من يبلغ الجزويت أنهم غدوا   مثل الذئاب تسلمت رعي الخراف
والشر كل الشر وسط محبة   أولى بأن تدعى بلا ميم وقاف

لن أعلم أبداً الأحداث المحدَّدة التي بررت تهجم بطرس على "جمعية يسوع". والمؤكد أن هذه الرهبانية كانت تؤدي دوراً بارزاً في التعليم بلبنان إبان الانتداب الفرنسي، وهو دور لم يرق بالطبع لجدي. ولعل حادثاً معيناً على الأرجح أزعجه مباشرة، كقيام اليسوعيين بتقديم دعم ما لمدرسة الخوري مالاتيوس، على سبيل المثال، أو منحهم الخوري ضمانتهم التربوية، بطريقة أو بأخرى... لا أملك دليلاً ملموساً، ولكن هذا الاحتمال وارد، وقد يبرّر عنف بطرس.

هل أجرؤ على إغاظة جدي أيضاً بالإشارة السريعة، بين فقرتين، إلى أن عدداً من "الحملان" من أحفاده سوف يتعلمون يوماً تحت إشراف "الذئاب" اليسوعيين؟ ولحسن حظه، فقد رحل، رحمه اللّه، قبل أن يشهد ذلك!

بعد إغلاق هذا القوس الوجيز، أنخرط في استطراد آخر، أقل إيجازاً بقليل، ولكنه يبدو لي ضرورياً لتبديد سوء تفاهم.

لقد ذكرت عدداً من تصريحات بطرس المناهضة بشدة

للإكليروس، تصريحاً تلو الآخر. وقد حرصت على القيام بذلك، إذ عانيت بسبب صورته التي خَفَتْ، وفترت، وذابت في الأسرة... كان متمرداً، وفي أطلال تمرده، أبحث عن أصولي، وفي تمرده، أجد نفسي، ومنه أتحدَّد. ولكنني لا أود كذلك استبدال تزوير بتزوير آخر، وقد أفعل لو أغفلتُ أن ثمة مئات ـ أجل، مئات ـ الأبيات التي توحي بشيء مغاير، بمواجهة تلك الحفنة من الأبيات العنيفة المناهضة للإكليروس.

وعلى هذا النحو، منذ الصفحات الأولى لأقدم الدفاتر التي احتفظ بها بطرس، يصادف المرء نشيداً يعود لسنة 1893 تكريماً للبطريرك الكاثوليكي غريغوريوس الأول، وقصيدة نُظمت عام 1892 على شرف البطريرك نفسه ـ وكان جدي ما يزال في مدرسة المبشرين الأميركيين. وفي عام 1898، صدر كتاب في بيروت تكريماً للبطريرك الكاثوليكي الجديد، بطرس الرابع، بمناسبة ترسيمه؛ ويطالع فيه المرء قصيدة لتيودوروس، تقع في صفحة ونصف الصفحة، وكذلك قصيدة لبطرس، بالقدر نفسه من الثناء، تقع في ثلاث صفحات.

أينما نظر المرء في دفاتر جدي، يصادف بطاركة، ومطارنة، وأرشيمندريتات، ومدبِّرين ekonomos، ورؤساء أديرة، وقداسات، وغبطات، ومحترمين... بعضهم كاثوليك، وبعضهم الآخر أورثوذكس، أو موارنة، أو بروتستانت.

هل هذا يعني أن بطرس كان يعتمد، بدوره تلك اللغة المزدوجة التي يشجبها لدى الكثيرين من أبناء بلده؟ يبدو لي أنه من غير المنصف تأكيد ذلك. فرجل يرفض تعميد أولاده، ويجازف بمعاداة كل طائفته وأسرته لا يمكن أن يتهم منطقياً بالرياء. فسلوكه متجانس ودقيق، وحافل بالاختلافات، ارتضى

لأجله المعاناة، ولأجل ذلك، يستحق الإكبار: فحين يؤكد أنه لا يجب الفرض على الأطفال في المهد ديانة لم يختاروها بملء إرادتهم، وأنه يجب الانتظار ريثما يبلغون سناً يختارون ديانتهم بأنفسهم؛ فهذا ما يؤمن به بالضبط، وقد برهن على ذلك؛ وحين يضيف أنه ليس معادياً للمسيحية على الإطلاق ـ ولا عموماً للدين ـ وأنه يريد تعليم تلاميذه المبادىء الصحيحة للإيمان بدون الدخول في صراعات بين الطوائف، فهذا ما يفكر به تحديداً.

كان لمناهضته الإكليروس هدف محدّد: أولئك الذين كانوا يحاربون، بسبب الجهل والتعصب، مدرسته العمومية، كالخوري مالاتيوس وأعوانه. ولا أحد غيرهم. لم يكن ليحلم بإلغاء الدين أو الكنائس؛ بل يحلم بالعيش يوماً في بلد حرّ، محاطاً بنساء ورجال أحرار، بل بأطفال أحرار؛ في بلد يسوده القانون لا الاستبداد، يحكمه حكام مستنيرون وغير فاسدين، يوفرون للمواطنين التعليم، والرخاء، وحرية المعتقد، وتكافؤ الفرص، بغض النظر عن انتماءاتهم الطائفية لئلا يفكر الناس بالهجرة. كان حلماً مشروعاً ولكنه غير قابل للتحقيق، سوف يحلم به بعناد حتى مماته، وسوف يقوده في أغلب الأحيان إلى المرارة، والغضب، واليأس.

وبأسفٍ أذكر ربع قرن هو زهرة العمر أنفقته بين الدفاتر والمحابر في بلادٍ لا تصلح لغير اللهو واللعب...

لئن ذكرت مجدداً هذا المقطع من رسالة بعثها إلى صهره شكري، فلأنه يكشف عن شعور بالهزيمة غالباً ما ساوره، ولكن كبرياءه، وحس المسؤولية كانا يفرضان عليه عادة إخفائه. في الحقيقة، كان يشك دائماً، يشك بما يفعل، ويشك بمستقبل "البلدان المشرقية"، ولو بدت له الفرصة مؤاتية للأمل. كما حصل إبان الثورة العثمانية الكبرى.

حتى إذا مضى علينا شط من الزمان ولم نبلغ مبلغهم من العمران أنزلونا عن مرتبة الإنسان. . .

ثم، لاحقاً:

ونزل سلطان ونصب غيره وفي الحكم ما فيه من الغمط والغض
فمن مدع يلغو ومن جاهل يعي ومن مفترٍ يشكو ومن مرتشٍ يقضي
ومن أمة طيارة بيد الهوى يجيء بها طوراً وطوراً بها يمضي

وقد ذكرت كذلك هذه الكلمات حينها، ولكن لم أذكر تلك التي خطّها بقلم الرصاص على ورقة منفصلة، وعنونها ببساطة: بيروت، 1923

رأيت بلاد الشرق في كل حالة بلاءً وشراً زاد مكياله الوافي
فرحتم على غير القباب وقل إذاً بلاد بلا دالٍ وشرق بلا قاف

لا تبرّر المصائب العادية التي لطالما اضطر لمواجهتها هذه الكلمات المتشائمة. فقد حدثت هزّة ذات قوة مختلفة تماماً. مأساة مباغتة ورمزية لن يتخطاها.

58

في عام 1923، أعلن ابن أخت من أخوات بطرس لأهله، وهو شاب نجيب اتفق الجميع على مقارنته بعمّه، وكان ألمع

تلامذته في المدرسة العمومية، أنه لا ينوي العمل في المؤسسة العائلية، وسوف ينتسب إلى الجامعة لدراسة الأدب. وأضاف، ربما على سبيل التبجّح، وربما عن اقتناع، أنه قرر تكريس حياته للشعر.

لم ترق هذه المشاريع لأمه التي كانت أخت بطرس، أو لأبيه. فكلاهما كان يفضل أن يتوجه نحو طموحات أقل غرابةً. ولكانا رضخا للأمر الواقع، كما قيل لي، لو وافق الأخ البكر للوالد الذي كان يمارس، حسب التقاليد والأعراف، السلطة الحقيقية في هذا الفرع من الأسرة. ولكن العم رفض رفضاً قاطعاً؛ وأعلن لابن أخيه الذي تجرأ على مناقشته: "لن تذهب إلى أي مكان! سوف تعمل هنا، ومعنا، ومثلنا! أصبحت رجلاً الآن، وآن الأوان لتكسب خبزك كفاف يومك ". فأجاب الشاب: "لن آكل الخبز بعد اليوم!".

سبق لي أن رويت، في الماضي، أسطورة قروية أضرب فيها شاب يدعى طانيوس عن الطعام للحصول على الحق بمتابعة الدراسة؛ وفي اللحظة التي كاد أن يموت فيها، استسلم أهله، وعهدوا به إلى قسٍّ إنكليزي؛ فتناول الطعام مجدداً. وقد استوحيت هذه الأسطورة من قصة حصلت في أسرتي، ثم غيّرت في تفاصيلها على هواي.

أما الحين، فأروي حقيقة ما جرى: فذلك الشاب مات، في 28 تموز/جويليه 1923 تحديداً.

عندما بدأ الإضراب عن الطعام، لم يذعن أهله، مقتنعين أنه سوف يستسلم في نهاية المطاف. ثم بدّلوا رأيهم، إذ أيقنوا أنه كفَّ بالفعل عن تناول الطعام، وراح ينحل ويهزل، ووعدوه بعدم

معارضة مشاريعه. ولكنه كان قد تخطّى الخط الخفي الفاصل بين الرغبة بالعيش والرغبة بالموت.

روى لي أبي الذي ولد في تشرين الأول/أوكتوبر 1914، وكان في التاسعة أو أقل حينها، تلك المأساة في بعض الأحيان:

ـ أذكر ما حصل كما لو كان بالأمس. كان كل أفراد الأسرة يزورون ابن عمتي ويتوسلون إليه أن يتقوّت. ويناولونه أطعمة يحبها، كأنما سوف يستعيد شهيته. ويقسمون له، ويقطعون له الوعود. . . تجمعوا حول فراشه، وكانت أمه تبكي. ولكنه لم يعد يصغي لأحدهم.

ـ هل أضرب عن الطعام حتى الموت؟

ـ لم ينطفىء ببطء كالشمعة. ففي أحد الأيام، وكان الجميع يأملون إقناعه، توقف قلبه عن الخفقان.

كان بطرس في بيروت حين نشبت الأزمة. في بادىء الأمر، لم يشأ أهل الفتى إخطاره، إذ اعتبرا أنه يتحمل شيئاً من المسؤولية عن نزوات ولدهما، وخشيا أن يدعمه في عناده، وهو المشهور بمواقفه العنيدة التي أصبحت مضرب مثل في الأسرة. ولمّا تدهورت الحالة، طلبا مساعدته. بعد فوات الأوان. فالصائم ما عاد يريد الإصغاء إلى أحدهم.

فجعت الأسرة بأكملها بهذه المأساة التي أرخت بظلها القاتم على الأذهان لفترة طويلة. كانت هذه المجاعة المقبولة بملء حرية، والمفروضة بملء حرية على الذات، ولأسباب مبدئية صرف، تتسم بنبلٍ مقلق، لا سيما بعد حدوثها بعيد انتهاء المجاعة الكبرى التي تسبّبت لكل أبناء الجبل بصدمة مستديمة.

لقد هاجر ابن أخت بطرس نحو الموت كما يهاجر آخرون إلى أميركا، للأسباب نفسها: فقد أضحى محيطهم ضيقاً، وضيقة أمست طوائفهم، وأفكارهم، ومعتقداتهم، ومؤامراتهم، وانهماكهم الخنوع؛ وضيقة كذلك عائلاتهم، ضيقة وخانقة. ولا بد من الفرار!

دوَّن جدي في أحد دفاتره المرثية التي ألقاها في هذه المناسبة، بعضها نثراً، وبعضها الآخر شعراً. في السطور الافتتاحية، لا يذكر الإضراب عن الطعام، بل "الموت المباغت" فقط...

تظهر كل كلمة من كلماته عميق تأثره وغضبه؛ وفي الوقت نفسه، لم يستطع التحامل على شقيقته المفجوعة ولا على صهره، أو أفراد أسرته، مهما كان ذنبهم. فالمأتم لا يصلح للسجال، وتصفية الحسابات، وإدانة العقلية الضيقة لبعض الأشخاص، وبعضهم الآخر. ولا تصلح المناسبة لقول الحقيقة، كل الحقيقة. بل تصلح للعزاء وتهدئة الخواطر، وبلسمة الجراح.

لم تتجاوز الكلمات الأولى لبطرس هذا الإطار. فبعد الإعلان عن كون بعض الأشخاص يخلفون، إثر مرورهم العابر بيننا، أثراً لا يخلفه الكثيرون غيرهم ممّن كتب لهم العيش المديد، خاطب نفسه، بأسلوب المرثيات القديمة:

أمخضب الأجفان وكل ما جرى
ما كان قبل اليوم دمعك أحمرا...

ثم يُعدِّد صفات الفقيد، ببعض الصور البلاغية المألوفة، " قد عاش عمراً كعمر الورد"، وصور أخرى أكثر فرادةً... قبل

التقدم، بخطى وئيدة، نحو الموضوع الذي يقف أمامه اللسان عاجزاً:

بل جوهر جادت به الدنيا وقد
ندمت فقامت تسترد الجوهرا

إلى أن أعلن، قبل الختام:

أكرهت يا أسدُ متاعب عيشنا
فتركته وتركتنا متخيراً...

قيلت الكلمة. وأزيح قناع اللياقات: فالفتى رحل بملء إرادته، و"بسببنا".

فلْيَهنِك العيش الذي حاولته
في قصر ذي الملكوت من أعلى الذرى
وعلى ضريحك للمدامع صببٌ
يسقى به أبداً ويبقى أخضرا

في الحضور، ذلك اليوم، سرت همسات كثيرة وسط النحيب على غرار تلك الحكاية التي انتشرت في القرية: أنجب أهل الفقيد الشاب بكرهما الذي كان ضعيف البنية، ومات رضيعاً؛ وتحدياً للقدر، قرّر الأب أن يطلق على أبنائه الذكور الذين سوف ينجبهم أسماء الضواري؛ فأنجب ثلاثة أبناء يحملون أسماءً معبِّرة: "نمر"، و" أسد" و"فهد ".

عرفت جيداً أصغرهم، فهد؛ وكنت أزوره أحياناً مع والدي؛ كان رجلاً متحفظاً، لطيفاً، خجولاً بالأحرى، لا شيء فيه يوحي بالضراوة. وأخال أن شقيقيه الأكبرين، نمر وأسد، لا يختلفان

عنه كثيراً؛ ولا شك أن الذي منحهما هذه الأسماء المقدّرة سلفاً عن خطأ قد شعر بالخداع؛ كانا الواحد والآخر، ينظمان أشعاراً رقيقة، وأنيقة؛ وقد احتفظت الأسرة ببعض قصائدهما، بخط يدهما.

كان أسد، الابن الأصغر هو الذي أضرب عن الطعام حتى الموت. "الأسد ملك، وقد كنت ملكاً، ملك الطهارة والمعرفة"، هكذا يخاطبه بطرس في مرثيته. ولا شك أن قسماً من الحضور أدرك المعنى المبطن لهذه الكلمات.

سوف تكون لهذه المأساة خاتمة فورية ذكرها لي أبي فيما مضى، وتراءت لي حينها. نهاية مرضية.

بعد موت أسد، قرّر أخوه البكر الذي كان لا يفارقه أن يرحل عن البلاد في اليوم نفسه، بدون انتظار الدفن. فتسلّل خارج القرية تحت جنح الليل، ومضى عبر الدروب إلى الساحل، حتى مرفأ بيروت، وأبحر على متن أول باخرة إلى البرازيل. ولم يره أحد منذ ذلك الحين!

هذا ما احتفظت به ذاكرتي منذ عشرات السنين. إلا أنني عثرت على أصداء نهاية مختلفة لدى التنقيب في الوثائق العائلية. ففي رسالة إلى جدتي نظيرة، يطلب منها أحد أشقائها، المهاجر إلى الولايات المتحدة، إرسال تعازيه إلى سلفتها وزوج سلفتها "اللذين فقدا ولدين الواحد تلو الآخر". ولداهما؟ سارعت لسؤال كمال التي نقلت لي، بعد أربعة أيام، ما يلي:

> سمعت في طفولتي أن الابن البكر رحل بالفعل إلى البرازيل، وانقطعت أخباره. ولاحقاً، علمت أنه انخرط في حركة سياسية

متطرفة، وقتل في تراشق بالرصاص. ولكني تحدثت مطوّلاً للتو مع عايدة، ابنة أخيه، التي زوّدتني برواية أخرى. فعمُّها، على حدِّ قولها، كان على علاقة غرامية في البرازيل مع زوجة أحد حكام الولايات. وعلم الزوج بهذه العلاقة، فطلب من أحد حراسه اغتياله. ولعل الحادث حصل على سلم قصر الحاكم. وقيل إنه فوضوي كان يريد اغتيال الحاكم. ولا أعلم إذا كانت هذه القصة صحيحة...

وبدوري لا أعلم، ولكنها على الأرجح القصة الأصلية تلك التي نقلتها الرسالة القادمة من البرازيل آنذاك إلى الأهل الذين اعتبروا أنها تتنافى مع سمعة العائلة، وذكرى الابن الفقيد، ففضلوا التعتيم على جانبها العاطفي والإبقاء على التعليل السياسي ـ ذلك التعليل الذي لجأ إليه القتلة: فقد انضم "نمر" إلى حركة نضالية، ولذلك قتل.

أياً تكن الظروف الدقيقة لما جرى، فمأساة الأخ البكر لم تخلف آثاراً كثيرة من الذكريات ـ لأنها ضبابية ونائية للغاية. ولكن مأساة الأخ الأصغر النقية والقريبة كنصل مسلول، خلَّفت في النفوس جراحاً لم تندمل لفترة طويلة.

لم يتألم بطرس يوماً مثلما تألم بسبب هذا الحدث. كان أسوأ من حداد، كان هزيمة، لكل ما آمن به، ولكل ما حاول بناءه. فما جدوى البقاء في البلاد، والتفاني في التعليم، إذا كان مصير أذكى تلاميذه وأكثرهم موهبة، ونقاوةً وقرباً، مثل هذا المصير! تجاوز جدِّي حدود المرارة، وأمسى على أبواب اليأس.

آهٍ لو يرحل مع زوجته وأولاده، أجل، يرحل بعيداً، إلى هافانا، يشارك أخاه، يغتني مثله، يشيد مثله بيتاً على التلال...

ولكن هذا الحلم أصبح محظوراً عليه. فجبرايل رحل، وثروته تبدَّدت، ومثواه أضحى مجرد بلاطة فخمة ومؤثرة في مقبرة كريستوف كولومبوس.

لن تكون كوبا لنا أبداً يا جدي، ولا المشرق كذلك! فنحن تائهون، وسوف نبقى كذلك إلى الأبد.

59

غير أن سنة 1924 حملت في جعبتها لبطرس بعض الأبناء المشجعة؛ قادمة من عالم بعيد عن عالمه، ولكنها قد تؤثر في معاركه الشخصية: ففي أيار/ماي، أسفرت الانتخابات في فرنسا عن فوز ائتلاف الأحزاب اليسارية الذي وضع في أعلى قائمة برنامجه السياسي العودة إلى تطبيق صارم للعلمانية، لا سيما في التعليم. وسوف تكون النتائج مباشرة على المشرق: فقد أرغم الكاثوليكي ويغان على التنازل عن منصب المفوض السامي لصالح موريس ساراي، وهو جنرال مثله، وبطل مثله من أبطال الحرب العالمية الأولى، ولكنه ماسوني ومناهض شرس للإكليروس. ولئن كان هذا التغيير الجذري في التوجهات والحكام سيصبح رسمياً في أواخر العام، فقد اعتبر أمراً حاصلاً، اعتباراً من شهر تموز/ جويليه، ورددت صحف بيروت، بعد صحف باريس، أصداءه، لا

بل نقلت تصريحات مذهلة عن ممثل فرنسا الجديد: فخلال ممارسة مهامه، سوف يرفض الطوائف، والمطارنة، والبطاركة، وكذلك المفتيين والأئمة! وقد صعق رجال الدين في البلاد، وشعروا بالمهانة.

أما بطرس فقد حملت له مثل هذه التصريحات الأمل والرجاء. فهذه المرة، سوف تصله "المعونات الفرنسية" ولن تصل لخصومه؛ وسوف تستفيد مدرسته العمومية أخيراً من دعم سلطات الانتداب، وتتمكن من النهوض، والتوسّع، ونشر أنوارها. ولن يعلم مالاتيوس وحماته إلى أي قديس يلتجئون!

في الحقيقة، لن تجري الأمور على هذا النحو. فساراي الرجل المستقيم، كان رجلاً أخرقاً، غير مطلع على أسرار السياسة المحلية؛ وسوف يثير الريبة والعداوة والبلبلة ـ لا سيما انتفاضة دموية في معقل الدروز ـ بحيث يستدعى إلى باريس بعد بضعة أشهر فقط على تسلم مهامه...

لم يعلم جدي أبداً كيف انتهى عهد هذا "الأخ". فلم يعرف سوى البهجة العلمانية الأولى، وتوفي وهو يرجو تلقي أنباء سارَّة. حصل ذلك في 17 آب/أوت 1924، يوم أحد. كان في غرفته، جالساً إلى طاولته، يكتب، وجدتي تعدّ الغداء حين سمعته يناديها بصوت غريب...

كان معتاداً على خربشة أشياء طوال الأسبوع على قصاصات من الورق، وكراتين، وظهر علب سجائره، ليخرج يوم الأحد، ساعة يذهب أهالي القرية إلى القداس، كل هذه الكومة من جيبه وينسخ ما يستحق النسخ على دفاتر جديدة.

ولو كان هذا ما يفعله ذلك الأحد، أظن أنني أعرف الدفتر الذي انحنى فوقه للمرة الأخيرة. فقد جمعتُ ثلاثة عشر دفتراً، مع احتساب دفتر التوفير الصغير النيويوركي الذي استعمله جدي، فيما مضى، كدفتر في عرض الأطلسي، لعدم توافر أوراق أخرى بمتناول يده على أغلب الظن.

يحتوي دفتر واحد على نصوص تعود لسنة 1924. غلافه مرمري الملمس، وألوانه عاجية وخمرية. ألصقت عليه بطاقة تحمل العبارة التالية:

مسوَّدة بعض سوانح
قلتها مرتجلاً
في حوادث مفاجئة
من سنة ١٩١٦ إلى سنة

كان جدي اعتاد عدم ذكر التاريخ الأخير، ثم تحديده لاحقاً بعد امتلاء الدفتر؛ فيفتتح دفتراً آخر يكتب عليه عبارة مماثلة. وهذه المرة، لم يمتلىء الدفتر وبقيت منه صفحتان مزدوجتان فارغتان.

لم أستطع الامتناع، لدى تصفحه، عن الترقب المحموم للتاريخ الذي توقَّف عنده قلمه... فقد شعرت أحياناً بتأثر مشابه لقراءة مذكرات أديبٍ، أو شخصية أخرى، حين أعلم تاريخ وفاته وأراه يقترب منه معصوب العينين. غير أن هذه الحالة تكتسب عندي بعداً إضافياً لا يرتبط فقط بصلة القربى، بل كذلك بطبيعة الوثيقة التي بحوزتي: فهي ليست عملاً مطبوعاً، بل نسخة يتيمة، وبخط الرجل الذي سيموت، وبمداده؛ بل قد صادف على هذه الصفحات بصمات أصابعه وآثاراً خفيفة لعرقه أو دمه.

في أعلى هذا الدفتر الأخير أبياتٌ لم تكتب كحاشية ولكنها أصبحت كذلك:

كم قد رأينا الفتى يبكي الشباب وقد
لاح المشيب كزهر بين أشواكِ
فابك المشيب كما تبكي الشباب فما
هذا ولا ذاك باقٍ أيها الباكي

وفي أسفل الصفحة نفسها، تتكرَّر الفكرة عينها أو تكاد:

بذكر الشباب وذمِّ المشيب وخوف الزوال عناء طويل
حياتك يومك يا ذا فقط فلذٌّ وسُرَّ وهيي السبيل

وبعد صفحتين، محاولة أخرى للمصالحة مع أجله الذي كان يشعر بدنوّه، خفيةً.

من أبصر الدنيا بعين الناقد
عدَّ الحياة من المتاع الكاسد...
إلا الذي غلبته نفسٌ حرةٌ
شغلت عن الفاني بند خالدِ

يحتوي هذا الدفتر على قصائد وكلمات ألقيت في أماكن مختلفة، لا سيما حلب، وزحلة، وبعلبك. ثم المرثية، المذكورة سابقاً، لابن أخته "أسد" عام 1923، فبعض الأبيات المنظومة بمناسبة حفل في الجامعة الأميركية ـ بيروت، عام 1924 بدون تحديد الشهر.

وفي الصفحة نفسها، وجدت ورقة مطويّة. إنها وصفة طبيب، مكتوبة بالفرنسية في 4 حزيران/ جوان "للأستاذ بيار

معلوف". ولا تشبه على الإطلاق وصفات اليوم، حيث يكتفي الأطباء بخربشة لائحة بأسماء غريبة غير مقروءة؛ بل تضم جرعات حقيقية، تتوجّه إلى الصيدلي الذي سوف يركب الأدوية؛ ولهذه الغاية، طبعت على الآلة الكاتبة تفادياً لأي خطأ.

SOII ARSENIATIS 00.05 Grammes

YOHIMBINES SPIEGLES 00.20 Grammes

EXT. NUCIS VOMICAE 2.00 Grammes

لا فائدة من المتابعة فهذه الرطانة العلمية تعصى على الفهم. ولكني لا أجزع لأن عائلتي تضم عالماً للتعويض عن جهلي؛ أجل، عالماً، حقيقياً، إلى جانب آلاف الأدباء؛ بل موسوعة حية في كيمياء العقاقير تحديداً. فسارعت لإرسال نسخة عن الوصفة إليه بالبريد. وبعد بضعة أيام، وصلني شرحه المفصّل.

سوف تجد أدناه بعض الملاحظات رداً على سؤالك حول الأدوية الموصوفة لجدك. كانت لا تهدف شفاءه من مرض محدَّد. وأتخيّل أنه كان يشعر بالوهن، ويحتاج إلى المقويات والراحة. والأغذية التي ترد قائمة بها بالعربية على ظهر الوصفة كان من المفروض أن تحدث مفعولاً مماثلاً.

وفي ما يلي تعليق موجز عن المكوّنات المذكورة، مع العلم أن معظمها لم يعد مستعملاً على الإطلاق. فهذه المكونات تنتمي إلى زمن غابر قبل اكتشاف المواد التركيبية وعلم العقاقير الحديث.

العلاج الأول عبارة عن وصفة قديمة تحتوي على المواد السبع التالية:

أ ـ Arséniate de Sodium أرسيينات الصوديوم. للزرنيخ مفعول منشّط وكان متسلقو الجبال المحترفون يستعملونه أحياناً

ليمنحهم القوة من أجل التسلّق وتحمّل المناخ القاسي بالإضافة إلى الإنخفاض الشديد لدرجات الحرارة.
ب ـ Yohimbine اليوهيمبين. مادة قلوية مستخرجة من نبات أفريقي. وهي منشط جنسي، ومادّة مثيرة للشهوة.
ج ـ Ext. Nucis Vomicae، هو مستخرج من حبة هندية تحتوي على مادة الأستيركنين التي كان يعتقد أنها تحفز الأعصاب وترد الشهية.
د ـ Zinci Phosphidi، وهو مركّب فوسفور الزنك، كان يستعمل في الماضي لاحتوائه على الفوسفور، وهو مادّة منشّطة (واليوم، يستعمل سُمّاً للجرذان).
هـ ـ Ext. Damianae، مستخرج من ورقة الداميان المنتشرة في المناطق الاستوائية الأميركية والأفريقية، وتحتوي على عدد من المركبات ذات المفاعيل المتنوعة: المنشطة، والمساعدة على الهضم، والمضادة للاكتئاب.
و ـ Ext. Kolae، مستخرج من جوزة الكولا، وهي من الحبوب الأفريقية الغنية بالكافيين، وتعتبر محفزة للأعصاب.
ز ـ Ext. Cocae، مستخرج من ورقة الكوكا المعروفة في بلدان أميركا الجنوبية (كالبيرو وبوليفيا، إلخ). وتستخرج منها مادة الكوكايين وهي محفز للجهاز العصبي المركزي، وكذلك مخدّر موضعي. ويمضغ السكان الأصليون هذه الأوراق لمقاومة التعب. وهي تساعدهم على البقاء بدون طعام لعدة أيام.
وتجدر الإشارة إلى أن المواد أ، وج، ود سامّة إذا تجاوزت بعض الجرعات الدنيا.

وكان علاج آخر موصوف لجدي هو لصقة، اسمها لصقة ألكوك الأميركية النفاذة، رقم 1. وتشرح الوصفة طريقة استعمالها بالفرنسية: "توضع على منطقة الصُلْب وتترك في موضعها إلى أن تنفصل تلقائياً".

لا تزال هذه "اللصقة المشمَّعة" المعروفة هنا باسم "لصقة أميركانية" شائعة الاستعمال. وهي تحفّز الدورة الدموية في عضو من أعضاء الجسم يعاني من الوجع. وقد يكون الوجع ناجماً عن داء المفاصل، أو نزلة برد، أو سبب آخر. ويمكن وضع اللصقة في مواضع مختلفة من الجسم، على الظهر، أو الكتف، أو العنق، إلخ. وهي فعّالة لدى استعمالها بدراية.

أما الأطعمة التي ينصح الطبيب جدي بتناولها، فتجدر الإشارة إلى كونها من المغذيات التي تحفّز الطاقة وتكمّل نوعاً ما الأدوية التي وصفها له كالبيض المسلوق، وبيض الغنم، والأسماك، والدجاج، والحمام، وغيرها من الدواجن. . .

وبالتالي، لم يعالج جدي تحديداً بسبب مرض في القلب، مما لا يعني أنه لم يصب بوهن في قلبه. وهذا هو الانطباع الذي تكوَّن لدى نظيرة في ذلك الحين. وقد صارحت ابنتها كمال بذلك في فترة لاحقة، ونقلته لي عمتي:

> صارحتني أمي أن والدي بدأ، قبيل وفاته، يطلعها على مسائل عديدة لتتمكّن من الاهتمام بها بعد رحيله. وقد خالجها الشعور حينئذٍ أن أطباءه حذّروه من احتمال إصابته بسكتة قلبية.

60

وبالحديث عن القلب، عثرت في هذا الدفتر الأخير لبطرس على أبيات أثارت فضولي:

لو كان عند معذبي بعض الذي
عندي لا يرى بعض ما لديه
ولكان لا يسعى لقلبي بالضنى
من يهدم البيت الذي يأويه

في الواقع، اللجوء إلى كلمة "قلب" في الاستعارات الغرامية هو الأسلوب الأكثر شيوعاً لدى البشر، وليس فقط لدى الشعراء. غير أنني أميل للاعتقاد أن الإشارة في هذه الأبيات تتعلق بالقلب أيضاً، بوصفه عضواً من أعضاء الجسم، لا سيما حين يضيف جدي، بعد صفحتين:

أزيد تدلهاً وتزيد دلاً:
وما أغنى كلينا عن مزيد
فلِنْ واعطف وخفف من عذابي:
فما كل القلوب من الحديد

ثم يقول بعد ذلك كأنه يتابع الحديث نفسه، والملامة عينها:

سلي عن فؤادي بعدما قدَّر النوى
فما شاقه خلقٌ سواك ولا سلى
أبى القلب أن ينحلَّ ما هو عاقدٌ...

وبدون الخوض في تحليل نفسي مبتسر، يبدو لي أن هذه النزعة للتحدث عن قلبه مراراً، وإشراكه في الألم، قبيل الأزمة القلبية التي سوف تؤدي إلى وفاته، لا تخلو من الدلالة. فلعل التوجس والألم قد ولّدا الكلمات، وتحوّلا بذلك إلى ملهمتين مشؤومتين.

لئن تجلّى هذا الحدس باقتراب الأجل في آخر كتابات

لبطرس، فهذا الأخير لم يتوقف عن ممارسة نشاطاته المهنية والتزاماته الاجتماعية جراء ذلك، وكان يؤديها في الظاهر عن طيب خاطر. وهكذا، لدى مغادرة بيروت، بعيد موعده مع الطبيب، قصد سوق الغرب لحضور عرس. وهي بلدة يعرفها حق المعرفة، لأنه تابع فيها قسماً من دراسته في مدرسة المبشرين الأميركيين، بل خصّص الوقت لزيارة هذه المدرسة، ونظم بعض الأبيات، كعادته، على شرف القيِّمين عليها، مثنياً على تفانيهم وكفاءتهم؛ ويذكر فيها مؤسس المدرسة، القس كالهون، وكذلك مديرها في ذلك الحين، القس شيرير.

كانت هذه القرية مسقط رأس صوفيا، حماته، والشاب الذي يحتفل بعقد قرانه في هذا الصيف هو ابن أخ لها، وبالتالي ابن عم جدتي. وقد عرفته، في فترة متأخرة، خلال الستينات ـ وكان رجلاً عجوزاً ممتلىء الجسم ومهذباً يدعوه والدي متحبباً: "أونكل إميل"، وكان يرسل كل سنة في فصل الربيع سلَّة زهور إلى نظيرة بمناسبة عيد الأم.

من سوق الغرب، كتب بطرس في 21 حزيران/جوان 1924 هذه الرسالة، الموجّهة إلى بكر أولاده، ولكنها تتوجه إلى كل الذين بقوا في القرية.

> كنت أود أن أوافيكم اليوم ولكن لم أوفق إلى طرق سفر موافقة، فربما أبقى إلى الأسبوع القادم.
> إميل يتكلل نهارالسبت القادم في الكنيسة ثم يخرج منها ويذهب هو والعروس وحدهما في شطحة من أيام العسل لا يرافقهما أحد، فالذين يحضرون الإكليل يخرجون من الكنيسة كل إلى

بيته وليس إلى بيت العريس، ولكن بالطبع اللزايم يذهبون بعد فترة إلى بيت العريس وينتظرون عودتهما (وهذه العودة المنوية أخبرني عنها العريس سراً).
فاخبروني ما هو رأيكم ومن يريد أن يحضر منكم ومتى؟ ما ترونه مناسباً قرروه وأخبروني نهار الاثنين بعد غد لأكون على بصيرة وأنتظركم إذا استنسبتم الحضور.
الورق الباقي على التوت لا تمشقوا منه شيئاً مطلقاً...
امرأة عمكم سليمان قالت وأنا مار أنها تريد تنكة حلاوة، ولا أعلم إذا كان طلبها مع المكاري، فإذا كانت لم تزل لازمة، أخبروني.
اجتهدوا بمراجعتكم المدرسية وابقوا السؤالات لحين حضوري.
قابلت مستر فريدنكر في سوق الغرب، وقال إنه ربما يزوركم في 22 أو 23 الجاري. مسز تشيرر تسلم على الماما...

هذه هي الرسالة الأخيرة التي كتبها بطرس، وتظهر فيها نزعته لتنظيم كل الأمور عن بعد، حتى أدق التفاصيل، وحسّه الدقيق بالمسؤولية، وكذلك حسّه المرهف بحرية الآخرين ـ فقلائل هم الآباء الذين كانوا يبعثون لأولادهم في ذلك العصر قائلين: "تشاوروا، واتخذوا قراراً، واطلعوني عليه!".

لم يكن الابن البكر قد بلغ الحادية عشرة؛ وسوف يحتفل بعيد مولده في 19 تموز/جويليه. وكانت تلك آخر مناسبة يلتئم فيها شمل العائلة.

61

خلال أيام الآحاد من شهري تموز/جويليه وآب/أوت 1924، خصص بطرس، بعد عودته إلى الضيعة، الوقت لنسخ مختلف الكلمات والقصائد التي ألقاها أثناء تنقلاته الأخيرة، لا سيما في سوق الغرب، على هذا الدفتر المرمري الغلاف. ويضم الدفتر في صفحاته الأخيرة عرضاً لمراسم الزفاف مع مديح ـ تقليدي بالأحرى ـ لإميل وعروسه الشابة، ولكل أهلهما وأقاربهما، وكذلك القسّ الذي أقام مراسم الزواج.

وفجأة يتوقف النص، بدون سبب ظاهرياً، في أسفل صفحة مشوَّشة الخط نوعاً ما.

تقول الأبيات الأخيرة:

أو لم ترَ الأنوار قد فاضت هنا
وملائك الفردوس تخطر بيننا
هذه أتت رسلاً تقول لنا أبشروا. . .

وظلّت الصفحات التالية فارغة.

قد يميل المرء لتأويل هذه الكلمات الأخيرة كنذير برحيله الوشيك إلى العالم الآخر. وللوهلة الأولى، خِلْتُ ذلك. ولدى قراءتها مجدداً اليوم، بهدوء، ومع اعتبار السياق الذي وردت فيه، أعترف أنها لا تحمل هذه الدلالة، فهذه الأبيات مجرد خاتمة للكلمة التي ألقاها جدي بمناسبة العرس، "وملائك الفردوس" ليسوا سوى الأطفال الذين يلبسون ثياباً بيضاء ويتجولون وسط المدعوين.

حين أمسك الموت بكتف بطرس، لم ينظم أي قصيدة. ولربما لم يسنح له الوقت ليدرك أن ساعة الرحيل قد أزفت.

يروي لي ابن أخيه، "الخطيب": "لم أكن موجوداً في القرية ذلك اليوم. رافقت أمي لزيارة بعض الأقارب في ريفون، حين جاء أحدهم وأعلن النبأ. قيل لنا إن عمي كان يستحم..."

أتخيل أن جدي أحسَّ، وهو يفرك جسمه، ويحرك ذراعيه، بألم، أو تصلب، أو وخز، أو ضيق، في الجهة اليسرى. وأتخيل كذلك أنه كان يشعر منذ وقت طويل بهذه الأعراض ولكنه اعتاد عليها. وفي كل الأحوال، لم يخطر زوجته، وجفَّف نفسه، ثم ارتدى ثيابه، منتقياً بلا شك أحد القمصان الغريبة التي لم يكن أحد غيره يلبسها في القرية. ثم جلس إلى مكتبه، وفتح هذا الدفتر نفسه الذي فتحته للتو أمامي، على الصفحة عينها...

هرعت جدتي لدى سماعه يناديها بصوت غريب النبرة؛ وكانت كمال تعدو خلفها، وتبلغ من العمر سنتين ونصف السنة، وسوف تستحضر عمتي ذكرياتها في كتاب بعد ثلاثة أرباع قرن.

لم ألمح والدي في ذلك اليوم. والصور الوحيدة التي أحتفظ بها في الذاكرة هي صور أمي تهرع إلى غرفتهما وأنا أتبعها. قيل لي، بعد سنوات، أنه أصيب بأزمة قلبية. لم أحضر المأتم، ولا التعازي. فعادة، كان صغار السن لا يبقون في البيت، في مثل هذه الظروف، لئلا يتألمون، وكذلك على الأرجح لعدم إزعاج الكبار. ولعلهم أرسلوني عند عمة من عماتي. لا، لا أذكر تلك الأيام، وأشعر اليوم ببعض الأسف بسبب ذلك.

سمعتُ في طفولتي أحياناً عن مأتم جدي، لا سرداً مفصلاً،

بل تلميحات مبعثرة تميل إجمالاً للاعتبار أن الناس تقاطروا وحداناً وزرافات إلى قريتنا، وبيتنا ـ مدرستنا، من كل أنحاء البلاد. وأدين للحقيقة بالقول إنه من المألوف عندنا، لدى وفاة شخص عزيز، اللجوء إلى التضخيم لوصف مأتمه، كأنما احتشاد الناس وحِدَّة العويل معيار لا يخيب لتحديد قيمة الفقيد وصيتِهِ. وغالباً ما سمعت الصفات نفسها، وعبارات التعجب عينها، فصرت لا أثق بها كثيراً. هذا، وأظن أن بطرس كان يثير الإعجاب، والامتنان، والسخط، وكذلك فضول أبناء بلده بكل بساطة. وقد تقاطر هؤلاء على الأرجح لتشييعه إلى مثواه الأخير، حتى أولئك الذين لا يحملون له سوى الضغينة. وعلى سبيل المثال، أنا على يقين أن الخوري مالاتيوس كان يحتل موقعاً بارزاً في الموكب الجنائزي...

في كل الأحوال، لقد أُخْطِر حسب الأصول بوفاة خصمه القديم. وأعلم ذلك لأن ثمة وثيقة في وثائق العائلة تؤكد ذلك. من تلك الوثائق التي لا تحتفظ بها بالتأكيد عائلات أخرى غير عائلتي: قائمة مطوَّلة، تضم عشرات الأعمدة، على أوراق تطلب طيها ثماني مرات من أجل وضعها في المغلف لكبر حجمها. أسماء، أسماء، مرفقة في أغلب الأحيان بلقب فخامة، أو منصب، أو مكان الإقامة، "قرانا"، والبلدات المجاورة، وكذلك زحلة، وبيروت، وبعلبك، وحلب، ودمشق، بل بغداد، والقدس، أو القاهرة. وتوضح جملة مخربشة بالقلم على المغلّف: "أشخاص يجب إخطارهم بالفاجعة التي حصلت".

لم يكتب كل هذا التعداد المطوَّل للأسماء شخصٌ واحد. فهنا، خط بطرس. وهناك، خط نظيرة، وكذلك أربعة أو خمسة

خطوط أخرى لا أعرفها. استغرقت بعض الوقت قبل أن أدرك أن هذه القائمة كانت لفترة طويلة بمثابة "مكنز معلومات". فقد استعملت أولاً إبان وفاة خليل، جدي الأكبر. في كانون الأول/ ديسمبر 1918. والأسماء الأولى الواردة فيها هي أسماء أصدقائه ومعارفه، ومعظمهم من المتعلمين المشرقيين الذين اعتنقوا مثله البروتستانتية، وكذلك طائفة من القساوسة، بعضهم "محليون"، وبعضهم الآخر أميركيون، المحترم آردن، المحترم شيرير، المحترم فريدينغر...

يبدو لي أن جدتي احتفظت بهذه القائمة، أصلاً، بسبب حبها لأبيها. ولما توفي زوجها فجأة بعد ست سنوات، استعادتها لتفادي عناء كتابة قائمة أخرى، لا سيما أن للفقيدين معارف مشتركين كثيرين، ومن بينهم، تحديداً، هؤلاء القساوسة الذين كانوا ما زالوا يقدمون المعونات للمدرسة العمومية، وكذلك كل أقاربنا، وأهالي القرى المجاورة؛ ثم أضافت بخط يدها أو طلبت من أشخاص مقربين منها إضافة أسماء أخرى.

وتضم هذه القائمة كذلك، في موقع بارز، أسماء الصحف التي يجب إخطارها بالوفاة، وعلى رأسها "صوت الأحرار"، "البرق"، "الوطن"، "العالم الإسرائيلي"، "الشعب"، "الدبور". وهذه الصحيفة الأخيرة ساخرة... توقفت، مستغرباً. تفحصت الكتابة عن كثب، وقارنتها بوثائق أخرى. إنه خط بطرس بدون أيما شك. وبالتالي، يرجع هذا التعداد لمأتم خليل، عام 1918. فلأي سبب تنشر نعوة جدي الأكبر في صحيفة يهودية؟ لا أعلم؛ ولكن ما طالعته للتو يستثير حنيني إلى تلك الحقبة المباركة التي كان العرب واليهود فيها لا يعرفون الحروب والخصومة والعداوة...

حالما شاع نبأ وفاة بطرس، بواسطة النعي، أو انتشار الخبر على كل شفة ولسان، انهالت رسائل وبرقيات التعزية. وقد احتفظت نظيرة بها، إخلاصاً، واعتزازاً، وكذلك بحكم العادة. أكثر من ثمانين رسالة مصدرها زحلة، بيروت، حلب، القاهرة، نيويورك، إل باسو في تكساس، ساوباولو، وكذلك قرى الجبل ـ ولكن لا رسالة من هافانا. وقد حفظت كل هذه الرسائل بعناية؛ وكتبت على كل منها عبارة بطرس بقلم الرصاص؛ "تجاوب عليها".

ووسط هذا السيل من الرسائل والبرقيات، وصلت رسالة لم تكن رسالة تعزية، ولكنها حفظت مع الرسائل الأخرى. و "لم يتجاوب عليها". أرسلت من باريس، شارع كليري، في 23 آب/ أوت، الساعة السابعة والربع مساءً. ويحمل المغلّف شعار "فندق الكونسرفاتوار، 51 شارع إيشيكيه، قرب الجادات الكبرى...". وعنوان المرسل مكتوب فيها باللغتين. بالعربية أولاً: "إلى سعادة العلامة المحترم الأستاذ بطرس م..." ثم بالفرنسية، بأسلوب أقل تفخيماً: "السيد بطرس م...".

كان جدي قد توفي منذ ستة أيام، ويظهر أن المرسل لم يعلم بنبأ وفاته. ولعله أحد تلامذته القدامى الذي أصبح صديقاً؛ كان في زيارة عابرة إلى فرنسا في طريقه إلى بلد اغتراب بعيد، وغير مغتبط في الظاهر لهذه الرحلة، ولكنه راضخٌ للأمر الواقع بمرح مشوب بالحزن. ولكن الرسالة لم تحفظ لهذا السبب.

باريس، في 23 آب/أوت 1924

سيدي الأستاذ،

أخذت القلم لأكتب فعصاني القلم، وضعته جانباً، وأشعلت

سيكارة لعلها تنبه هذه القريحة الخاملة، فلم يجدني ذلك نفعاً.
تمشيت في غرفتي في الأوتيل جيئة وذهاباً، وقد قست الغرفة مراراً كمن يفكر في حل مسألة سياسية أو كنابليون عندما كان في أسره " أشبه نفسي بنابليون دون أن أنتبه فغض النظر يا أستاذ ".
رجعت إلى مكاني أمام المنضدة مرة ثانية وأخذت قلماً آخر وكان هذا من حديد. غمسته في المداد مرتين وثلاث، وجربت أبدأ أكتب، فكان القلم يمشي والصحيفة لا تزال بيضاء... فخرجت هائماً على وجهي لا أدري إلى أين.
مشيت ومشيت إلى أن رأيت جمعاً من الناس ينظرون إلى باب جلّل بالسواد، وقد رفعوا برانيطهم عن رؤوسهم فقلت ماذا جرى؟
وقفت أنظر مع الوافدين فإذا بنعش خرج وقد حمل على أكتاف أربعة من الرجال إلى عربة أيضاً مجلّلة بالسواد، والناس كأن على رؤوسهم الطير.
مشت العربة وتفرق الناس وكأن لم يكن شيئاً. مشيت وراء الناس حتى المقبرة، وبعد أن أودعوا الميت التراب، رجع المرافقون وقد نسوا أيضاً ذلك الراحل فكنت تجدهم يتكلمون عن السياسة والتجارة...

أظن أن أصابع نظيرة ارتعشت لدى قراءة هذه السطور... والله أعلم إذا تابعت القراءة أم احتفظت بها كشهادة على مصادفة غريبة...

سأترك باريس بعد ثلاثة أيام حيث أذهب إلى بولونيا وأركب الباخرة التي ستقلع من مياه هذه الأخيرة في 30 الشهر الحالي.
نعم، ستحمل هذه الباخرة على ظهرها جسمي وآمالي وما أحمله من الهموم والشقاء. وأنا خائف عليها من الغرق لثقل ما ستحمل.

نعم، إلى تلك البلاد البعيدة النائية، بلاد المكسيك، سأذهب
وهي هي ستتحقق أو تخيب آمالي. ربما كانت هناك تربتي
وربما تركتها بعد شهر من وصولي إليها. لا أدري أي أرض
ستسعني وأنا أرى الأرض ضيقة عليَّ.
أنا أعرف جيداً أنني مغرور بنفسي ولكنني أعرف أيضاً أنني
لست باللاشيء فلم كتب علي الله الشقاء؟ كنت أود أن أجاهد
في سبيل الحق والله تحت لوائك ولكن الظروف، ولا أدري
ما هي الظروف أجبرتني على ترك البلاد وترك تلك الآمال التي
كنت قد بنيتها في بلادي.
لقد رست أخيراً سفينة اليأس على شاطىء بحر الشقاء، فهل
هي ستبقى إلى الأبد أم ستقلع؟
أكتب لي يا سيدي الأستاذ وأرشدني لعلني بذلك أجد إلى
الهدى سبيلاً. نعم، إن كتبك ستجدد قواي وتكون لي ضوءاً
أستنير به في ظلمات هذه الحياة الحالكة السواد. هذا إذا كان
لا يزال في ذاكرتك أثر لذلك الشاب الذي لطالما أفضى إليك
بأسرار نفسه لأنه وجد فيك كاهن الروح فاعترفت نفسه إليك.
أكتب لي إلى مكسيكو بهذا العنوان:

Sr. Praxedes Rodriguez, San Martin Chachicuhatha, Mexico

ليد الشاب التعيس علي حاج.
أقدم لسيدتي مدام معلوف احتراماتي، وأصافح الأنجال
المحروسين مصافحة أخوية تسمح لي بها وأنت سيدي دم
واسلم وابق لولدك بالروح.
سلام يا أرض لبنان ووداعاً إذا كان قد كتب عليَّ أن لا أراك
وإلا فإلى اللقاء ولوبعد حين.

62

لدى وفاة خليل، تساءل بطرس كيف ينظم له مأتماً يليق به، بل خطر بباله تحنيطه ريثما يضفي على ترتيبات المأتم طابعاً مهيباً، ويمنح الناس الوقت الكافي لمعرفة النبأ والمشاركة في الجنازة. ولكن جدي عدل أخيراً، عن هذا المشروع غير المضمون، كما برّر في رسالة ذكرتها مطوّلاً لدى إفادتي عن هذا الحدث. وختم قائلاً: "خشيت أن أطلب الزيادة فأقع في النقصان"؛ قبل العودة إلى طموحات أكثر واقعية.

ولدى وفاة بطرس نفسه، بعد ست سنوات، برزت المعضلة نفسها. فمجدّداً، اقترح تحنيط الجثمان، وسرعان ما استبعدت هذه الفكرة الباذخة بفكرة أكثر حذاقة وانسجاماً مع شخصية الفقيد: فأولاً، سوف ينظم مأتم عادي، بحضور أهالي القرى المجاورة، وتلاميذ المدرسة العمومية وأهلهم؛ وتفتح البيوت ثلاثة أيام لاستقبال المعزين؛ ومن ثم، يخصص الوقت الكافي لتنظيم احتفال عظيم، بهدوء، في الذكرى السنوية الأولى لرحيل الفقيد.

وسوف تذكر كمال في مذكراتها:

"ما زلت أذكر هذا الاحتفال. كان الجميع يتحدثون على الدوام عن هذا الحدث، وقد قيل لنا بوضوح، نحن الصغار، إننا يجب أن نحضره. وقد جرى الاحتفال في حقل شاسع يحتوي على مدرجات، وحوله أشجار التين والكروم؛ قريب من البيت، كان والدي يعشقه.

لا أدري كيف علقت الملاءات البيضاء على هذه المساحة الشاسعة لحماية الحشد من شمس آب/أوت. وقد استعيرت

الكراسي من بيوت القرية ليتمكن الجميع من الجلوس. أجلسونا أنا وأختي وإخوتي في الصف الأول. وهذا كل ما أذكره شخصياً. ولاحقاً، قيل لي إن شخصيات مرموقة ألقت كلمات تأبينية بعضها نثراً، وبعضها الآخر شعراً. وألقى ابن عمي نصري، وكان في الثالثة عشرة، مرثية مؤثرة. . . "

كنت قد اتخذت قراراً بعدم البوح بالهوية الحقيقية للأشخاص الذين سيكونون ما زالوا أحياءً عند انتهاء هذا الكتاب. ولكنني غيّرت رأيي للتو؛ فلا أرى فائدة في تمويه اسم ذكرته كمال كما هو في مذكراتها، لا سيما أن هذا النسيب الشاعر قبل أوانه هو من الأشخاص الذين أطلعوني على أوفر المعلومات حول جدي، وحول كل أفراد أسرتنا، منذ بدأت هذا البحث. . . ويتعلق الأمر بنصري إذن. . . حتى الحين، أطلقت عليه لقب "الخطيب" ـ وهو لقب استلهمته من الحادثة التي ذكرتها للتو، أي إلقائه مرثية في الذكرى السنوية الأولى لرحيل بطرس، عمّه، وكان ما زال مراهقاً.

أكملتُ ترجمة هذه الشهادة من الإنكليزية، وختمتها بثلاث نقاط. . . وأضفت إليها هذه الفقرة الأخيرة كهامش تفسيري، ثم نهضت. أنا موجود في هذه اللحظة بمحاذاة الأطلسي، على الجزيرة التي أنعزل فيها للكتابة؛ إنها الثامنة صباحاً، في 6 حزيران/جوان 2003. أخرج إلى الممر، أتناول سماعة الهاتف، أتصل ببيت نصري في بيروت. كنا قد اتفقنا على اللقاء في لبنان، في ضيعتنا، أواخر الشهر؛ ولكني لا أقاوم الرغبة في الاتصال به منذ الآن، لأسأله، بدون مقدمات، وبنبرة عادية متعمّدة، إن كان يذكر الكلمات التي ألقاها في ذلك اليوم من شهر آب/أوت 1925، أي منذ ثمانية وسبعين عاماً.

ـ ليس بوسعي أن أستحضر جملاً بحالها، بل الخطوط العريضة، أجل، أذكر ما قلت. طُلِبَ مني التكلم باسم تلاميذ المدرسة العمومية. فتحدثت تحديداً عن إسهام جدّك التربوي؛ وتكليفه الكبار بتعليم الصغار؛ وكونه أول من أنشأ مدرسة مختلطة؛ وكون هذه المدرسة علمانية، علمانية بإصرار، كما لم يكن موجوداً بعد في هذه المنطقة من العالم. . . لا تتخيل كيف كان التعليم في الجبل قبل جدك! كتاب وحيد للقراءة، تطالعه أجيال من التلاميذ، وعنوانه الغصن النضير من كتاب الرب القدير. . .

فترجمت هذا العنوان إلى الفرنسية بتصرف كما يلي:

La Branche Verdoyante du Livre du Seigneur Tout-Puissant

وقهقه ابن أخ بطرس عالياً، لأنَّ عمه كان يسخر بدوره على الدوام من هذا الكتاب، وهو مجموعة ساذجة من الأقاصيص المأخوذة من الكتابات المقدَّسة، وتنتهي جميعها بموعظة ورعة وخائفة.

ـ لقد فتح جدك أذهاننا على الكون الشاسع. وهذا ما ردّده كل الذين تعاقبوا على الكلام في ذلك اليوم. وحضرت الاحتفال كبار الشخصيات. . .

ذكر لي بعض الأسماء تباعاً، بدون أن يبذل جهداً كبيراً لاستحضارها، كأنها ما زالت أمام ناظريه. . . شعراء، ومدراء تحرير صحف، وقضاة، وأعيان، كان عدد منهم من قدامى تلاميذ الفقيد، إما في مدرسة القرية، إما في الكلية الشرقية في زحلة. لم تعد أسماء هذه الشخصيات تعني شيئاً لأبناء عصري، ولكني أعرف بعضهم؛ لا سيما ذلك السياسي، الأديب المشهور، ابن عم جدي وصديقه، وأحد كبار الماسونيين.

تحدث بعضهم عن شعر بطرس، وعلمه، وسرعة بديهته، وذكائه الأسطوري، وكونه تعلم الإسبانية في أربعين يوماً على الباخرة التي أبحرت به عند أخيه في كوبا... وتحدث بعضهم الآخر عن قيمه، وتفانيه، وطباعه، وأحياناً عن عناده.

وتذكر نصري بعض الكلمات التي دوَّت في سماء القرية في ذلك اليوم التذكاري:

عرفتك رجلاً حراً، يأبى التآخي مع المرائين، ويرفض الاعتراف بخالق غير اللّه.
يسلك البشر مسالك كثيرة، ظنّاً منهم أنهم يصلون إلى الخالق، ثم يتناسونه، لعبادة المسلك الذي يسلكونه.

شدَّد الجميع في كل الأحوال على أن بطرس جلب النور إلى هذه الزاوية من الجبل، وأن ذكراه لن تمّحي لهذا السبب.

وفي ختام الاحتفال، أزيلت الملاءات البيضاء، وأعيدت الكراسي إلى الذين أعاروها، وجمعت الأوراق وأعقاب السجائر المرمية على العشب. وعاد المدعوون إلى بيوتهم...

ثم امّحى وجه جدي.



نهايات

63

كم مرة حاولت نبش ذكرياتي بحثاً عن لحظة، مهما كانت خاطفة، ألمح فيها وجه والدي! إنما بدون جدوى...
بعد مرور بعض الوقت على وفاته، طُلِبَ من أحد الرسامين إنجاز لوحة كبيرة له عُلِّقت في البيت. وغالباً ما كان الحديث يدور حوله، فيقول الناس "المرحوم" وهي كلمة شائعة للتحدّث عن فقيد.
وبعد سنوات عديدة، وفيما كنت أرتب أوراق الأسرة، عثرت بالصدفة على صورته مع أمي وبكر إخوتي، التقطت أثناء غداء خَلَوي في الحقول عام 1914. وكم عجبت لاكتشافي أنه لا يشبه أبداً الصورة المعلقة على الحائط. فالرسام الذي أنجز اللوحة لم يرَ والدي أبداً، بل وصفوه له فقط، وقد بذل ما بوسعه.

أذكر تماماً ذلك اليوم الذي أهدتني فيه كمال، وأهدت كل أفراد الأسرة القريبة، هذه الصورة لبطرس. كنت في الثالثة والعشرين وهي تجاوزت الخمسين. أجل في الخمسين حين رأت الوجه الحقيقي لوالدها للمرة الأولى! وكانت كذلك المرة الأولى التي أرى وجهه بالطبع. فحتى الحين، لم أر سوى "الآخر"،

"المنتحل". وكلما كنت أزور جدتي في طفولتي، أتوقف لبضع لحظات أمام هذه اللوحة المعلّقة في بهو الاستقبال، إلى جانب لوحة تيودوروس، بلحيته المهيبة.

وخلال أحد أحاديثنا، سألت عمتي إن كانت تعلم مصير هذه اللوحة "الرسمية". فوصلني ردها في اليوم التالي:

> كما تعلم، احتل بعض المهجّرين بيت جدتك أثناء الحرب. وفي أحد الأيام، زارهم عمك، وتفاوض مع المحتلين الذين سمحوا له باصطحاب بعض الأشياء الخاصة. فوجد اللوحة التي تمثل صورة والدنا، وهو يجيل نظره في أرجاء المكان. كان أحدهم، اللّه أعلم، قد مزقها بسكين. فأخذها عمك، ويظن أنه وضعها في بيته الجبلي. ووعدني بالتحقق من الأمر حالما تسنح له الفرصة.

وبعد أسبوع، أرسلت تقول:

> أبشر فقد عثر عمك على اللوحة، وهي مهترئة أكثر مما تتخيّل، ولكنها ما زالت واضحة المعالم. سوف نرسل لك صوراً عنها ريثما تأتي وتتأملها بأم العين.

وفي اللحظة التي أخطُّ فيها هذه الكلمات، توجد أمامي نسختان عن صورتين لجدي، تلك التي التقطت خلال النزهة الخلوية عام 1914، وتلك التي رسمت بعد وفاته. كان الاختلاف مذهلاً. فبطرس المزيف يعتمر الطربوش الذي لا يظهر على الصدغين ومقدمة الجبين سوى شعر أشيب، ناعم، ومصفّف؛ وهو يضع ربطة عنق معقودة بشدة على قميص منشى الياقة، ثبتت بدبوسين كأنها مسامير؛ وتحت شاربه المشذب بعناية، تبرز

الشفتان الصارمتان لمدير المدرسة الذي يتأهب لتأنيب أحد تلامذته. أما بطرس الأصلي فحاسر الرأس، مفتوح الياقة، يرتدي قميصاً غريباً، فضفاضاً؛ ويجلس في الحقل، وزوجته تجلس أمامه، مستندة إلى ركبتيه؛ وهو الذي يحمل في يده رضّاعة ابنهما؛ وتحت شاربه الكث، تلوح ضحكة صريحة وعابثة. ويلمح المتأمل في وجهه عن كثب أنه كان أحولَ بعض الشيء؛ إنما ليس على اللوحة الرسمية بالطبع.

على الطاولة، قرب هذه الصور، وضعتُ صورة ثالثة، لا أصلية ولا مزيّفة، أو ربما يجدر بي القول إنها أصلية ومزيفة في آن. كانت رسماً أنجزه والدي في صباه. فلدى وفاة أبيه، كان لم يبلغ العاشرة بعد، ومثل كمال الصغيرة، لم يلمح أبداً صورة أخرى غير تلك اللوحة المعلقة في الأعلى، على الحائط، إلا أنه كان يعرف الوجه الحقيقي لوالده خلافاً لشقيقته. يعرفها بإبهام إنما بما يكفي للشعور بزيفها. لم يعلم أن اللوحة المعلَّقة على الحائط قد أنجزها رسام لم يشاهد المرحوم أبداً؛ وظن أنها بالفعل صورة أبيه، إنما في وضعية غير مألوفة، وبملامح مشوّهة بعض الشيء. وإذ شاء استحضار الوجه الذي يذكره، أنجز هذا الرسم بقلم الرصاص على ظهر بطاقة بريدية فرنسية، من تلك البطاقات ـ المنتشرة في ذلك الحين ـ التي يكتب المرء على جانبيها، وتحمل التحذير التالي: "لا تقبل كل الدول الأجنبية المراسلة على الصفحة اليمنى (الاستعلام في البريد). ومن الواضح أن أبي اعتمد على اللوحة الوحيدة التي كان بوسعه تأملها ـ فالوضعية هي نفسها. ولكنه نزع الطربوش وربطة العنق، وفتح ياقة القميص؛ وكذلك، باين بين العينين. وكانت النتيجة شخصاً هجيناً لا يشبه الأب المعلّق على الحائط، ولا الأب المعلّق في الذاكرة.

مزّق والدي رسمه لأنه لم يكن راضياً عنه. ومع ذلك، فالرسم موجودٌ في ملفاتنا. فإما أن يكون الفتى قد ندم وعدل عن رميه، وإما أن أمه تناولته من سلة المهملات بغير علم منه؛ وأياً يكن، فذلك الشاهد المتردد بقي، وبقي كذلك تمزّق الورقة...

منذ أعدت تركيب أجزاء قصة هذا الرسم الطفولي، لا أملّ التأمل فيه. وقد نسخت منه عدداً من النسخات، كبيرة وصغيرة، حرصاً على عدم ضياع ملامحه أبداً... وإذ عثرت، منذ بداية بحثي، على ما لا يقل عن خمس صور فوتوغرافية مهملة لجدي، أجد نفسي مرغماً على الإقرار بأن بطرس ذاك الذي رسمه ابنه بقلم الرصاص لا يشبه بطرس الأصلي أكثر من اللوحة الرسمية لذلك الرسام. غير أنني لا أستطيع أن أقارن بينهما؛ فالأول مستلهم من رغبة شديدة برسم الحقيقة، فيما يسعى الثاني فقط لمحاصرة روح متمرِّدة داخل تصلب التقاليد الجنائزي.

64

ليس من قبيل الصدفة أن استبدل بطرس الضاحك العينين باكراً للغاية ببطرس القاسي النظرة. فجدتي كانت تشعر بالحاجة لتعليق صورة توحي برهبة الأب، لا صورة متمرّد حاسر الرأس، ولا صورة رجل متأنق يرتدي قميصاً فضفاضاً، ولا صورة لوالد عطوف يداعب ابنته ويرضع ابنه. ترمّلت نظيرة في التاسعة

والعشرين، وتوجب عليها إدارة مدرسة وتربية ستة أيتام؛ وكان يحلو لها أن تردد حتى آخر يوم في حياتها: "كان البكر في الحادية عشرة، والصغرى في شهرها الحادي عشر"، كأنما أرادت التكفير عن إخضاعهم أجمعين لقوانينها الصارمة. فقد شعرت بنفسها مرغمة على إدارة بيتها كما تدار مملكة ظلت طويلاً محكومة بالفوضى، ثم ألمت بها كارثة طبيعية.

والصحيح كذلك أنها كانت تقتدي بنموذج تربيتها العائلية نوعاً ما. فزواج جدي وجدتي كان بمثابة اللقاء غير المرجح بين تقليدين مختلفين، الأول يقوم على الصرامة، والثاني على غرابة الأطوار. جدولان تعانقا ولم يمتزج أحدهما بالآخر. ولدى وفاة بطرس باكراً، نضب فجأة أحد الجدولين، أو بالأحرى، أصبح جوفياً. وقد استغرق إدراكي لازدواجية أهلي بعض الوقت: فتحت هذه الصرامة، ثمة غليان يشارف على الجنون في أغلب الأحيان.

في البيت ـ المدرسة بقرية المَشرَع، سرعان ما تبدلت الأجواء إثر الفاجعة؛ وليس فقط بسبب الحداد، وإن كان هذا الحداد ينوء بوطأته حتماً على صدور الأيتام الستة والأرملة الشابة. وكانت إحدى نتائج رحيل بطرس قدوم جدتي الكبرى صوفيا إلى البيت، بثوبها الأسود، وإنجيلها الأسود، ووجهها العبوس. وقد أقامت في غرفة الزوجين، قرب ابنتها، في المكان الذي هجره زوجها. وبين عشية وضحاها، تضاءلت الضحكات في البيت، وانخفضت الأصوات، وحُظِّرت الانفعالات.

كانت قساوة جدتي الكبرى مضرب مثل في القرية؛ ولن تلبث قساوة جدتي أن تضاهيها. صار الجميع يعرفون أن نظيرة تملك كلمة سحرية يكفي أن تتلفظ بها ليجمد أولادها في أرضهم على

الفور: "سْمَاع!" أي "أصغ إليّ!". وقد شرحت لي يوماً لجوءها إلى هذه الكلمة شرحاً لا يخلو من الاعتزاز.

ـ كنا نعيش، كما تعلم، في قرية تكثر فيها الجروف، والآبار غير المسدودة، وأوكار الأفاعي. وكنت مسؤولة عن زمرة من الصبية المتهورين، أولادي، وكذلك التلاميذ. ولو صرخت بأحدهم: "كفَّ عن ذلك!"، وظل يعدو لثانية إضافية، قد يدق عنقه. فعوّدتهم جميعاً إطاعة أوامري حتى قبل أن يلتقطوا أنفاسهم. كان يكفي أن أصرخ: "سْمَاع!" ليجمدوا في أرضهم على الفور. وكم مرة أنقذت طفلاً من الموت بهذه الكلمة فقط!

كان أحد مبادىء جدتي أن السلطة لا يجب أن تمارس في الثرثرة، بل في الصمت، أو على الأقل بأقل قدر ممكن من الكلمات.

وروى لي والدي:

ـ حين كنت أطلب شيئاً من جدتك، وتظل منهمكة في عملها، كأنني لم أقل شيئاً، ما كان يجب عليّ الاعتبار بأنها لم تسمعني، بل الإدراك أنها ترفض طلبي. ولو سوّلت لي النفس تكرار السؤال، تلتفت نحوي مقطبة الجبين، فأندم على الفور ندماً مريراً على إلحاحي.

وكان اللجوء إلى حجة واهية ممنوعاً منعاً باتاً.

ـ اتفقت في أحد الأيام مع أقارب من سني القيام بنزهة في الجبل سيراً على الأقدام، وجئت أستأذن والدتي. لم تظهر الممانعة ولكنها اكتفت بالقول: "دعني أفكر بالأمر!". فتركتها وعدت بعد ساعة. فبادرتني قائلة: "ما زلت أفكر بالأمر ملياً وأتساءل إن كان من المستحب أن يذهب فتيان مثلكم لقضاء

ساعات في الجبل، بعيداً عن كل شيء، وبدون مرافقة شخص راشد... ذكرني بمن سيذهب..." فعدَّدت لها أسماءهم، بدءاً بأكبرهم سناً، وكانوا في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة. ثم ظننت أنه من الحذاقة القول: "أهلهم لم يمانعوا!". فانتصبت جدتك، واكفهرّ وجهها، وحدجتني بنظرة مباشرة: "في هذا البيت، نقرّر حسب ما يمليه علينا المنطق السليم لا حسب ما يفعل الآخرون أو لا يفعلون. إذهب وقل لرفاقك إنك لم تحصل على الإذن بمرافقتهم! ولا تلجأ أبداً إلى مثل هذه الحجة معي!".

ومرة أخرى، اكتشف الأولاد شجرة لوز مثقلة بالثمار الخضراء المخملية الملمس. وشرح لهم أحد الأقارب أن أصحابها هاجروا إلى الأميركيتين، وبالتالي، لا بأس من أكل ثمارها بدون تأنيب ضمير. فاقتنع أولاد نظيرة بالحجة، وملأوا جيوبهم باللوز، غير أنهم لم يأكلوا لوزة واحدة قبل استشارة والدتهم.

ـ أصغت إلى حجتنا بدون التفوّه بكلمة واحدة، ولكنها كانت متجهمة قليلاً. ثم سألت: "هل هذه الشجرة ملكنا؟". فأجبناها: "أصحابها في أميركا". فتعاظم عبوسها: "لم أسألكم عن أصحابها، بل سألت فقط إذا كانت هذه الشجرة لنا!". فسلَّمنا بأنها ليست لنا، وأننا لا نملكها. فأرغمتنا أمي على إفراغ جيوبنا في الحال في سلة المهملات. ولم أعرف أبداً مذاق حبات اللوز تلك.

اللافت في هذه القصة التي رواها لي جدي مراراً أن أولاد نظيرة كانوا يترددون في عصيان أوامرها حتى لو كانوا خارج البيت. أعلم أن هذه النزعة لاختزان السلطة الأمومية كانت لا

تخلو من المبالغة، لا بل اتسمت أحياناً بآثار إخصائية. ولكني، بعد التفكير ملياً، لا أتنكر لهذه التركة من الصرامة. فقد تعلمت، بسبب عيشي في مجتمع لا يعرف الصرامة الأخلاقية، الشعور بالفخر والامتنان لهذا التقليد المشيخي. ولا شك أنني تبنيت، بغير علم مني، هذا المبدأ العائلي الذي لم يكن معلناً بوضوح، والذي يقوم في جوهره على ما يلي: لا يهم أن تربيتنا قد جعلت تأقلمنا مع محيطنا صعباً، فاعتزازنا يكمن تحديداً في رفضنا التأثر بالانحطاط السائد ـ فبدلاً من المعاناة، الأفضل أن نبتعد، ونقصي أنفسنا!

في مطلق الأحوال، يتضح لي أن جدتي لم تعتزم أبداً إعداد أولادها للعيش في المجتمع المشرقي كما كان ـ ومن هذه الناحية، كانت على انسجام تام مع زوجها المتمرِّد. وخلافاً لزوجها، كانت ترفض تحديد أهدافها تحديداً مجرّداً، فلم تتحدث أبداً عن مكافحة الجهل، وإصلاح المجتمع أو ترقي شعوب المشرق. وفي المرات القليلة التي استفسرت منها عن المدرسة العمومية التي تولت إدارتها بعد وفاة جدي، والمبادىء التي كانت ترعاها، تحاشت الخوض في هذا الحديث:

ـ كنت أسعى فقط لتأمين بلوغ أولادي سن الرشد، وهم بصحة جسدية وعقلية جيدة، وإرسالهم هم الستة إلى الجامعة. لقد رسمتُ هذه الأهداف منذ زمن طويل، ولم أحد عنها قيد أنملة، وكنت لا أرغب بشيء آخر لي أو لأولادي.

في تلك الفترة، كانت العائلات تفقد طفلاً رضيعاً، أو في سن المراهقة، وهي لعنة مشتركة ترضخ لها كل الأمهات، إلا نظيرة. فقد أقسمت أنها لن تفقد ولداً من أولادها. ولهذه الغاية،

لم تكتف بالصلاة، وإضاءة الشموع، والتعهد بالنذور. وللحؤول دون وقوفها عاجزة أمام مرض أولادها، راحت تدرس كل المراجع الطبية التي تقع بين أيديها، بل اكتسبت من المهارات في هذا المجال بحيث صار كل الأهالي من القرى المجاورة يأتون لاستشارتها؛ وكانت تصف لهم العلاج بكل ثقة. وقد عثرت في الوثائق العائلية على دليل علاجي يبدو أنها كانت تستشيره كثيراً. ولا عجب أن يكون مؤلفه مبشِّر أسكتلندي مستشرق، وأن يحمل الدليل العنوان التالي: "ما يجب أن يعرفه الهواة أو كيف نحافظ على صحتنا ونحارب الأمراض في غياب طبيب". وهو مهترىء، بل مقطع الأوصال بسبب فرط الاستعمال؛ وقد دوّنت عليه نظيرة الكثير من الملاحظات، وكذلك أمها صوفيا التي يبدو أنها كانت أكثر مهارة من ابنتها في هذا المجال.

اجتاز الأيتام الستة السنوات الصعبة بدون الإصابة بتلك الأمراض المألوفة التي كانت تودي للأسف بحياة الأطفال أو تسبِّب لهم عاهات مزمنة ـ فلم تصبهم حمى التيفوئيد، أو شلل الأطفال، أو الدفتيريا... ولم يتعرّضوا لإعاقات جسدية خطرة.

وكانت أمهم تحرص أشد الحرص على تغذيتهم وكسوتهم بطريقة لائقة، وتمكنت من القيام بذلك بفضل تضحيات هائلة مع العلم أن بطرس ترك لهم ما يكفي من الموارد للعيش عيشاً كريماً، بل كان يعتبر رجلاً ثرياً حسب المعايير المتواضعة في القرية؛ ولكنهم وجدوا أنفسهم فقراء منذ لحظة وفاته.

وقد روت لي جدتي نفسها تبدل الأحوال الذي حصل.

ـ كان جدك الوحيد الذي يملك القليل من المال في الأسرة، ويكاد الجميع يقصدونه لإقراضهم. وقبل وفاته بفترة، لمّا

شعر بدنوّ الأجل، أطلعني على ديون الجميع، وسلّمني كل الكمبيالات التي وقّعوها... كانت هذه الديون تشكّل ثروة صغيرة، وبالتالي، كنت مطمئنة...

"بعد المأتم، عُيِّن تيودوروس وصياً على أولاد أخيه. وجاء لزيارتي قائلاً: "أعلم أن إخوتي وأبناء عمومتي استدانوا من بطرس الكثير من المال. وأظن أنهم وقعوا جميعاً إقراراً بالديون". فأجبته: "أجل، بالطبع، فقد سلمني المرحوم كل هذه المستندات". فأضاف: "عظيم. هل تطلعيني عليها؟". فأحضرتها له من الغرفة. وراح يقرأها، الواحد تلو الآخر، بانتباه شديد؛ ثم شرع يمزّقها فجأة، كلها. صرختُ! كان يفرِّط على هذا النحو بكل مدخراتنا! ولكنه أمرني بالتزام الصمت. "لا نريد أن يكون لنا أعداء في الأسرة!". وفي غضون ثوان معدودة، خسرنا كل ما نملك، وأصبحنا فقراء. سألته: "وكيف أطعم هؤلاء الأيتام؟" فأجاب تيودوروس: "لقد أعطانا الرب، وسوف يعطينا". ثم نهض وانصرف.

كلما سردت لي جدتي هذه الواقعة ـ وقد حصل ذلك ست أو سبع مرات، إن لم نقل أكثر ـ كرَّرت سلسلة المواقف التي مرّت بها: الغضب، والدموع، والإذعان، ثم التعهد بعدم الاستسلام لليأس. وقد شاطرتها في طفولتي غضبها على الدوام؛ غير أنني اليوم أتفهم سلوك تيودوروس بعد اطلاعي على وثائق الأسرة خلال ثلاث سنوات، ولئن كان أسلوبه عنيفاً بما لا يرقى إليه الشك، لم تكن الأسباب التي دفعته للتصرف على هذا النحو غريبة. ألم يهدر جدي السنوات الأخيرة من حياته في الدعاوى والخلافات بسبب المال والأراضي؟ ولن يكون من المستحب أن

يهدر أولاده شبابهم، بل وربما حياتهم بأكملها، في خلافات حول ديون. ولعل القرار الحاسم لعمهم حال على الأرجح دون وقوعهم في مثل هذا المستنقع.

هذا، أتفهم تماماً أن ترى نظيرة في البادرة النبيلة التي قام بها تيودوروس خيانة لأنها سوف تضطر، من الآن فصاعداً، ولسنوات كثيرة، للكدّ والكفاح، ولن تشعر أبداً أنها بمنأى عن الفاقة والعوز.

لا سيما أن مورد دخلها الوحيد كان معرضاً للتهديد على الدوام. وأعني به المدرسة العمومية؛ وتحديداً المعونات التي يمنحها "لمدرستنا" المرسلون الأميركيون. فقد ارتأى هؤلاء، فور وفاة بطرس، قطع المعونات لأن معظمهم نظروا بريبة إلى تسلم أرملة إدارة المدرسة بعد وفاة زوجها. واضطرت جدتي أن تبرهن لهم، بالأدلة والقرائن، أن زوجها كان دائماً في بيروت خلال السنوات الأخيرة، وكانت هي تدير المدرسة فعلياً. وفي نهاية المطاف، صدقوا كلامها واشترطوا التحقق من كفاءتها. كانت تتلقى عدة مرات في السنة زيارة مفتشين يأتون للتحقق من حسن إدارة المدرسة وأداء التلاميذ.

غير أنها حصلت فقط على جزء مما كان مخصصاً لزوجها؛ الأمر الذي كان يغطي بالكاد نفقات تسيير المدرسة وتأمين لقمة العيش لأولادها، إلى جانب الأقساط المدرسية الهزيلة التي يسددها أهل التلاميذ. لا المزيد، لا نزوة، ولا كماليات. فلم يكن من الوارد مثلاً شراء ثياب للأولاد، وكانت تتولى بنفسها خياطة المراويل والأثواب والسراويل والقمصان بمساعدة أمها.

ولزيادة المدخول، كانت نظيرة تمضي الليالي تطرّز المفارش

وتحيك الكنزات والشالات الصوفية التي تذهب لبيعها إلى السيدات الأجنبيات في بيروت. ولاحقاً، في شيخوختها، ظلت تحيك الصوف لساعات عديدة، لا بهدف البيع بل لتوزيعها على أحفادها بشكل خاص. وما زلت أرتدي، بين الحين والآخر، شالاً صوفياً شتوياً أهدتني إياه، ناصع البياض، أضطر، لشدة طوله، أن ألفَّه عدة مرات حول كتفي لئلا يمسح الأرض.

65

لئن بوغتت جدتي بسلوك تيودوروس، فهي لم تعجب لتصرف آخر قام به ـ وكانت في الحقيقة تتوقعه بإذعان منذ اللحظة التي توقف فيها قلب زوجها عن الخفقان.

أعني بهذا السلوك مسألة تعميد الأولاد. فقد نجح بطرس في فرض رأيه، أي أن بوسع أولاده أن يختاروا ديانتهم بملء حريتهم لدى بلوغهم سن الرشد، وحتى ذلك الحين، لن يفرض عليهم أي ديانة. ولا داعي للتذكير بأن مثل هذا الموقف كان مرفوضاً ومستهجناً في ذلك العصر وتلك البيئة... وتطلب الأمر تجنيد كل عناد جدي للمجاهرة بهذه الموقف أمام العالم بأسره.

طالما كان بطرس على قيد الحياة، احتمى أولاده بأسوار حكمته أو جنونه العالية... أما وقد رحل، فقد أصبحوا بدون حماية، وعرضة للهجوم. ما عادوا يستطيعون تحمّل معاركه،

وعناده، ولا حتى مظهره، بحيث تطلب الأمر تعليق صورة له على الحائط تعرضت لشتى التعديلات.

أما في ما يتعلق بالعمادة، فكانت المعركة خاسرة مسبقاً؛ وتصويب الأمور لم يحصل على الفور لأن تيودوروس كان يحترم أخاه احتراماً شديداً بحيث لن يعارض إرادته غداة رحيله. فتريث سنة، ثم سنة ثانية وثالثة، وفي عام 1927 فقط، قرّر التحرك. وصل فجأة إلى الضيعة، في يوم يعلم أن نظيرة غير موجودة في البيت؛ وجمع أبناء وبنات أخيه لتعميدهم على الفور. وقد ذكّر بكر أعمامي بجرأة، وكان في الرابعة عشرة آنذاك، عمه الكاهن برأي المرحوم والده في هذه المسألة، وأعلن أنه يرفض عصيان مشيئته؛ أما الخمسة الآخرون، أبي وإخوته وأخواته الصغار، فقد تركوا عمهم يعمّدهم بدون مقاومة.

لم تَرُقْ هذه العمادة الكاثوليكية بالطبع للفرع البروتستانتي من الأسرة ـ وقد استاءت نظيرة وصوفيا استياءً شديداً بسبب ما جرى، ولكن أكثر الساخطين كان الدكتور شكري، الأخ البكر لجدتي. فقد اعتبر أنه تعرض شخصياً للإهانة والمذلة والاعتداء جراء هذا السلوك التعسفي، وانتقد الكاهن ومطرانه وبطركه والبابا نقداً لاذعاً، وأقسم أنه لن يقبل بما جرى.

وفي الواقع، لن تبقى الأمور على ما آلت إليه. ففي عام 1932، جرى إحصاء لسكان لبنان برعاية السلطات الفرنسية. كان الإحصاء السكاني الأول والأخير لأن التوازنات الطائفية البالغة الحساسية جعلت من أي احتساب جديد لعدد السكان مطلباً استفزازياً. ولفترة طويلة، سوف يقوم توزيع السلطة بين الطوائف اللبنانية على أساس النسب المئوية التي تحددت في إحصاء ذلك

العام: 55% للمسيحيين، و45% للمسلمين، بالإضافة إلى توزيع أدق في كل فئة بين الموارنة والأورثوذكس والكاثوليك والسنّة والشيعة والدروز، إلخ. غير أن الإحصاء السكاني لعام 1932 سوف يسفر عن نتائج بالغة الخصوصية في أسرتي.

وصل إذن موظفون فرنسيون ولبنانيون إلى القرية، وجالوا على بيوتها يسألون الأهالي، من بين أسئلة أخرى، عن الطائفة التي ينتمون إليها. ولما قرعوا بابنا، استقبلهم شكري. وبوصفه طبيباً، خاطبهم بمهابة، وقدم لهم القهوة والمرطبات، ثم عرض عليهم مساعدته. فهجأ أسماء أولاد أخيه بعناية، وحدَّد لموظفي الإحصاء تاريخ ميلادهم، وحين سئل عن انتمائهم الديني، أجاب بدون تردّد أنهم جميعاً بروتستانت، فسجّل الموظفون ذلك حسب الأصول...

ألغيت العمادة الكاثوليكية التي قام بها تيودوروس، على الأقل أمام السلطات الحكومية. وانتقم الفرع البروتستانتي في الأسرة... تعادل الفريقان، إذا جاز التعبير، ولكن المعركة لم تنتهي عند ذلك الحد.

لم يعد أبي وإخوته وأخواته يعرفون إلى أي طائفة ينتمون... فتارةً، يعرِّفون عن أنفسهم على أنهم كاثوليك، وطوراً على أنهم بروتستانت...

وسوف يطلب أخيراً ثلاثة منهم رسمياً من الأحوال الشخصية إلحاقهم بالطائفة الكاثوليكية. ولن يصار إلى إقرار هذا التعديل قبل سنوات عديدة، وسوف يظل غير نهائي. وحتى اليوم، حين أطلب من السلطات اللبنانية إخراج قيد، يرد فيه أنني أنتمي إلى "الطائفة الكاثوليكية"، ولكنني "مقيّدٌ في سجل البروتستانت"...

66

في ربيع 1934، تلقّت نظيرة وأمها من الولايات المتحدة نبأً لم تعد الاثنتان تتوقعانه أبداً: فقد أعلنت لهما أليس، بعد سنواتٍ من البعاد، والصمت، والقطيعة، في رسالة نيتها العودة لقضاء بعض الوقت في ربوع الوطن. ووصلت إلى مرفأ بيروت في 18 حزيران/جوان مع ابنتها نيللي، البالغة من العمر عشرين عاماً، وأصغر ولديها وقد أصبح اسمه الآن كارل، ولكنه كان يدعى كارلوس عند ولادته في كوبا قبل سبعة عشر عاماً. للمرة الأولى، التمَّ شمل عائلتي بطرس وجبرايل، ثمانية فتيان وفتيات لم يلتقوا أبداً من ذي قبل، ووالدتاهما ـ الشقيقتان والسلفتان ـ اللتان لم تلتقيا منذ افتراقهما في سن المراهقة. عاشتا في قارتين مختلفتين مع شقيقين نزقين ومتوقدين وافت كل منهما المنية. وكانت كل منهما متشوّقة لمعرفة أخبار الأخرى.

تضم وثائق العائلة صوراً كثيرة عن تلك المرحلة، بعضها تظهر كل أفراد الأسرة، وبعضها الآخر تظهر الشباب في رحلة إلى بعلبك أو جبل صنين ـ وأظن أن ابني العم الأميركيين أحضرا آلات تصوير حديثة. وثمة نص مقتضب لأبي، كُتب قبل عشر سنوات، يذكر فيه أن صيف 1934 ذاك كان أسعد فترة في حياته. وفي الواقع، توحي الصور بالسعادة العارمة؛ وحتى جدتي الكبرى صوفيا استبدلت ثوبها الأسود بثوب رمادي فاتح ولدى تفحص وجهها عن كثب، يلوح للمرء أن ثغرها يفتر عن ابتسامة.

كان من الواضح أن هذا الحبور يأتي من وراء الأطلسي. فوجه نيللي يشع بابتسامة تنعكس على وجوه كل الذين يحيطون بها

لشدة صدقها؛ أما كارل فقد تجرأ على رفع الكلفة والتطويق بذراعيه الطويلين لكتفي نظيرة التي تظهر عليها الدهشة بسبب تزعزع عاداتها، ففي أسفل وجهها ابتسامة مرحة، وفي أعلى الحاجبين المقطبين، مربع أخير من الصرامة ما زال يقاوم.

في أواخر الصيف، لم تشأ أليس الرحيل لشدة سرورها. وحين أطلعت ابنها وابنتها على نواياها، لم يخفيا انزعاجهما. بالطبع، كانا سعيدين مثلها بلقاء العائلة، وبكل ما اكتشفاه، بتلك النزهات، والولائم... إنما ليس إلى حد التخلي عن أميركا! فقالت لهما: "لن أكرهكما على شيء. وحين ترغبان بالرحيل، سوف نرحل، أعدكما بذلك. ولكن لا تنسيا أننا لن نقوم بهذه الرحلة ثانية على الأرجح؛ والأشخاص الذين نلتقيهم، لن نراهم ثانية ـ لا سيما جدتكما التي تتقدم في السن... فأتمنى لو نستطيع البقاء قليلاً...".

فتمدّدت الإقامة إلى ما بعد الصيف، حتى تشرين الأول/ أوكتوبر، ثم تشرين الثاني/نوڤمبر؛ كانت سعادة أليس تتعاظم، ويتعاظم كذلك شعورها بالإلفة، ولكن ابنها وابنتها راحا يتبرمان. وبعد نقاش أخير معهما، وعدتهما على مضض بأنها ستحجز بطاقات العودة، إنما ليس قبل أعياد نهاية السنة، وسوف يقضي ثلاثتهم عيد الميلاد ورأس السنة في الضيعة، ثم يبحرون في 15 كانون الثاني/جانڤي.

كانت الأعياد هذه السنة تتسم بطابع سحري للعائلتين. فعادةً، قلما كان الجميع يتحررون من الهموم الدائمة ليتحول العيد إلى لحظة منفصلة، كفقاعة محكمة الإغلاق، ويتناسون الضائقة المادية، والأحزان، والرحيلين المباغتين والمبكّرين لجبرايل، ثم

بطرس، وكلاهما بعيد إنما حاضر في الأذهان، لأن الاضطرابات التي أحدثتها كل وفاة لم تهدأ بعد. ومع ذلك، ففي أعياد هذه السنة خيمت على الحضور، كباراً وصغاراً، سحابة من السعادة.

بعيد رأس السنة، بدأت التحضيرات الأخيرة لرحلة العودة. ولكن جدتي صوفيا أصيبت في 11 كانون الثاني/جانفي بوعكة صحية. لم تعد بالتأكيد شابة، ولكنها كانت تلوح بصحة وعافية حتى البارحة. وفي الصباح، استيقظت وهي تشعر بآلام في صدرها؛ وخلال النهار، كانت تسعل سعالاً شديداً وتتنفس بصعوبة. وفي المساء، وافتها المنية.

لم ينسَ القس الذي ألقى عظة التأبين الحديث عن عودة ابنتها وحفيديها، والسعادة التي شعرت بها لاجتماعها بهم. كما لو أن السماء، بفضل عطفها وحكمتها، لم تشأ أن ترحل هذه المرأة قبل إحساسها بهذه الفرحة الأخيرة التي استحقتها عن جدارة بفضل حياتها المثالية... ثم دفنت صوفيا إلى جانب خليل، زوجها، في المدفن الذي شيده لنفسه قبل ستة عشر عاماً وسط الكروم، على مقربة من بيته الذي أصبح بيتها.

بعد أيام الحداد، حاولت أليس إقناع ولديها بالواجب الذي يحتّم عليها البقاء لمدة أطول مع نظيرة. ولكن وفاة الجدة كان لها وقع مغاير تماماً عليهما: فقد خالجهما الشعور بأنهما أطالا البقاء، ومن الأفضل الرحيل في نهاية الصيف كما تقرَّر أصلاً، وتعاظم شوقهما للعودة إلى أميركا. وكل ما استطاعت أمهما الحصول عليه موافقتهما على تأجيل الرحيل لمدة أسبوعين حتى 28 كانون الثاني/جانفي.

ولكن أليس استيقظت في 24 كانون الثاني/جانفي، وهي تشعر بألم في صدرها. وخلال النهار، راحت تسعل سعالاً شديداً وتتنفس بصعوبة. وفي المساء، أسلمت الروح...

انتهت عودة المغتربين التي بدأت كأنها مأدبة زفاف طويلة بمهزلة جنائزية. وقد أشار القس في كلمته التأبينية إلى أن الفقيدة كانت لا ترغب في الظاهر مفارقة أرضها الأم، وأن السماء، بحكمتها الخفية، سمحت لها بالبقاء فيها إلى الأبد.

دفنت أليس في مدفن العائلة الذي فتح مؤخراً ثم أعيد إغلاقه، إلى جانب أبيها وأمها، على بعد آلاف الكيلومترات من ذلك المدفن الآخر الذي أمرت ببنائه فيما مضى لجبرايل، وحيث كانت تتوقّع أن تدفن فيه بدورها ساعة يحين أجلها ـ هناك، في الأميركيتين، في هافانا، في المقبرة التي تحمل اسم كريستوف كولومبوس.

67

كانت سنة 1935 التي استهلت بحدادين متتاليين، على أكثر من صعيد، منعطفاً حاسماً في مسار أهلي، لا سيما بسبب إغلاق "مدرستنا العمومية" نهائياً أبوابها هذه السنة بعد اثنين وعشرين عاماً من التعليم؛ أحد عشر منها في حياة بطرس وأحد عشر بعد وفاته؛ ومغادرة عائلتنا القرية للاستقرار في المدينة.

وكما كانت جدتي غالباً ما تكرِّر لي في خريف عمرها، لم تجتذبها إطلاقاً أضواء المدينة ولكنها كانت تريد فقط أن يكون أولادها قريبين من الجامعة. وتعني هذه الكلمة الجامعة الأميركية في بيروت، التي قام بتأسيسها المرسلون الأميركيون أصلاً تحت اسم الكلية الإنجيلية السورية، وكان خليل، أبوها، وجدي الأكبر، من أوائل طلابها. كانت الشقة التي استأجرتها تقع على بعد خطوات من أسوار الحرم الجامعي الكبير، في شارع أطلقت عليه سلطة الانتداب اسم "جان دارك"...

تحوّلت مدرسة المَشرَع إلى بيت صيفي؛ ولبضع سنوات، سوف نقصده في أواخر حزيران/ جوان هرباً من قيظ الساحل؛ ونمضي الشتاء في بيروت، في شقة مستأجرة تقع في بناية قديمة من العهد العثماني. وفي بهو هذه الشقة الذي تحيط به كل الغرف، سوف تُعلّق اللوحة المزيفة لبطرس.

لم تقرّر جدتي هذا الانتقال من حياة إلى أخرى بسبب نزوةٍ عابرة. وحرصاً منها على عدم تشويش سير المدرسة أو استقرار الأسرة، لم تعلن قرارها بل أعلنته في الفصل الدراسي الأخير، لأولادها أولاً، ثم للتلاميذ وأهلهم؛ ولكن خطتها كانت مرسومة قبل سنوات، وبدقة متناهية؛ فحين يبلغ البكران سن الالتحاق بالمدرسة الثانوية، سوف تسجلهما في مدارس داخلية؛ وفي المرحلة الجامعية، تستأجر لهما غرفة طالب؛ ثم تستقر الأسرة في بيروت متى بلغت ابنتها الكبرى سن الالتحاق بالجامعة.

في مرحلة أولى، بحثت جدتي عن مدارس لابنيها البكرين؛ وحرصاً منها على التوازن، أو ربما بسبب الضغوطات المتناقضة

لشكري وتيودوروس، سجَّلتهما تارة في مدارس كاثوليكية ـ مثل الكلية البطريركية في بيروت أو الكلية الشرقية في زحلة ـ، وطوراً في مدارس تابعة للإرسالية المشيخية الأميركية، لا سيما معهد جيرار، الكائن قرب صيدا، في جنوب البلاد، والذي عثرتُ في وثائقنا العائلية على إفادة مدرسية منحها لأبي. وفي كل الأحوال، وأياً كانت طائفة المدرسة، كانت نظيرة تتدبّر ألا يدفع أولادها سوى قسم من إيجار المدرسة الداخلية والأقساط المدرسية؛ فقد كان من الصعب عليها تحمل المصاريف بل شراء الكتب المدرسية الملائمة لأبنائها، كما تشهد هذه الرسالة التي بعثها لها أبي في شباط/فيفري 1930.

سيدتي الوالدة المحترمة،
وصل البارحة الكتاب الذي أرسلتموه لي، ولما رأيته، انشغل فكري لعله يكون كتاب جدي العتيق الذي كنت أدرس فيه فوق. ولكن عدت فتطمنت عندما فتحته فرأيت مكتوب على أوله: " هذا الكتاب يخص بطرس طنوس مختارة معلوف اشتريته في 14 كانون الأول/ديسمبر سنة 1885"، يعني ما لوش غير 45 سنة يخدم في عالم الأدب. وبما أنني صاحب شفقة ورحمة، أحلته إلى التقاعد... لما رآه أحد رفاقي الظرفاء، قال لي يمكنك أن ترسله إلى معرض الأنتيكا في الشام بثمن غالي. ولما وصل " المستور" الذي تكرمتم علينا بإرساله من عندكم، قال لي: "صاروا يحرزوا تبعتهم على معرض الأنتيكا بباريس"، ثم أخبرته أن عندي كتاب من سنة جدي، يعني له 80 سنة تحت الإستعمال، فقال لي: " صار يمكنك أن تؤسس معرض أنتيكا بنفسك ".
"عملية حسابية"

لو طرحنا 5 سنين من عمر كتاب المرحوم جدي 5 من 80 = 75
وجمعناها لعمر كتاب المرحوم أبي
5 + 45 تعمل خمسين
يصير كتاب جدي مستحق اليوبيل الماسي، وكتاب أبي مستحق اليوبيل الذهبي، " انتهى الهزل ".
المدرسة اليوم قايمة قاعدة، والرئيس أفكارو مضطربة، لأنه صارت البارحة معركة دموية هائلة بين بعض التلاميذ أدت إلى جرح خطر بأحد الرفاق. وهذا زاد الطين بلة على سمعة المدرسة.
دائماً طمنونا عنكم واسلموا لولدكم المطيع
رشدي

كان أبي في الخامسة عشرة، وروح الفكاهة درعه وسيفه، بسبب الضغط المستمر عليه، وعلى أخيه البكر. كانت أمهما تفهمهما كل يوم أنها تترقب بفارغ الصبر أن يكبرا ويخففا عنهما أعباء الحياة. وقد قبلت أن تكدح للسماح لهما بالتعليم، على أن يتوليا، متى تيسر لهما، تمويل تعليم إخوتهما الصغار. وتفهمهما كذلك أن عليهما احتلال المرتبة الأولى؛ ألم يحصلا على أفضل تعليم؟ أليسا أبناء المعلم بطرس الشهير، وأحفاد المعلم خليل الذي لا يقل عنه شهرة؟ ألا يعيشان في بيئة متعلمين، وجدتهما نفسها متعلمة وتقتني مكتبة؟ فلماذا لا يتفوقان في الدراسة؟ وما حجتهما لعدم التفوق في كل شيء؟

كان بكر أعمامي لامعاً كما تتمنى أمه. وفي سن العشرين، كان ذكاؤه أسطورياً مثل ذكاء بطرس، وفي بيروت كذلك، وليس

في الضيعة فقط. ولكن الابن الأصغر، والذي، وبالرغم من كونه طالباً مجتهداً، لم يحقق نتائج باهرة مثل أخيه، الأمر الذي كان يزعج أمه أحياناً، كما يظهر في هذه الحكاية التي عثرت عليها في أحد دفاتره المدرسية:

كان اليوم الثامن لانتهاء الامتحانات عندما أودع البريد أكثر من تسعين ظرفاً عنونت بأسماء والدي التلاميذ وأوصيائهم. وكنا إذ ذاك في عطلة الفصح. ففضت والدتي الظرف المعنون باسمها، وشرعت تقرأ، وأنا بجانبها صاغياً، أنتظر بفارغ الصبر لا لأعلم إذا كنت اجتزت المواد كلها بل لأعرف درجتي في صفي.
"معدل علامات التلميذ رشدي المعلوف من 11 شباط|فيفري لغاية آخر آذار|مارس. عدد الصف: 10.
الكتاب المقدس A، فنظرت في أسفل الورقة فوجدت أن A تعني "جيد جداً"، كتير مليح. الفرنساوي C يعني معتدل، الإنكليزي B يعني جيد، العربي B، الهندسة C، البيولوجيا B، الجيولوجيا B، التاريخ B، كل العلامات جيدة، عافاك.
ثم نظرت تحت الخط، فوجدت السلوك A، كتير عال.
الاجتهاد A، أحسن وأحسن. الدرجة في الصف!!! 10.
العاشر في صفك يا رشدي؟!!
يا ماما كل علاماتي جيدة فما أهمية درجتي في الصف؟..
الدرجة يا ولدي هامة لأن مدرستكم تهتم لها ولولا ذلك لما كان عندي لها أدنى أهمية طالما علاماتك جيدة، فعساني أرى درجتك ارتفعت في المرة القادمة.
عدت إلى المدرسة، وتلك العبارة ترن في أذني: "عساني أرى درجتك ارتفعت في المرة القادمة". قلت في نفسي: "وما هي الطريقة التي يمكنني بها تحسين درجتي؟ ليس من السهل أن أرفع علاماتي. إذن فلأسعى لحط علامات منافسي". فبدأت أسعى لتحقيق أمنيتي:

حط علامات غيري من جهة
ورفع علاماتي من جهة أخرى
ولأجل تحقيق الأمنية الأولى لا بد لي من أكون مرائياً. فإذا سألني التاسع في صفي أن أشرح له عبارة إنكليزية لم يفهمها، أو أحل له قضية هندسية أشكلت عليه، أجد من الجهالة أن أعاونه في أمر قد يساعده على بلوغ درجة أعلى من درجتي، طالما للدرجة أهمية عند المدرسة وعند أهلي، فاعتذر إليه أنني لا أعرفها، أو أن عندي شاغل ضروري يمنعني عن مساعدته، مع أنني أكون قادراً على ذلك.
وإذا وجدت نفسي مضطراً لإسعاف منافسي من وقت إلى آخر لداعي الصداقة والحياء مثلاً، أترقب الفرص لمخاصمته ولو على أمر لا يستحق المخاصمة، ليمتنع عن مكالمتي، فأكون قد حرمته مساعدتي.
وكذلك إذا لاحظت أن في إحدى المواد أمر هام، وقدرت أنه سيواجهنا في الامتحانات، أسرُّ بتلك الملاحظة لنفسي، وأكتم الأمر عن رفاقي ما استطعت حتى إذا خرجنا من الامتحان، وأخبرني أحدهم أنه لم يستطع الإجابة عليه، شعرت بفرح في قلبي لأن أمنيتي قد تحققت، وأظهرت له أنني جد آسف...
وإذا مرض منافسي، أعوده والكآبة مرسومة على وجهي، وألعن أمامه المرض الذي سيؤخره عن دروسه، وأطلب له الشفاء العاجل حتى إذا خرجت من عنده، بدت الابتسامة على وجهي، وسألت الله أن يطيل مدة مرضه ليتسنى لي الفوز عليه.

لم يكتفِ والدي بكتابة هذا النص الساخر لنفسه، بمثابة انتقام سري، بل تدبر أن يكلف بإلقاء كلمة الطلاب في حفل نهاية العام الدراسي، وألقاه أمام الهيئة التعليمية وأهل الطلاب.

كانت جدتي حاضرة. فابتسمت، وكفكفت دموعها، ولم تطلب بعد اليوم من ابنها تحسين أدائه. فقد جرد أمه من أسلحتها، بدون مواجهتها فعلاً؛ بشيء من الدعابة، وكذلك بحجة مفحمة لا تستطيع ابنة الواعظ الموافقة عليها: الأفضل البقاء في المؤخرة مع المحافظة على سمو الأخلاق من احتلال المقدمة بالرياء!

هذا، ويملي عليّ الحق أن أضيف بأن حجة أبي لم تكن مفحمة جداً، أو سليمة. فلدي كل محفوظاته التي لا أنوي توظيفها في هذا الكتاب المكرَّس لبطرس وأبناء جيله، مع العلم أن أفراد الأسرة الآخرين لا يرد ذكرهم إلا عرضاً؛ فبعد الاطلاع على دفاتره المدرسية، من واجبي الإشارة إلى أن والدي يعترف فيها "بارتياده قاعات السينما أكثر من قاعات الصف"؛ وضفاف الأنهر أكثر من منضدات المكتبات؛ وبتغيبه عن المدرسة أحياناً، ونظمه قصائد غزلية أثناء حصص الجبر أو الجغرافيا. ولكان باستطاعته على الأرجح تحسين ترتيبه في الصف بقليل من الاجتهاد، ودونما حاجة للاحتيال على رفاقه.

ها أنا ذا ألومه، كما لو أنني أبوه وهو ابني بحكم شعري الأبيض! غير أنني أفعل ذلك بحنان، كما كان هو ليفعل. فأنا محظوظ بأبٍ فنان كان يحدثني على الدوام عن مالارمي، ودوناتيللو، ومايكل أنجيلو، وعمر الخيام، ويهمس لأمي حين تشكو قلة صرامته مع أخواتي ومعي: "لم ننجب أطفالاً لننغّص حياتهم!".

قبل إغلاق هذا القوس الذي يتعلق به، يجب أن أذكر

ملاحظتين، الأولى أن اسمه سيلمع في الصحافة، لأنه سوف يكتب، طوال أكثر من ثلاثين عاماً، مقالات ساخرة تنتقد مساوىء المجتمع والحكام، وتوحي تماماً بالذهنية التي كتب بها تلك الرسالة إلى أمه حول الكتب العتيقة، وهو في الخامسة عشرة. والثانية أنه سوف يلمع كذلك في عالم الشعر، وينشر في التاسعة والعشرين ديواناً يضم إهداءً إلى "والدي بطرس مختارة معلوف" وعنوانه "أول الربيع"، اعتبر حدثاً أدبياً ونشرت معظم قصائده في كتب الأدب العربي التي درست فيها. وحين يطلب منا في المدرسة استظهار "قصيدة" نظمها والدي، ويروح التلاميذ من حولي يتضاحكون ويتغامزون، كنت أتمالك نفسي لإخفاء اعتزازي.

ولكن جدتي كانت تشعر بالاعتزاز تحديداً، بفضل شهرة ابنها المبكرة؛ ولأن أشهر قصائده التي أصبحت كلاسيكية نظمت لأجلها.

وقد روى لي والدي مرةً الظروف التي نظم فيها هذه القصيدة:

كان ذلك في أيار/ماي 1943، والسلطات الفرنسية قد أقرّت عيد الأم. فنظم احتفال كبير، ووجهت لي الدعوة لإلقاء قصيدة بهذه المناسبة. لم يسنح لي الوقت الكافي لأستعدّ، ولكني نجحت في تخصيص أمسية لنظمها.
جلست إلى مكتبي حين وصل صديقي إدوار. قال لي: "فلنذهب إلى السينما، إنهم يعرضون الفيلم الفلاني". فأجبت: "لن أذهب هذا المساء، عليّ أن أنظم قصيدة". ولكنه أصرّ، ولما كنت لا أستطيع مقاومة مثل هذه الدعوات،

رافقته. كانت عيناي مسمرتين على الشاشة، وذهني شارد. وفي لحظة من اللحظات، تناولت قلمي الحبر من جيبي، ورحت أكتب في العتمة، على ظهر علبة السجائر. وحين خرجنا من الصالة، كنت قد نظمت القصيدة، لم أغيّر فيها فاصلة واحدة، وما عليّ سوى تبييضها.

هذه القصيدة نظمها على شكل دعاء، تتميز بقافية غير مألوفة وشديدة الأنوثة في اللغة العربية، "هنَّ"، ويقول فيها:

ربي سألتك باسمهنَّه أن تفرش الدنيا لهنه
بالورد إن سمحت يداك، وبالبنفسج بعدهنه
حب الحياة بمنيتين وحبهن بغير منه
نمشي على أجفانهن ونهتدي بقلوبهنه،
فردوسهن وبؤسهن ببسمة منا وأنّه
سمَّارنا في غربة الدنيا وصفوة كلِّ جنّه
ربي سألتك رحمةً وجه السماء ووجههنه
أمّنتهن على الحياة وكنتَ في أحشائهنه
وتركت من خفقات قلبك خفقة في صدرهنه
فامسح بأنملك الجراح ورُدَّ أطراف الأسنَّة
لتصل شمسك في الصباح وكل أم مطمئنة

وصف نقاد العصر والدي بعاشق الجمال، أو عاشق المرأة ـ وهو كان كذلك إلى حدّ ما. ومما لا شك فيه أن الإجلال الذي يعرب عنه في هذه الأبيات يستلهم أولاً شخصية الأم، المحبة والقاسية، الضعيفة والصلبة، العاطفية والعقلانية، كما كانت نظيرة عنده وعند كل أفراد عائلتها.

وكل سنة، أصلاً، بمناسبة عيد الأم، كان الصحافيون

يتصلون بها، ويأتون لالتقاط صور لها في شقتها الكائنة في شارع جان دارك، ويجرون معها مقابلات حول حياتها في الضيعة؛ فتحدثهم عن المدرسة التي اضطرت لإدارتها بعد وفاة زوجها الذي فارقها "مع ستة أيتام بكرهم في الحادية عشرة وأصغرهم في شهره الحادي عشر".

كان زُوَّارها يبادرونها أحياناً كأنه لا بد من مواساتها: "ولكنك عرفت تربيتهم، واليوم أولادك يعربون لك عن امتنانهم، لقد نجحت، ولا ريب أنك تشعرين بالغبطة..."

كانت توافق على كلامهم، بالطبع. وفي الواقع، كان هذا الاهتمام الذي ينصب عليها مرة في السنة يرضي غرورها، وكأنها تثأر من هموم الحياة... ولما ينهض الصحافيون والمصورون للانصراف، وترافقهم ثم تغلق الباب، تعاود التفكير على الفور بخيبة حياتها، تلك الهزيمة غير المفهومة التي لحقت بها، والتي تفسد عليها انتصاراتها. وتعاود التفكير بذاك الذي رحل وتركها وحيدة.

لم يكن ذلك الشخص بطرس الذي أصبح ينتمي بالنسبة إليها إلى الماضي السحيق بل بكر أبنائها. كان حياً يرزق، ولكنه لا يتحفها بأخباره، ولا يكلمها، ولا يكاتبها. كانت قطيعة، أجل، قطيعة حقيقية كتلك التي حصلت منذ قرن بين الخوري جرجس وابنه خليل؛ ثم بين خليل وابنه جرجي. لم تعتقد نظيرة أنها قد تكون يوماً ضحية تلك العادة العائلية الفظيعة، وكانت تظن أنها فعلت كل ما بوسعها للحؤول دون ذلك.

68

في بيروت، انخرط بكر أعمامي انخراطاً كاملاً في النضال السياسي ضد الانتداب الفرنسي. كان رجلاً راسخ المبادىء، قادراً على المحاججة بقوة ضد كل أنواع الخصوم ـ كأبيه، كما كان يقال. ويتفق الجميع على أنه كان يعد بمستقبل باهر في هذه الأمة الناشئة. وكل عائلته تدعمه في نضاله، بدءاً بأمه التي تحولت شقتها إلى مكان تجمع للطلاب المستقلين.

كانت سنة 1939، والوضع العالمي يتأزم، وأصبح التزام عمي محفوفاً بالمخاطر. فالنضال الوطني المشروع في زمن السلم قد يبدو خيانة في زمن الحرب. انتشرت شائعات مفادها أنه اعتقل، وربما حكم عليه بالإعدام. فقررت العائلة أن تساعده على الفرار، وتدبّرت له منحة دراسية في جامعة أميركية، ثم أرسلته على متن آخر باخرة مبحرة إلى أميركا، قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية.

أكدت لي ليونور:

"كان عمك يحتل منصباً قيادياً رفيعاً في الحزب القومي، وقد عثر الفرنسيون على وثيقة تثبت أنه سوف يترأس التنظيم لو دخل في العمل السري. فأصدروا بحقه مذكرة توقيف. إلا أن الوثيقة التي صادروها كانت تتضمن اسمه الحركي، وهو الاسم المذكور في مذكرة التوقيف. ولحين فطنت السلطات إلى الصلة بين الاسم الحقيقي والاسم الحركي، كانت العائلة قد ساعدته على الفرار..."

لم تكن جدتي بالطبع راضية عن هذه التطورات. وقلما ترحب عادةً بالمفاجآت وهي التي تحسب تحركاتها قبل سنوات عديدة مسبقاً. ولكنها كانت امرأة واقعية كذلك، تعرف الحفاظ على توازن بين القلق والأمل، وتعرف تقييم الأولويات؛ فللوهلة الأولى، كان لا بد من إنقاذ ابنها من التهديدات التي تحيق به.

ولا بد أنها قالت في سرِّها كذلك، على غرار الكثير من الأمهات المشرقيات، إن بكرها، وبفضل مواهبه، سوف يحقق النجاح الباهر في الولايات المتحدة؛ ويساعد أهله حينها أفضل مما لو ظل في البلاد.

فرحل عمي، وانقطعت أخباره. كانت فترة الحرب والبريد ليس منتظماً. وحين وضعت الحرب أوزارها في عام 1945، لم ترد أخباره كذلك. وكان هو لا يكتب إطلاقاً، والمعلومات الوحيدة المتوافرة عنه بواسطة أقارب أو أصدقاء كانوا مسافرين ماوراء الأطلسي لم تكن مشجّعة لأهله.

حين وعيتُ على الدنيا، لاحظت أن عمي الأميركي أصبح طيفاً متلاشياً أكثر مما كان عليه جبرايل بالنسبة إلى الأجيال السابقة. وطوال فترة الطفولة، لم أسمع عنه سوى الشائعات المقلقة والهمسات المرعوبة: فقد قرّر، بعد زواجه وإنجابه خمسة أولاد، دخول الدير مع عائلته الصغيرة، هو مع ابنيه عند الرهبان، وزوجته وبناتهما الثلاث عند الراهبات؛ وعاشوا جميعاً في الفقر، والعفة، والطاعة، وفي ظل قوانين لا ترحم؛ وهكذا، كان محظوراً الكشف للأطفال عن هوية أبيهم بين "الرهبان"، وعن هوية أمهم بين "الراهبات"؛ وكان ممنوعاً منعاً باتاً إدخال أي

كتاب إلى الدير يحيد ولو قليلاً عن "الإيمان الحقيقي" الكاثوليكي ـ ولا أجرؤ على تصور موقف بطرس، رجل التنوير، ومؤسس المدرسة العمومية، من هذه الممارسات...

كانت العائلة تتهامس على الدوام، وإلى أبعد ما تستحضره ذاكرتي، بأن عمي لم يشأ التعرف على أهله طالما لم يعتنقوا مثله الكاثوليكية.

وثمة تلك الحكاية من بين حكايات كثيرة أخرى: فقد انتهز أحد أصهرته الذي كان يدرس في جامعة أميركية سنة ولادتي الفرصة لزيارته. فاستقبله عمي، وراح على الفور يعرض بحماس معتقداته؛ وفي ختام عظته، سأل زائره:

ـ بعد أن سمعت كلامي، هل أنت على استعداد لاعتناق الكاثوليكية؟

فأجاب الآخر بلباقة أنه ولد في عائلة أورثوذكسية ولا ينوي التخلي عن دين أجداده.

فنهض عمي قائلاً: "في هذه الحالة، انتهى الحديث".

وناول الزائر المذهول معطفه، وقاده بحزم حتى الباب.

لا أريد أن أظلم عمي أو أصوِّره بشكل كاريكاتوري. فعالمه بعيد عن عالمي، ومعتقداته عكس معتقداتي، ولكن مساره يتّسم بالانسجام والصدق ـ وهو تعبير لا يستهان به عن الهواجس الروحية التي لطالما استحوذت على أفراد أسرتنا. وإني على يقين أن مغامرته سوف تروى يوماً بصوت أكثر انتباهاً وتفهماً من صوتي. فقد لامستها فقط، فيما مضى، في إطار رواية مبهمة... واليوم كذلك، لن أفعل سوى ملامستها. ولا أسعى لاكتشاف حقيقة ما حصل هناك في نيو إنغلاند بقدر ما سعيت لتصور ما

سمعه وتخيله وشعر به كل من جدتي وأبي طوال هذه السنوات من التوجس.

عثرت، مثلاً، في أوراق نظيرة على قصاصة جريدة مصفرَّة لا تحمل تاريخ الجريدة أو اسمها، ولكنها على الأرجح منشورة في إحدى الصحف اليومية في مدينة بوسطن، أو آخر الأربعينات أو أوائل الخمسينات.

العنوان، والعنوان الفرعي والنص، في الصفحة الأولى:

الطلاب المترهبنون في جامعة هارفرد
يدخلون الدير ليصبحوا كهنة

على أثر الإعلان الذي نُشر مؤخراً، ومفاده أن آفري د.، خريج هارفرد وابن أحد أبرز القادة البروتستانت العلمانيين في البلاد، قد انخرط في الرهبانية اليسوعية ليصبح كاهناً، وقد عُلم البارحة أن ثلاثة طلاب من الجامعة نفسها اعتنقوا الكاثوليكية وقرروا كذلك دخول الدير. وثلاثتهم ينتمون إلى عائلات بروتستانتية شهيرة...

وقرّر طالبان آخران، ينتميان إلى عائلتين كاثوليكيتين التخلي عن دراستهم في هارفرد لدخول الدير. وكل هؤلاء الطلاب أعضاء في مركز القديس ب. التابع لرعية القديس بولس، وهو مركز كاثوليكي للطلاب، يديره المحترم ليونارد، جمعية يسوع، شاعر وكاتب معروف، عرَّابه المونسنيور أغسطينوس هـ...

والمعتنقون هم وليم م.، ابن الدكتور دونالد م.، من "وست سيدار"... الذي دخل إلى دار الرهبانية اليسوعية في شادوبروك.

والتر ج.، ابن الدكتور أرثر ج.، من لورنس، الذي انضمّ إلى الدير نفسه.

جورج ل.، ابن هربرت ل.، من غرايت نيك، الذي دخل إلى دير كبوشي في بورتسموث برايوري...
ومن بين الطلاب الآخرين الذين دخلوا إلى الدير، نذكر: جوزف هـ.، ابن قاضي المحكمة العليا، الذي انضم إلى الغفرانيين؛ وكذلك الآنسة مارغريت د.، ابنة السيد والسيدة جون د.، من بروفيدنس، رود أيلاند، التي تخلت عن الدراسة لدخول دير الكرمليين...

واللائحة طويلة ومفصَّلة ـ بل تتضمن العنوان الدقيق للمعتنقين وأهلهم، الأمر الذي اعتبرت أنه لا يليق ذكره حتى في هذه الأيام... ولو احتفظت جدتي بهذا المقال، فلأنه يشير إلى ولادة حركة دينية انخرط فيها ابنها. واسمه ليس مذكوراً، ولكن عدداً من الأشخاص المذكورين ينتمون إلى الحركة نفسها. وأتخيل أن الذين كانوا يعيشون في بوسطن في ذلك العصر شعروا بأن حدثاً فريداً كان يحصل أمام أعينهم، بل ربما معجزة. ولذلك، لا أستبعد أن يكون عمي نفسه قد أرسل هذه القصاصة، فالإيحاء بأن البروتستانت الأميركيين يعتنقون بكثافة الكاثوليكية لم يكن مجرد خبر عادي لأسرتنا في تلك السنوات.

من هذا الفوران ـ المحدود النطاق في نهاية المطاف ـ سوف تبرز حركة دينية محافظة تنادي بالعودة إلى إيمان الكنيسة التقليدي، وتنظر بريبة إلى كل "الترتيبات" العقائدية التي تهدف إلى اعتبار تقاليد عصرنا. ولا أذكر، على حد علمي، أن أسرتي قد انكبت طويلاً على الحجج اللاهوتية للعم الذي اعتنق ديانة أخرى. وكل ما كانت تعرفه أنه ورفاقه كانوا يرفضون تحرّر الكنيسة، وبسبب ذلك، واجهوا المتاعب مع الفاتيكان. والحملة

التي كانت تتكرر دائماً كلما تحدثت الأسرة عنهم أنهم كانوا "بابويين أكثر من البابا"، بحيث كادوا يتعرضون للحُرْم الكنسي.

ولاحقاً، اطلعت على بعض المراجع التي لم تكذِّب هذه الانطباعات. فعمي ورفاقه يحترمون الحملات الصليبية، لا يكرهون محاكم التفتيش، ولا يشعرون بأي تعاطف خاص مع البروتستانت، واليهود، والماسونيين، أو مع الكاثوليك "الفاترين". وحجر الزاوية في إيمانهم أن لا خلاص خارج الكنيسة الكاثوليكية.

ليس بوسعي تقديم شرح دقيق وصحيح للمتاعب الدينية في بيت بطرس التي حملت ابنه البكر على اعتناق مثل هذه العقيدة... ولا أريد رسم مسالك مشبوهة أو اقتراح مسببات تقريبية؛ ولكن حين يرفض مراهق أن يتعمد بالقوة على يد كاهن كاثوليكي، وبعد عشرين عاماً، يعلن أن لا خلاص للذين تعمدوا خارج الإيمان الكاثوليكي، ويكرس حياته لهذه الدعوة، لا يعقل ألاَّ يكون الحدثان على صلة، وإن كان من الصعب عليّ التحديد بأي طريق ملتوٍ تكونت هذه الصلة...

69

بالمقارنة مع الكاثوليك الأميركيين المتشددين في عائلتنا، كان أبي يبدو بالضرورة كاثوليكياً فاتراً. ومع ذلك، فقد قام

بدوره، وكذلك أخواه الأصغران، بردة إلى المذهب الذي تعمدوا فيه ـ في الظروف التي نعرفها.

وتشهد على ذلك وثيقة موجّهة إلى مدير الإحصاء والأحوال الشخصية، حفظت نسخة منها في ملفات العائلة. وتذكر هذه الوثيقة أن الملتمسين "المسجلين على سجل البروتستانت" ـ في الظروف التي نعرفها ـ يطالبون بتسجيل انتقالهم إلى الطائفة الكاثوليكية "بموجب الإفادة المرفقة".

وتوضح هذه الإفادة الموقَّعة من "نائب مطرانية بيروت وجبيل وتوابعهما" والمؤرخة في 16 حزيران/جوان 1943 أنه "وطبقاً للطلب المقدَّم من أبنائنا الروحيين... نوافق على رغبتهم بالانتقال من الطائفة البروتستانتية إلى طائفتنا الكاثوليكية...".

ذكر أبي لي مراراً أنه انتقل من طائفة إلى أخرى، بدون التوقّف عند أسباب هذا القرار. غير أنني على يقين أن المسائل الإيمانية لا علاقة لها بقراره. وأقولها بدون تردد، أو خجل، فحين تتعاطى الطوائف الدينية كالعشائر، يجب التعامل معها كما هي.

ولو حاولت بالرغم من كل شيء تخمين دوافعه، بوسعي تعداد أكثر من دافع.

لعلّه شعر برغبة في الانتماء إلى طائفة أقل أقلوية ـ كانت الطائفتان تنتميان إلى الأقليات، ولكن الطائفة الكاثوليكية تمثل حوالى 6% من السكان، والبروتستانتية 1%، وفي بلد تتوزع فيه كل المناصب العليا طائفياً، كان يجازف بالعيش على الهامش، بل بالعيش شبه منبوذ.

ولعله أراد كذلك الخروج من الفوضى الإدارية المزعجة، فلا

شك أن تعميده في طائفة وتسجيله في طائفة أخرى كان معضلة حقيقية كلما تطلب الأمر القيام بمعاملات رسمية.

ولا أستبعد كذلك أن يكون العم تيودوروس قد ألحّ عليه للقيام بذلك؛ ففي عام 1943، كان تيودوروس في السبعين، وجاء ليقيم في شقة شارع جان دارك لترعاه سلفته نظيرة في شيخوخته؛ ولدى التدقيق في الطلب الذي ذكرته للتو، أرى أنه قد يكون كتب بخط يده؛ ولعله كتبه، واكتفى أولاد أخيه بتوقيعه؛ ثم بادر شخصياً بإجراء المعاملات مع المطرانية...

ولكن ثمة سبب آخر، في ما يتعلق بوالدي، سبب قوي، للابتعاد عن الكنيسة الإصلاحية وهذا السبب هو أمي. كانت تروق له، واتفقا على الخطوبة، وكان من غير الوارد بالنسبة إليها وغير المعقول أن تفكر، ولو للحظة واحدة، الاقتران ببروتستانتي.

كانت أسرتها تتعاطى مع الدين بشكل مختلف تماماً عن تعاطي أسرة أبي معه. فلا أزمات روحانية، ولا خلافات لاهوتية كبرى، ولا قطيعة. فلا اعتناق، ولا ارتداد، ولا غلو في الاعتناق، ولا أي تنقل من هذا القبيل. وقلائل هم رجال الدين فيها... كانت أسرتها ببساطة ووضوح مارونية، تتبع البابا بدون نقاش، تحترم القديسين، تحضر القداس يوم الأحد مرة في الشهر، وأربع مرات في الأسبوع في حال كان أحد الأبناء مريضاً، أو مسافراً، أو يحضّر امتحاناته... وكان الدين، أساساً، شأناً نسائياً على غرار الطهي والخياطة، والنميمة، والانتحاب. أما الرجال فينصرفون إلى أعمالهم.

كان جدي، والد أمي، يدعى أمين، من ضيعة مجاورة لضيعتنا. وفي سن المراهقة، سافر إلى مصر حيث سبقه بكر

إخوته. كان الاثنان يعملان في قطاع البناء، وأشرفا على بعض المشاريع الهامة ـ جسور، طرقات، تطهير مستنقعات. ازدهرت أحوالهما إنما لم ينعما بالثراء. وكان أمين يملك، في أوج حياته المهنية، حقولاً لزراعة القطن، وعمارات في المدينة؛ ويستخدم،مثل جبرايل في كوبا، سائقاً، وبستانياً، وطاهياً، وخادمات. . . (ومثلما حصل في كوبا، سوف تتبدّد هذه الثروة. فحين وعيت على هذه الدنيا، كان جدي قد توفي، والثورة القومية قد "صادرت" كل ما اشتراه، حتى آخر فدان. وانضمت مصر، في ذاكرة أهلي، إلى أوطاننا التائهة الأخرى).

استقرّ أمين في بداية مغامرته ببلاد النيل في طنطا، وهي مدينة تقع في دلتا النيل؛ وهناك، التقى بفرجيني، ابنة ذلك القاضي الذي رحل عن اسطمبول مع عائلته أثناء قلاقل 1909. . . كان الشاب والشابة ينتميان إلى الطائفة المارونية، ولكن كلاً منهما يتحدر من بيئة اجتماعية مختلفة. كان أمين ابن فلاحين فقراء، وفرجيني ابنة أعيان في المدينة؛ ولكنه اغتنى، في حين خسر أهلها، لدى مغادرتهم ضفاف البوسفور، معظم أملاكهم ومكانتهم؛ وإلا لسعوا، بموجب القوة الاجتماعية التي تقرر هذه الأمور، إلى مصاهرة أكثر رقياً.

تزوجا في طنطا التي أبصرت فيها أمي النور. وعلى شهادة الميلاد، المؤرخة في كانون الأول/ديسمبر 1921، تدعى أوديتا ماريا، ولكن الجميع عرفوها باسم أوديت. وبعيد ذلك، ذهب أهلها للإقامة في القاهرة، أو تحديداً في مدينة هليوبوليس الجديدة التي شيّدها البارون "أمبان" في السنوات الأولى من القرن العشرين.

كل سنة، حين يصبح الحر في مصر لا يطاق، يركب جدي وجدتي لأمي الباخرة حتى بيروت؛ وهناك، يصطحبان ابنتيهما اللتين أمضيتا الشتاء في القسم الداخلي لمدرسة راهبات بوزانسون؛ ثم يذهبون جميعاً للاستمتاع بطراوة الجبل؛ وقد اشتروا سفحاً من تلة مشجرة في عين القبو لبناء بيت صيفي من حجارة بيضاء جميلة ـ على مقربة من بيت ومدرسة جدي وجدتي.

وإحدى نتائج هذه الجيرة أن الغرابات الدينية في أسرة والدي كانت معروفة منذ وقت طويل لأسرة أمي. معروفة والحكم الصادر عليها قاسٍ. لم يتخيل أهلها أن ابنتهم سوف تقترن يوماً بأحد الأيتام الستة للمعلم بطرس. يا لهؤلاء البائسين! لا بأس أن يكون والدهم ملحداً! ولكن أن تكون والدتهم بروتستانتية! فهذه الكلمة غالباً ما تترافق عند الفرع الماروني من عائلتي بتعبير اشمئزاز أو ضحكة متهكمة.

ولمّا أغرم أبي بأمي، وراح يبعث لها رسائل غرامية مطوّلة، وراحت من جهتها تظهر له أنها تتجاوب مع غزله، سارع، وسارع إخوته معه، لتبديد هذا "الالتباس" الذي يخيّم على رؤوسهم منذ رفض أبوهم تعميدهم، وقيام عمهم بتعميدهم بالقوة، وقيام خالهم بتسجيلهم بالقوة على سجل الطائفة الأخرى...

لقد جرت هذه الأحداث، ولم أكن قد أبصرت النور بعد، ولكن أصداءها ظلت تدوي طوال طفولتي وما بعدها. فعلى الرغم من انتصار الكاثوليكيين، استمرت هذه الحرب بين الطائفتين قليلاً. فلطالما شجبت والدتي البروتستانتية، ربما خوفاً منها أن يستسلم أبو أولادها لإغراء "الهرطقة". ولكنها كانت تحكم كذلك بصرامة على انحرافات عمي الأميركي ـ خوفاً من انخراط

أحدنا يوماً في الطريق عينه. وتكرّر دائماً على مسامعنا حكمةً تنسبها إلى أبيها، أصبحت تحت سقفنا قاعدة حياتية: "غياب الدين مأساة للعائلات، وكذلك غلوّه!". واليوم، أعتقد عن ضعف أن هذا الأمر ينسحب على كل المجتمعات البشرية.

لئن استبق أبي، استعداداً لزواجه الذي سيحتفل به في القاهرة عام 1945، رغبات أمي وأسرتها بعودته، لامبالياً، إلى كنف الكنيسة الكاثوليكية، لم يكن من السهل عليه التنازل حول شرط مطلق آخر يطالب بمتابعة أولاد الزوجين دراستهم في مدارس كاثوليكية وباللغة الفرنسية.

اعتبرت جدتي وكل أسرة أبي أن في هذا المطلب شذوذاً، وفظاظةً، لا بل خيانة. فمنذ أربعة أجيال، منذ أواسط القرن التاسع عشر، كان الجميع في عائلتنا يتعلمون الإنكليزية كلغة أم ثانية، ويتابعون دراستهم في المدارس الأميركية. وكان حرم الجامعة الأميركية امتداداً للبيت ـ أو العكس. فقد درس فيه والدي، ثم علَّم، وكذلك درس إخوته وأخواته تباعاً. كان تقليداً قائماً، غير قابل للتغيير، وغير خاضع للنقاش.

ولكن أمي كانت ترتاب بالضبط من هذا التقليد الذي جمع دوماً بين اللغة الإنكليزية والمدرسة الأميركية والبروتستانتية. كانت ترفض تلك "المجازفة"، فاضطر والدي للرضوخ لمشيئتها، وسوف تتابع بناتهما الثلاث دراستهن، مثل أمهن، لدى راهبات البوزانسون؛ ويتابع ابنهما، مثل أخواله، دراسته لدى الآباء اليسوعيين.

وأظن أن هذا القرار ما كان ليروق لبطرس على الإطلاق...

70

كنت في السادسة عشرة حين عاود الأخ البكر لوالدي الاتصال بأسرته. وبوسع المرء أن يتخيل وقع هذا الحدث الذي أصبح حديث الأسرة. فقد وصلت رسالة من أميركا إلى جدتي يعلن فيها ابنها أنه على استعداد لاستقبالها لو شاءت زيارته... شرط اعتناقها الكاثوليكية. فلم تتردد ابنة المبشر المشيخي لحظة واحدة لأن لقاء ابنها يستحق التضحية. فاعتنقت الكاثوليكية سراً، وفي سن السبعين، ركبت الطائرة للمرة الأولى في حياتها...

لم أعثر على الرسالة الموجّهة إلى جدتي. وعجبت لأنها لم تحتفظ بها. ولعلها احتفظت بها على حدة، ثم ضاعت... ولحسن الحظ، بعث عمي، في الفترة نفسها، رسالة ثانية إلى أخيه الأصغر، أبي. وهذه الرسالة بحوزتي. إنها رسالة مطوَّلة بالإنكليزية بتاريخ 27 آذار/مارس 1965، عيد مار يوحنا الدمشقي، ويستهلها كالآتي:

أذكر أننا كنا طفلين متلازمين، ولاحقاً، حين كبرنا، كان الغرباء يخالوننا توأمين، بالرغم من مظهرك الذي يوحي بأنك أكبر سناً وأكثر نضجاً. أثمة حاجة لأعترف لك باعتمال الانفعالات في قلبي وأنا أتناول القلم لأكتب إلى رفيق الطفولة والصبا، إلى الذي كان توأم روحي؟
أستهل بملاحظة، ثم لن أتطرق إلى هذه المسألة أبداً. قد أكون أوحيت لك بأنني عديم الإحساس أحياناً، لا أقدِّر بطولة أمنا، وتحمّلها أعباء الأسرة بعد رحيل والدنا المبكّر، منذ واحد وأربعين عاماً. كيف عساني أنسى تلك اللحظة التي

رأيتها فيها، الساعة الثالثة فجراً، تذرف الدموع بسبب همومها ومسؤولياتها الجسيمة، منهمكة في التطريز بيديها المسكينتين قطعة من قماش الإيتامين، على الرغم من كل المهام التي تنتظرها في اليوم التالي، لأن عليها أن تكسب بعض المال لتلبية حاجات أسرتها؟ ونهضت من سريري، وقبّلتها قائلاً: "لا تهتمي يا أمي، قريباً سوف نكبر ونرعاك"؛ ثم أضفت، إذ انتبهت إلى منديلها الرث: "وسوف أشتري لك حينها منديلاً جديداً!".

لم أشترِ لأمي هذا المنديل الجديد أبداً. فقد شاء اللّه، بأحكامه الخفية، أن أترك لإخوتي وأخواتي، مهمة مكافأة أمي في شيخوختها على كل العذابات التي قاستها من أجلنا، وتقديم العزاء الذي تستحق. أما أنا فقد أرسلتُ بعيداً عن هذه الأسرة التي لطالما أحببت، والتي تهمني راحتها كثيراً. وكنت مُعداً، بمشيئة اللّه، لأصبح رجل دين، وتكريس حياتي للّه تعالى ناذراً الفقر والعفّة والطاعة. ويبدو أن اللّه شاء أن أهتم فقط بالراحة الروحية والطبيعية لأسرتنا.

عندما كنت معكم، بقيت لسنوات عديدة أفتقر إلى أي شكل من أشكال الإيمان. لم تكن السماء والجحيم حقيقتين بالنسبة إلي، والرب والعذراء لا يكتسبان عندي أي دلالة. ولديّ من الأسباب ما يحملني على الاعتقاد أنكم لم تتخلوا تماماً عن الإيمان الكاثوليكي؛ إنما كان يجدر بكم أن تظهروا المزيد من الاهتمام بحياتي الروحية وحياة الآخرين. فإلى الذين يتساءلون حول بعض الأمور التي قمتُ بها أثناء تأدية دوري كحارس روحي للأسرة، بشكل من الأشكال، سوف أقتبس فقط قول أحدهم: " لا ضرورة للتبرير عند الذين يؤمنون، ولا مجال للتبرير عند الذين لا يؤمنون!"...

أظن أن أبي لم يغفر تماماً لأخيه، ولكنه لم يثقل عليه

بالملامة. فقط أصاب علاقتهما الفتور، وانقطع الكلام بينهما بالرغم من تلازمهما الشديد في السابق. ظل كل منهما لبقاً مع الآخر حتى اللحظة الأخيرة، ولكن صداقتهما تلاشت على ما يبدو لي. وأظن أن والدي أجاب على رسالة أخيه، ولا أدري إن كان قد فعل ذلك بإسهاب أم بإيجاز. وما أعرفه أنه لم يسافر لزيارته بعد تلقي هذه الرسالة.

أما أنا فقد سافرت للقائه.

حصل ذلك لاحقاً عام 1978. كنت مقيماً في فرنسا، أعمل في مجال الصحافة، وقد كلفت بكتابة تقرير عن البنك الدولي في واشنطن. كانت رحلتي الأولى عبر الأطلسي، ولم أكن أنوي العودة بدون لقاء عمي الأسطورة.

فعرَّجتُ على ولاية ماساتشوستس. اكتنفني إحساس غريب للقائي برجل مجهول كان توأم أبي تقريباً، ولكنه يرتدي جبة الكاهن، ويتكلم العربية بلهجة أميركية واضحة. رجل مجهول تفصلني عنه أمور كثيرة، ولكن معجزة الأواصر العائلية أضفت على حديثنا طابعاً حميماً في الحال.

ـ كنا أنا وأبوك متلازمين، متشابهين في الظاهر، ومع ذلك يفصلنا شيء جوهري. فأنا محافظ في العمق، وأبوك لطالما كان ثورياً.

كنت لَقلتُ العكس عفوياً. فعمي كان مناضلاً، قادراً على تكريس حياته لخدمة عقيدة؛ فيما كان والدي، منذ وعيت على الدنيا، يعيش حياة هادئة تتوزع بين بيته وصحيفته.

لا بد أن المغترب لاحظ دهشتي، لأنه أردف بحماس:

ـ بلى، بلى، صدِّقني. وهذا ما كان يفصل أحدنا عن الآخر، تعال لترى. . .

قادني إلى غرفته، وهي صومعة راهب حقيقية، بالكاد تحتوي على الأثاث، مجرّد سرير متقشِّف، وطاولة، وكرسي، وبعض الكتب. . .

ـ كنت في الخامسة عشرة وأبوك في الرابعة عشرة، حين قالت لنا أمنا: "أسمع صوت البائع المتجول، أسرعا لشراء عدّة الحلاقة". وفي الواقع، كان زغبنا يلوح كاللحية؛ لا سيما زغب أبيك، الذي كان أسمر البشرة، وأنضج دائماً جسدياً. فذهبنا إلى البائع واشترى كل منا شفرة حلاقة نحاسية. وأظن أن والدك قد جرَّب، منذ ذلك الحين، الكثير من أدوات الحلاقة، الكهربائية أو غيرها. أما أنا فما زلت أحلق كل صباح بهذه الشفرة التي اشتريتها من البائع المتجول. أنظر!

واستعرض أمامي باعتزاز لشفرة مائلة إلى الصفرة لم تتلف كثيراً على ما يبدو بالرغم من كثرة الاستعمال. استغربت قليلاً تعريفه للطبع المحافظ والطبع الثوري؛ وفي الحقيقة، تكتظ خزانة الحمام في بيت أهلي بكل أشكال الأدوات المهملة، ولا سيما شفرة حلاقة اشتراها والدي من الصين، تعمل على البطاريات، لم يستعملها على الأرجح سوى مرة واحدة. . .

تابع عمي برهنته المستهدفة، والدفاعية بذكاء.

ـ أردتُ الحفاظ على أسمى وأقدمَ تقليدٍ في أسرتنا، ألا وهو القداسة. هل تعلم أن أسلافنا يضمون عدداً من القديسين الذين تحترمهم الكنيسة؟

وذكر لي بعض الأسماء التي لم أسمع بها من قبل. ففي بيت والدي، كان يجري غالباً التغني بمآثر الأسلاف، ولكن أكثر من يذكرون هم مشاهير الشعراء أو، في سياق مختلف، المغتربون الذين ازدهرت أحوالهم.

ـ لا تنس أبداً أن المسيحية قامت على أكتافنا، منذ بداياتها...

عجباً لتلك النزعة الدائمة لدى أهلي من أجل إدراج مسارنا الفردي في خطى أسلافنا! فحتى هو الذي رحل منذ وقت طويل، وقطع علاقته بأسرته، وفعل كل ما كان والده لن يرتضيه، وتخلى عن اسمه ليحمل اسماً كنسياً، وانخرط في مثل هذا الطريق التي انحرفت أشد الإنحراف عن المركز، كان لا يزال يشعر بالحاجة ليشرح لي أنه لم يتحول عن الطريق المشتركة إلا لينخرط بصورة فضلى في تلك التي رسمها أسلافنا.

ـ ذلك هو التقليد الذي أريد أن أتبعه! يتخيل الغرب أنه قد قام بنصرنتنا، في حين نحن الذين قمنا بنصرنته. واليوم، انحرف الغرب عن الإيمان الحق، ومن واجبنا أن نعيده إلى الطريق القويم. وقد وضعت نصب عيني هدفاً ألا وهو إعادة نصرنة أميركا.

فور عودتي إلى الفندق، في بوسطن، حاولت الاتصال بوالدي هاتفياً. ثم انتظرت لحين رجوعي إلى باريس لأهاتفه، وليستطيع هوأن يتصل بي. كانت الحرب الأهلية في لبنان تجتاز مرحلة دقيقة آنذاك، واضطر أهلي للفرار من بيروت بسبب اشتداد القصف على حيهما. وانتقلا إلى الضيعة، واستقرا في بيتهما، بمنأى عن الخطر مؤقتاً. وقام أحد أقاربنا المعروف بسعة الحيلة بتأمين اتصال هاتفي لهما مع فرنسا.

كنت متشوقاً لأعلن على مسمع والدي:

ـ عدت من أميركا، والتقيت عمي.

ما هي انطباعاتي؟

ـ لم تهدأ الأمور بعد... وفي كل الأحوال، لست نادماً على زيارتي له، بعد كل هذه السنوات... إنه يشبهك، ولا يشبهك...

ـ كان الجميع ينخدعون بشبهنا حتى نحن. وقد استغرقنا بعض الوقت لاكتشاف مدى اختلاف أحدنا عن الآخر.

ـ روى لي حكاية الشفرات...

ـ أي شفرات؟

وانقطعت المكالمة.

71

كنت مقتنعاً، لدى مغادرتي نيو إنغلاند، أن هذا اللقاء الأول سوف يكون اللقاء اليتيم؛ ولم يخطر لي آنذاك أنه سيبدو لي يوماً مجرد تمهيد للقاء آخر، مقدَّر، في لبنان، بعد سنتين.

في تلك الفترة، لم أعلم السبب الذي حمل المغترب، بعد طول غياب، على العودة فجأة لزيارة الوطن. واليوم، أعلم السبب بعد الحصول على بعض الشهادات. كان عمي في السلك الكهنوتي، ويلبس الجبة، ويدعو نفسه "أخ" ـ أكاد أقول مثل

بطرس، على الرغم أنها ليست "الأخوية" نفسها! ولكنه لم يُرسَّم كاهناً أبداً، وكانت هذه أغلى أمنية يتمناها. ففي الولايات المتحدة، فضّلت التراتبية الكاثوليكية على الدوام إبقاءه على مسافة؛ وبعد التسويف والمماطلة، أعلمته أنها لا تستطيع، حتى لو شاءت، ترسيم رجل متزوج على الإطلاق. فقال في سرِّه إن أمنيته قد تتحقق في طائفته ببلده الأم حيث تختلف التقاليد.

كاد أن يحقق أمنيته، حسب ما قيل لي؛ فتحت ضغط أسرتنا ـ أي أبي وأعمامي ولا سيما ابن عمهم نصري ـ، وافق بطريرك الكاثوليك ولم يظهر ممانعة. غير أن البطريرك تنبّه، قبل تحديد موعد الترسيم، أن الكاهن العتيد يعتزم ممارسة الكهنوت في ولاية ماساتشوستس، لا في لبنان؛ والقاعدة تقضي بطلب موافقة رئيس أساقفة بوسطن الذي عارض أشد المعارضة، وتحدث عن "الذئب" و"الحظيرة"؛ فارتأى بطركنا أن الحكمة تقتضي التراجع عن قراره...

خلال هذه المفاوضات، أصيب أبي بجلطة دماغية، في يوم حار. كان قد غادر مكتبه، وتوجّه إلى سيارته حين تهاوى أرضاً. وسمعه الشخص الذي كان برفقته يتأوّه متعجباً فقط. وتهاوى مغشياً. وبعد بضع ساعات، رنّ الهاتف في باريس. أعلمني أحد الأقارب الذي لم يدع لي مجالاً للتفاؤل: "حالته سيئة بل متدهورة".

ألفيت والدي، بعد وصولي على متن أول طائرة، في غيبوبة. كان يبدو غافياً، قرير العين، يتنفس ويحرك أحياناً يده، فيصعب على المرء أن يتخيل بأنه قد فارق الحياة. توسلت إلى الأطباء أن يفحصوا الدماغ مرة ثانية، وثالثة، بدون جدوى.

فتخطيط الدماغ كان مسطحاً لأن النزيف كان قاتلاً. وسلَّمتُ بما جرى...

بقي في المستشفى حوالى عشرة أيام، تخلّلتها بعض لحظات الأمل - يده التي تستديرحول نفسها، بعض الزوار الذين يؤكدون أن مرضى آخرين خرجوا من حالات غيبوبة مماثلة... وأذكر كذلك بعض النماذج البشرية المشؤومة، من أولئك الذين يرتادون، كما أتخيل، كل أماكن البؤس في العالم، حيثما تضعف أذهان البشر تحت وطأة المصيبة. فقد جاء رجل يلقب نفسه، بكل رصانة، "مساعد القديس إيليا"، ليعقد عصابات حول فراش أبي، قبل التوجّه بحقد إلى الأسرة المنكوبة: "كيف تريدون أن يشفى ولا أحد منكم يرفع الصلوات!". في ظروف أخرى، كان المشهد بدا لي مضحكاً؛ ولكن حزني في ذلك اليوم امتزج بالغضب والاشمئزاز.

خلال النهارات الطويلة والأمسيات المديدة من الترقب والإحباط، غالباً ما كنت برفقة عمي، الابن الضال، نتجاذب أطراف الحديث، وكأنه من الطبيعي أن نكون جالسين، جنباً إلى جنب، في بيروت التي لم يكن يفترض بنا، لا أنا ولا هو، أن نزورها تلك السنة. ومع ذلك، خالجني الشعور أننا لم نفترق أبداً، وأن رحلته الطويلة التي دامت واحداً وأربعين عاماً مجرد حلم مجنون تبدّد فجأة لدى الاستيقاظ من النوم.

غريب هذا التبدل في المواقف: المغترب، الغائب، الذي اعتدت على اعتباره ميتاً بالقوة، يجلس إلى جانبي، كتفه قرب كتفي، وقد أضحى قريباً فجأة، أباً ثانياً فجأة، فيما الآخر، الأب

الحقيقي، يرقد هنا، غائباً، وقد اغترب بعيداً عنا إلى الأبد، ومات بالقوة.

ثم حانت اللحظة التي لم يعد بوسعنا تأجيلها، لحظة توقف قلب أبي عن الخفقان. كنت قد انصرفت للنوم بعد كل هذه الليالي المؤرقة، وإذ بأحد أقاربي يقرع الباب. فتحت له، ثم عدت للجلوس في الصالون، لم أستفسر عما حصل، فقد فهمت. ووصل عمي بدوره، بعد قليل، وجلس معنا. ولم ينبس ببنت شفة.

حدث ذلك في 17 آب/أوت 1980. بعد ستة وخمسين عاماً، يوماً بيوم، على وفاة بطرس. وكان كذلك يوم أحد. فتطلب الأمر أن نتشاور، أنا والكاهن، حول أخف الأساليب وقعاً لإخطار نظيرة، أمه وجدتي. واتفقنا أن أذهب إليها؛ وأن يتصل بها هاتفياً لإعلامها بأنها فقدت أحد أبنائها.

لدى وصولي إلى بيتها، عانقتني طويلاً كعادتها. ثم طرحت عليّ بالضرورة السؤال الذي كنت أخشاه أكثر ما أخشى:

ـ كيف أبوك اليوم؟

كان جوابي جاهزاً، وقد تمرّنت على قوله طوال السكة:

ـ أتيتُ مباشرة من البيت، ولم أمرّ بالمستشفى. . .

كانت تلك الحقيقة بعينها، وكانت تلك أحقر الأكاذيب. بعد دقائق معدودة، رُنَّ الهاتف. عادةً، كنت أستعجل لرفع السماعة لئلا تضطر جدتي للنهوض. أما في ذلك اليوم فاكتفيت بسؤالها إن كانت تفضل أن أجيب نيابة عنها.

ـ لو تقرّب لي الهاتف. . .

فعلت، ورفعتُ السماعة لأناولها إياها.

لم أسمع بالطبع ما كان يقوله لها مخاطبها، ولكنني لن أنسى أول جملة تفوهت بها جدتي:

ـ أجل، أنا جالسة.

كان عمي يخشى أن تكون واقفة، فتتهاوى تحت وقع النبأ الذي يهمُّ بإعلانه على مسمعها...

فبكينا، أنا وهي، وقد جلس أحدنا قرب الآخر، وتعانقت أيدينا لدقائق طويلة.

ثم قالت لي:

ـ ظننتهم سيخبرونني أن أباك قد استفاق.

ـ لا، فلحظة سقط أرضاً، انتهى كل شيء.

فتمتمت جدتي التي لم يجرؤ أحدهم حتى الحين إطلاعها على الحقيقة: "كان لديّ بعض الأمل".

وسرعان ما غرقنا في الصمت، ملاذنا...

كتب في باريس، بيروت، هافانا، وكيرميرسييه

بين أيلول/سبتمبر 2000 و كانون الأول/ديسمبر 2003

هوامش وشكر

وضعت نقطة على السطر، ولكن هذا التحرّي لأصولي لم ينته بعد. لا في البدايات، لأنني اكتفيت، مع بعض الاستثناءات، بالسنوات المائة والخمسين الأخيرة. ولا في النهايات، لأنني توقفت، في علاقتي المحدّدة، عند الثلاثينات، مكتفياً بإطالة الطريق... حتى وفاة أبي.

ولكني لم أذكر شيئاً أو بالكاد عنه تحديداً. لا بد أنني ذكرت اسمه مرة، وسردت نادرة أو نادرتين، ونقلت بعض نتف من أحاديثنا. ومع ذلك، فتعلّقي بذكرى أهلي تولّد، أولاً، من تعلُّقي به. كنت أكنُّ له الإجلال، منذ كنت طفلاً، بحيث لم أفكر بممارسة مهنة أخرى غير مهنته ـ الصحافة والأدب. وقد علَّمني بصبر وذكاء، وقولبني، وشذَّبني، وأرشدني، حتى في لحظات تمرّدي. لطالما راقبته وهو يتأرجح بين الشغف والمسؤولية، بين السذاجة والذكاء، بين التواضع والكبرياء. وأصغيت إليه بلا ملل. وقد روى لي في صباي القصص التي عادت تطاردني في سن الرشد.

هل أكرّس الوقت يوماً للحديث عنه مطوّلاً، وعن إخوته وأخواته، عن ذلك الجيل الهادىء والمعذَّب الذي سيواجه أفظع الحروب، وأكثر الشتات نهائيةً؟ هذا يندرج ضمن المهام الملقاة على عاتقي لو كنت لا أريد التقاعس عن واجب الأمانة، لا سيما أنني شهدت قسماً من هذه الأحداث، وباتت تتوافر لديّ الآن، وعن تلك الحقبة أيضاً، وثائق كثيرة. إنما يشقُّ عليّ، لحظة اختتامي لهذا العمل، التفكير بانغماس جديد في مياه مآسينا الحميمة. فكل هذه الأمور ما زالت حية في ذهني. وسوف أتريث...

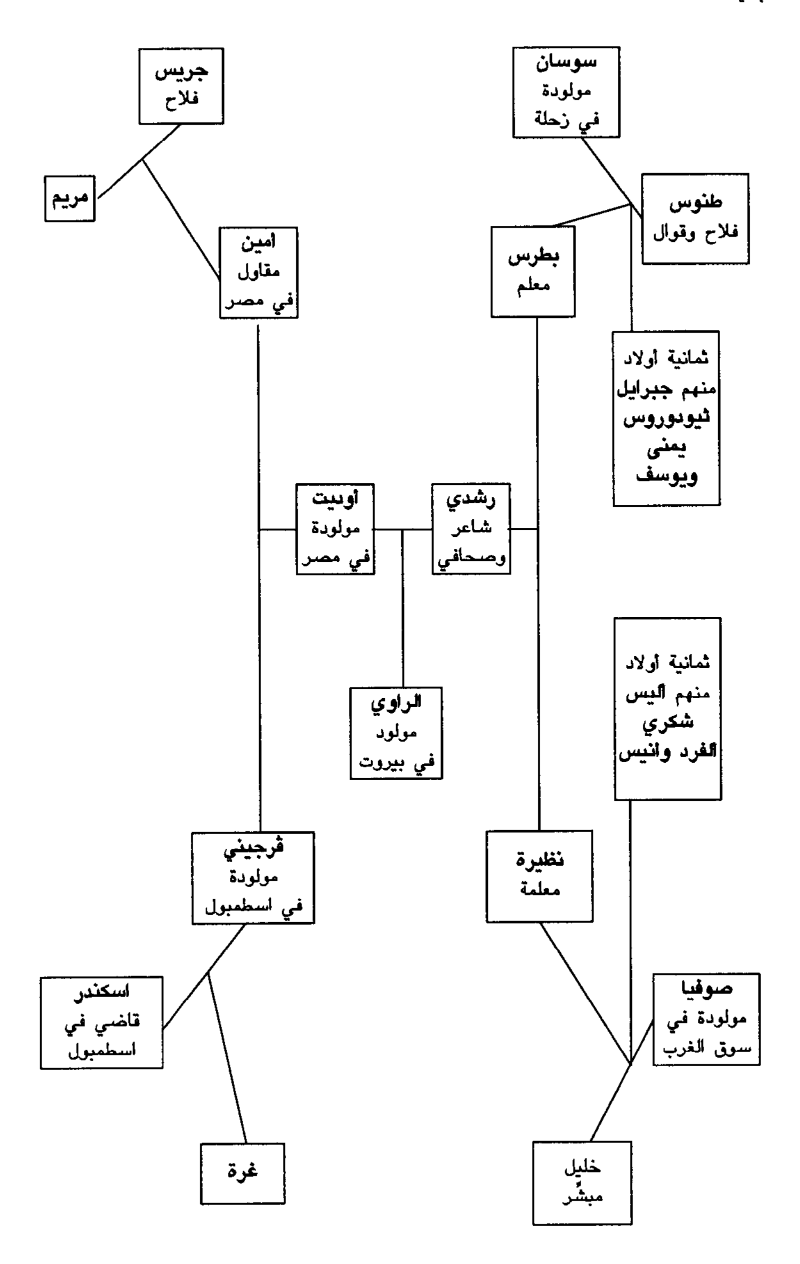
وأدين كذلك لأسلاف آخرين. لا شك أنني لن أكرِّس أبداً القدر نفسه من الاهتمام لكل الذين أنجبوني نوعاً ما. غيرأنني لن أقنع ببقاء هؤلاء الأشخاص الذين حددت مساراتهم مساري الشخصي جزئياً مجرَّد أشخاص مغمورين عندي. وبالتالي، سوف يتحتم عليّ القيام ببعض "أعمال التنقيب"، في القاهرة ونيويورك وبيروت، بالطبع، وكذلك اسطمبول التي لطالما اعتبرتها، بصورة شبه غريزية، عاصمة أصولي...

* * *

في بداية تحرّياتي، لجأت إلى شجرات عائلية كثيرة رسمها بعض أفراد أسرتي؛ وكنت قد رسمت بدوري بعضها الذي يرجع إلى اثني عشر جيلاً، لتحديد صلة القربى الدقيقة التي تربطني، على سبيل المثال، بقاتل البطريرك الذي ذكرته في روايتي صخرة طانيوس، أو بأولئك "الأقارب" البعيدين المقيمين في سيدني، وساوباولو، وقرطبة، أو إزمير فيما مضى... غير أن هذا التمرين

سرعان ما تبين عقيماً؛ وبدلاً من إنارة طريقي، جعلها أكثر تعقيداً، وبالتالي أكثر عتمةً. ففي ما يتعلق بقرابة تضم عشرات آلاف الأعضاء المضيفين، لا تفضي مثل هذه التشعبات إلى نتيجة. فالأسماء نفسها تتكرر، والوجوه غائبة، والتواريخ غير دقيقة.

وتفادياً للتشتت، اعتمدت أخيراً نموذجاً آخر: في المركز، الحفيد محاطاً بأبيه وأمه؛ وفي الاتجاهات الأربعة الأساسية، أجداده الأربعة؛ وما وراءهم، أسلافهم. وعوضاً عن شجرة أو هرم، يشبه نموذجي معسكراً، أو خارطة طريق...


سوسان
مولودة
في زحلة
جريس
فلاح
مريم
طنوس
فلاح وقوال
بطرس
معلم
أمين
مقاول
في مصر
ثمانية أولاد
منهم جبرايل
ثيودوروس
يمنى
ويوسف
أوبيت
مولودة
في مصر
رشدي
شاعر
وصحافي
ثمانية أولاد
منهم أليس
شكري
ألفرد وانيس
الراوي
مولود
في بيروت
ڤرجيني
مولودة
في اسطمبول
نظيرة
معلمة
اسكندر
قاضي في
اسطمبول
صوفيا
مولودة في
سوق الغرب
غرة
خليل
مبشّر

أعترف أن هذا التصور أناني عملياً؛ ولكن فائدته تكمن في الإحاطة بكل روافد أصولي، وبالتالي، تنوع الانتماءات. وفضلاً عن ذلك، ينعكس في هذا النموذج مجرى الزمن، الأمر الذي أعتبره محفزاً وخلاصياً؛ فالأمر لم يعد يتعلق بسلفٍ "يولِّد" عدداً لامتناهياً من الأحفاد، بل بحفيد "يولِّد" عدداً لامتناهياً من الأسلاف: أبوان، أربعة أجداد، ثمانية أسلاف، ثم ستة عشر، فاثنان وثلاثون... وقد أحصيت أن عدد الأسلاف بعد ثلاثين جيلاً، أي في الحقبة الصليبية، يبلغ ملياراً، أي يتخطى إلى حد كبير مجموع سكان الأرض. ولكنها ملاحظة نظرية صرف، لا سيما لدى أهلي الذين ظلوا حتى أوائل القرن العشرين يعتمدون زيجات بين أبناء العمومة أو الخؤولة... ولو توجب عليّ رسم الدروب التي تقود إلى أسلافي البعيدين لتشابكت إلى ما لا نهاية، حتى لاحت كالضفائر...

ولإعادة تركيب هذه الصفحات القليلة من سيرة أهلي، كنت أستعين على الدوام، إلى جانب وثائق المحفوظات، بعدد من المراجع. وسوف أذكر منها أربعة تتناول أسرتنا على وجه الخصوص.

أولاً، كتاب عمتي التي كانت مستشارة وملهمةً لي. وسبق لي أن ذكرت إسهامها الذي لا يعوَّض، وأودُّ في هذا السياق فقط ذكر كتاب مذكراتها:

Memoirs of Grandma Kamal - unique personal experiences and encounters

تأليف كمال معلوف أبو شعر، منشورات وورلد بوك، بيروت، 1999.

وأودُّ أن أذكر كذلك المرجع الذي يعتبر، منذ قرن تقريباً، إنجيل مسار عائلتنا، ذلك المرجع الذي أسميته "الشجرة" وعنوانه بالعربية: دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف، للمؤرخ عيسى إسكندر معلوف (المطبعة العثمانية، بعبدا، 1907 ـ 1908). وقد تفضَّل حفيده فواز طرابلسي بإهدائي نسخة منه. وكذلك، استشرت مراراً مرجعاً آخر، صدر عام 1993، ويشكل تتمة للمرجع السابق، وهو بعنوان:

La Famille Maalouf à travers l'Histoire، وقد أهداني نسخة منه مؤلفه تيموثي معلوف الذي توفي، للأسف، بعيد ذلك؛ وقبره متاخم لقبر جدي بطرس.

ورافقتني مراجع أخرى خلال السنوات الأخيرة، لاطلاعي على معلومات أو إحياء ذاكرتي؛ حول الأمراء الأشقياء، والثورة العثمانية، والماسونيين، والشتات المشرقي، أو الانتداب الفرنسي في لبنان؛ ولا داعي لذكرها جميعاً، غير أنني سألوم نفسي على إغفال المرجع الوحيد الذي يذكر عمي الأكبر جبرايل بالاسم، ومحلاته La Verdad في هافانا، والمكانة التي كان يحتلها بين المغتربين من أبناء بلده، وهو من تأليف المستشرق ريغوبرتو مينينديز باريديس Rigoberto Menendez Paredes وعنوانه: "المقومات العربية في الثقافة الكوبية" (منشورات بولونا، إصدارات مكتب مؤرخ المدينة، هافانا، 1999)

Componentes arabes en la cultura cubana (Ediciones Bolona, Publicaciones de la Oficina del Historiador de la Ciudad, La Havane, 1999)

وما ذكرته عن الكتب يصحُّ كذلك على البشر. فقد طرحت أسئلة كثيرة على من حولي بحيث لن أتمكن من إحصاء كل الذين خصصوا الوقت للردّ عليها.

وأحرص على توجيه الشكر إلى كل الذين لا ينتمون إلى أسرتي وقرابتي، ولكنهم أسهموا في بحثي، تارة عن دراية ومعرفة، وطوراً لمجرد الرغبة بالمساعدة. وأذكر بالترتيب الأبجدي: منى عقل، أحمد بيضون، نورمان كوك، أنجيليكا وأرييل دورفمان، جان ـ كلود فريدييه، بيتر غولد مارك، علي حمادة، ليليان وروجيه ـ كزافييه لانتيري، جان ليفي، جان مسعد، جورج موصللي، عبد الله نعمان، ماريو روبن سانغينا، منى وبكار توزاني، شادية وغسان تويني، إيلي ورديني، روث زاونر، بالإضافة إلى لويس دومينغو، ماتيو، دولوريس، أولغيتا وماريا دي لوس أنخيليس الذين لا يمكن ذكرهم بأسمائهم الحقيقية.

أما أسرتي فلائحة أفرادها الذين أشعر نحوهم بالامتنان لا نهاية لها عملياً. وأولاً، من آل معلوف، وبالترتيب الأبجدي: أغنيس، أكرم، ألبير، ألِكس، أميريكا، أنَّا ماريا، كارل، فهد، فخري، فوزي، هكتور، حلمي، هند، إبراهيم، عماد، عصام، خطار، لوريس، ليلى، ليونارد، مريم، ماري، مي، منى، نصري، نسيم، نظمي، أوديت، بيتر، راي الابن، رلى، روزيت، سناء، سهام، توفيق ووليد؛ وكذلك أعواني الدائمين أندريه ورشدي وطارق وزياد. وأحرص كذلك على التوجه بشكر خاص جداً إلى إلياس عيد معلوف، فلولاه، لظل قسم أساسي من سيرة أسرتي مغموراً.

ومن أفراد أسرتي الذين يحملون اسماً آخر، أذكر وبالترتيب الأبجدي دائماً: سناء وإسكندر أبو شعر، عادل، فايزة ومونيك أنتيبا، سامية باشا، إدوارد بدّوع، ليلى ونقولا بوغودجي، حياة وجورج شديد، لونا كوسبي، ماري دافيد، إليزابيت وأنجيل فرنانديز، أنطوان، جوزف، ليلى، لوسي، ميرين، نعمة اللّه وصونيا غصين، يمنى وعيسى غريِّب، نيللي هودغسون براون، ماري قربان، شارل نمّور، شرمين نولاندر، ماري ومادلين نجيم، تيريز طنوس، أميمة ورمزي زين، وكذلك ليلى، جوزف، عامر ووديع زغبي. ولا أنسى ندى، رامون، وميفا لابي الذين كانوا لي في كوبا رفاق سفر لا غنى عنهم، وكذلك ليونور التي رحلت، كما رحل سبعة أشخاص آخرون مذكورون أعلاه، خلال الأشهر الأربعين التي استغرقها تأليف هذا الكتاب.

البدايات



"أنتمي إلى عشيرة ترتحل منذ الأزل في صحراء بحجم الكون. مواطننا واحات نفارقها متى جفّ الينبوع، وبيوتنا خيام من حجارة، وجنسياتنا مسألة تواريخ أو سفن. كل ما يصل بيننا، وراء الأجيال، ووراء البحار، ووراء بابل اللغات، رنين اسم..."

... وذلك هو مشروع أمين معلوف من خلال هذه الملحمة: الغوص في تاريخ أهله، واستحضار ذاكرتهم، وإحياء مصير "عشيرة" بني معلوف التي سوف تنتشر من لبنان إلى كافة أرجاء المعمورة، وصولاً إلى الأميركيتين وكوبا... في تلك المغامرة التي تمتد على أكثر من قرن، يستحضرمؤلف صخرة طانيوس وليون الأفريقي الأموات، والأحياء، والأسلاف، والأطياف، يقتفي أثرهم عبر اختلاجات الامبراطورية العثمانية، يتأمل ذلك الشتات من المتصوفين، والماسونيين، والمعلمين، والتجار، والحالمين المتعددي اللغات والكوزموبوليتيين. يعلم أن دماءهم المحمومة تجري في عروقه. ويعلم كذلك أن مساره الشخصي سوف يفقد أهميته لولم يكن، بواسطة الكتابة والعاطفة،

أميناً لهذه السلالة الصاخبة والمتشعبة. هل هذا الكتاب قصة حقيقية؟ أم لوحة جدارية نحتت مباشرة في صخرة التاريخ؟ أم أسرار عائلة؟ هذه "البدايات" في الواقع اعتراف مهيب بالجميل، وهي كذلك صلاة مديدة ونبيلة. نشيد حب إلى أسرة تظل الوطن الوحيد لهذا الأديب الذي يعيش في منفى الاغتراب.



«أنتمي إلى عشيرة ترتحل منذ الأزل في صحراء بحجم الكون. مواطننا واحات نفارقها متى جفَّ الينبوع، وبيوتنا خيام من حجارة، وجنسياتنا مسألة تواريخ أو سفن. كل ما يصل بيننا، وراء الأجيال، ووراء البحار، ووراء بابل اللغات، رنين اسم...»

ولد أمين معلوف في لبنان ويعيش في فرنسا منذ سنة 1976. كتب سبع روايات هي: ليون الافريقي، سمرقند، حدائق النور، القرن الأول بعد بياتريس، صخرة طانيوس (الحائزة على جائزة غونكور الفرنسية لسنة 1993)، موانىء المشرق ورحلة بالداسار. كما ونشر الحروب الصليبية كما رآها العرب والهويات القاتلة إضافة إلى كتيّب أوبرا (مسرحية) الحب عن بعد.

ترجمت أعماله إلى سبع وثلاثين لغة. وصدرت باللغة العربية عن دار الفارابي - لبنان وآنيب - الجزائر، باستثناء الهويات القاتلة التي صدرت عن دار النهار - لبنان.

... وذلك هو مشروع أمين معلوف من خلال هذه الملحمة: الغوص في تاريخ أهله، واستحضار ذاكراتهم، وإحياء مصير عشيرة بني معلوف التي سوف تنتشر من لبنان إلى كافة أرجاء المعمورة، وصولاً إلى الأميركيتين وكوبا... في تلك المغامرة التي تمتد على أكثر من قرن، يستحضر مؤلف «صخرة طانيوس» و«ليون الأفريقي» الأموات، والأحياء، والأسلاف، والأطياف، يقتفي أثرهم عبر اختلاجات الامبراطورية العثمانية، يتأمل في ذلك الشتات من المتصوفين، والماسونيين، والمعلمين، والتجار، والحالمين المتعددي اللغات والكوزموبوليتيين. يعلم أن دماءهم المحمومة تجري في عروقه. ويعلم كذلك أن مساره الشخصي سوف يفقد أهميته لو لم يكن، بواسطة الكتابة والعاطفة، أميناً لهذه السلالة الصاخبة والمتشعبة. هل هذا الكتاب قصة حقيقية؟ أم لوحة جدارية نحتت مباشرة في صخرة التاريخ؟ أم أسرار عائلة؟ هذه «البدايات» في الواقع اعتراف مهيب بالجميل، وهي كذلك صلاة مديدة ونبيلة. نشيد حب إلى أسرة تظل الوطن الوحيد لهذا الأديب الذي يعيش في منفى الاغتراب.

ISBN 9947-21-108-8



Dépôt-Légal:1462-2004

ISBN 9953-438-94-3



